تشريح الثورة



كرين برينتن

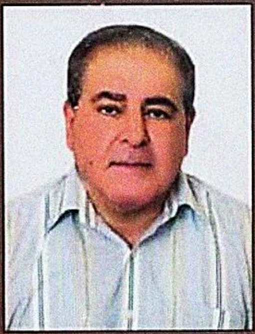
تشريح الثورة

كرين برينتن

الفارابي
كلمة
KALIMA

لمحة عن المؤلف

ولد كرين برينتن في مدينة وينستيد بولاية كونيكتكت عام 1898. حصل على البكالوريوس من جامعة هارفرد عام 1919 وحصل على زمالة رودس للدراسة في جامعة أوكسفورد من عام 1920 حتى عام 1923 وحصل على الدكتوراه من تلك الجامعة. تولى التدريس بعد تخرجه في قسم التاريخ بجامعة هارفرد ونال مرتبة الأستاذية عام 1942. عمل بين عام 1942 وعام 1945 مساعداً خاصاً لمكتب الخدمات الاستراتيجية في مسرح العمليات الأوروبية. من مؤلفاته *الولايات المتحدة وبريطانيا* (1954)، *أفكار ورجال* (1950)، *مزاج أوروبا الغربية* (1953)، و*صياغة العقل الحديث* (1953).



لمحة عن المترجم

سمير عبدالرحيم الجلبي، حاصل على بكالوريوس شرف في اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي (جامعة بغداد 1961) والدبلوم العالي والماجستير (جامعة ويلز 1974 و1975) والماجستير في الترجمة (جامعة هيريوت- واط في أدنبره 1983) واجتاز الامتحان النهائي لعضوية معهد اللغويين وجمعية المترجمين في لندن (1984).

مارس تدريس اللغة الانكليزية والترجمة في عدة معاهد ويمارس الترجمة منذ 50 عاماً.

يعمل منذ عام 2002 مترجماً في إدارة المعلومات والبحوث بوزارة الخارجية بقطر.

كرين برينتن

تشريح الثورة

ترجمة: سمير الجلبي

مراجعة: د. غازي برّو

تشريح الثورة

تشريح الثورة

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Anatomy of Revolution

الطبعة الأولى
1430 هـ ـ 2009 م

ردمك 978-9953-71-383-0

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها

KALIMA

ص.ب. 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6314468 2 971+ ـ فاكس: 6314462 2 971+
البريد الإلكتروني: info@kalima.ae
الموقع على الانترنت: www.kalima.ae

الفارابي

دار الفارابي
وطى المصيطبة ـ شارع جبل العرب، مبنى تلفزيون الجديد
هاتف: 301461 ـ 307775 (1-961+)
ص.ب: 11/3181 بيروت 2130 1107 ـ لبنان
فاكس: 307775 (1-961+) ـ البريد الالكتروني: info@dar-alfarabi.com
الموقع على الانترنت: www.dar-alfarabi.com

المحتويات

مقدمة

بقلم المترجم
سمير الجلبي

كتب كرين برينتن "تشريح الثورة" عام 1938 وأعيد طبعه عام 1956، ووسعه برينتن عام 1964. يحلل مؤلف الكتاب ميول مجتمع يسبق ثورة كبرى، وهو يرى أنه يجمع بين التوترات الاجتماعية والسياسية بسبب التدهور التدريجي لقيم المجتمع. إن فكرته عن الثورة هي أنها عملية قلب السلطة مما يؤدي إلى تولي المتطرفين السلطة ثم تهدأ الأمور. وقد شبه الثورة بحمى ترتفع بسبب شكاوى أفراد شعب ما. ومن أعراض هذه الحمى انهيار هيكل السلطة. تستعر الحمى ثم يصبح واضحاً أن الناس لا يتحملون تلك الحمى وتحل سلطة أفضل محل هذا الاهتياج ويصبح الشعب أسعد. إن فكرة برينتن عن الثورة هي أنها في الحقيقة جدول معين للأحداث التي يفترض أنها تحدث. إنها تظهر التغيير والحمى وحسم الثورة. ويرى برينتن أن الثورة عبارة عن عملية وأنه لا يحدث تغيير جوهري من مرحلة ما قبل الثورة إلى مرحلة ما بعد الثورة. غير أن نظرية برينتن استندت إلى الثورة قبل عام 1945.

يعدّ "تشريح الثورة" أفضل وأشهر كتب المؤرخ والأكاديمي الأميركي كرين برينتن، الذي حاول في هذا الكتاب تأسيس نمط تتبعه معظم الثورات. وقد جمع المعلومات من أربع ثورات كبرى: الثورة الأمريكية، الثورة الفرنسية،

الثورة الروسية (أو الثورة البلشفية) والحرب الأهلية في إنكلترا. وباستخدام هذه الثورات كنماذج وضع برينتن أربع مراحل تمر بها الثورة يمكن عرض هيكلها هنا كما يلي:

المرحلة الأولى - خصائص المرحلة التمهيدية

1- التنافر الطبقي
2- لا كفاءة الحكم
3- الحاكم غير الكفؤ
4- النقل الفكري للولاء
5- فشل القوة

الأعراض: يرى برينتن أن الطبقة الوسطى هي القوة الدافعة وراء الثورة وأنها تعبر بصوت عال عن سخطها بسبب قيود اقتصادية معينة تفرضها الحكومة عليها. وعلى الرغم من أن هذه القيود من مثل قوانين الملاحة في المستعمرات الأمريكية ليست رئيسية إلا أنها كافية لإحداث سخط شديد. وتكون الحكومة حينها غير كفؤة على نحو لا يصدق. وتنهار البيروقراطية ولا تتمكن من إدارة البلاد على نحو فعال. وقد يكون السبب وجود حاكم أخرق من مثل الملك جورج الثالث أو نقص مالي مزمن في الحكومة. وأخيرا يعاني الحزب الحاكم من تخلي المثقفين الذين يعتبرون ضمير المجتمع.

المرحلة الثانية - خصائص المرحلة الأولى

1- الانهيار المالي
2- زيادة الاحتجاجات ضد الحكم
3- الأحداث المثيرة
4- استيلاء المعتدلين على السلطة
5- فترة شهر العسل

الحمى الصاعدة: الحمى الصاعدة هي تصاعد سخط الطبقة الوسطى. يثور الشعب إذاك وتتوج ثورته بمعركة من مثل اجتياح الباستيل أو معركتي لكسنغتن وكونكورد وينهار الهيكل الحكومي تحت ضغط الديون المالية والانتفاضة الشعبية. ثم يشكل المعتدلون أو الوسط السياسي حكومة جديدة. غير أن الحكومة المعتدلة الجديدة تظهر أنها غير قادرة على الصمود في وجه مشاكل إدارة الدولة والأزمة الاقتصادية ووضع دستور جديد وغير ذلك.

المرحلة الثالثة - خصائص مرحلة الأزمة

1- تولي المتطرفين السيطرة
2- إبعاد المعتدلين عن السلطة
3- الحرب الأهلية
4- الحرب الخارجية
5- تركيز القوة في مجلس ثوري يسيطر عليه رجل قوي

الأزمة: تبلغ الثورة الذروة عندما يصبح المعتدلون عاجزين عن أداء مهمة حكم البلاد ويطوح بهم المتطرفون أو اليسار السياسي بالقوة ويبدأ حكم الإرهاب حيث يشرع المسرفون في التطرف بالتخلص من المعارضة باستخدام العنف. كما تتورط الحكومة الجديدة عادة في حرب خارجية في محاولتها نشر مبادئ الثورة. كما تبدأ الثورة بفقد زخمها ولا يعد الشعب يساندها إلا خوفاً من التطهير. كما أنه بسبب تفاقم الأزمة الاقتصادية يواجه الثوريون تهديداً داخلياً متزايداً.

المرحلة الرابعة - خصائص مرحلة الخلاص

1- العودة البطيئة غير المنتظمة إلى أزمنة تتسم بهدوء أكثر
2- حكم الطاغية
3- قمع المتطرفين

4- حصول المعتدلين على العفو

5- النزعة القومية العدوانية

النقاهة: مع تزايد ضعف الثورة تدخل البلاد فترة الانتعاش. ويتولى السلطة حاكم مركزي قوي من مثل جورج واشنطن أو ستالين في الحكومة الجديدة ويشرع في عملية إعادة الاستقرار إلى البلاد. ويستبعد أو يعدم زعماء الثورة الأكثر عنفاً من مثل روبسبير. كما يُمنح المعتدلون عادة العفو. ويبدأ الناس في التخلص من أي علامات باقية من علامات الثورة ويغيرون ملابسهم وأسلوب حياتهم في محاولة لنسيان الثورة. ويتخلون في تلك العملية عن الكثير من العقائد المتسمة بالتطرف التي يؤمن بها الثوريون.

يستنتج برينتن في نهاية الكتاب أن معظم الثورات تنتهي عموماً بالعودة إلى حيث بدأت. وتنشأ بعض الأفكار الجديدة ويتحول هيكل القوة قليلاً وتطبق بعض الإصلاحات ويمحى أسوأ ما في النظام القديم. غير أن الوضع القائم يصبح مشابهاً للوضع في فترة ما قبل الثورة وتشرع الطبقة الحاكمة مرة أخرى بمسك القوة.

وفي حين لم يضع برينتن نمطاً مطلقاً تتبعه كل الثورات، ولو أن الثورة الأمريكية تمثل استثناء واضحاً، فإنه خلق مساراً عاماً تتبعه معظم الثورات. وعلى الرغم من النقد الذي وجهه برينتن إلى الثورة الفرنسية كنموذج فإن كل خطوة موصوفة أعلاه حدثت فيها وجعل كل الثورات الأخرى تشبهها.

يبقى "تشريح الثورة"، أشهر كتب برينتن، من أفضل الأطروحات التاريخية في القرن العشرين. وقد ألهم كتاباً آخرين منهم، على سبيل المثال، ليو هوبرمان، الذي ألف كتاب "كوبا: تشريح ثورة" عام 1969. كما تعتمد كتب أخرى على كتاب برينتن فقد اعتمد عليه روبرت ستربل كثيراً في الفصل الخامس المعنون "اللجوء إلى السيف" في كتابه "أطروحة في الأضواء الإثني عشر" كما يستشهد صامويل هنتنغتن ببرينتن في كتابه المعنون "النظام السياسي في المجتمعات المتغيرة."

إن كتاب برينتن دراسة موضوعية متميزة في كتب التاريخ الحديث الذي

تلقى أحداثه اهتماماً واسعاً ومستمراً لدى الباحثين والأكاديميين الغربيين. كما تعنى الجامعات الغربية بتقديم مقررات أكاديمية تتناول الثورات وكذلك الحروب بوصفها ظواهر مهمة في المجتمع. وقد تسنى لي ترجمة عدة كتب لمؤرخين وأكاديميين بارزين تناولوا الحروب الحديثة التي لا يقل تأثيرها عن الثورات، وهي كتب مهمة وأساسية في إطلاع القارئ والمثقف والمعني بالتاريخ الاجتماعي للشعوب في القرون الأخيرة وتبصيره بما انطوت عليه الثورات والحروب وأعتبرها مكملة لكتاب برينتن هذا. وأود الإشارة هنا إلى هذه الكتب:

1- الحرب العالمية الثانية - تاريخ مصور للمؤرخ البريطاني الشهير أي. جي. بي. تيلر، الذي تولى التدريس في عدة جامعات بريطانية: مانتشستر، أوكسفورد، كيمبرج، لندن وسنت أندروز وألقى تسع سلاسل من المحاضرات في التاريخ من التلفزيون ونشرت المقالات بانتظام صحيفة الأوبزرفر ولندن رفيو أف بوكس المتخصصة في عروض الكتب. وقد صدرت له كتب عديدة في تاريخ بريطانيا وأوروبا والحربين العالميتين. صدرت الترجمة العربية عن دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد عام 1987.

2- الحرب والتحول الاجتماعي في القرن العشرين - دراسة مقارنة بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا والولايات المتحدة تأليف آرثر مارويك، أصبح عام 1969 أول أستاذ للتاريخ في الجامعة المفتوحة في بريطانيا بعد أن تولى التدريس في عدة جامعات في بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وهو مؤرخ اجتماعي وثقافي يساري النزعة إلا أنه انتقد الماركسية. هذا الكتاب مساهمة مهمة في دراسة آثار الحرب الاجتماعية التي بدأها بكتابه الطوفان: المجتمع البريطاني والحرب العالمية الأولى، الذي تناول فيه التحولات في المجتمع البريطاني نتيجة للحرب العالمية الأولى. صدرت الترجمة العربية عن دار المأمون للترجمة والنشر في بغداد عام 1989.

3- الحرب والمجتمع في أوروبا (1870-1970) للأكاديمي والمؤرخ البريطاني براين بوند الذي تولى التدريس في عدة جامعات بريطانية: اكستر،

ليفربول ولندن وله كتب ودراسات عديدة. والطريف أن والده كان يعمل بستانياً لدى المؤرخ العسكري البريطاني الشهير سير بازل ليدل هارت، الذي شجع الشاب بوند على تطوير اهتماماته الأكاديمية. صدر الكتاب عن دار المأمون للترجمة والنشر عام 1990.

4- موسوعة الحرب الحديثة (جزءان) للكاتب والمراسل الصحفي البريطاني روجر باركنسن الذي نال البكلوريوس في الدراسات الحربية والماجستير في الدراسات الاستراتيجية من جامعة لندن ومن كتبه كلازفتس وثلاثية تستند إلى وثاق الحرب العالمية الثانية. صدرت الترجمة العربية للموسوعة عن دار المأمون للترجمة والنشر في بغداد عام 1990.

على الرغم من مزايا كتاب تشريح الثورة لا تحتوي الطبعة الإنكليزية على أي هوامش عن الأشخاص والأحداث والمفاهيم الواردة في الكتاب وهي كثيرة جداً وربما لا يعرف القارئ ما يكفي عن الكثير منها. ولذا وجدت لفائدة القارئ العربي أن من الضروري إضافة هوامش موجزة لكي تعم الفائدة القارئ المهتم بتاريخ أوروبا والعالم ولاسيما التاريخ الاجتماعي. وآمل أن تشكل هذه الهوامش إضافة مفيدة إلى الكتاب في ترجمته العربية.

كرين برينتن

ولد كرين برينتن في وينستيد بولاية كونيكتكت عام 1898. وانتقلت أسرته إلى سبرينغفيلد بولاية مساشوستس حيث درس في المدارس الحكومية والتحق بجامعة هارفرد عام 1915. مكنه تفوقه الأكاديمي من الفوز بزمالة رودس للدراسة في جامعة أوكسفورد حيث نال شهادة الدكتوراه عام 1923. شرع بالتدريس في جامعة هارفرد في السنة نفسها ونال الأستاذية عام 1942 وواصل العمل فيها حتى وفاته في كيمبرج بولاية مساشوستس في 7 أيلول/سبتمبر 1968. وقد تولى سنوات كثيرة تدريس مقرر رائج في جامعة هارفرد كان يعرف لدى طلبته باسم "الفطور مع برينتن". تولى رئاسة الجمعية التاريخية الأمريكية وهي الجمعية المهنية للمؤرخين وتولى رئاسة جمعية الدراسات التاريخية

الفرنسية. كان مؤرخاً أمريكياً للثورة الفرنسية علاوة على كونه مؤرخ أفكار. أتقن اللغة الفرنسية وعمل أثناء الحرب العالمية الثانية رئيساً للبحث والتحليل في مكتب الخدمات الاستراتيجية بلندن.

علاوة على "تشريح الثورة" وضع برينتن المؤلفات التالية في تاريخ الفلسفة السياسية والأخلاقية الغربية وكان خبيراً في القوى المحركة للحركات الثورية. من مؤلفاته الأخرى:

- "اليعاقبة: مقالة في التاريخ الجديد" (1930)، عرض تفصيلي للمتطرفين السياسيين في الثورة الفرنسية.
- "عقد من الثورة" (1934)، دراسة في الثورة الفرنسية.
- "أفكار ورجال: تاريخ الفكر الغربي (1950، 1963)"، دراسة في الفكر الغربي من عصر الإغريق حتى الوقت الحاضر.
- "تاريخ المبادئ الأخلاقية الغربية" (1959)، دراسة في المسائل الأخلاقية.
- "صياغة العقل الحديث" (1963)، نسخة مختصرة من كتابه " أفكار ورجال".
- "الأميركيون والفرنسيون" (1968)، محاولة لتفسير العلاقات الصعبة غالبا بين الحليفين منذ زمن بعيد.

تمهيد

راجعت بدقة النص الأصلي لهذا الكتاب وأجريت تغييرات كثيرة فيه كما قمت بتحديث الاقتراحات الببليوغرافية. لقد أثارت لي الثورة الروسية بطبيعة الحال أكبر الصعوبات. وحاولت الأخذ بنظر الاعتبار تجدد الإرهاب في الأعوام 1936-1939 علاوة على عزلة روسيا غير الطبيعية المستمرة في قسم آخر من الفصل الثامن، القسم 5 "روسيا: الثورة الدائمة؟" وما أزال أميل إلى الاعتقاد أن الثورة الروسية الكبرى قد انتهت - بقدر ما يمكن القول عن الحركات الاجتماعية الكبرى أنها قد انتهت. كما أعدت كتابة الفصل الأول على نحو جزئي وحاولت أن أوضح بقدر الإمكان ما أعنيه بالطابع "العلاجي" للعلوم الاجتماعية. ولا ريب أن ما يجب تسميته "مناهضة المنهج العلمي" قد زاد، على الأقل على سطح فكرنا الغربي. إلا أنني أرى أن الإنسان الجديد المنتشي كثيراً - أو القارئ المغرق في الكسل - يرى أنني أدافع عن آراء عتيقة الطراز في العلم كشكل للحقيقة المطلقة. إن للعلم بلا شك ميتافيزيقيته الخاصة به - إلا أنه مثل الملابس التحتية اللائقة فإن ميتافيزيقيته غير مرئية عادة. لقد راعيت الأصول في محاولتي التفسيرية الموجزة في الفصل الأول.

وعلاوة على أولئك الذين وجهت لهم الشكر لمساعدتي على التمهيد للطبعة الأولى لا بد أن أشكر بخاصة السيدة برنار باربر والسيد فرانكلين فورد والسيد هنري فيفربيرغ وهم ثلاثة من طلبتي الذين زادت بحوثهم ثراء معرفتي بفرنسا في القرن الثامن عشر و "الأعراض الأولية" للثوّرة الكبرى، وأشكر الآنسة اليزابيث هوكسي التي يعود الفضل إلى عنايتها بالتصحيحات الكثيرة في النص الأصلي التي مكنت هذه الطبعة المنقحة من تنفيذها.

كرين برينتن

تمهيد لطبعة فنتاج

لابد أن يغري كتاب من هذا النوع مؤلفه باستمرار بطرح أفكار لاحقة. وبعد خمسة أعوام من تنقيحي الكتاب عام 1952 ينبغي الآن تقديم ثلاثة تعليقات موجزة. أولاً، على الرغم من أنني ما أزال أعتقد أن "تخلي [أو اغتراب] المثقفين" هو تجانس حقيقي في المجتمعات التي ندرسها هنا، فإنني مقتنع أكثر من أي وقت مضى أن قدراً معيناً من الاغتراب لدى المثقفين أمر طبيعي في الغرب الحديث - وهو أمر مألوف في المعنى السوسيولوجي الذي طوره دوركهايم(*) ومدرسته. إن موضوع دور الطبقات المثقفة في المجتمعات البشرية برمته يستحق كل الاهتمام الذي يمكن أن يحصل عليه. وكتاب كولن ولسن(**) الحديث «اللامنتمي» (بوسطن، 1956) وثيق الصلة هنا.

ثانياً، تعزّز الأحداث في روسيا منذ وفاة ستالين حتماً الملاحظة المألوفة أن الثورة الروسية الكبرى قد انتهت. وما يحدث حالياً هو استنباط ما حدث من عام 1916 حتى عام 1924 وهي السنوات التي يمكن أن يطلق عليها الثورة الروسية الأصلية. إن هذا الاستنباط يجب أن يكون مختلفاً جداً عن استنباط "مبادئ 1776 و1789".

(*) أميل دوركهايم (1858- 1917) عالم اجتماع فرنسي أسهم في تشكيل علم الاجتماع وعلم الإنسان.

(**) كولن ولسن (1931-) كاتب بريطاني غزير الإنتاج أول كتبه "اللامنتمي" (1956) ترجمه إلى العربية ونشر في بيروت المترجم العراقي الراحل أنيس زكي حسن.

ثالثاً، على الرغم من أنني مقتنع أن الثورة الفرنسية، بوصفها ثورة "شعبية"، هي من ثورات اليسار بجانب الثورات الإنجليزية والأميركية والفرنسية، إلا أنني لا أعتقد أن صلتها بتلك الثورات التي سبقتها هي بأية وسيلة مجرد صلة انتماء بصرف النظر عن التكرار. وربما لم أركز حقاً تركيزاً كافياً في هذا الكتاب على بعض الفروق الكبيرة التي تميز الثورة الروسية عن تلك الثورات التي قورنت بها. وأودّ أن ألفت اهتمام القارئ إلى مقالة موحية كتبها بالألمانية ت. فون لاوه(*) من جامعة كاليفورنيا في ريفرسايد بعنوان *"Die Revolution von aussen als erste Phase der russischen Revolution 1917"* "الثورة من الخارج بوصفها المرحلة الأولى من الثورة الروسية ١٩١٦" ونشرت في الكتاب السنوي لتاريخ أوروبا الشرقية، المجلد الرابع، العدد 2 (ميونيخ 1956) *Geschichte Osteuropas,* Vol. IV, no.2 Munich, 1956. يضع فون لاوه الثورة الفرنسية في "فئة جديدة من الثورات الحديثة"، "ثورة البلدان المتخلفة"، كما يؤكد مدى انتقال الأفكار والحركات الموجهة لثورة 1917 من خارج روسيا، من الغرب الأكثر تقدماً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. ومن الواضح أنه بالمقارنة كانت كل من إنكلترا في القرن السابع عشر بخلفية العظمة الاليزابيثية وفرنسا عام 1789 التي كانت ما تزال "الأمة العظمى" *"la grande nation"* على النقيض تماماً من روسيا "المتخلفة"، وعلى الرغم من أن كلا البلدين، شأنهما شأن الأميركيين عام 1776، استمدا من ذخيرة الثقافة الغربية غير المقتصرة بتاتاً على أمة واحدة فإن الثورتين لم تكونا في أي معنى ثورتين استوردتهما أقلية محلية من الخارج.

(*) تيودور فون لاوه (1916- 2000) أستاذ متمرس في التاريخ في جامعة كلارك الأميركية وهو ابن ماكس فون لاوه العالم الألماني الذي نال جائزة نوبل في الفيزياء (1914).

أود إضافة كتابين موحيين حديثين صدرا باللغة الألمانية هما : «مفهوم الثورة الحديثة» *Der neuuzeitliche Revolutions-begriff* (فايمار، 1955) لكارل غريفانك و«عصر نابليون وصعود الشعوب» لفيلي أندرياس (هايدلبيرغ، 1955).

كرين برينتن

كيمبرج 1956

شكر وتقدير

أودّ توجيه الشكر إلى المؤلفين والناشرين الآتية أسماؤهم للسماح بالاقتباس من المؤلفات المحمية بحقوق الطبع والنشر:

ف. بيك و دبليو غودين، التطهير الروسي وانتزاع الاعتراف. مطبعة فايكنغ، نيويورك، 1951.

دبليو تشيمبرلين، الثورة الروسية، ١٩١٧-١٩٢١. شركة مكميلان، نيويورك، 1951.

والدمار غوريان، المحرر، الاتحاد السوفياتي: الخلفية، الأيديولوجيا، الواقع. مطبعة جامعة نوتردام، نوتردام، إنديانا، 1951.

إريك هوفر، المؤمن الحقيقي. هاربر وراو (ناشرون)، نيويورك، 1951.

أ. م. شليزنغر، التجار الاستعماريون والثورة الأميركية. مطبعة جامعة كولمبيا، نيويورك، 1918.

الفصل الأول

المقدمة

1. مجال الدراسة

الثورة من الكلمات التي تتصف بالغموض. الثورة الفرنسية الكبرى، الثورة الأميركية، الثورة الصناعية، ثورة في هايتي، ثورة اجتماعية، الثورة الزنجية الأميركية، ثورة في تفكيرنا، أو في تجارة ملابس النساء، أو في صناعة السيارات - تكاد القائمة تكون غير محدودة. وفي الواقع كادت الثورة في نهاية طيف معانيها في الاستعمال الشائع أن تكون مرادفاً تأكيدياً لكلمة "تغيير"، ربما مع الإيحاء بأن التغيير مفاجئ أو لافت للنظر. وحتى هذا التأكيد غير متضمن دائماً. وعلى الرغم من أن محرري مجلة فورتشن في كتابهم «الولايات المتحدة: الثورة الدائمة» اقتبسوا العنوان من ليون تروتسكي، فإنهم لا يقصدون سوى "تغيير دائم من نوع جيد" أو "تقدم" أو "تطور". وهم لا يقصدون ما عناه جيفرسن عندما قال في رسالته إلى (المؤرخ الأميركي) صامويل كيرشفال عام 1816 إن "تنقيحاً" كل تسع عشرة سنة أو نحوها أمر مرغوب. ومن الواضح أن جيفرسن كان يفكر في تغيير على نطاق واسع في الموظفين الذين يحكمون الدولة في مجموعة العادات والمؤسسات السياسية، وإلى نحو ما، الاجتماعية

والثقافية التي يعيش الشعب في ظلها. وربما كان يفكر في الثورة الفرنسية الكبرى أو في أمر ليس أكثر عنفاً من توليه السلطة في انتخابات 1800.

على الرغم من أننا نستخدم الاسم "ثورة" وربما نستعمل على نحو أكثر مفردة "ثوري" الصفة المشتقة من الاسم بمعنى مجموعة متنوعة من التغيرات، فإننا نحتفظ في زوايا ذهننا بمعنى أكثر تحديداً هو نوع من الجوهر المركزي الصلب غير المتآكل إلى طبقات للمعنى هي أكثر غموضاً. إننا نفكر في التحولات الكبرى في المجتمعات السياسية المستقرة سابقاً في الماضي - الثورة الإنكليزية في عقد الأربعينات من القرن السابع عشر وتكملتها عام 1688 والثورة الأميركية والثورة الفرنسية وتكملاتها في القرن التاسع عشر وثورة 1917 الروسية وتكملاتها في القرن العشرين أو أننا نفكر في الثورات القومية من مثل ثورات القرن العشرين في أيرلندا والجزائر. وقد نفكر كذلك في العنف والإرهاب وحملات التطهير وعمليات الإعدام بالمقصلة. غير أن تركيزنا هو على الاستبدال العنيف والمفاجئ لمجموعة ما مسؤولة عن إدارة كيان سياسي إقليمي بمجموعة أخرى لم تكن حتى ذلك الحين تدير تلك الحكومة. وثمة معنى آخر: الاستبدال الثوري لمجموعة بمجموعة أخرى في انتفاضة عنيفة أو انقلاب أو عصيان مسلح أو نوع آخر من الخيانة. وإذا كان التغيير بدون اللجوء إلى العنف في انتخابات حرة، كما في الانتخابات التي جرت في بريطانيا عام 1945 التي منحت السلطة الاشتراكية (وهذا أمر ثوري في رأي معظم الأميركيين)، فإن أقوى تعبير يمكن أن يسمح به المعلقون أنفسهم باستخدامه هو "الثورة البريطانية بالقبول." ولكن هل الثورة بالقبول هي ثورة حقاً؟

يثير مصطلح "الثورة" القلق لعالم الدلالة ليس بسبب مداه الواسع في الاستخدام الشائع فحسب، بل كذلك لأنه من الكلمات المشحونة بالمحتوى الانفعالي. وفي الواقع، يجب لأي تحليل سوسيولوجي كامل للثورة في عالمنا الغربي أن يأخذ بنظر الاعتبار أسلوب تحريك التداعيات المعقدة لمصطلحي "الثورة" و"الثوري" المجموعات المختلفة في أزمنة وأمكنة مختلفة. وتجد بنات

الثورة الأميركية(*) متعة وسمواً في التفكير في ما حدث هنا عام 1776 ولكن ليس في ما حدث في روسيا منذ تشرين الثاني/نوفمبر 1917 أو في الصين. ولم تستفق الطبقات الراقية الفرنسية القديمة أبداً من صدمة عهد الإرهاب. ولا يمكن لأي شيء حتى الارتباط باليمين أو النزعة القومية المكملة أو حتى نحن، فيليب بيتان(**) يمكن أن يجعل ارستقراطياً فرنسياً يشعر بالارتياح نحو الثورة. وما تزال الكلمة تعد كلمة مقدسة أما في الصين وكوبا فيبدو أن الثورة تبدو أكثر من كلمة.

على كل حال، فإن الثورة في معناها الأضيق كما في معناها الأكثر غموضاً ذات أهمية معاصرة تماماً في منتصف القرن العشرين. وكان القرن التاسع عشر، الذي كان يعتقد أنه على وشك إلغاء الحروب الأجنبية، يعتقد كذلك أنه على وشك إلغاء ذلك النوع من الحرب الداخلية أو الحرب الأهلية الذي نقرنه بالثورة ويجعل الثورة غير ضرورية. كان التغيير ما يزال سمة ثقافتنا إلا أنه تغيير منظم وسلمي وتدريجي. لقد أصبح للعبارة الشائعة لدى أجدادنا "تطور وليس ثورة" مغزى بعيد. إننا نعيش في وسط الإنذارات بنشوب الحرب والثورة وما يمكن وصفه على نحو منصف بالثورة العالمية النطاق. ونحن نعيش في الواقع في عالم تكاد فيه الحكومة والدستور والهيكل الأخلاقي والقضائي والسياسي برمته للولايات المتحدة هي الأقدم والأكثر استمراراً في العمل بين دول العالم الكبرى. إن المفارقة غير ممكنة التجاوز: هذا البلد الجديد في بعض

(*) بنات الثورة الأميركية: منظمة للنساء العاملات في دعم الصيانة التاريخية والتربية والوطنية. وتتولى فروع المنظمة في 50 ولاية أميركية ومقاطعة كولمبيا جمع الأموال لتمويل المنح التعليمية المحلية والجوائز التعليمية والمحافظة على الممتلكات والمصنوعات التاريخية ودعم النزعة الوطنية في المجتمعات السكانية شعارها "الرب، الأسرة والبلاد".

(**) Nous, Philippe Petain ترجمة هذه العبارة: نحن فيليب بيتان (1856-1951) مارشال فرنسي وبطل معركة فردان في الحرب العالمية الأولى تولى رئاسة وزاراة نظام فيشي عام 1940 ووقع الهدنة مع ألمانيا واتهم بالخيانة العظمى عام 1945 وحكم عليه بالإعدام وخفف الحكم إلى السجن المؤبد.

المعاني من أقدم الدول - أقدم من بريطانيا الاشتراكية وأقدم من الجمهورية الفرنسية الخامسة وأقدم من أية جمهورية سوفياتية وأقدم، على نحو لا يصدق، من حكومات تلك البلدان الغارقة في القدم في الشرق أي الهند والصين.

يبدو إذاً أن الأميركيين من نواح كثيرة مجتمع مستقر وسط مجتمعات تشهد تغييراً ثورياً. ونحن نشعر بالخوف قليلاً من الثورات - النوع الخطأ من الثورات أي النوع الشيوعي أو الفاشي. ويرى بعض نقادنا في واقع الحال أننا رجعيون أساساً وأننا فقدنا الصلة حقاً بذلك النوع من الآمال والطموحات لدى الشعوب التي دفعتنا إلى الثورة قبل أكثر من قرن. ويبلغنا أرنولد توينبي مراراً أننا قد تخلينا عن ثورتنا وأننا لا ندرك أن أصداء تلك الطلقة التي أطلقت في كونكورد ما تزال تتردد في أنحاء العالم. هؤلاء النقاد غير منصفين بلا ريب. إلا أننا مجتمع مستقر وفق معايير المجتمعات الغربية ونتمسك على الرغم من كل ما حدث منذ ذلك الحين بشعار القرن التاسع عشر المتفائل "التطور وليس الثورة." وربما لا نتمكن من فعل الكثير حتى الآن للسيطرة على عمليات التحول الاجتماعي. ولعل ما يجري في علاقات المجموعة البشرية منذ زمن طويل غير قابل للسيطرة شأنه شأن الجو. وقد تكون الثورات "محتمة" مثل العواصف الرعدية - وكثيراً ما تكون مفيدة مثل عاصفة في ريف جاف.

غير أننا نفهم العواصف - أو يجب أن نعتقد ذلك ما لم نتخلَّ عن ألفي عام من الدراسة العلمية الغربية - وهو أفضل مما فعلته الأقوام التي سبقتنا التي وجدت في العواصف ثور إله الرعد (في الميثولوجيا النورسية) أو جوبيتر (كبير الآلهة في الميثولوجيا الرومانية) التي يمكننا اتخاذ بعض الخطوات لحماية أنفسنا منها. ويمكننا على الأقل محاولة فهم الثورة سواء كنا نريد أو لا نريد ثورة. غير أننا لن نذهب بعيداً نحو فهم ثورة ما لم نحافظ على عدم الاكتراث لها على الأقل.

ويرى المرء أن كلمة "عدم الاكتراث" ليست طريقة ملائمة لقول ما تقوله كلمة "اللامبالاة" على نحو غير مؤات. وقد يشعر الطبيب أنه أبعد ما يكون عن اللامبالاة نحو مريضه إلا أنه لن يكون طبيباً جيداً ما لم يكن غير متجرد في

معاينته وعلاجه داء مريضه. وقد نتفادى هنا مجموعة كامنة من المشاكل الفلسفية ونقول إن العنصر الأساسي للعلم الحديث عموماً هو استقلال العالِم. يمكن للعالم، كشخص مستقل، أن يشعر بالحب والبغض وأن يشعر بالأمل والخوف، أما كعالم فيجب أن يحاول ترك كل ذلك وراءه عندما يدخل مختبره أو عيادته أو غرفة مكتبه.

إن محاولة الإبقاء في تحليل الشؤون الإنسانية على عدم تجرد الفيزيائي أو الكيميائي أمر محفوف بالصعوبة ويبدو للكثيرين من المستقيمين والأذكياء أمراً غير نافع ومنطوياً على الخيانة. كما يرون أنك يجب أن تكره ماو أو كاسترو دائماً قبل وأثناء وبعد أن تشرع في تفسيره وخلافاً لذلك قد يقترب تفسيرك من التخفيف من الخطورة.

إلا أن فهم الجميع لا يعني العفو عن الجميع بأية وسيلة. وعلى كل حال لم يقدنا الفهم العلمي لمكان البعوضة في الحمى الصفراء إلى تحمل ذلك النوع بالذات من البعوضة. بل على العكس من ذلك فإننا لا نستطيع توقع نتائج مباشرة وباهرة كما يبدو كتلك التي حصلنا عليها فيما يخص الحمى الصفراء من دراسة الإنسان في المجتمع ومما تدعى على نحو متسم بالتفاؤل بعض الشيء العلوم الاجتماعية - علم الإنسان، علم الاقتصاد، العلوم السياسية، التاريخ، علم الاجتماع، وما شابهها. غير أننا قد نبحث إمكانية تناول دراسة الثورات فيما يشبه الروح التي يحملها العالم الطبيعي إلى عمله.

إن هدفنا في الدراسة هذه هو الهدف المتواضع المتمثل في محاولتنا، كما قد يحاول العالم، تثبيت وجود حالات تنسيق أولية مؤكدة تلاحظ في مسار الثورات الأربع الناجحة في الدول الحديثة: الثورة الإنكليزية في العقد الخامس من القرن السابع عشر، الثورة الأميركية، الثورة الفرنسة الكبرى، والثورة الحديثة - أو الحالية - في روسيا. ولو حاولنا إيجاد نوع مثالي من الثورة والبحث عن نوع من الفكرة الأفلاطونية للثورة لتعرضنا للوم لاختيارنا أربع ثورات واضحة قدمت حالة ملائمة ونمطاً كاملاً. إلا أننا لا نبذل محاولة من هذا القبيل. ويجب أن يكون واضحاً أن الثورات في الماضي والحاضر

والمستقبل لا تتوافق مع النمط المرسوم هنا. وثوراتنا الأربع ليست بالضرورة حتى "نمطية" بحسب معنى كلمة "نمطي" كما يستخدمه النقاد أو علماء الأخلاق. إنها ببساطة أربع ثورات مهمة اخترناها للشروع في إعداد منهجي ما يزال في مهده.

قد يثار اعتراض عند هذه النقطة بأنه لما كانت العلوم الاجتماعية قد اختارت محاكاة العلوم الطبيعية منذ عدة قرون ولم تتقدم إلى أكثر من ذلك، فإنها لذلك قد تحاول الوقوف على قدميها وتستنبط طرائقها الخاصة بها بدون الاكتراث للجهود في العلوم الطبيعية. ثمة جوهر من الحقيقة في هذا الاعتراض. يبدو بالتأكيد أن كتاباً من مثل فورييه(*) أو هيربرت سبنسر(**)، اللذين أعلنا أنهما نيوتن أو داروين العلوم الاجتماعية، قد أخطأوا من البداية. ومن المحتمل أن روحاً متنبئة تستمد من الفلسفة والآداب _ مثلاً سبينغلر(***) أو توينبي(****)

(*) جوزيف فورييه (1768 - 1830) عالم رياضيات وفيزيائي فرنسي اشتهر بالشروع في بحث سلاسل فورييه وتطبيقها في مشاكل تدفق الحرارة. ويعود له الفضل عموماً في اكتشاف تأثير البيوت الزجاجية.

(**) هيربرت سبنسر (1820 - 1903) فيلسوف إنكليزي ومنظر سياسي ليبرالي ومنظّر في علم الاجتماع في الحقبة الفكتورية. طور مفهوماً شاملاً للثورة بأنها التطور المتدرج للعالم الطبيعي والكائنات البيولوجية والعقل البشري والمجتمعات البشرية وبحث في طائفة واسعة من المواضيع واشتهر بعبارة "البقاء للأصلح" بعد قراءة كتاب دارون عن أصل الأنواع.

(***) آرنولد سبينغلر (1880 - 1936) مؤرخ وفيلسوف ألماني شملت اهتماماته الرياضيات والعلوم والفن. اشتهر بكتابه انحطاط الغرب (1913) الذي وضع فيه نظريته في نشوء الحضارات وانحطاطها وآمن بأن الحضارات تولد وتنضج ثم تموت كالكائنات الحية وأن الحضارة الغربية المعاصرة في طريقها إلى الزوال. دعم الهيمنة الألمانية على أوروبا وعده الاشتراكيون الوطنيون مثقفاً رائداً إلا أنه نبذ بعد عام 1933 بسبب تشاؤمه بشأن مستقبل ألمانيا وأوروبا ورفضه دعم الأفكار النازية في التفوق العرقي وإصداره كتابه النقدي ساعة الحسم.

(****) آرنولد توينبي (1889 - 1975) مؤرخ بريطاني. وضع نظرية "التحدي والاستجابة" في كتابه الكبير دراسة التاريخ (1934 - 1961) في 12 مجلداً المتضمن تحليلاً لنشوء الحضارة وسقوطها من منظور عالمي.

ـ سيتمكن من إدراك فحوى دراسة البشر في المجتمع كما سيفعل عالم الاجتماع الذي يحاول أن يتولى بدون تحوير الطرائق والمواد المستخدمة في علم الفيزياء أو علم الأحياء. إلا أن المرء يتردد في التحول إلى دراسة البشر في المجتمع كلياً إلى أمثال سبينغلر أو حتى توينبي. كما أن المرء يتردد في قبول الفصل الجذري الذي قام به ديلثي(*) وأتباعه بين العلوم الطبيعية والعلوم التاريخية أو الاجتماعية. لقد استطاع التقليد الطويل لما يمكن أن يدعى المذهب العقلي العلمي في مجتمعنا تحقيق انتصارات لا يمكن التخلي عنها بسهولة حتى في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. ويجعل هذا التقليد من الضروري محاولة المضي وتمديد ذلك النوع من العمل الذي نصفه بالعلمية.

ثمة قدر كبير من الهراء المكتوب تحت الاسم الواقي للعلم. ومن السهل التعاطف مع انفجار غضب ماكس ليرنر(**):

"أنا متشكك بصراحة عندما يبدأ من يدرسون المجتمعات تسليح أنفسهم بالمشارط والمساطر الحاسبة وأنابيب الاختبار لأنهم يعدون بأكثر مما يمكن أن يحققوه. وتتخذ ادعاءات دارسي المجتمع التي نسمعها في ربع القرن الأخير طابعاً دينياً وكأنهم يغسلون أنفسهم بدم الحمل العلمي"

إن بعض اعتراضات ليرنر على اللجوء إلى العلم والتجرد العلمي هي ربما اعتراضات المتشكك والناقد. ويمكن إظهار استناد معظم هذه الاعتراضات الأخيرة إلى سوء فهم للطريقة العلمية ولا يقتصر ذلك على ليرنر وحده. وسوء الفهم هذا شائع بحيث يجب أن نحاول هنا طرح المسألة في أوضح نحو ممكن في كلمات قليلة.

(*) ويليم ديلثي (1833– 1911) مؤرخ وعالم نفساني وعالم اجتماع وفيلسوف ألماني.

(**) ماكس ليرنر (1902 - 1992) أكاديمي وصحفي أميركي عرف بعموده في صحيفة نيويورك بوست. هاجر من روسيا عام 1907 وتخرج في جامعتي ييل وواشنطن ونال الدكتوراه من معهد بروكينغز وعمل محرراً لموسوعة العلوم الاجتماعية والمجلة الأسبوعية الأمة.

2. العناصر الظاهرة للطرائق العلمية

أولاً، ليس حتى العلوم "الدقيقة" من مثل علم الفلك أو الفيزياء علوماً دقيقة بمعنى أنها "مطلقة" أو "لا تخطئ". إن أكثر قوانينها أو اتساقاتها رسوخاً تعد موقّتة. وقد يقلبها المزيد من البحث. ولكن يجب ألا يعبث بها في أية لحظة معينة ما لم يثبت أنه لا يعتمد عليها بالنسبة إلى الحقائق الملاحظة. وفي ظل الثورة المعاصرة في الفيزياء لم "تنقض" قوانين نيوتن كما لم يثبت مبدأ اللاحتمية بحيث يكون كل الرجال متساوين أمام لعبة البوكر. إن ما حدث في علم الفيزياء الحديث، بقدر ما يمكن للإنسان العادي أن يحكم، هو تذكير عالم الفيزياء بقوة أن حتى اتساقاته ليست مطلقة بل هي خاضعة للتصحيح وأنه أكثر أمناً فيما يخص تلك الاتساقات المستندة إلى الملاحظات لا إلى جدار الرب أو طبيعة الأشياء أو الواقع. أو على نحو أساسي أكثر ، يجب أن يعد هذه الاتساقات اختراعه هو وليس اكتشافه.

ينقلنا ذلك بسهولة إلى النقطة الثانية. لا يبذل العلم أية محاولة لدراسة الحقيقة أو وصفها - حتماً ليس الحقيقة المطلقة. ولا يُعنى العلم حتى بالحق في معنى الكلمة لدى علماء اللاهوت ومعظم الفلاسفة وعدد كبير من الآخرين وربما للإدراك السليم. وتبدو الرغبة في إيجاد سبب نهائي أو محرك بلا دفع شائعة جداً لدى البشر بحيث إنه ليست لدينا أي أسباب للاعتقاد ان هذا البحث ليس، في شكل أو آخر، ثابتاً تماماً وفي الواقع عنصراً جوهرياً في المجتمع البشري. ولا يمكن لغير العلماء بوصفهم علماء المشاركة في بحث من هذا القبيل. وقد توقف أدينغتن(*) وجينز(**) وحتى هوايتهد(***) عن ممارسة العلم

(*) آرثر أدينغتن (1882 - 1944) عالم فيزياء فلكية إنكليزي اشتهر ببحوثه المتعلقة بنظرية النسبية وألف عدداً من المقالات ألتي أعلن فيها وشرح نظرية آينشتاين في النسبية العامة.

(**) جيمس هوبود جينز (1877 - 1946) عالم فيزياء وعالم فلك إنكليزي وكاتب.

(***) ألفرد نورث هوايتهد (1861 - 1947) عالم رياضيات وفيلسوف إنكليزي. ألف في الجبر وأسس الرياضيات وفلسفة العلوم والفيزياء والميتافيزيقا والتربية واشترك مع برتراند راسل في تأليف مبادئ الرياضيات. وهو مع راسل من واضعي علم المنطق الرمزي أو الرياضي.

بينما كانوا يدرسون علم اللاهوت. إن العلم مستند إلى مذهب الشكوكية وليس إلى الإيمان، إلى الشكوكية التي لن تشغل نفسها بسبب وضعها في الكون. ولذا يمضي العالم في أبحاثه بهدوء تام لا يزعجه اندفاع الفيلسوف النهائي: أن يكون شكوكياً باستمرار يعني الإيمان بالشك وهذا في ختام الأمر شكل من الإيمان.

ثالثاً، لا يتقيد العالم بأية وسيلة بـ "الحقائق ولا شيء سوى الحقائق". إن أعماقاً فلسفية معرفية خطيرة تنفتح عند هذه النقطة غير أننا يجب أن نحاول الانطلاق على الرغم منها. وربما يكون ترويج أفكار بيكون(*) في الاستقراء المصدر الرئيسي للفكرة الخاطئة بأن العالم لا يفعل شيئاً للأفكار التي يكتشفها على نحو أمين، سوى جعلها تصطف بترتيب في مكان تحدده لنفسها. الحقائق بحد ذاتها ليست "موجودة هنالك" ولابد أن نكون مستعدين لقبول تعريف ل. ج. هندرسن(**) للحقيقة بوصفها بياناً قابلاً للإثبات استناداً إلى الملاحظة والاختبار للمظاهر فيما يتعلق بمخطط مفهومي. وفي الواقع لا يمكن للعالم العمل بدون مخطط مفهومي. وعلى الرغم من أن العلاقة بين الحقائق والمشاريع المفهومية ليست واضحة تماماً فمن الواضح على الأقل أن مشروعاً مفهومياً يتضمن شيئاً علاوة على الحقائق يتضمن، في الواقع، عقلاً عاملاً.

لا ينبغي أن يساور أحد الخوف من "المشروع المفاهيمي". المعنى بسيط للغاية حقاً: الرعد والبرق يصدمان حاستي السمع والبصر لدينا - ربما مجرد تمييز هذا الصوت وهذا الوميض من الأصوات والأضواء الأخرى يعني استخدامنا مشروعاً مفهومياً. وحتماً عندما نفكر في جوبيتر وصواعقه وثور ومطرقته أو التفريغ الكهربائي في علم الفيزياء الحديث نكون قد رتبنا على نحو

(*) فرانسيس بيكون (1561 - 1626) فيلسوف وعالم وسياسي وكاتب مقالات إنكليزي عني بعلم البصريات وعرف بأنه حفز الثورة العلمية.

(**) لورنس جوزيف هندرسن (1878 - 1942) عالم أميركي في الفسلجة (علم وظائف الأعضاء) والكيمياء وعلم الحياة وفيلسوف وعالم اجتماع أصبح من أبرز علماء الكيمياء الحيوية في العقود الأولى من القرن العشرين.

واضح مداركنا الحسية وفقاً لمشاريع مفهومية محددة. نحن نمتلك حقاً العناصر الأساسية لثلاث نظريات مختلفة عن الرعد والبرق، ثلاثة اتساقات معبر عنها على نحو مختلف في هذه الظواهر. غير أن السبب المهم لتفضيلنا التفريغ الكهربائي على جوبيتر أو ثور كمخطط مفهومي هو أنه أكثر فائدة وأننا نستطيع باستخدامه المضي إلى الأمام مع مشروعات مفاهيمية أخرى نستخدمها لأغراض مشابهة. إلا أنه في المعنى الذي يستخدمه عالم اللاهوت ومعظم علماء الأخلاق والفلاسفة لكلمة "حقيقي" ليس التفريغ الكهربائي حقيقياً أكثر من الأفكار القديمة عن جوبيتر وثور.

وربما نستخدم مشروعين مفاهيميين متناقضين ونختار أحدهما أو الآخر حسب مقتضى الحال أو بحكم العادة. تلقينا جميعاً التثقيف ليس وفق المشروع المفهومي البطليموسي(*) القديم، الذي شاهد الشمس تتحرك حول الأرض الثابتة بل وفق مشروع كوبرنيكوس الممفهومي الذي يرى أن الأرض تتحرك حول شمس ثابتة. أما آينشتاين فقد استخدم طبعاً مشروعاً مفهومياً مختلفاً إلى حد ما عن هذين المفهومين كليهما إلا أن معظمنا لا يفهم آينشتاين. ونجادل جميعاً في الحياة اليومية أن "الشمس ترتفع من الشرق" بينما يجب أن نلتزم مفهوم كوبرنيكوس ونقول "دارت الأرض لتصبح في مرأى الشمس".

يمضي العالم، إذاً، في العمل على هذا النحو. يبدأ بمخطط مفهومي من نوع ما من خلال أسئلة أو حتى فرضيات يضعها في إطار ذلك المشروع، ثم يبحث عن قدر مناسب من الحقائق، ويسعى إلى ترتيب هذه الحقائق في اتساقات تجيب عن أسئلته وربما تثير أسئلة أخرى. ويتعمق بعد ذلك مرة أخرى في البحث عن الحقائق ويخرج باتساقات جديدة أو معدلة. لا يهتم العالم بمصدر مشروعه المفهومي أو إن كان قد سبق حقائق أو تبعها أو كان "غير موضوعي" بينما الحقائق "موضوعية". إنه يترك هذه التساؤلات للفلاسفة الذين

(*) نسبة إلى بطليموس، عالم الفلك والرياضيات والجغرافيا الإغريقي الذي نشأ في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد وينسب إليه النظام البطليموسي الذي يقول إن الأرض مركز الكون.

لم يتوصلوا إلى حسمها بعد على الرغم من انقضاء ألفي عام من المناظرة. إلا أن العالم، بإدراكه أن مشروعاً مفهومياً جوهري لنشاطه مثلما هي الحقائق الملاحظة، يحرر نفسه على نحو تام من مدعي القول بالمذهب المادي والوضعي والتجريبي "العلميين" الذين يجزمون على نحو متسم بالسذاجة أن مدركاتنا الحسية المتسربة خلال "العقل" هي بحد ذاتها حقيقة منظمة ووحيدة أو "انعكاس" لتلك الحقيقة. لابد من ملاحظة أن الحقائق التي يتعامل معها العالم ليست ظواهر أو مدارك حسية أو "عالماً خارجياً" أو تلك القضايا المطلقة للوضعيين الأبرياء بل مجرد بيانات عن الظواهر. إذاً البيان الذي يمكن إثباته عن كرومويل أو لينين حقيقة بقدر قراءة مقياس الحرارة في المختبر. ولا يمكننا هنا تناول معضلة شائكة في ما هو التحقق المرضي. إن للعالم الممارس والمؤرخ الممارس والقاضي الممارس (ويؤمل هيئة المحلفين كذلك) طرائقهم المهنية المجربة جيداً في التحقق.

رابعاً، على الرغم من أن العالم يلتزم الدقة البالغة في مسائل التعريف وأنه يزدري عدم الإتقان مثل أي مؤرخ ويأنف من سوء التفكير مثل أي عالم منطق فإنه لا يثق بالتصلب ويسعى إلى الكمال. وهو يبدي اهتماماً بجمال التعريف وأناقته أقل من جعل تعريفاته تناسب الحقائق وليس عواطفه وطموحاته.

ويتجادل العالم قبل أي اعتبار آخر حول المفردات وهو أقل اهتماماً بالتمييز النظري الدقيق بين جبل وتل من الاهتمام بالتحقق من أنه يتعامل مع ارتفاعات ملموسة في هذه الأرض. وهو لا يتوقع أن مصطلحات الطبقات كاملة وحصرية على نحو متبادل، وعندما يميز بين نبتة وحيوان لا يستاء منك إذا لفت انتباهه إلى كائن حي يبدو أنه ينتمي إلى تصنيفاته ذاتها في الوقت نفسه. وينطلق في دراسة الكائن الحي ويعدل المصطلحات التي يستخدمها إذا دعت الحاجة. إن هذا الاستعداد البسيط بالاسترشاد بالملاءمة هو بالطبع من الأمور المذهلة المتعلقة بالعالم ومن أصعبها على من ليس له تدريب علمي يتكيف له. لقد نشأ معظمنا مبكراً على تفضيل آرائنا على ما يناسبنا.

خامساً، يمكن إجراء البحث العلمي الرصين على نحو تام، وهو يجري

باستمرار، في مجالات لا يمكن فيها إجراء نوع التجريب الخاضع للسيطرة تقليدياً والمرتبط مثلاً بالفيزياء والكيمياء. ويمكن تسمية هذا النوع من البحث العلمي المستند إلى البحث التجريبي المساعد له غير أنه بحد ذاته سلسلة تجارب مسيطر عليها، أي تجارب علاجية. ويتمثل هذا الاتجاه على أفضل نحو في العلوم الطبية حيث الطبيب المعالج (السريري) هو المعروف أكثر من غيره في العلوم الطبية إذ إنه ظهر مبكراً جداً في بلاد الإغريق في القرن الخامس بظهور أبقراط. يعمل الطبيب المعالج من خلال طريقة الحالات. تجمع بياناته ليس من خلال التجارب التي يمكنه السيطرة عليها بل من خلال سلسلة الحالات التي يلاحظها ويقارنها. لا يتصف الطبيب السريري بعدم الإتقان غير أنه نادراً ما يكون دقيقاً على نحو صارم. ويتلقى المساعدة كثيراً عندما يتمكن أن يستمد من العلوم التجريبية - الكيمياء العضوية، على سبيل المثال. إلا أن الطبيب المعالج نفسه عالم جيد. ومن الواضح أن العلوم الاجتماعية لا يمكن أن تعتمد سوى إلى مدى محدود على إجراء التجارب الخاضعة للسيطرة غير أن العلوم الاجتماعية يمكن أن تكون علوماً سريرية تعتمد على الملاحظة أكثر من إجراء التجارب.

أخيراً، لا يمكن للتفكير العلمي، ما عدا ربما اقتراح المشاكل، أن يكون ما يعرفه معظمنا حالياً جيداً على نحو كاف بأنه التفكير بوحي الأماني. يجب إبعاد آمال العالم ومخاوفه ومعاييره لما يود أن يسود في هذه الأرض أبعد إلى أقصى حد ممكن عن عمله وخصوصاً بعيداً عن ملاحظاته للحقائق والتعامل معها. إن مدى تدخل هذه الآمال والمخاوف والمعايير في اختياره المشاريع المفاهيمية ومدى إمكان تأثيرها في اختيار المشاريع المفاهيمية ومدى تأثيرها في نوع الأسئلة التي يثيرها هي مشاكل عويصة قد يسمح لنا بالتملص منها. ويكفي تقديم أساليب معظم العلوم الراسخة تدقيقاً فعالاً للغاية عن الأشكال الأكثر فجاجة للتفكير بوحي الأماني. إن التاريخ، الذي بالنظر إليه منذ زمن طويل بوصفه فناً وصنعة، يلقى الاحترام الأكثر بين العلوم الاجتماعية، ويطرح في التدريب الفني الذي يتلقاه معظم المؤرخين المهنيين تدقيقاً فعالاً على نحو

مدهش وغير مختلف تماماً للأشكال الأكثر عنفاً من الكتابة المشايعة والتفكير المتحيز. ولا يوجد هنالك عموماً أي سبب لشعورنا أن العالم الطبيعي يستخدم طرائق ويضع معايير ليست متيسرة للعالم الاجتماعي. العلم الطبيعي كما رآه علماء الطبيعة الأبرياء في القرن الماضي - دقيق ومعصوم من الخطأ، عالم قائم على ما يدعى الاستقراء في الاستعمالات الحديثة -يبدو نائياً لعالم الاقتصاد أو عالم الاجتماع المجتهد. إلا أن علم الطبيعة كما يفهمه دائماً أفضل ممارسيه وهو الآن يفهم على نطاق واسع - علم الطبيعة كما يشرحه بوانكاريه(*) على نحو منهجي -ليس بديلاً من العناية الإلهية ولا تجريداً ميتافيزيقياً. الرب وحده هو الدقيق والمعصوم من الخطأ والموجود في كل مكان وغير المتغير وقد رضي العلم الحديث بترك البحث عن الرب إلى فروع مزودة بنجاح طويل للبحث من هذا القبيل.

3. تطبيق الطرائق العلمية على هذه الدراسة

من العناصر الثلاثة الظاهرة للتفكير العلمي - المشروع المفهومي، الحقائق، خصوصاً "السير"، العمليات المنطقية، الاتساقات - تحقق العلوم الاجتماعية عموماً نجاحاً فيما يخص الحقائق. وحتى في ميدان التاريخ، حيث لا الوسائل المستخدمة في المختبر ولا الاستطلاعات في البحث متوافرة فإن مقدار ما لدينا حالياً من الحقائق جيد على نحو مدهش. لا يمكن إعادة كرومويل إلى الحياة وكذلك لا يمكن إعادة الديناصورات إلى الحياة. وما نعرفه عن كرومويل من السجلات المكتوبة هو من نواح كثيرة موثوق به بقدر ما نعرفه عن الديناصورات من السجل الأحفوري. أما القول إن التاريخ خرافة متفق عليها أو مجموعة حيل تلعب على الموتى فهو افتراء أو على الأقل تكوين رأي خاطئ في العدد الكبير من الباحثين الجادين والمتسمين بالرصانة في دراسة التاريخ. لقد شهد ربع القرن

(*)

الأخير أو نحوه تشكيل هيئة من الباحثين في التاريخ يحافظون، على الرغم من عيوبهم، على معايير تضاهي في بعض النواحي تلك المعايير التي تتمسك بها مجموعات مشابهة في العلوم الطبيعية. لا يكشف هؤلاء الباحثون حقاً المادة الخام البسيطة للحقائق. يتولى أبسط المتخصصين في علم الآثار ترتيب الحقائق التي يستخرجها من الوثائق في نمط معين. غير أن عملية الترتيب هذه ليست التنظير الواعي للعالم الطبيعي. لا يجري أبداً تعلم الترتيب كما يتعلم العالم نصب هيكل علمه بل يتم الحصول عليها مثلما يكتسب العامل اليدوي حرفته. إن أسلوب هذا الحرفي في جمع وغربلة وتحليل الحقائق عن سلوك الإنسان في الماضي هو عنصر القوة الكبير للمؤرخ المهني. وإذا سألت مؤرخاً كهذا ما هي الحقيقة فالأرجح أنه سيشعر بالحيرة الشديدة إزاء السؤال ولا يتمكن عادة من الرد على نحو مناسب. وأي فيلسوف جيد قد يدينه بالسذاجة من حيث نظرية المعرفة. إلا أن المؤرخ يظهر في عمله اليومي تقديراً حماسياً للفرق بين حقيقة ونظرية وبين قدرة حقيقية على التفسير أو التعميم وقاعدة للحقائق.

نحن نعتمد إذاً على المؤرخين لتزويدنا بالحقائق الضرورية. وبالنسبة إلى الثورات الإنكليزية والأميركية وحتى الفرنسية ثمة قدر كبير للغاية حقاً من المؤلفات التاريخية عالية السمعة والمستقلة على نحو معقول. وما تزال المشاعر شديدة نحو الثورة الفرنسية إلا أنها تتجه نحو الهدوء ببطء في سيل متزايد من المنشورات. أما المشكلة الرئيسية فهي حقاً الاختيار من هذا القدر الهائل من المواد. أما الثورة الروسية فهي ربما أقرب إلينا من أن يعدها المؤرخون المهنيون قادرة على نوع المعالجة التي يودون تأمينها. إن مصادرها متناثرة والكثير منها ما يزال محجوباً عن الباحثين. واللغة حاجز لم يذلل تماماً هنا في الغرب. إلا أن ما لدينا من الحقائق عن الثورة الروسية ليس أبداً قليلاً جداً أو رديء النوعية بحيث يعيق مشروعنا على نحو محبط. إن نصف قرن فترة طويلة وقد جرى مسح المراحل المبكرة من الثورة الروسية إن لم يكن بدون مرارة أو تحيز فعلى الأقل بتجرد نسبي. ومحبو ومبغضو النظام الحالي في روسيا

واضحون على نحو متساوٍ ويمكن لكل من يهتم ببذل الجهد موازنة بعضهم البعض.

يثير مشروعنا المفهومي لنا صعوبة أكبر مما يثيره ما لدينا من الحقائق. وفي العلوم الاجتماعية، على الأقل، ما يزال التمييز بين مخطط مفهومي واستعارة غير مؤكد ولا يوجد ضرر كبير في بحث مشكلتنا الحالية كبحث عن استعارة لنجمع معاً تفاصيل ثوراتنا. غير أن للاستعارة الأوضح وهي استعارة العواصف عدة عيوب. ويمكن للمرء بيانها بسهولة: أولاً هنالك أصوات الدمدمة والغيوم السود والهدوء المنذر بسوء قبل العاصفة وكل ذلك يقابل ما تعودت كتبنا أن تورده بثقة بوصفه "أسباب" الثورة. ثم يبدأ فجأة هبوب الرياح وهطول المطر وهما بوضوح بدايات الثورة نفسها. وتعقب ذلك الذروة مع العنف الكامل للريح والمطر والرعد والبرق والأكثر وضوحاً عهد الإرهاب.. وأخيراً يحل الهدوء التدريجي وتزداد السماء سطوعاً وتظهر أشعة الشمس ثانية في الأيام المنظمة في استعادة النظام. إلا أن هذا حرفي ومثير أكثر مما تتطلب أغراضنا وأقرب إلى الاستعارة كما يستعملها الأنبياء والوعاظ.

وهنالك في الجانب الآخر تماماً المشروع المفهومي لنظام اجتماعي في حالة توازن. غالباً ما ينزعج مرهفو الحس من مصطلح "التوازن" الذي له معانٍ ميكانيكية مدمرة لكرامة الإنسان. أما في العلم الحديث فقد أثبت المصطلح أنه مفيد في ميادين من مثل الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء بعيداً عن علم الميكانيكا الذي تعود إليه أصول علم وظائف الأعضاء. كما أنه ليس للكلمة كما يستخدمها العالم الممارس أي دلالات ميتافيزيقية. إن مفاهيم النظام الفيزيائي الكيميائي في التوازن، النظام الاجتماعي في التوازن، بَدَنْ جون جونز في التوازن لا تتحيز إطلاقاً إلى خلود روح أي كان، ولا حتى النصر المطلق للمؤمنين بالمذهب الحيوي(*) على الآليانيين(**). إن مفهوم التوازن يساعدنا في

(*) دعاة: Vitalists المذهب القائل بأن الحياة مستمدة من مبدأ حيوي وأنها لا تعتمد اعتماداً كلياً على العمليات الفيزيائية الكيميائية.

(**) Mechanists القائلون بأن العمليات الطبيعية كالحياة قابلة للتفسير بقوانين الفيزياء والكيمياء.

فهم، وأحياناً استخدام أو السيطرة على، آلات ومواد كيميائية وأدوية معينة. وقد يساعدنا يوماً في فهم الناس في المجتمع وصياغتهم ضمن حدود.

إن استخدام التوازن في دراسة الثورات واضح من حيث المبدأ. ويمكن تعريف مجتمع في توازن تام بوصفه مجتمعاً لكل عضو فيه في لحظة معينة كل ما يمكن أن يرغب فيه وكان في حالة رضا تام، وقد يعرف بأنه مجتمع مثل مجتمع حشرات معينة من مثل النحل أو النمل الذي يستجيب كل فرد فيه على نحو متوقع نحو حافز ما. ومن الواضح أنه لا يمكن لأي مجتمع بشري إلا أن يكون في توازن ناقص وهي حالة تكون فيها الرغبات والعادات المتغيرة والمتناقضة للأفراد والمجموعات في تكيف متبادل معقد، تكيف معقد للغاية بحيث لا تبدو أية معالجة رياضية لها ممكنة في الوقت الحاضر. ومع نشوء رغبات جديدة أو مع تزايد رغبات قديمة في مجموعات مختلفة أو مع تغير الظروف البيئية وإذ تفشل المؤسسات في التغير قد ينشأ عدم توازن نسبي وينشب ما نطلق عليه ثورة. إننا نعرف أن في الجسم البشري، مثلاً، يرافق عدم التوازن الذي نسميه مرضاً ردود فعل محددة تميل إلى إعادة الجسم إلى ما كان عليه قبل نشوب المرض. ويبدو مرجحاً أنه في النظام الاجتماعي في حالة عدم التوازن ثمة شيء من نوع رد الفعل نفسه نحو الظروف القديمة ويساعد ذلك في تفسير سبب لماذا لا تصبح الثورات تماماً مثل ما يريدها الثوريون. وتميل التعديلات القديمة إلى إعادة تثبيت نفسها وإنتاج ما يعرف في التاريخ بأنه رد فعل أو إعادة إلى وضع سابق. وفي النظم الاجتماعية، كما في الكائن البشري، تميل قوة إبراء طبيعية تلقائياً تقريباً إلى موازنة نوع من التغيير بنوع آخر من التغيير الشافي.

الأرجح أن هذا المشروع المفهومي للتوازن الاجتماعي في المدى البعيد هو الأكثر فائدة لعالم اجتماع الثورات. غير أنه لأغراضنا الراهنة يتصف بالطموح بعض الشيء. إنه في حاجة من أجل النجاح التام إلى إدراك للمتغيرات العديدة يكون أدق مما نستطيع أن نديره في الوقت الحاضر. إنه مناسب لسوسيولوجيا كاملة للثورات أو "ديناميكية للثورة" أكثر من دراستنا الحالية

لتشريح أربع ثورات. ونحاول في هذا الكتاب القيام بتحليل أولي والتصنيف والتنظيم على مستوى منخفض نسبياً من التعقيد.

وعلى الرغم من أن للنظام المفهومي الأفضل عيباً خطيراً واحداً فإنه يبدو لأغراضنا مستعاراً من علم الجراثيم. سنعدّ الثورات نوعاً من الحمى. إن موجزات مخطط هذه الحمى تنجح بسهولة. وفي المجتمع أثناء الجيل الذي سبق اندلاع الثورة في النظام القديم توجد علامات على الاضطراب المقبل. وعلى نحو دقيق هذه العلامات ليست أعراضاً كاملة لأنه عندما تتطور الأعراض تطوراً كافياً يكون المرض موجوداً قبل الآن. وربما الأفضل وصفها بعلامات نذر المرض، مؤشرات للشخص القائم بالتشخيص بأن المرض قادم ولو أنه لم يتطور تطوراً كافياً. ثم يحين الوقت عندما تكشف الأعراض التامة عن نفسها وعندما نستطيع القول إن حمى الثورة قد بدأت. وتتصاعد هذه الحمى، ليس على نحو منتظم بل بالتقدم والتراجع، إلى أزمة مصحوبة غالباً بالهذيان وحكم الثوريين الأكثر عنفاً، عهد الإرهاب. وبعد الأزمة تحل فترة النقاهة وتشهد عادة انتكاسة أو اثنتين. وأخيراً تزول الحمى ويستعيد المريض عافيته وربما تزيده التجربة قوة وتُكسبه مناعة لفترة ما في الأقل من نوبة مشابهة إلا أنها لا تجعل منه رجلاً جديداً تماماً. وتستمر المماثلة إلى النهاية لأن المجتمعات التي تمر بالدورة الكاملة للثورة هي في بعض النواحي أقوى غير أنها لا تبزغ بعد إعادة صنعها تماماً.

يمكن استخدام هذا المشروع المفهومي بدون إلزام مستخدميه في أي معنى نحو نظرية عضوية للمجتمع. وتستخدم مفردة "مجتمع" في هذه الدراسة كوسيلة مناسبة لتسمية السلوك الملاحظ البشر في المجموعات وتفاعلاتهم وهذا كل ما في الأمر. ونجد من المناسب تطبيق مخطط مفهومي مستعار من علم الأمراض على تغييرات ملاحظة معينة في مجتمعات معينة. ولا بد أن نجد أن من غير المناسب والمضلل تمديد ذلك المشروع المفهومي والحديث عن الدولة بوصفها هيئة سياسية مع روح وإرادة عامة وقلب وأعصاب وغير ذلك. وعندما نطبق، على سبيل المثال، مصطلحات من مثل "العلامة الأولى من علامات المرض"،

"الحمى"، "الأزمة" على الثورة الفرنسية فإننا حتماً لا نفكر في فرنسا مشخصة تعاني من كل هذه الأعراض. وقد يبدو هذا التمييز للبعض مجرد تمييز شفهي وغير مهم. إلا أنه مستند إلى تمييز مهم للغاية في التفكير البشري - التمييز الجوهري بين الميتافيزيقا والعلم.

يكمن النقص الخطير حقاً في مخطط الحمى هذا على نحو أعمق في الحقيقة التي يبدو أنها غير قابلة للتغيير بأن لغتنا العادية التي تنتمي إليها بوضوح كلمات من مثل "حمى" و "مرض" هي لغة منطقية على نحو محدود. وعندما يشير خمسة محررين مستقلين إلى جون دو بأنه دؤوب وحازم ومصمم وعنيد أو كالبغل في عناده تصبح مشاعر المحررين معروفة على نحو واضح نحو جون دو بقدر ما يعرف عن جو دو نفسه. إن المحررين أكثر نجاحاً في نشر مشاعرهم في الخارج من وصفهم جون دو(*). إن الكثيرين من ثوسيديدس(**) إلى بيكون ومكيافيلي وباريتو(***) فهموا استخدام الكلمات هذا. وفي عصرنا الحالي جعلتنا عشرات الفروع، من علم النفس وعلم دلالات الألفاظ وتطورها والنظرية السياسية، ندرك بقوة أن الدعاية تكمن في كل مقطع وكل نبرة. ويبدو أن هذا الإدراك لم يؤدِّ إلى تجفيف الدعاية.

لا أحد يريد اليوم أن يصاب بحمى. إن المفردة ذاتها حافلة بالإيحاءات البغيضة. ويحتمل أن يثير استخدامنا المصطلحات المستعارة من علم الأمراض

(*) يستخدم الاسم جون دو (John Doe) في الولايات المتحدة وكندا للطرف الذكر في دعوى أو حالة أو مناقشة قانونية للإشارة إلى شخصية غير معروفة أو يجب حجبها لأسباب قانونية ويستخدم الاسم Jane Doe في حالة الأنثى وBaby Doe في حالة الطفل.

(**) ثوسيديدس (445 - 400 ق.م.) واحد من أعظم المؤرخين الإغريق وأول من ألف تاريخاً على النمط العلمي. كان أرستقراطياً من أثينا في أواخر العشرينات من العمر لدى نشوب الحرب البلوبينيزية بين أثينا وإسبرطة عام 431 ق.م. التي هزمت فيها أثينا. كان أحد قادة أثينا إلا أنه نفي وأمضى بقية حياته في جمع الأدلة وتحدث إلى المشاركين في الحرب وسجَّل ما كان يعتقد أنه الحقيقة، خلافاً لهيرودوت قبله ببضعة عقود الذي كان يسجل كل ما يسمعه سواء آمن به أم لم يؤمن.

(***) فيلفريد وباريتو (1948-1923) عالم اجتماع واقتصاد وفيلسوف إيطالي.

في العديد من القراء مشاعر تمنع المزيد من الفهم. ويبدو أننا نلعن الثورات بمقارنتها بمرض ما. ويبدو أننا بالنسبة لذوي العواطف والآمال الليبرالية نتولى مسبقاً تشفير تلك الجهود الكبرى للروح الإنسانية الحرة من مثل الثورة الفرنسية. وبالنسبة للماركسيين كان تحقيقنا كله مشكوكاً فيه على الأرجح من البداية وسيبدو لهم مخططنا المفهومي بمثابة التضليل البرجوازي المتوقع. إلا أن إغاظة الماركسيين بلا داع يبدو سيئاً أكثر مما ينبغي. والأرجح أن الاعتراضات ذات النية الحسنة ليست ذات جدوى غير أننا قد نسجل مع ذلك أننا ندرك عن وعي على الأقل عدم وجود مشاعر البغض نحو الثورات عموماً. نحن نكره القسوة حقاً سواء في الثورات أو في المجتمعات المستقرة. إلا أن فكرة الثورة تثير فينا سلسلة من التداعيات الحزينة. وطبيعي أن القوة المقنعة مع المرتابين ربما هي حقيقة أن الحمى، من الناحية البيولوجية، هي بحد ذاتها شيء جيد وليس رديئاً للكائن الذي يشفى منها. ولتطوير الاستعارة فإن الحمى تحرق الجراثيم الشريرة كما تدمر الثورة الأشرار والمؤسسات المؤذية وغير المفيدة. ولدى التمحيص الدقيق والمنصف قد يبدو أن لمشروعنا المفهومي مضامين محبذة أكثر مما ينبغي، وليست غير محبذة للغاية، للثورات عموماً.

وبالتخلص من الحقائق والمشروع المفهومي يبقى علينا بحث إمكانية إيجاد نوع من التماثل على نحو تنسجم فيه حقائقنا مع مشروعنا المفهومي. ويفترض معظمنا أنه في المستوى العام للإدراك السليم يمكن تمييز نوع من التماثل في التاريخ. غير أنه يوجد ميل لدى مؤرخين محترفين كثيرين إلى إنكار أن هذا التماثل حقيقي ومهم ولذا يجب أن نمنح المسألة بعض الاهتمام. وفي عرض كتبه دبليو سي آبوت للطبعة الرصينة من خطب كروميل وكتاباته كتب مؤرخ إنكليزي مثقف ومتمسك بالتقاليد:

"من المؤسف أن الأستاذ آبوت قد قرر توضيح الثورة الإنكليزية بمقارنتها بالثورتين الأميركية والفرنسية. إن الأسلوب الثوري يثير بلا ريب اهتمام العالم حسن الاطلاع على مؤلفات ماركس وتروتسكي وطريقة لينين، إلا أن المقارنات

في التاريخ كما هو شأنها في غيره كريهة والثورات معروفة أكثر بسبب الفروق الخاصة بينها أكثر مما تعرف من عناصرها المشتركة".

هذا رأي متطرف بلا شك. وكان الإنكليز في القرن الماضي وأكثر منه يصرون على أن ثورتهم فريدة - فريدة للغاية بحيث إنها لم تكن عملياً ثورة إطلاقاً.

إن الدراسة الكاملة لمشكلة التماثل التاريخي طويلة جداً وقد تنتهي في ضباب الميتافيزيقيا. وسيتعين علينا أن نرضى بالادعاء الفج بأن عقيدة كون الأحداث فريدة على نحو مطلق في التاريخ تبدو كلاماً فارغاً.

إن التاريخ أساساً هو وصف لسلوك الإنسان وإذا لم يكن سلوك الإنسان خاضعاً لأي نوع من الترتيب المنهجي فإن هذا العالم أسخف مما يريده حتى الوجوديون. ويمنحنا التاريخ حالات على الأقل وهو مادي للطبيب السريري على الأقل. غير أنه ليس عليك سوى مطالعة صفحة من مؤلفات ثيوفراستوس(*) أو تشوسر(**) لتدرك أن الإغريق قبل أكثر من ألفي عام والإنكليز قبل أكثر من ستة قرون كانوا يبدون على نحو غير عادي مثل الأميركيين حالياً في بعض النواحي. وقد تكون المقارنات كريهة أي أنها تشكل أساس الأدب وكذلك العلم وتزودنا بقدر كبير من المادة الخام للحديث اليومي.

كما لاحظنا فإن عنصراً جوهرياً في أية محاولة للعمل العلمي هو تجرد العالم. وبالنسبة للمؤرخ هذه هي قابلية إبقاء ملاحظاته عما حدث بدون التأثر بما كان يود أنه حدث. وسبق لنا مواجهة هذه المشكلة في مناقشتنا مشروعاً مفهومياً الحديث فيه عن حمى يبدو للوهلة الأولى طريقة لإدانة الثورة وإلصاق صفة سيئة بها. ولا بد أن نكرر أنه يصعب في كل العلوم الاجتماعية تحقيق التجرد العلمي وهو مستحيل التحقيق في أي معنى "مطلق" أو "صرف". حتى

(*) ثيوفراستوس (371 ق.م.-297 ق.م.) تنوعت اهتماماته من علم الحياة إلى علم الفيزياء ومن علم الأخلاق إلى ما وراء الطبيعة. وكان لكتابيه الباقيين في النباتات تأثير مهم في علوم القرون الوسطى.

(**) تشوسر (1340-1400) من أبرز الشعراء الإنكليز قبل شكسبير وهو مؤلف حكايات كنتربري.

في العلوم الطبيعية، قد تقود الرغبة في إثبات فرضية أو نظرية للمرء إلى تشويه أو إهمال حقائق بعض أقوى المشاعر في الكائنات البشرية. غير أن العالم الطبيعي لا يريد تحسين جزيء أو أميبة - على الأقل ليس "أخلاقياً". أما العالم الاجتماعي فتتدفق فيه بقوة تامة تلك المشاعر التي ندعوها أخلاقية علاوة على تلك المشاعر التي ندعوها أنانية. ولا يكاد يتجنب الرغبة في تغيير ما يتولى دراسته: ليس تغييره كما يغير الكيميائي شكل العناصر التي يقوم بتركيبها بل تغييره كما يغير المبشر الإنسان الذي يحوله إلى دين آخر. غير أن هذا هو بالضبط ما يجب على العالم الاجتماعي تجنبه كما يتجنب الإنسان الطيب الشيطان. ومن أصعب الأمور في هذا العالم وصف الإنسان أو المؤسسات بدون الرغبة في تغييرها وهو شيء صعب للغاية بحيث لا يدرك معظم الناس حتى أنه يمكن الفصل بين العمليتين. غير أنهما يجب أن تفصلا إذا أردنا الوصول إلى نتيجة في العلوم الاجتماعية.

سنحاول جعل هذه المحاولة للوصف بدون تقييم. ولن يكون ذلك ناجحاً تماماً لأن الإتمام في هذا العالم نادر والتجرد المطلق عالم قطبي غير مناسب للحياة البشرية. إلا أن المرء قد يبذل جهداً للخروج من الغابات المليئة بالبخار والاقتراب قليلاً من القطب. وبلغة أقل مجازية: من المستحيل دراسة الثورات بدون امتلاك مشاعر نحوها غير أن من الممكن الاحتفاظ بالمشاعر على نحو نسبي خارج الدراسة وليس داخلها. والبوصة التي تكسب هنا تعادل عدة أذرع في حدود أقل خصباً في العقل.

4- قيود الموضوع

إذاً سندرس أربع ثورات يبدو ظاهرياً أن لها جوانب شبه معينة ونتعمد تجنب أنواع معينة أخرى من الثورة. نشبت هذه الثورات الأربع في العالم الغربي بعد القرون الوسطى وكانت ثورات "شعبية" أو "ديمقراطية" نفذت باسم "الحرية" من أجل الأغلبية ضد أقلية ذات امتيازات وكانت ناجحة أي أنها أدت إلى أن يصبح الثوار حكومة شرعية. إن أي علم اجتماع للثورات يجب أن يأخذ في نظر الاعتبار أنواعاً أخرى من الثورة ولاسيما ثلاث ثورات هي الثورة

التي يشرع بها الفاشستيون أو أقلية تمارس الحكم أو محافظون - أي الثورة "اليمينية"، الثورة الإقليمية-القومية والثورة الفاشلة.

ولا شك أن هنالك تشويهات وجدانية تتعلق بالتمييز بين هذه الثورات الأربع بوصفها "شعبية" أو "ديمقراطية" إلا أنه حتى الكلمات المشحونة بالمشاعر تشير إلى أشياء راسخة: كانت الثورات الإنكليزية والفرنسية والأميركية وحتى الروسية محاولات لضمان نوع من المجتمع مختلف عن المجتمع الذي استهدفته الثورات الفاشستية في إيطاليا وإسبانيا والثورة القومية الاشتراكية في ألمانيا أو كما يبدو حالياً المجتمع الذي تستهدفه الثورات الحديثة في البلدان "المتخلفة" في آسيا وأفريقيا. إننا نجد هنا على نحو واضح إحدى صعوباتنا الكبرى نحو الثورة الروسية التي لم تثبت في نظر الغربيين أنها "شعبية" أو ديمقراطية". غير أنه إذا كانت الشيوعية الروسية تبدو من بعض الجوانب مستبدة وغير ديمقراطية فالحقيقة تبقى أن الثورة الروسية بدأت وريثة لحركة التنوير في القرن الثامن عشر وأن الثورتين الإيطالية والألمانية بدأتا بإنكار حركة التنوير.

غير أنه إذا بدت تلك الثورات الفاشستية حديثة بحيث لا يمكن الحكم عليها أو حتى تصنيفها على نحو منصف فقد نجد في فترة الاضطرابات في أثينا في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد أدلة أقل إثارة للجدل. كانت ثورة عام 411 قبل الميلاد في أثينا من عمل المجموعة المحافظة أو الأقلية الحاكمة (الأوليغاركية) وكانت موجهة ضد الدستور الديمقراطي القديم الذي كانت أثينا تحكم بموجبه منذ كليسثينيس(*)، إن لم يكن منذ صولون(**). وفي مجلس الأربعمائة(***) الذي شكله الثوريون الناجحون انشق أعضاء حكومة القلة عن

(*) كليسثينيس نبيل من أسرة إغريقية من أثينا ينسب إليه إصلاح دستور أثينا القديمة وإطلاقه على مسار ديمقراطي عام 508 قبل الميلاد.

(**) صولون (638 ق.م.-558 ق.م.) رجل دولة ومشرع وشاعر غنائي أثيني ذو نزعة إصلاحية وأصدر مجموعة قوانين ذات طابع إنساني.

(***) هيئة من حكام مجموعة القلة تولت السلطة في أثينا أثناء الحروب البيلوبونيزية بضعة أشهر عام 411 ق.م. أثناء الحرب مع فارس.

المعتدلين. وبعد اغتيال المتطرف فرينيكوس ووصول أخبار سيئة من الجبهة استطاع المعتدل ثيرامينيس أن

يتولى السلطة وأقام دستوراً "مختلطاً" وسعى إلى الجمع بين أفضل ما في الديمقراطية وحكم الأقلية. ثم انتصر الأسطول، الذي كان ديمقراطياً عموماً، في معركة سيزيكوس(*) ومهد الطريق أمام استعادة الديمقراطية عام 410 ق.م.

أدى انتصار إسبرطة في النهاية عام 404 ق.م. دورة ثورية مشابهة في أثينا بدأت بحكم الأقلية المتطرفة المتمثل في الثلاثين طاغية وانتهت مرة أخرى بإعادة الأشكال الديمقراطية. كانت السلسلة - إذا استخدمنا التشبيه السياسي الحديث المضلل - في تلك الحركات من اليمين إلى الوسط إلى اليسار أو من المتطرفين المحافظين إلى المعتدلين إلى العصابة المتطرفة القديمة وهي سلسلة تختلف اختلافاً واضحاً عن السلسلة التي سنواجهها في إنكلترا وفرنسا وروسيا. وسيلاحظ المتمسكون بمفهوم التوازن الاجتماعي أن الميل في تلك الثورات الأثينية كان نحو استعادة العادات والمؤسسات القديمة وأنه يوجد الكثير مما هو مألوف لأي باحث في الثورات الحديثة - دور الأندية السياسية، مثلاً، والاستخدامات المتنوعة للعنف.

نحن الأميركيين على اطلاع حسن على الثورة الإقليمية-القومية لأن ثورتنا كانت إلى حد كبير من ذلك النوع من الثورة. لم يكن الرجال من مثل جون آدمز(**) وواشنطن(***) يحاولون قلب نظامنا الاجتماعي والاقتصادي بل جعل المستعمرات الإنكليزية في أميركا الشمالية دولة-أمة مستقلة. كان الحال نفسه بالنسبة إلى الثورة الايرلندية في 1916-1921. ويعتقد الكثير من المراقبين

(*) سيزيكوس مدينة على شاطئ بحر مرمرة في تركيا حالياً. دحر أسطول أثينا أسطول إسبرطة في معركة سيزيكوس عام 410. وسلمت المدينة إلى الفرس وحررها الإسكندر المقدوني لاحقاً.

(**) جون آدمز (1730-1826) ثاني رئيس للولايات المتحدة وأحد المشاركين في التوقيع على وثيقة الاستقلال.

(***) جورج واشنطن (1732- 1799) قائد عسكري وسياسي أميركي وأول رئيس للولايات المتحدة.

الجيدين أن النزعة القومية أهم من الشيوعية في الثورة الحديثة في الصين. إلا أنها ثورة إقليمية- قومية نادرة، إقليمية صرف وقومية صرف. وكان سام آدم(*) وتوم بين(**) وجيفرسن نفسه يحاولون أن يفعلوا أكثر من عزلنا عن التاج البريطاني. كانوا يحاولون جعلنا مجتمعاً أكمل وفقاً لمثل حركة التنوير. وقد يكون الشيوعيون الصينيون أكثر صينية من كونهم شيوعيين إلا أنه ليسوا حتماً مندريين(***) أو حتى أتباعاً لصن يات سن(****). ويبدو أن الثورة الجزائرية كانت مزيجاً معقداً من الثورة الإقليمية- القومية والثورة الاجتماعية - الاقتصادية.

لدينا أمثلة عديدة عن الثورات الفاشلة. ومن نافلة القول أن يأمل المرء ألا يقاس الفشل بفشل الحركات الثورية في تحقيق المثل التي يدعو إليها زعماؤها. يقصد بالفشل مجرد فشل المجموعات المنظمة في الثورة. وهكذا فإن الحرب الأهلية الأميركية هي حقاً مثال تقليدي تقريباً لثورة إقليمية- قومية فاشلة. وكان معظم الثورات الأوروبية التي نشبت عام 1848 على السطح فاشلة ولو أنها ساعدت في بلدان عديدة على تحقيق تغييرات إدارية ودستورية دائمة ومهمة. كانت كومونة باريس عام 1871 ثورة اجتماعية فاشلة وإن كانت ليست اشتراكية.

وقد تقود ثورة فاشلة طبعاً إلى جعل مجموعة ثورية مهزومة تزداد تصميماً وتمهد السبيل إلى مقاومة سرية مستمرة وتآمر. ويبدو أن ذلك ينطبق خصوصاً على الثورات القومية الفاشلة. إن "طريقنا نحو إعادة التوحيد" بعد حرب أهلية طريق لا يسلك في أحوال كثيرة ربما لأن من يقمعون الثورة الفاشلة لن يسمحوا عادة لذلك الطريق بالارتداد بقدر ما فعل الجمهوريون المهيمنون بعد عام 1876 وحتى قبل ذلك. لقد بنت دماء الشهداء قاعات مجالس وقصوراً رئاسية علاوة على الكنائس. إن الثورة الفاشلة مهمة خصوصاً في دمج القوميات المضطهدة

(*) سام آدم (1722- 1803) ثوري أميركي.

(**) توم بين (1737- 1809) سياسي وفيلسوف ومؤلف أميركي إنكليزي المولد.

(***) المندريون كبار الموظفين في الإمبراطورية الصينية القديمة.

(****) صن يات سن (1866- 1925) سياسي وزعيم ثوري صيني يعد أبا الصين الحديثة وكان له دور مهم في الإطاحة بأسرة مانشو الحاكمة عام 1911.

التي تحصل بعد انتفاضات بطولية قليلة على طبقة صوت من الوطنية الممجدة والترحم على النفس يكاد يجعلهم لا يهزمون. لقد ولدت ايرلندا وبولندا المعاصرتان من سلسلة طويلة من الثورات التي فشلت. وكان على بولندا منذ عام 1945 أن تقبل ثورة اجتماعية واقتصادية مفروضة عليها كما يبدو من الخارج - وهذا نوع آخر من الثورة.

حتى تصنيف جزئي للثورات يورد ثورات عديدة أخرى - ثورة "القصر" ثورة "الحريم" في المجتمعات التي تتعلق النشاطات السياسية فيها بالقليلين ولذا يمكن أن تنجح المؤامرات فيها بسهولة، والثورة التي يحرض عليها من الخارج، كما في بعض الكيانات التي أطلقت عليها تقليدياً تسمية الجمهوريات على الحدود الفرنسية في ظل حكومة الإدارة في فرنسا، والثورة التي توجه ضد السادة "الاستعماريين" في "البلدان المتخلفة". ويشار إلى ما حدث بين الزنوج الأميركيين في العقد الأخير بأنه ثورة، وهو ليس غير دقيق تماماً. ويمكن تمييز أنواع أخرى من الثورة بسهولة ولا يتوقع أن ينطبق أي منها على التحليل التالي.

إن لثلاث من الثورات الأربع - أي الثورات الإنكليزية والفرنسية والروسية مسارات متشابهة على نحو مثير للدهشة. لكل منها قاعدة اجتماعية أو طبقية وليس إقليمية أو قومية، ولو أن ثورات أوكسفورد ولا نكشير(*) و فينديه(**) وأوكرانيا تشير إلى أنه لا يمكن إهمال العوامل الأخيرة تماماً. بدأت كلها بالأمل والاعتدال ووصلت إلى حد الأزمة في عهد الإرهاب وانتهت جميعها بما

(*) شهدت إنكلترا ثورة الفلاحين عام 1381 وساندهم الحرفيون والقساوسة والعمال في المدن وحتى صغار التجار الساخطين. وقد فشلت الثورة في تحقيق أهدافها الرئيسية إلا أنها كانت حلقة في سعي الفقراء للتحرر من العبودية وضآلة الأجور والضرائب الظالمة

(**) رحب سكان مقاطعة فينديه على المحيط الأطلسي بالثورة الفرنسية إلا أن آمالهم خابت فيه اوثار المزارعون ضد الحكومة الثورية في عهد الارهاب (1793-1795) لسخطهم على التغييرات التي فرضت على الكنيسة الكاثوليكية وتحدى الثوار نظام التجنيد الإجباري الذي فرضته الحكومة مما أدى إلى مقتل أكثر من مائة ألف شخص قبل انتهاء الثورة.

يشبه الدكتاتورية - كرومويل، بونابرت، ستالين. ولا تتبع الثورة الأميركية هذا النمط تماماً ولذا من المفيد بخاصة لنا كنوع من السيطرة.

كانت الثورة الأميركية على نحو غالب ثورة إقليمية وقومية حرض عليها البغض الأميركي الوطني للبريطانيين. ومن الناحية الأخرى كانت كذلك على نحو جزئي حركة اجتماعية وطبقية وبمرور الزمن ازدادت تدريجياً قوة طبيعتها الاجتماعية. ولم تمر إطلاقاً بعهد الإرهاب على الرغم من أنها شهدت جوانب إرهابية عديدة تخفف عادة في الكتب المدرسية والشعبية. تطرح الثورة الأميركية عموماً عدداً من المشاكل المثيرة للاهتمام وتعد محاولة دمج بعض جوانبها بالثورات الثلاث الأخرى بأن تمد على نحو ليس غير مناسب حدود هذه الدراسة. غير أننا يجب أن نتذكر دائماً أن الثورة الأميركية كانت ثورة اجتماعية بمعنى أنها ثورة ناقصة لا تتفق تماماً مع مخططنا المفهومي ولا تظهر انتصار المتطرفين على المعتدلين. ويجب أن نلتزم الحذر أكثر من الثورات الأخرى عندما نحاول تمييز حالات التماثل في تشريح الثورة الأميركية.

نختار إذاً عمداً عزل الثورات الأربع لغرض التحليل واعين تماماً أنه وقعت ثورات عديدة أخرى. ولا نربك أنفسنا على نحو غير ملائم مع التعريف الدقيق لـ "الثورة" ولا مع أي حالة وسط بين التغيير الثوري وأنواع أخرى من التغيير. وعند نقطة ما فإن الصراعات العادية - أو إن اعتبرت الصراعات عموماً سيئة يمكنك اعتبارها "مستوطنة" - لدى أي مجتمع غربي تقود إلى العنف وتقع ثورة. الفرق بين الثورة والأنواع الأخرى من التغيير في المجتمعات هي، قياساً على الاستخدامات الكثيرة للمصطلح في الماضي، أقرب منطقياً إلى الفرق بين جبل وتل من الفرق لنقل بين درجة التجمد ونقطة الغليان لمادة معينة. يمكن لعالم الفيزياء قياس نقاط الغليان على نحو دقيق بينما لا يستطيع العالم الاجتماعي قياس التغيير بأي ميزان حرارة دقيق مثل هذا والقول على نحو دقيق متى يتحول تغيير عادي إلى تغيير ثوري وقد يتأمل المرء في مفهوم "نقطة الثورة" للنظم الاجتماعية المختلفة ويمنح إنكلترا 200 درجة في مقياس تقليدي وفرنسا 150 درجة والولايات المتحدة 300 درجة، إلخ. غير أن ذلك كلام

فارغ من النوع الشائع في العلوم الاجتماعية، التي تعودت طويلاً على وضع معادلات رياضية زائفة. أما في التطبيق الفعلي فإننا نسمح بالتمييز بين تل وجبل وليس هنالك ضير من قبول قرار استخدام ما ندعوه ثورة. إن العنصر المهم في التعريف العلمي هو أن التعريف يجب أن يستند إلى الحقائق ويمكننا من التعامل مع الحقائق على نحو أفضل. وتحل الدقة والإحكام ثانياً حتماً وهي عيوب إذا أنجزت بإهمال الحقائق أو تشويهها. ومن الواضح أنه في الاستخدام الحالي للكلمة فإن "ثورة" مصطلح يشمل عدداً من الظواهر الراسخة، من استخدام دولاب الغزل إلى قذف بوفيريو دياز(*) ومهمة المصنف التمسك بالمصطلح العام وصياغة تصنيفات فرعية ضمنها.

نحن مقيدون بهذه الحقائق البسيطة حتى قبل أن نشرع تماماً في دراسة الثورات الفعلية. ومع ذلك فإن الواضح حقاً والمألوف حقاً أنها لا تجد طريقها في أحوال كثيرة إلى الطبع. وما ينشر في أحوال أكثر هو المألوف الأدبي، معتقدات الناس عن أشياء وكائنات لا يتعاملون معها أبداً على نحو مباشر.

إن عالم المجلات التي تنشر المواضيع المثيرة هو عالم الأشياء المألوفة الأدبية. والعديد من المثقفين في العالم الذين يعدون أعلى من هذه المجلات يدفعون برعب جدير بالثناء بلا ريب من الأشياء المألوفة الأدبية نحو رعب مكافئ مما هو جلي. أما العالم فلا يمكنه التمتع بتدليل من هذا القبيل. إن مهمة العالم الأولى هي أن يكون واضحاً إذ لا يمكنه أن يبني إلا على قاعدة متينة وعلى نحو أمين البنية الأكثر تعقيداً لعلم متطور. وربما يجب أن يصر ويكرر أكثر فيما يخص ما هو جلي إذ في عالمنا الحديث هذا حيث الكثير من خبرتنا المستمدة بالنيابة من المواعظ والكتب والصور والمسرحيات وحتى البسطاء الذين يحبون ما هو مألوف تلقى عليهم الأفكار المبتذلة الأدبية وليس الأشياء الحقيقية.

(*) بوفيريو دياز رئيس المكسيك (1876-1880 و1884- 1911) أخرج إثر الثورة المكسيكية بسبب تزوير الانتخابات.

نأمل بعد ذلك أن جوانب التشابه التي سنتوصل إليها في الثورات التي نتولى تحليلها ستكون واضحة وأنها ما كان يعرفه أي إنسان عاقل عن الثورات. وسنشعر بخيبة الأمل حقاً إذا لم يظهر أن تشريح الثورات مألوف. ويبدو كافياً إن أمكن إيراد جوانب التشابه هذه وتسجيلها. ويحذر مسبقاً من تتطلب شهيتهم اكتشافات كبرى، إذ لن يجدوا هنا سوى طعام بسيط. ولا يقال هذا في أية روح من التواضع الزائف. يسخر الأديب من الجبل الذي تمخض ولم يلد سوى فأر مضحك. إن ذلك الجبل لم يحظ بالتقدير الذي يستحقه لإنجاز بيولوجي بارز. كما أن الفأر ولد حياً على الأقل. وعندما يحدث لمعظم الجبال شيء من هذا القبيل لا ينتجون شيئاً أفضل من الحمم والبخار والهواء الساخن.

الفصل الثاني

الأنظمة القديمة

1

وصلنا مصطلح "النظام القديم" (العهد البائد) من فرنسا. ويعني في سياق تاريخ فرنسا أسلوب حياة الأجيال الثلاثة أو الأربعة التي سبقت ثورة 1789. وقد نوسع استخدامه على نحو معقول لوصف المجتمعات المختلفة التي نشأت منها ثوراتنا. وسنبحث في هذه المجتمعات عن شيء يشبه بادرة ثورية، أي مجموعة علامات أولية على الثورة المقبلة.

إن بحثاً كهذا يجب ألا يطبق بدون احتراس واحد. ويبدو أن الاضطراب أو الصراع، كما لاحظنا، في معنى معين متوطن في المجتمعات كافة وفي مجتمعنا الغربي بالتأكيد. ويمكن للمؤرخ أن يجد أدلة على الاضطرابات والسخط في أي مجتمع تقريباً يختار دراسته. ويورد سوروكين، في ملحق بالمجلد الثالث من كتابه الديناميكا الاجتماعية والثقافية لإنكلترا - وهي بلاد تتسم تقليدياً بالوقار السياسي - "ستة وعشرين اضطراباً داخلياً في العلاقات ما بين المجموعات" بين عام 656 وعام 1921. ويعني هذا معدل "اضطراب" واحد تقريباً كل ثمانية أعوام! وتراوح هذه الاضطرابات في الخطورة بين

العصيان الكبير(*) Great Rebellion والحرب الأهلية في عقد الأربعينات من القرن السابع عشر، التي سنتناولها في هذا الكتاب وبين أحداث غير مهمة من مثل تمرد صغار مالكي الأرض في إقليم وسكس عام 725. وإذا كان تعريف مجتمع مستقر أو سليم بأنه مجتمع لا يوجد فيه تعبير عن السخط على الحكومة أو المؤسسات القائمة حيث لا تخرق أي قوانين إطلاقاً فلا توجد أي مجتمعات مستقرة أو سليمة.

لذا فإن مجتمعنا العادي أو السليم لن يكون مجتمعاً لا تنتقد فيه الحكومة أو الطبقة الحاكمة ولا تسمع فيه مواعظ تثير الاكتئاب عن الانحطاط الأخلاقي للعصر ولا أحلام خيالية عن عالم أفضل وشيك ولا إضرابات ولا إغلاق لرب العمل مصنعه لإرغام العمال على الرضوخ لشروطه ولا بطالة ولا موجات جرائم ولا متطرفون ولا هجمات على الحريات المدنية. وكل ما يمكن توقعه مما يمكن أن يدعى المجتمع السليم هو عدم وجود زيادة لافتة لتلك التوترات وربما معظم الناس يجب أن يتصرفوا وكأنهم يشعرون أنه على الرغم من كل عيوب المجتمع مؤسسة ناجحة. ثم يمكننا البحث عن نوع العلامات التي وصفناها أعلاه - السخط الذي يعبر عنه بالكلمات والأفعال - ومحاولة تقدير خطورتها. وسرعان ما سنجد أننا نتعامل مع عدد كبير من المتغيرات وأنه بالنسبة إلى مجتمعات معينة درست في أنظمتها القديمة تجتمع هذه المتغيرات على نحو متنوع وبنسب مختلفة وأنه في حالات معينة تغيب كما يبدو متغيرات معينة تماماً أو تكاد تغيب. ومن غير المحتمل أن نجد في كل الحالات التي ندرسها علامة واضحة موجودة في كل مكان لكي نتمكن من القول: عندما تجد كذا أو كذا

(*) مصطلح يستخدم في اللغة الإنكليزية لصراعات أو حروب الأمم الثلاث التي شكلت سلسلة متشابكة من الصراعات في اسكتلندا وايرلندا وإنكلترا بين عامي 1639 و1651 بعد أن أصبحت هذه البلدان الثلاثة تحت "الحكم الشخصي" للعاهل نفسه. وقد أصبحت الحرب الأهلية المثال الأشهر لهذه الصراعات وكانت هذه الحروب حصيلة التوترات بين الملك وأتباعه بسبب مسائل دينية ومدنية. كما يطلق المصطلح أحياناً على هذه الحروب وعلى الثورة في الهند عام 1857 والحرب الأهلية الأميركية 1861-1865.

في مجتمع ما فإنك تعرف أن ثورة ستنشب بعد شهر أو سنة أو عقد أو أي وقت في المستقبل. على العكس من ذلك/ تميل الأعراض إلى الكثرة والتنوع وهي غير منتظمة في نمط متسم بالتنسيق. ونكون محظوظين لو أنها شكلت، إذا استعرنا مصطلحاً طبياً آخر، متلازمة قابلة التمييز.

1. جوانب الضعف، الاقتصادية والسياسية

بوصفنا أطفالاً طيبين في عصرنا لا بد أن نشرع في أية دراسة كهذه بالوضع الاقتصادي. مهما قد يكون لدينا من التعاطف مع الشيوعية المنظمة فإننا جميعاً نكشف عن مدى تأثير ماركس في الدراسات الاجتماعية - والتأثيرات في ماركس - بسبب الطبيعة التي نوجه بها سؤالنا: "ما صلة المصالح الاقتصادية بالأمر كله؟" ومنذ دراسة بيرد(*) لدستورنا يبدو أن الكثيرين من الباحثين الأميركيين اعتقدوا أن هذا هو السؤال الوحيد الذي يحتاجون إلى توجيهه.

لا جدل أنه في كل المجتمعات الأربعة التي ندرسها في هذا الكتاب شهدت السنوات التي سبقت نشوب الثورة مشاكل اقتصادية أو مالية خطيرة من نوع خاص. كان أول عاهلين من آل ستيوارت(**) في صراع دائم مع البرلمان

(*) تشارلز أوستن بيرد (1874 - 1948) مؤرخ أميركي يحظى بتقدير كبير نشر مئات المقالات والكتب والدراسات في التاريخ وعلم السياسة وقد اشتهر بكتابه الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الذين آمن أنهم كانوا مدفوعين بمبادئ الاقتصاد أكثر من مبادئ الفلسفة.

(**) آل ستيوارت هم الملوك الأوائل للمملكة المتحدة. حكموا اسكتلندا من 1371 حتى 1603 وحكموا إنكلترا من 1603 حتى 1714. وأصبح جيمس الأول ابن ماري ملكة اسكتلندا ملكاً على إنكلترا بعد موت عمته الملكة اليزابيث الأولى عام 1603 واتخذ لقب جيمس الأول وخلفه ابنه تشارلز الأول الذي أعدم في ثورة كروموبل وخلفه ابنه تشارلز الثاني الذي كان قد هرب إلى فرنسا أثناء الحرب الأهلية قبل أن يتولى العرش. وقد شهدت فترة حكم آل ستيوارت ازدهار ثقافة البلاط وكذلك القدر الكبير من الاضطراب وعدم الاستقرار والطاعون والحرائق والحروب .

بسبب الضرائب. وشهدت السنوات التي سبقت 1640 شكاوى بسبب ضريبة السفن (Ship Money)(*) والتبرعات الإلزامية للملك (benevolences) والرسم الطني (tonnage) والضريبة التي تدفع بالجنيه الإنكليزي (الباوندية poundage)(**) ومصطلحات أخرى تبدو غريبة لنا في الوقت الحاضر إلا أنها جعلت بطلاً من سيد واسع الثراء من مقاطعة بكنغهمشير اسمه جون هامبدن. وليس الأميركيون في حاجة إلى تذكيرهم بدور مشاكل فرض الضرائب على مر السنين في السنوات التي سبقت الرصاصة التي أطلقت في كونكورد وتحدت كل قوانين علم الصوت. وقد يرفض كل المؤرخين في العصر الحديث مقولة "لا ضرائب بدون تمثيل" بوصفها لوحدها تفسيراً لبدايات الثورة الأميركية غير أن الحقيقة تبقى أنها كانت قبل العقد الثامن من القرن الثامن عشر شعاراً قادراً على دفع أجدادنا إلى التحرك. وفي عام 1789 عجلت الدعوة إلى اجتماع الطبقات الثلاث في فرنسا بالثورة التي أصبحت محتمة بسبب وضع الحكومة المالي السيء(*). وفي روسيا لم يبرز الانهيار المالي عام 1917 لأن النظام القيصري كان قد حقق انهياراً شاملاً في كل مجالات النشاط الاجتماعي من الحرب حتى إدارة القرى. غير أن ثلاثة أعوام من الحرب ألقت قدراً هائلاً من الضغط على المالية الروسية بحيث إنه على الرغم من مساعدات الحلفاء كانت

(*) ضريبة فرضها الملك تشارلز الأول بدون موافقة البرلمان وتعد من أسباب الحرب الأهلية. وكان ملوك إنكلترا يمارسون حق إجبار المدن والأقاليم الساحلية تزويد السفن لحماية إنكلترا من الغزو في زمن الحرب غير أنها تعفى من هذا الالتزام مقابل تسديد مبلغ معين. وقد فعل ذلك لأنه بعد طرد البرلمان لم يعد يحصل على الضرائب.

(**) رسم جمركي طبق عام 1302 وألغي عام 1787.

(***) ضمت الطبقات الثلاث فئة رجال الدين، النبلاء، والطبقة العامة ومنها الفلاحون والعمال والطبقة الوسطى وكانت الطبقة الثالثة مستاءة من الامتيازات الخاصة بالطبقتين الأخريين وكانت مصدر معظم الدخل الضريبي للبلاد بينما أعفي رجال الدين والنبلاء من دفع معظم الضرائب. وكان الكثيرون من الفئة الوسطى غير راضين عن وضعهم الاجتماعي على الرغم من أنهم يكونون العمود الفقري للمجتمع الفرنسي ومنهم بخاصة التجار والمحامون وموظفو الحكومة. وكان الاجتماع أول اجتماع منذ عام 1614.

الأسعار المرتفعة وندرة المواد بحلول عام 1917 العاملين البارزين في التوتر العام.

غير أنه في كل تلك المجتمعات كانت الحكومة هي التي تواجه مشاكل مالية وليس المجتمعات نفسها. ولكي نضع المسلة على نحو سلبي لم تنشب ثوراتنا مع اقتصاديات متدهورة أو في مجتمعات تشهد بؤسا أو كساداً اقتصادياً واسع الانتشار وطويل الأمد. ولن تجد في مجتمعات العهد البائد أي شيء يشبه الأزمة الاقتصادية الواسعة النطاق. ومن الطبيعي في حالة معينة أن المعيار الذي يقاس الفقر أو الكساد وفقاً له يجب أن يكون مستوى المعيشة المقبول إلى حد ما لمجموعة معينة في وقت معين. إن ما كان يرضي فلاحاً إنكليزياً عام 1940 يعني البؤس والفاقة لعامل زراعي إنكليزي عام 1965. ومن الممكن أن مجموعات معينة في مجتمع ما في فاقة غير اعتيادية حتى لو أن الفكرة المجردة "المجتمع ككل" يتمتع إحصائياً بـ "دخل وطني" متزايد - ومجرد على نحو متساوٍ تقريباً. لقد بين جيمس ديفيز(*) في مجلة علم الاجتماع الأميركية (المجلد 27) أن ما يستثير مجموعة ما إلى مهاجمة حكومة ما ليس مجرد الفاقة أو البؤس بل وجود "فجوة بين ما يريد الناس وما يحصلون عليه" وأن الثورات غالباً ما تنشأ أثناء فترات الكساد الاقتصادي التي تعقب فترات ارتفاع مستويات المعيشة عموماً.

كانت فرنسا عام 1789 مثالاً لافتاً لمجتمع ثري ذي حكومة فقيرة الموارد. كان القرن الثامن عشر قد بدأ جمع الإحصاءات عن نفسه وعلى الرغم من هذه الإحصاءات لا ترضي عالم اقتصاد حديث إلا أنها تجعلنا متأكدين من ازدياد ثروة فرنسا في القرن الثامن عشر. وتظهر أي سلسلة من المؤشرات - التجارة الخارجية، النمو السكاني، البناء، الصناعات، الإنتاج الزراعي - اتجاهاً

(*) جيمس شاوننغ ديفيز (1918 -) عالم اجتماع أميركي وأستاذ متمرس في جامعة أوريغون ومن أبرز دعاة نظرية الثورات السياسية التي تعزو الحركات الثورية إلى تصاعد التوقعات الفردية وانخفاض مستويات الرفاهية المتوقعة.

تصاعدياً عاماً طوال القرن الثامن عشر. وثمة بعض الأمثلة: كان يجري حرث الأراضي البور في كل أنحاء فرنسا وفي منطقة ميلون(*) وحدها قلصت مساحة الأرض المزروعة من 500.14 إلى 000.10 فدان في سنتين من 1783 حتى 1785 وضاعفت روان إنتاجها من الملابس القطنية في جيل واحد. وكانت التجارة الخارجية الفرنسية قد زادت إلى نحو مائة مليون ليرة عام 1787 في السنوات الاثنتي عشرة منذ وفاة الملك لويس الخامس عشر عام 1774.

يمكننا أن نميز حتى في الإحصاءات الناقصة تباينات دورية قصيرة الأمد ويبدو واضحاً أن 1788–89 كانت سنة سيئة من بعض النواحي. غير أنها لم تكن سنة الدرك الأسفل في النشاط الاقتصادي كما كان عام 1932 في الولايات المتحدة. ولو أن رجال الأعمال في فرنسا في القرن الثامن عشر قد احتفظوا بمخططات ووضعوا رسوماً بيانية لشهدت الخطوط ثباتاً مرضياً طوال معظم الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية. إلا أن هذه الرفاهية لم تكن بالتأكيد على نحو متساو. ويبدو أن حصة الأسد كانت للتجار وأصحاب المصارف ورجال الأعمال والمحامين والمزارعين ما لكي مزارعهم كرجال أعمال - الطبقة الوسطى كما صرنا نطلق عليها. وكان هؤلاء الأثرياء هم الأكثر انتقاداً للحكومة في عقد الثمانينات من القرن الثامن عشر والأكثر تردداً في إنقاذها بتسديد الضرائب أو إقراضها الأموال.

غير أن المفهوم يبقى بأن الرجال الذين صنعوا الثورة الفرنسية لابد أن يكونوا على نحو ما قد عانوا كثيراً من الحرمان الاقتصادي. وقد سعى باحث معاصر بارز هو سي.أ. لابروس(**) إلى إثبات أنه كانت ثمة ضغوط تتعلق بالأسعار على رجل الشارع ومتوسط الحال بحيث دفعتهما الحاجة الفعلية أو مشقة الحياة في الأقل إلى الثورة. وعلى الرغم من بحثه المتسم بالجد فإن

(*) Melun منطقة في الضواحي الجنوبية الشرقية لباريس.

(**) كميل ارنست لابروس: عالم فرنسي له بحوث في تاريخ فرنسا الاقتصادي.

فرضيته العامة غير مقنعة تماماً. وتحتاج فرضيته على أفضل تقدير إلى إعادة الصياغة وفق ما اقترحه جيمس ديفيز المشار إليه في الصفحة السابقة.

وفي أميركا طبعاً مع وجود قارة فارغة متوافرة للفقراء تشير الظروف الاقتصادية العامة في القرن الثامن عشر إلى ازدياد الثروة وعدد السكان مع أن الضيق الاقتصادي مسألة نسبية صرف. ولا يمكن الحديث عن وجود مجاعة وفقر مدقع في نيو إنكلاند حيث قانون الطابع(*). وحتى التغيرات البسيطة في دورة الأعمال في السنوات الأولى من العقد الثامن من القرن الثامن عشر سنوات ازدهار على نحو واضح. وكان هنالك ضيق وضغوط اقتصادية في المستعمرات الأميركية، كما سنرى، إلا أنه لم تكن أية طبقة مسحوقة تنوء في ظل الفقر.

وليس سهلاً القول إن إنكلترا في بداية حكم آل ستيوارت أقل ازدهاراً من إنكلترا في أواخر عهد آل تيودور، بل توجد أدلة على أن إنكلترا، خصوصاً في سنوات الحكومة الشخصية قبل البرلمان الطويل(**)، كانت مزدهرة على نحو ملحوظ. وقد كتب رامزي موير(***) قائلاً: "لم تعرف إنكلترا ازدهاراً أكثر ثباتاً وأكثر انتشاراً وكان عبء الضرائب أقل من أي بلد آخر. ولم تكن الثورة الوشيكة بسبب ضيق اقتصادي".

وحتى في روسيا عام 1917، باستثناء الانهيار المروع للجهاز الحكومي بتأثير الحرب، فإن القدرة الإنتاجية للمجتمع عموماً كانت بالتأكيد أكبر من أي وقت سابق في تاريخ روسيا، وإذا اتخذنا النظرة الطويلة ثانية فإن الرسوم البيانية

(*) شرع البرلمان البريطاني قانون الطابع عام 1765 على الرغم من تحذيرات المعارضة. وقد فرض إلصاق الطوابع على كل العقود والمعاملات الرسمية والمطبوعات في المستعمرات الأميركية التابعة لبريطانيا مما أثار سخطاً واسعاً فيها وألغي عام 1766.

(**) دعا الملك تشارلز الأول البرلمان إلى الانعقاد عام 1640 وهو البرلمان الذي اتهم الملك بالخيانة العظمى وأمر بإعدامه عام 1649 واستمر هذا البرلمان 21 عاماً.

(***) رامزي برايس موير (1872-1941) مؤرخ بريطاني وسياسي ومفكر ليبرالي قدم مساهمة كبيرة في تطوير الفلسفة السياسية الليبرالية في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

في روسيا كانت كلها في تصاعد في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وكان التقدم واضحاً في التجارة والإنتاج منذ الثورة الفاشلة عام 1905. ولا يكاد أي مؤرخ ماركسي حالياً يشكك في حقيقة أن روسيا في فترات مجالس الدوما الثلاثة الأولى (1906-1912) كانت في صعود كمجتمع غربي. كانت روسيا عام 1917 متخلفة بالمقارنة مع الغرب إلا أنها كانت تتقدم سريعاً نحو النضج الاقتصادي.

إذاً من الواضح أن ثوراتنا لم تنشب في مجتمعات منتكسة اقتصادياً. وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، أنها نشبت في مجتمعات متقدمة اقتصادياً. ولا يعني هذا طبعاً أنه كانت للمجموعات في تلك المجتمعات مظالم ذات طابع اقتصادي بخاصة. تبرز بؤرتان رئيسيتان للدوافع الاقتصادية للسخط. الأولى والأقل أهمية هي البؤس الفعلي لمجموعات معينة في مجتمع ما. ولا ريب في كل مجتمعاتنا حتى في أميركا كانت هنالك مجموعة شبه هامشية تضم الفقراء يكون إطلاقهم من أشكال معينة من الضغط سمة مهمة للغاية للثورة نفسها.أما في دراسة العلامات الأولية للثورة فإن هؤلاء الفقراء غير مهمين جداً.

وقد أكد المؤرخون الجمهوريون الفرنسيون طويلاً أهمية الحصاد السيئ عام 1788 والشتاء البارد في 1788-89 ومعاناة الفقراء نتيجة لذلك. كانت أسعار الخبز مرتفعة نسبياً في الربيع الذي اجتمع في الطبقات العامة. وكان هنالك كما يبدو تضييق على ظروف الأعمال في أميركا في 1774-75 إلا أنه لم يكن هنالك بالتأكيد ضغط أو بطالة على نطاق واسع. وكانت المعاناة المحلية الشديدة في بوسطن في ظل قانون الموانئ(*) في الواقع جزءاً من الثورة نفسها وليست علامة عليها. وكان شتاء 1916-17 شديداً بالتأكيد في روسيا وكان توزيع الغذاء مقنناً في كل المدن.

غير أن الأمر المهم الملاحظ هو أن التاريخ الفرنسي والتاريخ الروسي

(*) مرر البرلمان البريطاني قانون ميناء بوسطن في 31 مارس/آذار 1774 بالإجماع تقريباً وأدى هذا القانون إلى فصل الشعب الأميركي عن بريطانيا.

حافلان بانتشار المجاعة والطاعون والحصاد السيء على النطاق المحلي وأحياناً على نطاق البلاد كلها ورافقت الكثير منها أعمال شغب ولكن لم ترافقها الثورة إلا في حالة واحدة. ولا نجد لا في الثورة الإنكليزية ولا في الثورة الأميركية حتى هذه الدرجة من الفاقة أو المجاعة. وكانت أسوأ مجاعة في التاريخ الغربي الحديث هي مجاعة البطاطس في أيرلندا في عقد الأربعينات من القرن التاسع عشر وقد زادتها المرارة المستمرة بين أفراد الشعب الايرلندي إلا أنها لم تسفر عن ثورة. لذا من الواضح أن العوز الاقتصادي بين المعدمين ليس من العلامات التي نحتاج إلى إمعان النظر فيها. ويقر الماركسيون الأكثر تدقيقاً أنفسهم بذلك وقد كتب تروتسكي: "في الواقع، إن مجرد وجود الفاقة لا يكفي لإحداث عصيان مسلح. ولو أن الأمر كذلك لكانت الجماهير دوماً في حالة تمرد".

الأمر الأكثر أهمية هو وجود شعور بين مجموعة ما أو مجموعات بأن الظروف السائدة تقيد أو تعيق نشاطها الاقتصادي. ونحن نعي بخاصة هذا العنصر في ثورتنا الأميركية. وقد بين أ. م. شليزنغر الأب(*) كيف قاد التجار الموسرون، الذين تضررت مصالحهم المباشرة بسبب السياسة الاستعمارية الجديدة للحكومة البريطانية، احتجاجات ضد تشريعات عام 1764 و 1765 وساعدوا في إثارة النقمة بين الأقل ثروة إلا أنهم وجدوا ذلك مربكاً بعض الشيء. كما أنه لا شك كان للكثير من النقاط المستقرة في السياسة المتسمة بالكثير من عدم التساوي والتأرجح للحكومة البريطانية - قانون الطابع والاضطرابات اللاحقة والنية المعلنة بفرض قانون الملاحة البحرية وغيرها - آثار سيئة مؤقتة في الأعمال وسببت ازدياد البطالة.

إن تأثير الدوافع الاقتصادية للتمرد بين الطبقات المالكة التي كانت تميل عادة إلى دعم المؤسسات القائمة واضح خصوصاً بين أرستقراطيي المناطق

(*) آرثر ماير شليزنغر (1888-1965) مؤرخ أميركي ورائد التاريخ الاجتماعي. أكد على الأسباب المادية من مثل الربح الاقتصادي وقلل من أهمية الأيديولوجيا والقيم كدوافع وكان واسع التأثير في جامعة هارفرد. كان محرر "تاريخ الحياة الأميركية" (1928 - 43).

الساحلية في فيرجينيا. كانوا يعتمدون عموماً على محصول واحد (التبغ) وتعودوا على مستوى معيشة عال وكانت ديونهم في ازدياد لأصحاب المصارف في لندن وكان الكثير من المزارعين يأملون استعادة حظوظهم في الأراضي الغربية التي كانوا يعدونها لهم. وتجعل مشاركة جورج واشنطن نفسه في المضاربات على الأراضي الغربية من المواضيع المفضلة لدى مدعي الملكية. إلا أنه بإصدار قانون 1774 وضعت الحكومة البريطانية يدها على الأراضي عبر أليغني(*) في شمالي أوهايو من فيرجينيا والمستعمرات الأخرى وأدمجتها مع كندا. وقد أدى هذا القانون إلى تظلم آخرين علاوة على المزارعين-المضاربين. وأثار غلق هذه الحدود استياء الطبقة الأكثر ميلاً عادة إلى التمرد - سكان الغابات وتجار الفراء والمزارعين الذي كانوا أقل قلقاً بعض الشيء من المزارعين الرواد الذين كانوا قد احتلوا الوديان في منطقة الأبلاش وكانوا مستعدين للتدفق على منطقتي كنتاكي وأوهايو. إن قانون كيبيك(**) نفسه لا يفسر نشوب الثورة الأميركية، إلا أنه بالإضافة إلى سلسلة طويلة من القوانين الأخرى وقانون الطابع وقانون الملاحة وقانون السكر يعد سبب الشعور الواضح لدى المجموعات النشيطة والطموحة في أميركا بأن الحكم البريطاني كان قيداً غير ضروري ومتقلباً وعقبة في وجه نجاحها في الحياة.

شهدت السنوات قبل عام 1789 في فرنسا سلسلة إجراءات أثارت نقمة مجموعات مختلفة. عرضت الحكومة بيد على نحو متسم بالخرق الشديد ما سحبته باليد الأخرى. أغاضت جهود الإصلاح الضريبي، التي لم تنفذ بالكامل، المجموعات ذات الامتيازات بدون أن ترضي المجموعات المحرومة من الامتيازات. وأثارت محاولة تورغو(***) تطبيق سياسة عدم التدخل الحكومي

(*) نهر أليغني رافد مهم من روافد نهر أوهايو يمر عبر ولايتي نيويورك وبنسلفينيا حالياً.

(**) أصدر البرلمان البريطاني قانون كيبيك عام 1774 الذي تضمن الاستيلاء على جزء من الأراضي لسكان الهنود الأصليين الواقعة في عدة ولايات حالياً.

(***) تورغو (1727 - 1781) اقتصادي فرنسي تولى منصب وزير المالية عام 1774.

سخط المصالح الراسخة وأدى فشله في استمرار الإصلاحات إلى سخط المفكرين والتقدميين عموماً. وأضرت المعاهدة المشهورة مع إنكلترا لتقليل الرسوم على البضائع المستوردة بالمنسوجات الفرنسية وزادت انتشار البطالة في نورمندي وأقاليم أخرى وأضافت مظلمة ضد الحكومة إلى طبقة أرباب العمل. كما لا يوجد شك أن محاولة بعث أشكال عقيمة من الضرائب في إنكلترا في القرن السابع عشر بدت في نظر تجار لندن أو بريستل خطراً على ازدياد ازدهارهم وأهميتهم.

وهكذا نجد أن مظالم اقتصادية معينة - عادة ليس في شكل عوز اقتصادي بل شعور لدى بعض المجموعات الرئيسية صاحبة المشاريع أن فرص النجاح في هذا العالم تقيد على نحو غير مناسب بسبب ترتيبات سياسية - تبدو من أعراض الثورة. ولا بد أن تصعد هذه المشاعر طبعاً إلى مستوى اجتماعي فعال من خلال الدعاية وفعل مجموعات الضغط والاجتماعات العامة وبعض حوادث الشغب المثيرة من مثل حفلة شاي بوسطن(*). وكما سنرى كان لا بد من جعل هذه المظالم مهما كانت قريبة من الدخل محترمة وتمس الروح. وربما يقال إن ضريبة الدخل الأميركية هي الآن ضريبة "سيئة" مثل أية ضريبة في فرنسا في العهد القديم وكان واضحاً أنها أثارت حنق الكثير من الأميركيين. غير أنه على الرغم من خطبة أدموند ويلسن(**) اللاذعة لا يبدو أنهم كانوا ساخطين أخلاقياً بسبب الضريبة. قد يثور الناس على نحو جزئي أو حتى رئيسي لأنهم يتعرضون للتعويق أو، إذا استعرنا كلمة الدكتور جورج بيتي المعبرة، لأنهم متشنجون في نشاطاتهم الاقتصادية. إلا أنهم بدوا مظلومين في نظر العالم -عدا عدد قليل للغاية من المنافقين في نظر أنفسهم كذلك - . ولا بد أن يمر "التشنج" بتغيير

(*) حفلة شاي بوسطن (1773) التي تسلل خلالها ثلاثة من سكان مدينة بوسطن إلى ثلاث سفن في الميناء وأفرغوا حمولتها من الشاي في الماء احتجاجاً على الضريبة التي فرضتها الحكومة البريطانية على الشاي المستورد إلى المستعمرات الأميركية.

(**) أدموند ويلسن (1895 - 1972) كاتب وناقد ومعلق اجتماعي أميركي.

أخلاقي قبل أن يتمرد الناس. إن الثورات لا يمكن أن تتخلى عن :العدل والمشاعر التي يثيرها.

إلا أن هذا كله أقل مما يبدو أن الماركسيين يقصدونه عندما يتحدثون عن ثورات القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر بوصفها الفعل المتعمد للبرجوازية ذات الوعي الطبقي. وبدون حيازة منفعة مؤلفات ماركس ولا مؤلفات آدم سميث(*) الذي كان ما يزال معروفاً على نحو محدود إذاك استخدم ثوار القرن السابع عشر والساخطون لغة غير اقتصادية بالمرة. ومن الطبيعي أن الماركسي، بمساعدة فرويد، يستطيع الرد على نحو متقن بأن الباعث الاقتصادي قد دفع هؤلاء البرجوازيين إلى مستوى اللاوعي أو دون الوعي. غير أننا إذا قيدنا أنفسنا بما قاله وما فعله هؤلاء البرجوازيون نجد أدلة كثيرة جعلت تلك المجموعات المنفصلة - التجار الأميركيون، على سبيل المثال - تشعر بظلم اقتصادي محدد ولكننا لا نجد علامات على أن البرجوازيين وأصحاب المشاريع ورجال الأعمال كانوا يدركون أنهم كطبقة أعاقت الترتيبات "الإقطاعية" القائمة توسعهم الاقتصادي. وقد استاء الكثير من رجال الأعمال في فرنسا حقاً بسبب معاهدة التجارة شبه الحرة عام 1786 مع إنكلترا أكثر من أية خطوة حكومية أخرى. ومن المؤكد أن المرء لا يجد أي أثر لرجال في إنكلترا أو أميركا أو فرنسا يقولون: "الإقطاع المنظم يمنع انتصار رأسمالية الطبقة الوسطى. فلنثر ضده". ولم يكن في أي من هذه البلدان الثلاثة قبل الثورات أي حواجز اقتصادية غير عادية تمنع الشخص الذكي، حتى في الطبقات الدنيا، من جمع الثروة إذا امتلك مواهب كسب المال. ويدل العشرات على ذلك من مثل باريس - دوفرني(**)، فولتير، أدموند

(*) آدم سميث (1723 - 1790) فيلسوف أخلاقي وعالم اقتصاد سياسي اسكتلندي يعد مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي ومن الشخصيات الرئيسية في الحركة الفكرية المعروفة بعصر التنوير الاسكتلندي. درس في جامعتي غلاسكو وأكسفورد وأبرز مؤلفاته ثروة الأمم ذو التأثير الواسع.

(**) باريس- دوفرني صيرفيان فرنسيان طورا شركتهما لتصبح ذات قوة سياسية وموﻻ جيوش لويس الرابع عشر في مطلع القرن الثامن عشر. وقد ساعدا فولتير على الاستثمار والمضاربة وكانا من أصحاب المصارف الذين ساعدهم فولتير.

بيرك(*)، جون لو(**)، جون هانكوك(***). ولا يستطيع المرء حقاً إنكار وجود التناقضات الطبقية في تلك البلدان إلا أننا بقدر ما يمكننا التقدير لا يبدو أن لهذه التناقضات الطبقية قاعدة اقتصادية واضحة. وفي روسيا القرن العشرين كان يعبر عن هذه التناقضات في لغة علم الاقتصاد الماركسي ولو أن الأرجح أننا سنجد هنا مشاركة المشاعر البشرية والمصالح البشرية كذلك.

خلاصة ما ورد أعلاه، إذ نفحص الحياة الاقتصادية في تلك المجتمعات في السنوات التي سبقت الثورة نلاحظ أولاً أن هذه المجتمعات كانت مزدهرة عموماً، وثانياً أن حكوماتها تفتقر إلى الأموال على نحو مزمن أي أكثر مما تكون عليه معظم الحكومات، وثالثاً أن مجموعات معينة كانت تشعر أن السياسات الحكومية تعادي مصالحها الاقتصادية المعينة، ورابعاً باستثناء روسيا فإن المصالح الاقتصادية الطبقية ليست متقدمة على نحو متقدم في الدعاية كدافع لمحاولة قلب الترتيبات السياسية والاجتماعية القائمة. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ هنا أن ر. ب. مريمان(****) في دراسة لست ثورات في القرن السابع عشر في إنكلترا وفرنسا وهولندا وإسبانيا والبرتغال ونابولي يجد أنها تشترك جميعاً في أصل مالي فقد بدأت كلها كاحتجاجات ضد الضرائب.

وإذا تحولنا عن ضغوط وأعباء الحياة الاقتصادية إلى الأعمال الفعلية للجهاز الحكومي نجد حالة أوضح كثيراً. هنا يجب ألا نفترض الكمال كحالة عادية. الحكومة هنا على الأرض شيء جاهز وسريع بل توجد درجات من عدم

(*) أدموند بيرك (1729 - 1797) سياسي وخطيب بريطاني عرف بعدائه للثورة الفرنسية وخطبه الطويلة في البرلمان.

(**) جون لو (1671 - 1729) عالم اقتصاد اسكتلندي آمن أن النقود هي وسيلة التبادل الوحيدة التي لا تمثل الثروة بحد ذاتها وأن الثروة الوطنية تعتمد على التجارة وعرف بأنه مسؤول عن تبني واستخدام النقود الورقية في العالم.

(***) جون هانكوك (1737 - 1793) أحد الموقعين على إعلان الاستقلال الأميركي عن ولاية مساشوستس وانتخب حاكماً لها.

(****) ر.ب. مريمان مؤرخ أميركي له كتاب نشوء الإمبراطورية الإسبانية في العالم القديم و ست ثورات معاصرة و حياة ورسائل توماس كرومويل.

الكفاءة الحكومية ودرجات من الصبر من جانب المحكومين. ويبدو أن الحكومات في المجتمعات الأربعة موضوع البحث كانت غير كفء نسبياً وكان المحكومون نافدي الصبر نسبياً.

وفي الواقع أن الإفلاس الوشيك لحكومة ما في مجتمع مزدهر قد يعتبر دليلاً مسبقاً جيداً على عدم كفاءتها، على الأقل في الماضي عندما كانت الحكومات تتولى أداء خدمات اجتماعية قليلة. إن فرنسا في عام 1789 مثال لافت لمجتمع لم تعد حكومته تعمل جيداً. وطوال عدة أجيال كان الملوك ووزراؤهم يكافحون الميول الخاصة للأقاليم للتخلص من سيطرة باريس بإقامة سلسلة من مؤسسات الحكم المركزي التي يمكن القول إنها تدار من رسل ولي الأمر من شارلمان(*) إلى معتمدي ريشليو(**) ولويس الخامس عشر. إلا أنهم كما لو كانوا أنكلو سكسونيين إذ لم يدمروا سوى القليل من القديم في العملية بحيث إن فرنسا عام 1789 كانت مثل العلية الملأى بكل أنواع الأثاث - بما في ذلك بعض الكراسي الرائعة التي لا تناسب غرفة الجلوس. ولسنا في حاجة إلى الخوض في تفاصيل الوضع الذي يمكن تلخيصه بالقول إنه مثلما يمكنك رسم خريطة للولايات المتحدة تبين فيها كل المناطق الإدارية - البلدات والمقاطعات والولايات - لا يمكن رسم خريطة واحدة للمناطق الإدارية لفرنسا القديمة. وحتى التشويش المضاف إلى خريطة إدارية للولايات المتحدة بالهيئات الاتحادية والوكالات والإدارات الجديدة نسبياً لا يبدأ في معادلة الوضع في فرنسا عام 1789. ويحتاج المرء إلى ما لا يقل عن ست خرائط لغرض تحديد كل الوحدات الكثيرة المتقاطعة.

(*) شارلمان أو شارل الأول أو شارل الأكبر (742-814) ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب الذي رعى الحضارة الأوروبية ووسّع سيطرة الكنيسة وحسن ظروف المعيشة في مملكته وأدخل نظام الإقطاع وقد تولى الحكم بعد شارل مارتل الذي صد تقدم الفتح الإسلامي في معركة بواتيه (732).

(**) الكاردينال ريشليو (1585-1642) الوزير الأول وحاكم فرنسا الفعلي ومؤسس الأكاديمية الفرنسية.

كل ذلك يعني أنه كان صعباً في فرنسا في القرن الثامن عشر جعل الحكومة تتصرف وهي مشكلة من أهم أشكال "التشنج" كما يصفه الدكتور ببتي آنفاً. وتروى عن الملك لويس الخامس عشر حكاية ذات مغزى ولو أنها ليست ذات أهمية تاريخية فعلية لأنها تمثل الرأي المعاصر لحالة راسخة. تذكر الحكاية أن جلالته كان يتجول في الأقاليم عندما لاحظ تسرب مياه في قاعة بلدة أو بناية مشابهة كان مقرراً استقباله فيها فعلق قائلاً: "آه، لكم أتمنى لو كنت وزيراً لأصلح العيب". ربما كانت الحكومة التي تروى عنها مثل هذه الحكاية مستبدة غير أن من المؤكد أنها غير كفء. ويبدو عموماً أن من يدركون عدم الكفاءة على نحو أسهل هم من يعانون منها أكثر مما يعانون من الاستبداد.

كان عدم كفاءة الحكومة الإنكليزية في عهد أول عاهلين من آل ستيوارت أقل وضوحاً بكثير إلا أنه يمكن للمرء القول إن الحكومة المركزية لم تكن تدار جيداً، خصوصاً في عهد جيمس الأول، مثلما كانت تدار في عهد اليزابيث. والأمر اللافت للاهتمام في حالة إنكلترا كون النظام الضريبي المستند إلى الحاجات المتواضعة لحكومة مركزية إقطاعية غير ملائم كلياً لحكومة حديثة. كانت حكومة جيمس الأول في بداية التحول إلى حكومة حديثة وتقديم خدمات اجتماعية أولية معينة والاعتماد على بيروقراطية وجيش محترف وبحرية كان يجب تسديد تكاليفها نقداً. لم تكن الحاجة المزمنة للأموال التي واجهت جيمس الأول وتشارلز الأول نتيجة الحياة الحافلة بالاستهتار وتبذير البلاط بل سببتها نفقات لم يكن في مقدور أية حكومة حديثة تجنبها. وعلى الرغم من ذلك كان الدخل عموماً يحدد ويجمع بطرائق قديمة تعود إلى العصور الوسطى. كان آل ستيوارت في حاجة إلى الأموال إلا أن محاولاتهم ملء خزائنهم كانت خرقاء، وسائل لا تكاد تفي بحاجات العيش الأساسية وقادتهم إلى نزاعات حادة مع الوحيدين الذين كان في وسعهم الحصول على المال منهم بسهولة وهم الطبقة الارستقراطية والطبقة الوسطى. وأدت صراعاتهم مع البرلمان إلى إرباك الجهاز الحكومي في إنكلترا كله.

وفي أميركا كان فشل جهاز الحكومة مزدوجاً. أولاً، سمح للإدارة المركزية

للمستعمرات في وستمنستر بالتوسع على نحو يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً. كان محبو إنكلترا يعدون منذ زمن بعيد قمة الحكمة السياسية. إلا أنه في هذه الأزمة كان واضحاً أن العلاج غير كاف. ولم تسفر محاولة الإصلاح في الإدارة الاستعمارية عقب حرب السنوات السبع(*) إلا عن ازدياد الأمور سوءاً، كما حدث لمحاولات تورغو تطبيق إصلاحات في فرنسا لأنها نفذت في سلسلة من التقدم والتراجع والتزلف والوعيد والتردد. ثانياً، لم يتكيف الجهاز الحكومي في معظم المستعمرات على نحو مناسب إلى أوضاع الحدود. وشكت المناطق الغربية في مستعمرات عديدة من التزوير في التمثيل والمحاكم والمناطق الإدارية لمصلحة المستوطنات الأقدم المحاذية للمحيط الأطلسي.

أصبح تفكك الإدارة القيصرية شائعاً بحيث يميل المرء إلى الاعتقاد بوجود مبالغة. وإذا تأملنا في العقود التي سبقت عام 1917 - لأننا نبحث في كل هذه البلدان خلفية الثورات وليس نشوبها - يبدو ممكناً القول إن الحكومة الروسية في وقت السلم، على الأقل، ربما كانت تثير قلقاً أكثر من الحكومات الأخرى التي تولينا دراستها. تحقق قدر كبير من التحسن الفعلي في الحكومة الروسية من عهد كاثرين العظمى(**) إلى ستوليبين(***). إلا أنه كان واضحاً من المائة سنة التي سبقت عام 1914. لم يكن في وسع روسيا تنظيم نفسها للحرب وحمل الفشل في الحرب، خصوصاً عام 1905، انهياراً جزئياً لجهاز الإدارة الداخلية. وهنا يجب أن نؤكد على التمسك بالحقائق وتجنب الأحكام التي تسللت إلى

(*) دارت رحى حرب السنوات السبع (1756-1763) بين بروسيا والنمسا وأدت إلى استيلاء بريطانيا على كندا (من فرنسا) وفلوريدا (من إسبانيا) وخسارة فرنسا مستعمراتها في الهند.

(**) كاثرين العظمى (1729- 1796) تولت عرش روسيا عام 1762 وأصلحت الإدارة وانتزعت شبه جزيرة القرم من الدولة العثمانية.

(***) بيوتر ستوليبين (1862-1911) رئيس وزراء القيصر الروسي نيقولا الثاني من 1906 حتى 1911. بذل جهوداً لقمع الجماعات الثورية وتطبيق إصلاحات زراعية هدفت إلى معالجة سخط الفلاحين بخلق طبقة من مالكي الأرض الصغار. يوصف بأنه آخر رجال الدولة الكبار في روسيا وكان له برنامج سياسي محدد وتصميم على تطبيق إصلاحات.

فهمنا لروسيا بحيث نعدها حقائق. ويكفي لأغراضنا ملاحظة أن الانهيار الحكومي الروسي، الذي كان واضحاً عام 1917 وحتى عام 1916، لم يكن واضحاً عام 1912 مثلاً.

أخيراً، إن أمثلة التناسق الواضحة التي يمكننا تسجيلها الجهد المبذول في كل من مجتمعاتنا لإصلاح الجهاز الحكومي. ولا يوجد شيء يتسم بالخطأ أكثر من صورة العهد القديم بوصفه نظاماً استبدادياً غير متبدل ومندفعاً بقوة نحو نهايته في ذروة من عدم الاكتراث الاستبدادي وسط صخب رعاياه الذين أسيئت معاملتهم. كان تشارلز الأول يعمل على "تحديث" حكومته وتطبيق بعض طرائق الفرنسيين الفعالة في إنكلترا. وكان سترافورد(*) في بعض النواحي ريشيليو غير محظوظ. كان جورج الثالث(**) ووزراؤه يسعون بجد إلى أن يجمعوا معاً أجهزة الحكومة الاستعمارية البريطانية. وفي الواقع إن محاولة الإصلاح هذه وهذه الرغبة في إعداد "نظام" استعماري جديد هما اللتان أدتا إلى نشوب الحركة الثورية في أميركا. وكانت هنالك سلسلة من محاولات الإصلاح في فرنسا وروسيا قام بها تورغو ومالشيربس(***) ونيكر(****) وويت(*****) وستوليبين. صحيح أن هذه الإصلاحات كانت ناقصة وأنها نقضت أو ألغيت بالتخريب الذي قام به ذوو الامتيازات غير أنها مسجلة وجزء مهم من العملية اللاحقة في الثورة في تلك البلدان.

(*) ايرل سترافورد (1593- 1641) أذكى وأقدر مستشاري الملك تشارلز الأول. أصبح كبش فداء لمظالم البرلمان وحوكم وأعدم بعد أن تخلى عنه الملك.

(**) ملك بريطانيا جورج الثالث (1738- 1820) حكم من عام 1760 حتى وفاته. شهد عصره اندلاع الثورة الأميركية والثورة الفرنسية وحروب نابليون.

(***) مالشيربس غولدزبورو (1806- 1877) قائد بحري أميركي بارز أدخل تحسينات مهمة في الأكاديمية البحرية وقد دحر الولايات الجنوبية في الحرب الأهلية بحراً.

(****) جاك نيكر (1732- 1804) سياسي ورجل دولة فرنسي تولى منصب وزير المالية في عهد لويس السادس عشر ووضع مشروعاً للإصلاح المالي وهو والد الأديبة والناقدة مدام دو ستايل.

(*****) سيرجي يوليفيتشفيت فيتي (1839- 1915) رجل دولة روسي.

3. انتقال ولاء المفكرين

أولينا اهتماماً حتى الآن بآلية الحياة الاقتصادية والسياسية وحاولنا تمييز علامات أي انهيار وشيك. لنتحول الآن إلى حالة الفكر _ أو الأحرى مشاعر _ المجموعات المختلفة داخل هذه المجتمعات. أولاً قد نوجه السؤال التالي: هل يقابل سوء تنظيم الحكومة بالتنظيم في صفوف خصومها؟ وسنتناول لاحقاً ما تعرف حالياً بـ "مجموعات الضغط"، أي الرجال والنساء في جمعيات ذات أهداف خاصة تمارس كل أنواع الضغط من الدعاية وممارسة التأثير إلى الإرهاب من أجل تحقيق أهدافها. من الواضح أن مجموعات الضغط من هذا القبيل جزء أساسي من كل الدول الحديثة ولا يمكن اعتبار مجرد حقيقة وجودها أنها علامة على الثورة وإلا يجب اعتبار وجود جمعية الرفق بالحيوان ورابطة المؤلفين أو جمعيات أخرى علامات على ثورة أميركية ثانية. يبدو أنه لا يوجد أي اختبار بسيط ووحيد لتحديد متى وفي أي ظروف قد يعد وجود مجموعات الضغط علامة على عدم استقرار سياسي وشيك. إلا أن عقود ما قبل الثورة في مجتمعاتنا الأربعة تظهر شدة الجهود من جانب مجموعات الضغط وهي الجهود الموجهة على نحو متزايد بمرور الوقت نحو التغيير الجذري للحكومة القائمة. وفي واقع الحال تبدأ بعض المجموعات بتجاوز ممارسة التأثير والدعاية إلى التخطيط وتنظيم العمل المباشر أو على الأقل الحلول محل الحكومة على نحو مثير. وهذه بدايات لما عرف لاحقاً بـ "الحكومة غير الشرعية".

تولت لجان التجار في أميركا التي نظمت لمقاومة إجراءات السيطرة الاستعمارية بالقدر الكبير من العمل الهادئ الذي تقوم به مجموعات الضغط الحديثة من الدعاية المباشرة إلى تنظيم مظاهرات شعبية وتعاون بين المستعمرات من خلال القرارات والمؤتمرات وما شابه ذلك. شكلت البداية لتلك الخلايا الثورية الفاعلة ولجان المراسلات التي أدارها سام آدمز جيداً في عقد السبعينات من القرن الثامن عشر. وكانت هنالك منظمات مشابهة بين الفئات الدنيا في السلم الاجتماعي حيث تكاد تشبه حفلات صاخبة في الحانات. وفي العديد من

المستعمرات أمكن استخدام المجالس التشريعية لأداء عمل مجموعات الضغط في المجتمعات الأخرى التي نتولى دراستها. وكان الاجتماع في مدن نيو إنكلاند إطارا جاهزا لهذا النوع من الإثارة.

أظهرت جهود كوشان(*) في فرنسا كيف أن ما أطلق عليه "جمعيات الفكر" وهي مجموعات تجتمع لمناقشة التأثير الكبير لحركة التنوير قد تحولت تدريجياً إلى الإثارة السياسية وساعدت أخيراً في توجيه الانتخابات إلى مجلس الطبقات العامة عام 1789. وعلى الرغم من أن المدرسة الرسمية للمؤرخين في الجمهورية الثالثة كانت لا تثق دائماً بفكرة التخطيط المسبق للثورة الفرنسية الكبرى من الصعب على غير المنتمي إلى الجماعة ألا يشعر أن كوشان قد وضع إصبعه على الشكل الجوهري لعمل مجموعة حولت مجرد الكلام والتأمل إلى عمل سياسي ثوري. ويقر مؤرخو الثورة الفرنسية أنه كان للماسونية دور في الإعداد للثورة. وكان واضحاً أن النشاط الماسوني في فرنسا في القرن الثامن عشر لم يكن مؤامرة شريرة إلا أنه كان حتماً بعيداً عن أن يكون نشاطاً اجتماعياً أو ترفيهياً أو تربوياً صرفاً.

وفي روسيا ازدهرت زمناً طويلاً مجموعات منظمة من كل درجات العداء للأوضاع كما كانت. عبر المؤمنون بالعدمية والفوضوية والاشتراكيون من كل الأنواع واللبراليون وغربيو الثقافة عن أنفسهم بوسائل مختلفة من رمي القنابل إلى التصويت في انتخابات مجلس الدوما. ويدرك المرء من دراسة السنوات الأخيرة من النظام القيصري أن تنوع خصومه وأهدافهم المتناقضة فعلا الكثير لاستمرار ذلك النظام . ومن المؤكد أنه كان للثورة الروسية القدر الكبير من الدعاية المسبقة ودور مجموعات الضغط في التحضير لها واضح على نحو استثنائي.

إنكلترا هنا حالة أقل وضوحاً. وعلى الرغم من ذلك ثمة إشارات لا لبس

(*) أوغستان كوشان (1876- 1916) مؤرخ الثورة الفرنسية. وكانت جمعيات الفكر قد انتشرت في منتصف القرن الثامن عشر في هيئة صالونات وأكاديميات وقاعات محاضرات وغير ذلك.

فيها إلى وجود المعارضة المنظمة للتجار وبعض أفراد الطبقة الأرستقراطية للإجراءات من مثل ضريبة السفن، وكانت الأغلبية البرلمانية التي عارضت الملك تشارلز عقب فترة الحكم الشخصي نتاج مجموعات الضغط الأولى كما تبين نظرة سريعة على المنشورات الكثيرة في ذلك الوقت. كما أن الثورة الإنكليزية كانت آخر الانقلابات الاجتماعية المهمة ضمن السيطرة النشيطة للأفكار المسيحية على وجه التحديد. وكانت مجموعات الضغط الأكثر وضوحاً في إنكلترا في القرن السابع عشر، إلى حد ما، هي حقاً كنائس المتطهرين وخصوصاً الكنائس المستقلة. كان مجرد وجودها خطراً على الملك تشارلز مثلما كان الحزب البلشفي خطراً على القيصر الروسي نيقولا.

ولا بد من القول إن بعض مجموعات الضغط هذه، أي لجان التجار الأميركية وجمعيات الفكر الفرنسية والماسونيين، على سبيل المثال، لم تكن لتعترف في ذروة نشاطها أنها تعمل من أجل القيام بالثورة وحتماً ليس القيام بثورة عنيفة. ربما كان ما يفصلهم عن مجموعات الضغط من مثل الجمعية الأميركية لمنع القسوة ضد الحيوانات أو جمعيات مناهضة اللوحات الإعلانية - التي نؤيد أنها غير متعاطفة مع الثورة - هو هدفها الأساسي من إحداث تغيير جذري في عمليات سياسية مهمة. وهكذا هدف التجار الأميركيون في الواقع إلى قلب سياسة وستمنستر الاستعمارية الجديدة برمتها، وكان الفرنسيون الذين أعدوا انتخابات مجلس الطبقات الثلاث يهدفون إلى "دستور" جديد لفرنسا. ومن الناحية الأخرى تبنت بعض المنظمات الروسية الثورة العنيفة منذ البداية. إلا أن هذه المنظمات لم تكن العناصر المهمة في الوضع الروسي من عام 1905 حتى عام 1917 أكثر مما كان مناهضو القوانين أو الطوائف الدينية الفوضوية في إنكلترا قبل عام 1639 .

كان هنالك إذاً مجموعات ضغط ذات أهداف ثورية إلى حد ما في كل هذه المجتمعات. وينظر إلى نشاطها إزاء خلفية من المناقشات السياسية والأخلاقية التي يبدو أنها كانت حادة على نحو واضح في تلك المجتمعات. ونتناول الآن

أحد أعراض الثورة الذي يبرزه لايفورد أدوارد(*) في كتابه تاريخ الثورة الطبيعي ويصفه بأنه "تحول ولاء المفكرين". إننا نصف المفكرين في هذا السياق بدون قلق مفرط بسبب التزمت بأنهم الكتاب والفنانون والموسيقيون والممثلون والمدرسون والوعاظ. ولا أهمية كبيرة هنا للتقسيم الفرعي إلى مجموعة صغيرة من القادة يشرعون بالعمل أو يبرزون في نظر الجمهور على الأقل وإلى المجموعة الأكبر التي ينكب أعضاؤها على مطالعة المواد التي يحصلون عليها من القادة.

المهم والمحير أحياناً هو الوضع العام للمثقفين في مجتمعنا الغربي منذ العصور الوسطى. ومن الواضح أننا يجب ألا نفترض وجود اتفاق بين المفكرين في هذا المجتمع قبل أن نقرر أن مجتمعاً ما مستقر على نحو معقول. إننا نتوقع في الأزمنة الحديثة أن يختلف المثقفون فيما بينهم وأن يختلفوا حتماً مع غير المفكرين، العامة، الفلسطينيين(**)، البابيتيين(***) أو أي اسم آخر قد يبتكره المثقفون لهم. وعلاوة على ذلك ولأسباب عدة يلتزم الكتاب والمدرسون والوعاظ بتبني موقف نقدي نحو الروتين اليومي للشؤون البشرية. وبالنظر لافتقارهم إلى خبرة العمل تحت عبء المسؤولية فإنهم لا يكتشفون مدى قلة إمكانية أو فعالية العمل الجديد عادة. إن المثقف الذي يشعر بالرضا عن العالم مثل رضاه عن نفسه أو على الأقل عن أفكاره ومثله ليس مثقفاً.

من الناحية الكمية يمكننا القول إنه في مجتمع غير مستقر على نحو ملحوظ

(*) ليفورد ادوارد قس أميركي ولد عام 1882 وألف كتابه عام 1927 وتناول الثورات الأربع نفسها غير أن "تشريح الثورة فاقه شهرة.

(**) Philistines شعب قديم وفد من جزيرة كريت إلى السواحل الجنوبية من فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد قبل قدوم العبرانيين. وتستعمل المفردة كذلك لوصف من يفتقرون إلى الثقافة أو المعادين لها.

(***) البابيتيون هم رجال الأعمال الأميركيون التقليديون الطموحون في عملهم إلا أنهم محليو التفكير وعاديون للغاية ومزهوون بأنفسهم. اشتقت اللفظة من سام إحدى شخصيات رواية بابيت للروائي الأميركي سنكلير لويس (1922)

يبدو أن هنالك حتماً مثقفين أكثر، على كل حال هنالك مثقفون أكثر نسبياً، يهاجمون المؤسسات القائمة ويرغبون في حدوث تحول كبير في المجتمع والأعمال والحكومة. ويمكننا المقارنة على نحو مجازي صرف بين المثقفين من هذا النوع بكريات الدم البيض، حارسة مجرى الدم، غير أنه ربما يوجد فائض من الكريات البيض وعندما يحدث ذلك يعاني المرء من حالة مرضية.

ومن الناحية النوعية قد نلاحظ فرقاً في الموقف تقود إليه جزئياً، بلا شك، أعداد هؤلاء المفكرين ووحدة هؤلاء المفكرين في الهجوم وينتجها جزئياً واقع أكثر دقة. كان في إنكلترا الفكتورية، مثلاً، مجتمع يبدو في توازن إذ نستعيد الماضي أنه كان غير مستقر بعض الشيء ومع ذلك فقد كان توازناً. وهنا انتقد كارلايل جيلاً مدمناً حبوب موريسن(*) بدلاً من التعلق بالأبطال، وعبر ميل(**) عن القلق والتضايق بسبب طغيان الأكثرية ووجد ماثيو آرنولد(***) إنكلترا تفتقر إلى الحلاوة والضوء، وبحث نيومان(****) في روما عن ترياق لسم الليبرالية الإنكليزية، وحث موريس(*****) مواطنيه على تحطيم الآلات والعودة إلى رفاهية القرون الوسطى، وحتى تنيسون(******) كان قلقاً بسبب فشله في الحصول على أي شيء أكثر فائدة من سخط شديد غامض وفلسفي.

كان الكثير من المفكرين في العصر الفكتوري، ولكن ليسوا جميعاً، على

(*) دواء كان يفترض أنه يشفي أو يخفف كل الأمراض.

(**) جون ستيوارت ميل (1806- 1873) فيلسوف وعالم اقتصاد سياسي وبرلماني بريطاني ومفكر ليبرالي له تأثير كبير في القرن التاسع عشر.

(***) ماثيو آرنولد (1822- 1888) شاعر وناقد إنكليزي تناول بخاصة وضع الإنسان الغربي الحديث.

(****) جون هنري نيومان (1801- 1890) عالم لاهوت من زعماء الكنيسة الإنكليزية أنهى حياته كردينالاً في الكنيسة الكاثوليكية.

(*****) ويليم موريس (1834- 1896) فنان وكاتب وشاعر وروائي إنكليزي من رواد الحركة الاشتراكية في بريطانيا.

(******) ألفرد تنيسون (1809- 1892) شاعر إنكليزي يعد من أبرز شعراء العصر الفكتوري.

خلاف فيما بينهم ولم يكن يوحدهم سوى البغض لبيئتهم. إلا أنك عندما تمعن التأمل فيهم ستجد اتفاقاً بينهم غريباً على نحو لافت للنظر على أنه لا يوجد ما يمكن فعله فوراً لمعالجة الأمور. لم يكن هؤلاء الفكتوريون، كما يقال لنا في أحوال كثيرة عن المفكرين السكولاستيكيين (المدرسيين)(*) في القرون الوسطى، على اتفاق على افتراضات ميتافيزيقية ولاهوتية جوهرية. كانوا مختلفين تماماً ولكنهم متفقون على أمور روتينية وعادات في الحياة اليومية أكثر من بعض النواحي ولم يتوقعوا أن الحكومة تغير تلك الأمور. كانوا إلى حد ما مفكرين لامنتمين غير أنهم لم يكونوا مفكرين نقلوا ولاءهم إلى مجموعة أو حزب أو قضية موجهة ضد حكومة قائمة. إن الفرق بين الجو الفكري لمجموعة من مثل الفكتوريين، وهم كتاب لا يمكن القول إنهم ككل غيروا ولاءهم، وبين مجموعة غيرت ولاءها يصبح واضحاً إذا تأملنا تلك المجموعة الشهيرة في فرنسا القرن الثامن عشر التي كانت تقف في قلب حركة التنوير. أولاً يتكون لدى المرء انطباع بوجود عدد هائل من المثقفين الكبار والصغار وكلهم يبحثون مواضيع سياسية وسوسيولوجية وكلهم مقتنعون أن العالم وخصوصاً فرنسا في حاجة إلى التغيير من التفاصيل الصغيرة إلى المبادئ الأكثر أخلاقية والقانونية الأكثر عمومية. وإذا استعرضنا الأسماء - فولتير(**)، روسو(***)، ديدرو(****)، رينال(*****)،

(*) السكولاستيكية (الفلسفة المدرسية) الفلسفة المسيحية السائدة في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة المبنية على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة بعد تعرف الأوروبيين إلى مؤلفاته عن طريق ابن رشد واستهدفت إضفاء الصفة العقلانية وإقامة الدليل على أنه لا تعارض بين العقل والدين وأبرز الفلاسفة السكولاستيكيين توما الأكويني.

(**) فولتير (1694-1778) كاتب وفيلسوف فرنسي ساخر دعا إلى الإصلاح ودافع عن الحرية والمساواة وكرامة الإنسان.

(***) جان جاك روسو (1712- 1778) كاتب وفيلسوف فرنسي أبرز مؤلفاته "العقد الاجتماعي" و "أميل".

(****) ديدرو (1713- 1784) فيلسوف وناقد ومن أبرز محرري الموسوعة الفرنسية.

(*****) غيليوم رينال (1711- 1796) فيلسوف وكاتب فرنسي.

دولباش(*)، فولنيف، هيلفتيوس(**)، دالمبير(***)، كوندورسيه(****)، برناردان دو سان بيير(*****) - نجد أنهم جميعاً متمردون، وجهوا فطنتهم ضد الكنيسة والدولة أو بحثوا في الطبيعة عن حماية كان يجب أن تكون في فرنسا. ولا تكاد تجد محافظين أدباء من مثل سام جونسن(******) أو سير والتر سكوت(*******) أو حتى أدباء محايدين يبحثون في الأدب عن جمال أو فهم خارج السياسة. وحتى الخصوم المنسيون للفلاسفة وحتى المتشائمون الذين ينكرون عقيدة التقدم هم غالباً مثقفون عقائديون متعصبون للعقل شأنهم شأن المتطرفين.

اتسم معظم الأدب في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بأنه سوسيولوجي. وإذا طالعت البقايا المائلة إلى الصفرة من الصحافة الفرنسية في القرن الثامن عشر وحاولت تصور ثرثرة الصالونات والأندية ستجد مجموعة الشكاوى والانتقادات نفسها الموجودة في المؤسسات القائمة. ثمة مرارة وشمول في مجموعة الشكاوى هذه لن تجدهما في الشكاوى الفكتورية. غير أن هنالك حماسة إصلاحية وتفاؤلاً جوهرياً لن تجدهما في المثقفين النافرين في العالم

(*) دولباش مؤلف وفيلسوف وموسوعي فرنسي ولد في ألمانيا وعاش وعمل في باريس.

(**) هيلفتيوس (1715- 1771) فيلسوف فرنسي قال إن النشاط البشري برمته قائم على المصلحة الشخصية.

(***) جان لورون دالامبير (1717- 1783) فيلسوف وفيزيائي ورياضي وموسوعي فرنسي.

(****) المركيز دو كوندورسيه (1743- 1794) رياضي وفيلسوف فرنسي كان له دور سياسي مهم أثناء الثورة الفرنسية.

(*****) برناردان دو سان بيير (1737- 1814) روائي فرنسي أشهر رواياته "بول وفرجيني".

(******) ساموئيل جونسن اسم عدة مثقفين منهم: صامويل جونسن (1709- 1784) الأديب الإنكليزي واضع قاموس اللغة الإنكليزية ود. صامويل جونسن (1696- 1772) المثقف والأديب الأميركي في عصر المستعمرات الأميركية ورئيس كلية الملك (جامعة كولمبيا).

(*******) سير والتر سكوت (1771- 1832) شاعر وروائي اسكتلندي ومخترع الرواية التاريخية.

الغربي في القرن العشرين. لا تبدو حتى دو ساند(*) مثل سيلين(**) أو حتى هنري ميلر(***).

روسيا كذلك مثال واضح لنقل ولاء المثقفين. وهنالك حتماً أكثر من الدعاية السياسية في سلسلة الروائيين الذين جعلوا الأدب الروسي جزءاً من ثقافتنا جميعاً. إلا أن هنالك بلا شك نقداً سياسياً واجتماعياً لروسيا القيصرية حتى في أعمال تورجنيف(****)، أكثرهم تجرداً ومهابة. إن الانطباع جلي لدى المرء من اطلاع سريع على الحياة الفكرية الروسية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كان التأليف أو التدريس في تلك الأيام يعني معاداة الحكومة. ولم يكن يعني في تلك الأيام بالضرورة الإيمان بالماركسية.

أميركا ليست حالة واضحة. في بوسطن في ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، كان عدد كبير من الأشخاص الذين نتناولهم - يكفي تسميتهم "مثقفين" - مثل الكثيرين حالياً مناهضين جداً للنشاط غير البوسطني من مثل التحريض على العصيان. ومن الواضح أن جامعة هارفرد لم تكن كلها ضد التاج بصرف النظر عن تأييد مكائد خريجها سام آدمز. إلا أنه إذا أمكن تصنيف النتاج الأدبي والصحفي إحصائياً في المستعمرات بين عام 1750 وعام 1775 - حتى إذا أضفنا المواعظ - إلى تأييد أو معارضة السياسات الفعلية للحكومة الإمبراطورية، لا يبدو أن هنالك شكاً كبيراً في ميل الميزان كثيراً ضد هذه السياسات. كانت حركة التنوير، خصوصاً من خلال لوك(*****) ومونتسكيو

(*) جورج صاند (1804- 1876) الاسم المستعار للروائية الفرنسية آماندين أورور لوسي دودوفان التي عشقت الشاعر الفرنسي ألفرد دو موسيه والموسيقي البولندي شوبان.

(**) لوي- فردينان سيلين (1894- 1961) مؤلف فرنسي.

(***) هنري ميلر (1891- 1980) كاتب مسرحي تقدمي أميركي ابتكر أسلوباً في الفن الروائي جمع بين الرواية والسيرة الذاتية والنقد الاجتماعي والتأمل الفلسفي والسريالية والصوفية.

(****) إيفان تورجنيف (1818- 1883) روائي وكاتب مسرحي روسي ذو نزعة تحررية دعا إلى إلغاء العبودية وأهم رواياته الآباء والبنون.

(*****) جون لوك (1632- 1704) فيلسوف إنكليزي دعا إلى التسامح الديني والدفاع عن حقوق الإنسان الطبيعية وعارض نظرية "حق الملوك الإلهي".

، قد وصلت إلى المستعمرات الأميركية. طرح المثقفون في هذه البلاد، كما في أوروبا، مفاهيم حقوق الإنسان الطبيعية وغير القابلة للتحويل في هذه البلاد.

قد تبدو إنكلترا للوهلة الأولى استثناء من موقف المثقفين هذا. لم يكن لفليس(*) وسكلينغ(**) وحتى دن(***) مشغولين بعلم الاجتماع. غير أن نظرة ثانية تبين بوضوح أن الأدب الإنكليزي في عهد أول ملكين من آل ستيوارت لم يكن جوقة الإطراء المخلص مثلما كان في عهد إليزابيث الأولى. وتبين نظرة على كتاب التيارات المتعارضة في الأدب الإنكليزي في القرن السابع عشر لغريرسن(****) أن الكثير من الأدب كان مذاباً في إنكلترا المرحة في عهد النهضة. والأمر الأكثر أهمية حقيقة عدم وجود صحف فعلية في تلك الأيام. كانت الكراسات تقوم مقام الصحيفة. وكاد أدب الكراسات تماماً في إنكلترا في أوائل القرن السابع عشر، الذي كان هائلاً من الناحية الكمية حتى وفق المعايير الحالية، يكون مشغولاً تماماً بالدين أو السياسة - الأفضل الدين والسياسة - وهو مثال جيد لنقل ولاء المثقفين. وفي الواقع، كما كتب الأستاذ غوتش(*****)، إنه في عهد جيمس الأول "تبع الإعلان تلو الإعلان ضد بيع الكتب المثيرة للفتنة وكتب المتطهرين"، وهنالك "كلام كثير عن التشهير والكتابات الخطرة".

ثمة حديث في الولايات المتحدة حالياً ، في منتصف القرن العشرين. يجب أن تذكرنا هذه العبارة البسيطة بصعوبات تشخيص الثورات الوشيكة والحاجة إلى بحث كل جوانب مجموعة الأمراض لا جانباً واحداً ولا حتى

(*) ريتشارد لفليس (1618- 1657) شاعر وعسكري إنكليزي من الشعراء الفرسان، مثل سكلينغ، الذين عرفوا بالولاء لتشارلز الأول بالدفاع عن قضيته.

(**) سكلينغ (1609- 1642) شاعر إنكليزي من الشعراء الفرسان ومن مؤيدي ريتشارد الأول.

(***) جون دن (1527- 1631) شاعر ولاهوتي إنكليزي اتسم شعره بتعانق الشعور والفكر والخيال.

(****) سير هربرت غريرسن (1866- 1960) باحث وناقد أدبي اسكتلندي.

(*****) جورج بيبدي غوتش (1873- 1968) صحفي ومؤرخ وسياسي بريطاني.

الجانب الساحر الذي أطلقنا عليه هنا "انتقال ولاء المثقفين". يشكو المثقفون الأميركيون من إخفاقات مجتمعنا طوال عقود. حرر هارولد ستيرنز كتاب الحضارة في الولايات المتحدة عام 1922 ويضم مساهمات في ندوة لكتاب بارزين بينهم هـ. ل. مينكن، لويس ممفورد، كونراد آيكن، ديمس تيلر وزاكاريا تشافي الابن(*) كانت خلاصة الكتاب بسيطة: لا توجد أية حضارة في الولايات المتحدة في 1922. غير أن الولايات المتحدة لا تبدو مهيأة للثورة في هذا القرن ولا يبدو أنها مجتمع في توازن ملحوظ.

وربما يحتج المثقفون الأميركيون، شأنهم شأن المثقفين الفكتوريين الذي تناولناهم قبل قليل، من خلفية سليمة من الاتفاق الأساسي وإن لم يكن غير شفهي، شعور بالانعزال عن الأشياء في بلد يديره رجال الأعمال غير المثقفين وهو أمر لا يحسه المرء حتى من مثل ماثيو آرنولد(**) وآل موريس(***) وكارلايل(****). ويميل المثقفون الأميركيون إلى التماسك كطبقة ضد الطبقات الأخرى، وربما هذا هو سبب عدم إظهارهم أي علامات على أنهم على وشك إحداث ثورة. غير أننا يجب ألا نتعرض للتضليل والانقياد إلى مشكلات سوسيولوجيا المعرفة الصعبة وغير المفهومة جداً المتضمنة في سلوك الطبقات المثقفة في أميركا المعاصرة. ويكفي أنه من درايسر(*****) ولويس(******) إلى همنغوي(*******) وفاريل(********)

(*) زاكاريا تشافي (1885- 1957) باحث قانوني أميركي عرف بدفاعه عن الحريات المدنية.

(**) ماثيو آرنولد (1822- 1888) شاعر وناقد إنكليزي تناول بخاصة وضع الإنسان الغربي الحديث.

(***) وليم موريس (1834-1896) شاعر ورسام وداعية إصلاح بريطالي.

(****) توماس كارلايل (1795- 1881) كاتب مقالات ومؤرخ وفيلسوف إنكليزي.

(*****) درايسر (1871- 1945) محرر وروائي أميركي.

(******) سنكلير لويس (1885- 1951) روائي أميركي تميزت رواياته بنقد اجتماعي ساخر ونال جائزة نوبل في الآداب عام 1930.

(*******) آرنست همنغوي (1899- 1961) روائي وكاتب قصصي وصحفي أميركي صور مأساة الإنسان الحديث ونزعته إلى مواجهة الموت ببسالة وانتحر. منح جائزة نوبل في الآداب عام 1954.

(********) جيمس توماس فاريل (1904- 1979) روائي أميركي.

وليسلي فيلدر(*) ونورمان ميلر(**) كان معظم كتابنا واسعي الانتشار معادين للأمور كما هي في الولايات المتحدة ومع ذلك بقيت الأمور كما هي بدون أن تتعرض لتهديد الانقلاب الثوري.

إلى ماذا حول مثقفونا الثوريون الولاء بنجاح؟ إلى عالم آخر أفضل من الأنظمة القديمة الفاسدة وغير الفعالة. يبني ألف قلم وصوت في السنوات التي تسبق نشوب الثورة فعلاً ما يجب أن يدعوه المرء على نحو مطابق للعصر الحديث أسس الأسطورة الثورية - أو الموروث الشعبي أو الرموز أو الأيديولوجيا. وربما يمكننا القول المثل الأعلى الثوري. يتناقض العالم الأفضل كهذا مع هذا العالم المباشر والناقص في كل النظم الأخلاقية والدينية ولاسيما في المسيحية. وليس دقيقاً تماماً الادعاء أنه بالنسبة لمسيحية القرون الوسطى العالم المثالي الآخر متروك بأمان للسماء. غير أن من الواضح أنه مع حركة الإصلاح والنهضة شرع الإنسان في التفكير على نحو جدي أكثر في جلب جزء من الفردوس إلى هذه الأرض، على كل حال. إن ما يميز هذا العالم المثالي لثوريينا عن العالم الأفضل كما يتصوره الأفراد العاديون هو شعور مضطرم ببداهة المثل الثوري وهو شعور أن ثمة شيئاً في كل الناس أفضل من قدرهم الحالي واعتقاداً أن ما هو موجود يجب ألا يكون كما هو. ولا بد أن يضيف المرء بغضاً شديداً لما هي عليه الأمور.

حقاً ربما كان الافتقار إلى أي عالم أفضل مباشر في عقول المثقفين الأميركيين هو الذي يفسر لماذا لا يؤدون حالياً الدور نفسه الذي كان يؤديه

(*) ليسلي فيلدر (1917- 2003) ناقد أميركي اهتم بالتصوير الميثولوجي والخيال العلمي وطبق نظريات علم النفس على الأدب الأميركي.

(**) نورمان ميلر (1923- 2007) روائي وصحفي وكاتب مقالات وشاعر وكاتب مسرحي وكاتب سيناريو أميركي.

أمثال فولتير ولوك في القرن الثامن عشر. لم يشاطر المثقفون الأميركيون حقاً الحلم الماركسي، وإن كان لهم حلم فإنه كان، بشهادة بارينغتن(*)، حلم القرن الثامن عشر القديم الذي لا يمكن حالياً أن يكون ثورياً حقاً.

سنلاقي لاحقاً هذه المثل العليا الثورية في أشكالها المتطورة تطوراً كاملاً. ولا نحتاج هنا إلا إلى ملاحظة أنه في كتابات ومواعظ المتطهرين الإنكليز - وإلى مدى أقل المحامين الدستوريين - وفلاسفة القرن الثامن عشر وماركسيي القرن التاسع عشر والقرن العشرين، يقارن على نحو فعال الشيطان والنظام القائم غير المشروع حقاً مع الحكم المقبل المحتم حقاً. كانت الطبيعة بقوانينها الواضحة والبسيطة هي المبدأ الجوهري الذي احتكم إليه الناس في إنكلترا وأميركا وفرنسا. كانت ضريبة السفن في إنكلترا وقانون الطابع في أميركا ووثائق منح لقب النبالة في فرنسا كلها ضد قانون الطبيعة. وحتى في إنكلترا وأميركا، حيث احتكم كثيراً إلى الحقوق الموجودة في الماغنا كارتا أو القانون الإنكليزي القديم غير المدون، الاحتكام النهائي دائماً إلى قانون الطبيعة "المنقوش في قلوب الناس". وكما كتب المتطهر هنري باركر(**) في إنكلترا كانت المحاكم العامة" مزودة فقط بقواعد العدل الخاص، وهي قواعد أضيق من أن تصلح لموضوع واسع [علاقة التاج بالشعب] ولذا يجب أن نشير إلى تلك القواعد التي تعرضها قوانين الطبيعة الأصلية علينا". وبحلول القرن الثامن عشر كاد هذا النوع من اللغة يصبح عالمياً بين المثقفين. إن لجوء المثقفين الثائرين إلى الطبيعة دائماً فيما يريدون ملاحظة يجب أن نشعر بالالتزام بها في هذه الأيام.

أما بالنسبة للكتاب والمهيجين الروس في عهد النظام القيصري فلم يكن للطبيعة دور بارز، ليس لأن الطبيعة غائبة في صفحات تولستوي ورفاقه ولأن

(*) فيرنون لويس بارينغتن (1871- 1929) مؤرخ أميركي ومدرب كرة قدم. طرد من وظيفته كأستاذ في جامعة أوكلاهوما عام 1908 بسبب ضغوط جماعات دينية وانتقل إلى جامعة واشنطن.

(**) كتب هنري باركر (1604- 1652) عدة نشرات دافع فيها عن مواقف البرلمان أثناء الحرب الأهلية في إنكلترا.

التغاير بين المقدرات الطبيعية للمجتمع "المصطنع" والمجتمع "الطبيعي" لم يكن يترفع عنه حتى في الدعاية الاشتراكية. أما بالنسبة للبراليين فقد منحهم مزيج من الفكر الغربي المتقدم من عصر النهضة إلى دارون بدلاً من ذلك حماسة للمعايير الراسخة. غير أن الأيديولوجيا الرسمية للراديكاليين الناجحين في روسيا كانت الماركسية التي ترى أن وجود الرأسماليين وحكم البرجوازية أمر طبيعي تماماً. غير أن تدميرها من جانب البروليتاريا طبيعي كذلك وتقرر هذا التدمير قوى خارج سيطرة الرأسماليين. ثم تحقق المسيرة المحتمة للقوى الاقتصادية المفهومة علمياً للماركسيين ما توقع المتطهرون أن يحققه الله وما توقع الفلاسفة الفرنسيون أن تفعله الطبيعة والعقل. الأمر الجوهري الذي يجمع بين كل هؤلاء المهيجين ما قبل الثورة على الأقل في الأسطورة الثورية هو هذه القوة المجردة الكلية القوة، أو الحليف الكامل.

ثمة نقطة خاصة هنا تستحق الاهتمام. ليس الرب وحده أو الطبيعة أو المادية الديالكتيكية ما يجعل انتصار ضحية الظلم والاضطهاد حالياً مؤكداً. ويمكن إظهار أن المتمتع بالسلطة حالياً - ربما يجب إظهاره لأغراض الدعاية - قد حصل على رجحانه صدفة أو بحيلة ماكرة في غياب الرب أو الطبيعة مؤقتاً. وهكذا أطلقت تسمية "النورمانديين"، أحفاد مجموعة الغزاة الأجانب بدون حق في التراب الإنكليزي، على أنصار الملكية والطبقة الحاكمة. ويذهب جون ليلبورن(*) داعية المساواة إلى حد الادعاء أن القانون العام (الإنكليزي) كان شارة عبودية فرضها الغزو النورمندي على شعب إنكلترا الحر. ولم يكن البغض الأميركي للحكومة البريطانية المتغيبة في حاجة إلى التهييج المصطنع من ذلك القبيل. وأبلغ سييس(**) الفرنسيين أن كل متاعبهم نجمت عن اغتصاب الفرنكيين

(*) كان جون ليلبورن (1614- 1657) مهيجاً في إنكلترا قبل وأثناء وبعد الحروب الأهلية الإنكليزية. وبعد أن كان متطهراً في شبابه اعتنق مذهب الكويكرز في أواخر حياته.

(**) غيمانويل سييس (1748-1836) راهب وسياسي كاثوليكي فرنسي أصبحت مقالته "ما هي الطبقة الثالثة؟" منشور الثورة الذي ساعد على تحويل مجلس الطبقات العامة إلى الجمعية الوطنية وكان المحرض على الانقلاب الذي أتى بنابليون إلى السلطة وهو أول من استخدم مصطلح "علم الاجتماع" sociologie.

السلطة قبل أكثر من ألف سنة(*). كان النبلاء الفرنسيون من نسل الألمان البرابرة بينما كان عامة الفرنسيين من نسل الغاليين والرومان. وشرحت الماركسية الطبقة التي تقوم بالاستغلال بدون الرجوع إلى أفكار تاريخية زائفة كهذه. ومع ذلك ثمة إشارات كثيرة في التحريض الثوري الروسي إلى اغتصاب النبلاء الأرض وإلى الفارانجيين(**) أو التتر(***) أو الغربيين أو الأجانب على كل حال. الشر الحالي علاوة على الخير في المستقبل في حاجة إلى القوة المشددة لما يدعوها سوريل(****) "الأسطورة".

أخيراً بذل قدر كبير من الطاقة في تناول مسألة إن كانت هذه الأفكار الثورية "تسبب" العمل الثوري أم أنها مجرد نوع من الزخرفة الزائدة التي يحجب بها الثوريون أعمالهم ودوافعهم الحقيقية. إن معظم هذا النقاش عقيم للغاية لأنه مستند إلى فكرة السببية الفجة التي يتعذر الدفاع عنها في العمل العلمي المثمر أبعد من مستوى بسيط جداً. ليست هنالك جدوى من المجادلة إن كان روسو قد صنع الثورة الفرنسية أو إن كانت الثورة الفرنسية صنعت سمعة روسو وهو جدل يشبه من جاءت أولاً البيضة أم الدجاجة. ونلاحظ أنه في المجتمعات ما قبل الثورية التي ندرسها يرافق حتماً نوع السخط والصعوبات المحددة المتعلقة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يركز عليها العصريون الواقعيون قدراً كبيراً من بعض القوى المجردة للغاية التي تميل إلى تحقيق ذلك العالم الأفضل. إنه، في الواقع، التعبير عن الأفكار وليس أفكاراً

(*) الفرنكيون قبائل جرمانية نزلت في القرن الثالث قبل الميلاد على ضفاف الراين وفتحت بلاد الغال ووحدتها وأصبحت في عهد شارلمان إمبراطورية واسعة.

(**) الفارانجيون قوم من إسكندنافيا توجهوا شرقاً وجنوباً نحو روسيا وبيلاروسيا وأوكرانيا في القرنين التاسع والعاشر ومارسوا التجارة والقرصنة والخدمة في الجيوش الأجنبية مقابل أجر وجابوا الأنهار حتى وصلوا إلى بحر قزوين والقسطنطينية.

(***) التتر قبيلة مغولية استقرت في منغوليا الشرقية ومنشوريا الغربية وشكلت جزءاً من جحافل جنكيز خان التي اجتاحت أوروبا الشرقية في مطلع القرن الثالث عشر.

(****) جورج سوريل (1847- 1922) فيلسوف ومنظر ثوري فرنسي.

معينة - قد تتباين على نحو هائل في الثورات المختلفة - ما يحدث الاتساق. ونجد أن الأفكار دائماً جزء من الحالة ما قبل الثورية ونحن راضون تماماً بتركها كما هي. لا أفكار ولا ثورة. إن هذا لا يعني أن الأفكار تسبب الثورات أو أن الطريق إلى منع الثورات هو حظر الأفكار بل هي تعني أن الأفكار تشكل جزءاً من المتغيرات المتبادلة الاعتماد التي ندرسها.

4. الطبقات والعداوات الطبقية

رعت مجموعات معينة في المجتمعات الأربعة في الأنظمة القديمة مشاعر الكراهية الممتزجة أو غير الممتزجة بالاحتقار نحو المجموعات الأخرى. وإذا تجنبنا المعاني الاقتصادية للمصطلح يمكننا وصف هذه المجموعات بالطبقات. وإذا أدركنا أن الصراع لم يكن مجرد صراع بين طبقتين متنافستين، الإقطاعية ضد البرجوازية أو البرجوازية ضد البرولتاريا، يمكننا حتى الحديث عن صراعات الطبقات. هذا النوع من الصراع في شكل أو بآخر يبدو مستوطناً في أكثر المجتمعات الغربية استقراراً. غير أنه صراع يجري عادة بموجب قواعد أو على الأقل بدون عنف ظاهري.

لذا يجب هنا أيضاً ألا نفترض للمجتمع العادي الذي لا نستطيع أن نقارن به مجتمعاتنا ما قبل الثورة، أي الجمع بين الأسد والحمل. ربما يجب حقاً أن نفترض للعلاقة بين الطبقة صاحبة الامتيازات أو العليا أو الحاكمة وبين بقية الناس علاقة يدعوها توينبي(*) "محاكاة" أو مشاطرة المثل والنظر من المجموعات الدنيا نحو المجموعات العليا، أي نوع العلاقة التي سعى بورك(**) وجون آدمز - ربما حتى أفلاطون - إلى التعبير عنها. وهنا نقف أيضاً على الأرض الأكثر صعوبة في التشخيص لأننا لا يمكن أن نثق تماماً بماهية الصحة

(*) آرنولد جوزيف توينبي (1889- 1975) مؤرخ وفيلسوف بريطاني ألف دراسة التاريخ في 12 مجلداً (1934-1961).

(**) أدموند بورك (1729- 1797) سياسي وخطيب بريطاني.

الفعلية. يبدو أن شيئاً أقل من المحاكاة التامة يسود معظم المجتمعات الغربية، حتى في أثينا في القرن الخامس وفي أوروبا الغربية في القرن الثالث عشر اللذين يبدوان الآن عصرين ذهبيين. ويبدو أن صرخة:

«عندما حفر آدم وقاست حواء بالشبر
من كان السيد إذاً»

جاهزة دائماً. غير أنه حتى لو كان الأمر كذلك سرعان ما سيبدو أن الكراهية الطبقية تتصاعد وتتفاقم بدرجة ملحوظة في الأنظمة القديمة. لا تعد الفروق الطبقية حواجز يستطيع الأذكياء والشجعان والطموحون اجتيازها، عدا كونها نظاماً وضعته السماء ولا يجوز العبث به، بل امتيازات غير طبيعية وغير منصفة أسسها أشرار ضد النية الجليلة للخالق أو الطبيعة أو العلم. هذه الصراعات الطبقية ليست بسيطة بتاتاً. وثمة مجموعات داخل المجموعات وتيارات داخل التيارات. يجب أن نجرب ونحلل بعض هذه التيارات.

أولاً، يبدو أن ما يمكن تسميتها الطبقة الحاكمة في كل المجتمعات الأربعة منقسمة وغير فعالة. نعني بالطبقة الحاكمة كما نفهمها، وقد نكون مبالغين بعض الشيء، من يديرون الأمور أي من هم في نظر الجمهور - السياسيون، كبار الموظفين المدنيين والمصرفيون ورجال الأعمال والنبلاء أصحاب الأراضي وضباط القوات المسلحة ورجال الدين وربما بعض المثقفين. لقد كانت النبالة الوراثية الرسمية في العالم الغربي عادة اختباراً ضيقاً للغاية للعضوية في الطبقة الحاكمة. وحتى في الأزمنة الحديثة فإن الطبقة الحاكمة تشبه ما أشرنا إليه آنفاً - أقلية من الرجال والنساء الذين يبدو أنهم يعيشون حياة مثيرة وتنشر عنهم الفضائح الأكثر إثارة ويحددون اتجاهات الأزياء ولديهم الثروة والسلطة والمركز أو على الأقل السمعة وباختصار هم من يحكمون. إنهم "الطبقة السياسية" في نظر موسكا(*). وفي مجتمع مستقر سياسياً يبدو حقاً أن الجماهير الكبرى من

(*) غيتانو موسكا (1858- 1941) عالم سياسي وصحفي وموظف حكومي إيطالي طور نظرية النخبوية ومفهوم الطبقة السياسية.

الفقراء والناس العاديين، كما هو شأن الناس المغمورين وغير المفلحين الذين يبدو أنهم بفضل النسب والتدريب في الطبقة الحاكمة، يقبلون حقاً قيادة من هم في قمة الهرم الاجتماعي ويحلمون بالانضمام إليهم وليس إزاحتهم - ولو أن هذا القول سيبدو في نظر المثالي اختزالاً لمفهوم "المحاكاة" لتوينبي.

يبدو أن الطبقات الحاكمة في المجتمعات الأربعة، وليس فقط لأنها لازمة كنتيجة منطقية بسبب التطويح بها في الواقع، لم تنجح في أداء مهامها. ومن غير المرجح أنه بدون اسبرطة أو بروسيا القديمة تكون المزايا العسكرية وحدها كافية للطبقة الحاكمة. غير أن طبقة من هذا القبيل يجب ألا تتردد في استخدام القوة للمحافظة على نفسها، ويجب ألا تغالي في تقدير الفطنة والأصالة في أعضائها. إنها تستطيع أن تستأجر من الفطنة الكافية القدر المناسب من مصادر أخرى. والأرجح أن مزيجاً من المزايا العسكرية واحترام الوسائل الراسخة للتفكير والتصرف والاستعداد للتفاهم، وإن دعت الضرورة إلى الابتكار والرغبة في تجنيد أعضاء جدد من الطبقات الأخرى ذات المواهب الضعيفة، مقاربة عامة مناسبة من صفات طبقة حاكمة ناجحة.

عندما يشرع أعضاء كثيرون ومؤثرون في طبقة من هذا القبيل في الاعتقاد أنهم يمسكون بالسلطة ظلماً أو أن كل الناس إخوة متساوون في نظر العدل الأبدي أو أن المعتقدات التي تلقوا نشأتهم عليها سخيفة أو أنه "بعدنا فليكن الطوفان" ليس من المرجح أن يقاوموا بنجاح أي هجمات خطيرة على مركزهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. إن انحطاط طبقة حاكمة وعلاقة ذلك الانحطاط بالثورة مسألة مثيرة ومثل الكثير من السوسيولوجيا التاريخية موضوع غير مستكشف نسبياً. ولا يمكننا هنا أكثر من القول إن هذا الانحطاط ليس انحطاطاً "أخلاقياً" بالضرورة إذا كان معنى "أخلاقي" ما يقصده المسيحي البروتستانتي الجيد بتلك الكلمة. لم يكن نادراً أن الطبقات الحاكمة المتعاقبة مكرسة للرياضة القاسية ومعاقرة الخمر والمقامرة والخيانة الزوجية والممارسات المشابهة لها التي لابد أننا نجمع على إدانتها.

يزودنا الروس هنا بشاهد كلاسيكي للتوضيح. إذا كونا رأياً اعتماداً على ما

يظهر من الارستقراطيين الروس في المطبوعات فقد تعودوا طوال عدة عقود قبل عام 1917 التحسر على عدم جدوى الحياة وتخلف روسيا والأحزان السلافية لحالتهم. ولا شك أن هذه مبالغة. غير أن قلق الكثير من أفراد الطبقات الحاكمة الروسية كان واضحاً لأن امتيازاتهم لن تدوم. وانتقل الكثير منهم، من مثل تولستوي، إلى الجانب الآخر. وتحول آخرون إلى لبراليين وشرعوا في عملية منح الامتيازات هنا وسحبها هناك التي شاهدناها في فرنسا. وحتى في أوساط البلاط كان شائعاً عام 1916 السخرية من القيصر والمقربين منه. وكتب بروتوبوبوف أحد الوزراء البغيضين في العهد القيصري:

حتى أعلى الطبقات العليا أصبحت معارضة قبل الثورة، وتعرضت سياسة الحكومة في الصالونات والأندية الراقية إلى انتقاد شديد وغير ودي. وجرى تحليل العلاقات في أسرة القيصر والحديث عنها. وجرى تداول حكايات تافهة عن رئيس الدولة. ونظمت أشعار. وحضر الكثير من حملة لقب غراندوق تلك الاجتماعات جهراً...... ولم يستيقظ الإحساس بخطر هذه الممارسة حتى اللحظة الأخيرة.

أخيراً لجأ إلى القوة أفراد الطبقات الحاكمة في مراكز القوة السياسية فقد استخدموها على نحو متقطع وغير فعال. وسنعود إلى هذه المشكلة العامة المتعلقة باستخدام القوة عندما نصل إلى المراحل الأولى من الثورة الفعلية. ويكفي في هذا الصدد أن الطبقات الحاكمة الروسية، على الرغم من خلفيتها الآسيوية الشهيرة، كانت بحلول أواخر القرن التاسع عشر أكثر من نصف خجلة من استخدام القوة، ولذا فقد استخدمتها على نحو سيء بحيث أحس ضحاياها بالتحفيز وليس القمع. إن الحد في الممارسة الحكومية الفعلية بين القوة والإقناع رفيع ولا يحدد بالمعادلات أو "العلم" أو الكتب المدرسية بل بالرجال الماهرين في فن الحكم. ومن أفضل علامات عدم فعالية الطبقة الحاكمة للحكم غياب هذه المهارة بين أعضائها وهو الغياب المدون في التاريخ في الاضطرابات الصغيرة المتراكمة والسخط قبل الثورة.

تبقى روسيا حالة تقليدية لطبقة حاكمة غير فعالة، غير أن حالة فرنسا تكاد

تكون مثلها. وغالباً ما كانت الصالونات حيث كان العهد القديم ينتقد بشدة - شفهياً طبعاً - ترأسها نبيلات ويحضرها نبلاء. وأصبح أمراء من السلالة الملكية ماسونيين وإذا لم يتآمروا للتطويح بكل اللياقة فإنهم سعوا على الأقل إلى تحسين امتيازاتهم ومنزلتهم. ولعله لا يوجد مكان أفضل من فرنسا يشاهد فيه المصاحبون لذلك النوع من تفكك الطبقة الحاكمة الذي تناولناه بالنقاش. هذا اعتناق لأعضاء الطبقة الحاكمة لقضية الطبقات الساخطة أو المقهورة - الفئات العليا تتطوع للوقوف بجانب ضحايا الاضطهاد. وليس من السخرية المخاطرة بتخمين أن هذا أحياناً مؤشر على اقتراب حدوث انقلاب في الوضع القائم.

إلا أنه من الضروري مرة أخرى بيان أن وجود المتطرفين المتمردين في الطبقات العليا علامة واحدة في متلازمة مرضية معقدة.لابد أن عدد الخارجين عن الطبقة العليا كثير نسبياً وواضح في مجتمع في حالة عدم توازن. إنهم، علاوة على المنغمسين في الملذات والساخرين، من يحددون اتجاه الطبقة. لم يكن "أصحاب المنزلة العالية المضللون"، كما وصف لوثروب ستوتارد(*) ذوي المرتبة العليا هؤلاء الذين وقفوا بجانب المضطهدين، غير شائعين في مجتمع مستقر كمجتمع إنكلترا الفكتوري. غير أنهم لم يحددوا اتجاه المجتمع. كما لا يفعل مثل هؤلاء في أميركا حالياً حيث المتمردون من مثل كورليس لامونت(**) نادرون حقاً بين العائلات الكبرى. ولا يمكن اعتبار أمثال فرانكلين روزفلت أو جون كندي - ما عدا في عيون المحافظين المتطرفين المتحاملين - خونة "من المنزلة العالية المضللين" لمجتمعهم. من الواضح أنهم أعمدة مجتمعهم.

لم يكن انحطاط الطبقة الحاكمة في أميركا في القرن الثامن عشر علامة بارزة على الثورة الوشيكة. كانت الطبقة الحاكمة المحلية ما تزال فتية وفي دور التكوين ولا تظهر كطبقة أي عدم فعالية مثلما شاهدنا في روسيا وفرنسا. غير أن

(*) ثيودور لوثروب ستوتارد (1883- 1950) منظر سياسي ومؤرخ أميركي مناهض للهجرة.

(**) كورليس لامونت (1902- 1995) فيلسوف ماركسي أميركي وداعية لمختلف قضايا اليسار والحريات المدنية.

جزءاً كبيراً من هذه الطبقة الحاكمة ناصر الثورة الأميركية، وهو أحد أسباب عدم تحول ثورتنا إلى عهد الإرهاب الكامل. وبقدر تعلق الأمر بالطبقة الحاكمة في بريطانيا في زمن ثورتنا كانت بعيدة جداً عن القدرة على اتخاذ مسار حازم نحو أميركا.

يميز هذا النوع من الأعراض حتى في إنكلترا في القرن السابع عشر. لم يكن هنالك بالطبع في الطبقة الارستقراطية الإنكليزية في عهد اليعاقبة المزيج نفسه بالضبط من السأم والشك والآمال الإنسانية وعدم الشعور بالمسؤولية كما في روسيا أو في فرنسا. غير أن معظم هذه العناصر قد يوجد في المجموعة التي عرفت لاحقاً بالفرسان Cavaliers(*) وعلى الرغم من أن هؤلاء الفرسان يبدون لافتين للنظر وورمانتيكيين وجذابين لنا الآن في الأدب والتقاليد من الصعب القول إنهم أظهروا التضامن والتوازن الضروري لطبقة حاكمة. إن أسطورة الفرسان ليست تماماً نتاج السنوات التي أعقبت الثورة الكبرى في إنكلترا. كان الفرسان رومانسيين حتى في نظر أنفسهم، وفي العالم القاسي للمتطهرين وكسب الأموال شرعوا في ذلك البحث عن ماض ذهبي مميز للمهاجرين في الثورات اللاحقة. كما أن المتنورين أو الملهمين، أمثال لافاييت أو تولستوي، غائبون تماماً في الطبقات الإنكليزية الحاكمة في ذلك العصر. وعلى الرغم من إمكان قبول تقييم الإنكليز في القرن التاسع عشر بأنهم يتسمون دائماً بالعناد وعمليون ويحبون الحلول الوسط الأفضل أن تتذكر أن سيداً من العصر التيودوري هو الذي منح كلمة "يوتوبيا" (المدينة الفاضلة) إلى الفكر السياسي(**) وأن يوتوبيا هارينغتن الشهيرة أوشينا هي من نتاج القرن السابع عشر(***).

(*) عرف الشعراء الفرسان بالولاء لملك إنكلترا تشارلز الأول في صراعه مع المتطهرين والبرلمان.

(**) المقصود طبعاً هو سير توماس مور (1478- 1535) الكاتب والسياسي والفيلسوف والشهيد الكاثوليكي الذي ألف كتاباً صغيراً عام 1516 وصف فيه جزيرة خيالية في المحيط الأطلسي تمتلك نظاماً اجتماعياً- سياسياً- قانونياً كاملاً.

(***) جيمس هارينغتن (1611- 1677) فيلسوف وسياسي إنكليزي اشتهر بمؤلفه أوشينا المثير للجدل الذي نشر عام 1656.

مع ذلك إن ما يخفي عنا مدى تحويل الكثير من السادة الإنكليز الطموحين الولاء من النظام الراسخ في أوائل عهد آل ستيوارت هو أنهم اعتنقوا قضية الرب وطريقة الخلاص. وأثبتت نزعة المتطهرين، في واحد أو أكثر من أشكالها الكثيرة، أنها جذابة ليس للناس المتواضعين فحسب، أو حتى للتجار وأصحاب المصارف، بل كذلك للكثيرين من أبناء الطبقة الارستقراطية والنبلاء. ولا ننس أن كرومويل نفسه كان سيداً كريم المحتد. وأخيراً فإن المعارضة السياسية-القانونية لملكي آل ستيوارت الأول والثاني - عل الرغم من أن الفصل بين السياسي والديني في ذلك الوقت كان مجرد مسألة تحليل إذ كان الاثنان ممتزجين، بقدر تعلق الأمر بالقيادة، في مشاعر المعاصرين - كان أعضاء هذه المعارضة السياسية القانونية، بقدر تعلق الأمر بالقيادة، من الأرستقراطيين والنبلاء. ويشبه الرجال من مثل هامبدن وأسكس(*) وواشنطن إذ كانوا محافظين في الأساس دفعهم إلى الثورة ضعف حكامهم المباشرين. ولم يكونوا مثل لافاييت المنشق العاطفي عن طبقته.

ربما باستثناء أميركا، نجد الطبقات الحاكمة في الأنظمة القديمة منقسمة على نحو واضح وغير مناسبة على نحو ملحوظ لتولي مهام الطبقة الحاكمة. وقد انضم البعض إلى المثقفين ونبذوا النظام الراسخ بل كثيراً ما أصبحوا زعماء في الحملة من أجل نظام جديد، وتحول آخرون إلى متمردين أقل بسبب الأمل في المستقبل من السأم من الحاضر، وأصبح آخرون معتدلين أو غير مبالين أو مستخفين. واحتفظ الكثيرون، ربما حتى ملاك الأراضي الإنكليز ونبلاء الريف الفرنسيون والروس بإيمانهم البسيط بأنفسهم ومركزهم وهو ضروري للطبقة الحاكمة كما يبدو. إلا أن أسلوب الحياة في الطبقات العليا لم يكن يحدده مثل هؤلاء. انتقل النمط الرائج إلى المثقفين. وأصبحت الفضائل المعتدلة، كل السلسلة المعقدة من الأحكام التقديرية غير رائجة في وايتهول(**) وفرساي

(*) ايرل اوف أسكس (1566–1601) روبرت ديفيروكس، عسكري ومن رجال البلاط الإنكليزي.

(**) وايتهول مقر الحكومة البريطانية في لندن.

والبلاط القديم في سنت بطرسبورغ. إن روح الجماعة شيء دقيق وصعب بل مستحيل التحليل بطرق الكيميائي أو الإحصائي. ويمكن تحويل التوازن الدقيق للمشاعر والعادات الذي يوحد الناس في أية مجموعة من مثل تلك التي نناقشها بتغييرات تبدو غير مهمة وصعبة التتبع. غير أن حقيقة أن التغيير واضح. الظرف، التهذيب، الفضائل الثقافية الواضحة فيما نعرفه عن الفرسان، الارستقراطيون الفرنسيون في فرساي والصالونات، الطبقات العليا الروسية التي كانت تتابع الباليه والأوبرا والروايات كلها علامات على الانحطاط، ليس الأخلاقي بالضرورة، بل السياسي حتماً لطبقة حاكمة.

كما لا يمكن، حتى لمن يجدون الأشكال البسيطة للتفسير الاقتصادي للتاريخ ناقصة وخادعة، إنكار أنه في ثلاثة من المجتمعات التي ندرسها - إنكلترا، فرنسا، وروسيا -هنالك علامات على أن الطبقة الحاكمة في وضع اقتصادي متداع. وفي كل حال هنالك ارتقاء في مستويات معيشة النبلاء والارستقراطيين. بيوت أجمل، ملابس أفخم، وسائل الترف التي حملتها فنون الزخرفة، النحت، الرسم، والموسيقى كلها كلفت مبالغ طائلة ولم تكن في معنى اقتصادي صرف استثمارات جيدة. وعلى الرغم من أن الحظر على النبلاء جمع المال في الأعمال لم يكن مطلقاً، حتى في فرنسا، كما قد تبدو في كتب التاريخ، فالحقيقة أن معظم النبلاء لم يكونوا يتمتعون بالمواهب ولا التدريب لجمع المال. وعاش معظمهم على الإيجارات الزراعية، التي لا يمكن الضغط عليها لتلبية تكاليفهم المتزايدة وعلى الرواتب التقاعدية، والوظائف العاطلة، والمساعدات الأخرى من الحكومة، التي كانت على الأقل غير مرنة بسبب الصعوبات المالية المتزايدة لتلك الحكومات. وفي الواقع أن لويس الرابع عشر استغل النبلاء الجدد بنقض شهادات النبالة وإعادة بيعها. وكان واضحاً خصوصاً للطبقات العليا الفرنسية والروسية أن أصول بعض السخط الذي قوض روح التضامن لدى نشوب الثورة كانت في صعوبات النبلاء الاقتصادية.

زاد التوتر الطبقي في فرنسا بحلول عام 1789 كثيراً بسبب تعزيز التوقعات والدور السياسي الفعلي لقسم من النبلاء، نبلاء الأرواب. اقترب الكثير من

هؤلاء الرجال من دور "أصحاب المراتب العليا المضللين" المشار إليهم آنفاً. غير أنه كما بين فرانكلين فورد كان الدافع الرئيسي لنبلاء الأردية(*) إضعاف سلطات التاج وترؤس ما يطلق عليه المؤرخون الفرنسيون " الرجعية النبيلة". ساعد هؤلاء عموماً في حدوث "الثورة الأرستقراطية" في 1787-1789 التي مهدت السبيل للثورة الحقيقية. وعلى الرغم من نجاحهم المؤقت فقد فشلت جهود هؤلاء النبلاء القادرين غالباً. لم تكن لهم صلة بالكثيرين أو إدراك ما كانت تطالب به البلاد. إنهم لا يستنكرون تعميمنا أن الطبقة الحاكمة في مجتمع ما قبل الثورة تفشل في العمل كما يجب أن تعمل الطبقة الحاكمة لحماية سلطتها.

يكفي ما قلنا عن الطبقات العليا أو الحاكمة. تظهر الطبقات التي تليها مباشرة في الهيكل الاجتماعي في إنكلترا وفرنسا وروسيا وإلى درجة أقل في أميركا بغضاً أكثر من المعتاد لمن هم أعلى منهم. وهنا نواجه مرة أخرى مشكلة ما هو اعتيادي في العلاقات الطبقية في المجتمعات الغربية. إن الرأي القائل بعدم وجود أي عداوات طبقية في المجتمع العادي مرفوض مثلما يرفض الرأي الماركسي أنه في مثل تلك المجتمعات - على الأقل حتى الوقت الحاضر - الصراع الطبقي مرير على نحو متواصل وشديد. إن وجود عداوات بين الطبقات حقيقة مهما كان من مصلحة الطبقة أو الطبقات الحاكمة إنكارها. إلا أنه في مجتمع عادي توضع العداوات المختلفة، التي هي ليست اقتصادية صرفاً، في مرتبة أقل من مشاغل أخرى، أوسع أو أضيق، تتخطاها صراعات أخرى وتخضعها مصالح أخرى. إنها على كل حال لا يركزها أو يزيدها مرارة أو

(*) كان نبلاء الأردية أو نبلاء التاج أرستقراطيين فرنسيين يدينون في ألقابهم وروابتهم إلى المناصب القضائية أو الإدارية وغالباً ما كانوا يشترونها مقابل مبالغ طائلة وهي موروثة. أما نبلاء السيف فيستندون إلى وظيفة أسرهم التقليدية كطبقة عسكرية في ظل النظام الإقطاعي وشكلوا مع طبقات النبلاء الطبقة الثانية.

يعززها دعم إجماعي من المثقفين، كما سنجد أنهم كانوا كذلك في العهود القديمة التي ندرسها.

في إنكلترا، حيث جعلنا نعتقد أن العلاقات الطيبة بين الأرستقراطيين والقرويين في الريف واستيعاب أبناء الطبقة النبيلة في الطبقة الأرستقراطية وحتى في الطبقات الوسطى وحتى بعض الشعور الإنكليزي بالتضامن واللياقة خففت مشاعر الكراهية، شهد القرن السابع عشر صراعاً طبقياً مريراً والاقتباس التالي من السيدة لوسي هتشنسن ليس عينة منصفة لمشاعر متطهرة من الطبقة الوسطى نحو طبقة النبلاء بل نموذج لذلك النوع من العداوات الطبقية في المجتمعات الأخرى قبل الثورة:

كان بلاط الملك [جيمس الأول] منبتاً للطمع والإفراط... كانت طبقة النبلاء في البلاد ذات قدر منحط... وسرعان ما تعلم معظم الأرستقراطيين في البلاد نمط البلاط وسرعان ما أصبحت كل أسرة عظيمة في البلاد حظيرة للقذارة. ثم بدأت أعمال الاغتيال وسفاح القربى والخيانة الزوجية والزنا والنطق بالكلمات البذيئة والفسوق وكل أنواع السفاهة والمجون لتصبح رذائل تلقى التشجيع لأنها شابهت نموذج البلاط.

لسنا في حاجة إلى تأكيد أن الطبقتين المتوسطتين الفرنسية والروسية كانتا تبغضان وتحسدان وتشعران أنهما أعلى أخلاقياً من الطبقات الأرستقراطية وأن كتاباتها حافلة بمقاطع تشير إلى قوة هذه المشاعر وانتشارها. وفي سن الرابعة عشرة أبلغت مانون فليبون - أصبحت بصفتها مدام رولان لاحقاً إيجريا(*) للجيرونديين - أمها أنها بعد أسبوع أمضته مع سيدة في حاشية ولي العهد الفرنسي: "بضعة أيام أخرى وسأمقت هؤلاء الناس كثيراً حتى أنني لن أتمكن من السيطرة على كراهيتي". وعندما استفسرت منها أمها عن الضرر الذي ألحقه أولئك الأرستقراطيون بها أجابت: "إنه مجرد الشعور بالظلم والتفكير في كل

(*) إيجريا حورية بحر أسطورية وزوجة نوما بومبيليوس ثاني ملوك روما واسمها مرادف لكلمة "استشارة".

لحظة في سخافة الأمر كله". كلما صعد البرجوازي الفرنسي اقترب في أسلوب الحياة من الطبقة الأرستقراطية وكلما كان مفعماً بالحيوية أكثر في بعض النواحي أحس بالفجوة التي فصلته عن جاره النبيل.

> لم تكن الضرائب [كتب ريفارول(*) في مذكراته] ولا الأوامر الاستبدادية ولا التأخيرات المدمرة للعدل التي أثارت سخط الأمة بل تحيز طبقة النبلاء. وما يثبت ذلك أن البرجوازيين، الأدباء والمثقفين، أصحاب الأموال وكل من كانوا يحسدون النبلاء ومن ثار ضد النبلاء هم البرجوازيون الصغار في المدن والفلاحون في الريف.

وقد أظهر الينور باربر أنه حتى فترة متأخرة جداً من القرن الثامن عشر أراد البرجوازيون الفرنسيون ذوو الثروة والطموح الانضمام إلى الطبقة الأرستقراطية بدلاً من إلغائها. والأرجح أن رد الفعل الأرستقراطي في العقود القليلة الأخيرة قبل عام 1789 جعل تحقيق تلك الطموحات أكثر صعوبة. وقد ساعد انتشار أفكار الفلاسفة، وربما أفكار روسو وبيرناردين دو سان بيير(**) وآخرين لم يكونوا فلاسفة بالمعنى الدقيق، في خلق حالة الذهن التي عبرت عنها مانون فيليبون(***). ومهما يكن السبب بحلول عام 1789 كان نوع الشعور الذي أظهرته "نموذجياً" إلى حد كاف. نكرر أنه لا توجد وسيلة جيدة لقياس تلك

(*) أنطوان ريفارول (1753- 1801) كاتب فرنسي عرف بسخريته وكان من مناصري الملكيين أثناء الثورة الفرنسية وادعى أنه من النبلاء وهاجر إلى بروكسل ثم لندن فبرلين. كان شقيقه كلود فرانسوا أديباً له روايات و"مقالة في أسباب الثورة الفرنسية" (1827).

(**) بيرناردين دو سان بيير (1737- 1814) كاتب وعالم نبات فرنسي اشتهر بروايته بول وفيرجيني (1787) انتخب عضواً في معهد فرنسا (1795) وعضواً في الأكاديمية الفرنسية (1803).

(***) جان مانون فيليبون رولان دو لا بلاتييه (1754- 1793) شخصية ثورية واجتماعية فرنسية اشتهرت باسم مدام رولان. كانت زوجة الموظف الحكومي جان رولان دو لا بلاتييه وانتميا كلاهما إلى الجيرونديين أثناء الثورة الفرنسية. أصبح بيتها في باريس مقراً لهم وعندما انتزع اليعاقبة منهم السلطة عام 1793 اعتقلت وحكمت عليها المحكمة الثورية بالإعدام بتهمة تأييد الملكيين والتآمر. اشتهرت بصرختها وهي تقاد إلى المقصلة: "أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك" ونشرت مذكراتها التي كتبتها في السجن عام 1795. وعندما علم زوجها الهارب إلى الأقاليم بإعدامها انتحر.

المشاعر في أي مجتمع. غير أننا قد نلجأ إلى المقارنة مع مجتمعنا (الأميركي). لقد حدثت توترات حقاً في ذلك المجتمع. اغتيال الرئيس كندي الذي توج بسجل مؤسف للعنف الشفهي والبدني مدعوماً بأفكار متطرفة ألهم افتتاحيات صحفية كثيرة أشارت بفزع إلى إمكانية زعزعة الاستقرار على نطاق واسع إن لم يكن نشوب ثورة فعلية في البلاد. وأثار قول عضو مجلس الشيوخ غولدوتر عن فضائل التطرف قلق المعلقين الشديد. غير أن كل تلك الكتابات المثيرة للمخاوف اتسمت بعدم الصدق. ويبدو أن شيئاً ما يجب أن يكون قائماً في التوترات الاجتماعية، الصراعات الطبقية في مجتمع على حافة الثورة، إلا أنه غائب في الولايات المتحدة. ولا يمكن لأي شخص اقتحم ولو بالنيابة مجتمعاً غير مستقر أن يحس أن مجتمعنا قد أصبح ذلك المجتمع المهدد بالثورة.

إن مدى تعرض الطبقات الدنيا أو البروليتاريا إلى التحريض ضد من هي أفضل منها في تلك المجتمعات غير واضح تماماً باستثناء ربما روسيا. أما في في إنكلترا فلا يوجد هنالك شك أن المتطهرين كسبوا الطبقات الحرفية الأكثر ازدهاراً في المدن الكبرى، والفلاحين في الأقاليم من مثل ايست أنجليا. وكان معنى هذا العداء للطبقات الأنجليكانية العليا. وربما امتزج على نحو لا ينفصم مع الحماسة الدينية وعبارات أدب الكتيبات قدر كبير من الكراهية الاجتماعية، التي ظهرت تماماً لاحقاً مع تحول الثورة نحو درجتها المتطرفة الراديكالية. وعبر الفلاحون الفرنسيون في الكثير من المناطق أو معظمها عام 1789 أنهم يكرهون أصحاب الأراضي الغائبين أو مؤسسات حيازة الأراضي، إلا أنه لم تقدم أدلة على أن هذه الكراهية كانت أشد وأشمل مما كانت عليه طوال مئات السنين. ومن المحتم أن الفكرة القديمة الواضحة حتى في مؤلفات تين(*) بأن الفلاحين الفرنسيين كانوا عام 1789 يدفعون ثمن الظلم في ظل قمع أشد من الحكومة ومن السادة أسطورة ثورية وليس حقيقة تاريخية. ولابد من بذل الكثير من الجهد

(*) إيبولايت تين (1828- 1893) ناقد ومؤرخ فرنسي ومن أوائل ممارسي النقد التاريخي وكان له تأثير شديد على الأدب الفرنسي.

في الدراسة الموضوعية للمشاعر الفعلية للطبقات المضطهدة في أسفل السلم الاجتماعي.

تعرضت طبقة البروليتاريا الروسية الصغيرة حتماً، على الأقل في المدن، إلى عدة أجيال من الدعاية الماركسية واكتسبت، بقدر ما تذهب إليه النخبة، شعوراً بالمهمة ضد النبلاء والطبقة الوسطى على حد سواء.إن المشاعر الدقيقة للفلاحين الروس نحو الطبقات فوقهم مشكلة عويصة. ويمكن افتراض قدر كبير من التنوع، كما هو الحال في فرنسا في القرن الثامن عشر، حسب الظروف المحلية وطبيعة مالك الأرض ومدى ازدهار الفلاحين أنفسهم. وثمة مؤشر على أنه يمكن بحلول القرن العشرين المخاطرة بالتعميم التالي: كلما زاد ازدهار الفلاحين زاد سخطهم. إلا أنه هنا كما في كل نطاق دراستنا المواد الجديرة بالثقة من أي نوع شحيحة: لا المؤرخون ولا علماء الاجتماع بذلوا اهتماماً منتظماً كافياً للمشاعر نحو المجموعات الأخرى التي يبدو أنها تسود في مجموعة أو طبقة اجتماعية ما. ومن المؤكد أن الفلاحين الروس عام 1917 أرادوا الأرض ولكن لأنفسهم وليس لدكتاتورية بروليتارية ماركسية.

أشرنا سابقاً إلى عدم كفاءة الطبقات الحاكمة وأنه توجد بين الطبقة الوسطى وأجزاء من الطبقة الأقل مشاعر أقوى من المعتاد تتسم بالعداء نحو الطبقات الحاكمة. ويبقى بحث مدى صرامة هذه الخطوط الطبقية وبخاصة إلى أي مدى وجدت "المهنة المفتوحة أمام ذوي المواهب" في تلك المجتمعات. وقد يجادل المرء مسبقاً أنه في المجتمعات الغربية أي نهج نحو نظام طبقي صارم يحظر إمكانية الصعود للفرد القادر ولكن من الأصل المتواضع، أي المنع الذي يدعوه باريتو(*) دوران النخب وندعوه المهنة المفتوحة أمام ذوي المواهب، يكون من العلامات الأولية للثورة. ويبدو أن القادرين حقاً يولدون في المراتب الأكثر تواضعاً ويزود تراكم القادرين والساخطين قادة طبيعيين رائعين للمجموعات

(*) فيلفريدو باريتو عالم اقتصاد إيطالي من أركان مدرسة لوزان وعضو بارز من الجيل الثاني للثورة النيوكلاسيكية وله تأثير كبير في علم الاقتصاد في عقد الثلاثينيات في القرن العشرين.

المتململة والمستعدة للثورة. غير أن هذا الاختبار للمهنة المفتوحة لذوي المواهب من أصعب الاختبارات تطبيقاً في مجتمعاتنا.إن المعيار الطبيعي لمجتمع غربي يصعب تحديده هنا، حتى على نحو تقريبي كما فعلنا بالنسبة لأربعة متغيرات أخرى.

قد يبدأ المرء بافتراض مميز أميركي بالقول إنه في هذه البلاد على الأقل لدينا حرية كاملة للفرص. حسناً لنورد على نحو عشوائي بعض الأميركيين العصاميين في القرن العشرين - تيد ويليامز(*)، هنري فورد، هاري ترومان، بوب هوب، تيودور درايسر(**). إن من المريح أن يتمكن المرء من القول بثقة إنه في بعض المجتمعات في العهد القديم كان مصير رجال من مثل هؤلاء عدم الصعود بسبب خطوط الطبقات الجامدة وخمول الذكر أو الثورة. من المؤسف أن ذلك لن يكون صحيحاً. وفي الحقيقة أننا يجب ألا نكون واثقين بهذه المسائل الفرضية. والأرجح أنه ما كان الرياضيون المحترفون على هذه الصورة ليحققوا في أي مجتمع آخر غير مجتمعنا الثروة التي جناها السيد ويليامز أو مظاهر الحفاوة والتكريم لدى الجمهور، ما عدا إن شئت في روما في عصر المصارعين. غير أنه في المجتمع الإقطاعي المبكر ربما كانت القوة البدنية المحض والمهارة لتمنحه مركز الفارس، وحتى في المجتمعات اللاحقة ربما كانت رعاية النبلاء تدفع به إلى منزلة أرقى. كان فورد صاحب مشاريع ومخترعاً وعلى الرغم من أن المرء يشك إن كان أي مجتمع آخر غير المجتمع الأميركي يمكن أن يجعله بطلاً قومياً فعلى الأرجح أنه كان يستطيع تحقيق نجاح مالي كبير في فرنسا في القرن الثامن عشر أو روسيا القيصرية في أوائل القرن العشرين. السيد ترومان سياسي موهوب صعد من بين الصفوف وهو نوع ليس غير معروف في أكثر المجتمعات أرستقراطية في الغرب. أما السيد بوب هوب فإنه شخص تسلية وقد كافأ المجتمع الغربي عادة على نحو مناسب وأحياناً إلى

(*) تيد ويليامز (1918-2002) لاعب بيسبول أميركي شهير.

(**) تيودور درايسر (1871- 1945) صحفي وروائي أميركي.

حد كبير من يستطيعون تسليته. وربما لم تخف الطبقات الأرستقراطية أبداً احتقارها ولم تبذل البلدان الديمقراطية أية محاولة لإخفاء إعجابها بمن تولوا تسليتها. إلا أن الممثلين والموسيقيين والمهرجين وما شابههم لا يبدو أنهم، على الرغم من نموذج فيغارو لبومارشيه، قد تضايقوا كثيراً من وضعهم الاجتماعي في الماضي. ومن المحتم أن فرنسا في القرن الثامن عشر كانت لطيفة على نحو كاف نحوهم ودفعت لهم بسخاء وأبدت الاهتمام بهم. أما درايسر فالأرجح أنه يعد بين الفلاسفة ومع تعديلات وطنية وعقلانية مناسبة بين أمثال غوركي(*) وتشيخوف(**). ويتوقع أنه كان يستطيع الحصول على مبالغ مساوية نسبياً ونيل تكريم أكثر.

إننا نتعامل مع متغيرات دقيقة للغاية للمشاعر الآدمية. والأرجح أن بعض الرجال في كل الأزمنة وكل المجتمعات يشعرون أن لديهم قدرات تحرمهم القيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة من إظهارها بحرية. وفي الواقع كلما كان المجتمع أكثر حرية فيما يخص قابلية الحركة الاجتماعية ازداد عدد من يشعرون أنهم لم يحققوا النجاح الذي ينبغي لهم تحقيقه. إلا أن من العسير للغاية التحديد الدقيق لتلك الأنواع من النشاط ومجالات التفوق حيث يكون الإحساس الأكثر بهذا التقييد وحيث يكون الأكثر احتمالاً أن يُولّد صراعاً اجتماعياً. هنا كما هو الحال في أماكن أخرى يشهد الوضع دائماً مجموعة معقدة من القيود ولن يكون واحد أو اثنان أو ثلاثة منها، بدون عناصر اضطراب إضافية، سوى حقيقة اجتماعية عادية تماماً. كما أن هنالك عناصر أخرى علاوة على القيود. قد يتحمل الرجال المعتادون على الولاء صعاباً أشد. ويبدو أن الحقيقة والمشاعر يتباينان على نحو مستقل. وهكذا كان هنالك دائماً في المجتمع الغربي - لنقل بالمقارنة مع المجتمع الطبقي الهندوسي - درجة

(*) مكسيم غوركي (1868- 1936) روائي وكاتب مسرحي سوفياتي عني بتصوير جيل الكادحين.

(**) أنطون تشيخوف (1860- 1904) كاتب مسرحي روسي ومن أبرز كتاب القصة القصيرة في العالم.

عالية جداً من "المهنة المفتوحة أمام المواهب". وكان دوران النخب مستمراً دائماً. ويمكن هنا إلقاء نظرة سريعة على مجتمعاتنا ونرى إن كانت هنالك قيود خاصة لذلك الدوران في السنوات التي سبقت الثورة.

كان السبيل إلى الثروة والشهرة في فرنسا في القرن الثامن عشر مفتوحاً وعملياً غير مقيد أمام رجال الأعمال والمغامرين والمغامرات والممثلين والفنانين والكتاب - أمام صاموئيل برنار(*) وباريس- دوفيرني وكاغليوسترو(**) وميسمر(***) ومدام دو باري(****) وفراغونار(*****) وبومارشيه وفولتير. أما السبيل إلى السلطة السياسية فكان أشق كثيراً على الرغم من أن آبيه دوبوا(******)، وهو ابن صيدلي، استطاع الوصول إلى القمة. وعموماً كانت السلطة السياسية الواسعة، سلطة وضع البرامج والسياسات، مفتوحة لمواهب أفراد الحاشية الملكية. وكانت السلطة الإدارية كلها تقريباً في أيدي نبلاء الأرواب وهم فئة وراثية وقادرة يعمل أفرادها بما يمليه الضمير. ويقال لنا مراراً إن المركز الاقتصادي وأعلى مراسم التكريم من نصيب من يستطيعون إثبات كونهم من النبلاء وحدهم. كما توجد علامات على أن طبقة النبلاء الفرنسية بقيادة نبلاء الأرواب في القرن الثامن عشر كانت تحكم صفوفها مما جعل الوصول إلى القمة محفوفاً بالصعاب لغير النبلاء ذوي الطموح. كانت طبقة

(*) صاموئيل بيرنار (1651- 1739) ممول فرنسي من أصل هولندي أقرض أموالاً طائلة للدولة الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر.

(**) الكونت دي كاغليوسترو (1743- 1795) شخصية إيطالية غامضة الأرجح أنه كان محتالاً بارعاً حكم عليه بالإعدام غير أن البابا خفف العقوبة إلى السجن المؤبد.

(***) فرانز ميسمر (1734- 1815) طبيب نمساوي مارس التنويم المغناطيسي.

(****) مدام دوباري (1743-1793) من سيدات البلاط وأصبحت فيما بعد عشيقة لويس الخامس عشر كانت إحدى ضحايا حقب الإرهاب عقب الثورة.

(*****) جان أونوريه غراغونار (1732-1806) فنان تشكيلي فرنسي.

(******) آبيه دوبوا (ولد عام 1848) عالم أثنوغرافيا وهو فرع من الأنثروبولوجيا يدرس أصول الأعراق والثقافات. توجه إلى الهند مبشراً وعاد يائساً من تحويل الهندوس إلى المسيحية غير أنه وضع مؤلفاً مهماً عن تقاليدهم ومؤسساتهم الدينية والمدنية.

النبلاء ذات الامتيازات موجودة فعلاً ومكروهة لدى الكثيرين من البرجوازيين غير الحاصلين على تجربة فيها - والذين، كما أوضح ألينور باربر جيداً، رغبوا كثيراً في نيل بعض الأدلة على كونهم نبلاء ولو بمنحها لنفسه. وهكذا يظهر دانتون مرة واحدة على الأقل باسم دو أنتون قبل الثورة.

كانت روسيا في القرن العشرين في نواح كثيرة توازي فرنسا في هذه المجالات. واحتلت طبقة النبلاء ذات الامتيازات النظام الاجتماعي وأغلقت مراسم التكريم الأعلى في وجه مواهب العامة. وكانت طبقة النبلاء هذه مكروهة بمرارة من جانب من كانوا ينظرون إليها من الخارج ولاشك أن الكثير من أفرادها كانوا متعجرفين ومستبدين وفاسقين ومغرورين وحمقى وما أشبه وكان الباقون كأنهم أتوا من صفحات رواية قصة مدينتين(*). غير أن الطريق إلى الشهرة والثروة لم يكن مغلقاً في روسيا قبل الثورة مع نشوء صناعات جديدة وباليه مسرحي نشيط وحياة موسيقية مع وظائف جامعية وإدارية مفتوحة للشباب الطموحين والقادرين حتى من القرى. وقد تعد راسبوتين مثالاً سيئاً لمهنة مفتوحة أمام المواهب غير أنك لا تكاد تستطيع إنكار أن راهباً سيبيرياً قد وصل إلى القمة.

أحد مفاتيح مشكلة دوران النخبة قد يكمن في توقف ذلك الدوران في مجال حساس معين من مثل المهن وبخاصة المهن "الثقافية"، أي بين الناس خصوصاً من هم عرضة إلى مشاعر الإحباط ومستبعدون من الأمور الجيدة. ويدهش المرء من دراسة المجتمع الفرنسي في السنوات التي سبقت الثورة إزاء نوع الضغط في الشبان الأذكياء القادمين إلى باريس للتأليف وشق طريقهم نحو النجاح. ويتحدث ميرسيه في كتابه وصف باريس أنه يمكن مشاهدة الشبان في

(*) رواية مشهورة للروائي الإنكليزي تشارلز ديكنز (1812- 1870) نشرت عام 1859 وهي ثاني رواية تاريخية له ومن أكثر رواياته رواجاً لاسيما في المدارس الثانوية الأميركية. وتدور أحداثها في باريس ولندن في عصر الثورة الفرنسية.

كل يوم مشمس على أرصفة النهر يغسلون ويجففون قمصانهم الوحيدة المزينة بالشرائط رمزاً للوضع الاجتماعي العالي. وفشل القادة اللاحقون للثورة الفرنسية من ذوي الأمزجة والأخلاق المختلفة من مثل بريسو(*) ومارا قبل عام 1789 في الأدب والعلوم على التعاقب. وكانت هنالك علامات على وجود ضغط في التنافس في صفوف ما يجب أن ندعوه نحن الأميركيين المثقفين والبيروقراطيين والكتبة "أصحاب الياقات البيض" ومن شابههم. ونحن نعرف أنه كان هنالك توقف مشابه في مجتمع جمهورية فايمار له صلة وثيقة بالثورة النازية عام 1933. هذه العلامة، مثل معظم الأعراض الأخرى التي تشير إلى توترات اجتماعية قوية، تكاد تغيب في أميركا في القرن الثامن عشر وهي صعبة التتبع للغاية والسبب إلى حد ما هو غياب المواد التاريخية المناسبة في الثورة الفرنسية. ومن الطبيعي إلى حد كاف أن توقفاً في دوران النخبة وتحقيق النجاح في الصحافة والأدب والمهن من هذا القبيل الأرجح أن ينعكس سريعاً في عزلة المثقفين وربما تحول ولائهم.

أخيراً، يبدو أن العداوات الاجتماعية تكون على أشدها عندما تحصل طبقة على ثروة وتشعر أنها معزولة عن التميز الاجتماعي الأرفع ومن مناصب السلطة السياسية الواضحة والمفتوحة. ويصف هذا، عموماً، حالة الأرستقراطيين والتجار الكالفنيين في إنكلترا في القرن السابع عشر، والطبقة الأرستقراطية الكولونيالية والتجار في أميركا، على الأقل فيما يخص الطبقة الحاكمة البريطانية والبرجوازيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر والبرجوازيين الروس في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ربما صعد أفراد في كل من هذه المجتمعات من صفوف ربما أدنى من الطبقة الوسطى ويتغلبون على كل هذه الحواجز. وحتى كطبقة كان للبرجوازيين في كل المجتمعات الأربعة حقاً صوت حاسم في القرارات السياسية المهمة حتى قبل نشوب الثورات. غير أن البلدان تدار من

(*) جاك بيير بريسو دو وارفيل زعيم جيروندي ثوري فرنسي متطرف.

أفراد آخرين ذوي امتيازات وكان البرجوازيون كطبقة مستبعدين على نحو ميؤوس منه من الامتيازات الاجتماعية الأرفع. وعلاوة على ذلك كان هذا الاستبعاد يتمثل باستمرار في كل مكان ما عدا المناطق الريفية النائية. وقبل ماركس وقبل \أوشينا هارينغتن بزمن طويل كان رجال عمليون يعرفون أن السلطة السياسية والامتيازات الاجتماعية تخدم السلطة الاقتصادية. وحيث لا تستطيع الثروة وحتماً الجيل الثاني أو الثالث من الثروة، شراء كل شيء - كل شيء في هذا العالم، على كل حال - تكون هنالك علامة أولية على الثورة موثوق بها على نحو واضح.

الخلاصة

باختصار، الأمر الأكثر إثارة للدهشة أننا يجب أن نلاحظ أن كل هذه العلامات الأولية - العيوب الحكومية، الشكاوى غير العادية بسبب الضرائب، التفضيل الحكومي الواضح لمجموعة واحدة من المصالح على أخرى، الورطات والارتباكات الحكومية، فقد الثقة بالنفس بين الكثير من أعضاء الطبقة الحاكمة، تحول أعضاء كثيرين في تلك الطبقة إلى الاعتقاد أن امتيازاتهم غير منصفة أو أنها مضرة بالمجتمع، تشديد العداوات الاجتماعية، التوقف عند نقاط معينة(عادة في المهن والفنون وربما وظائف ذوي الياقات البيضاء عموماً) في المهن المفتوحة للمواهب، فصل السلطة الاقتصادية عن السلطة السياسية والامتيازات الاجتماعية - قد يوجد بعض هذه العلامات إن لم يكن معظمها في كل مجتمع حديث في أي وقت. وبفضل حكمة الإدراك المؤخر يمكننا الآن القول إن هذه كانت موجودة في أربعة، أو على الأقل ثلاثة، من هذه المجتمعات ولا شك أنه وجدت علامات أخرى على الثورة أغفلنا دراستها في مجموعات مؤتلفة وبدرجات غير عادية قبل نشوب الثورة. إلا أن من الواضح أننا يجب أن نستنتج من تحليلنا أن التشخيص في المراحل المبكرة من الثورة

صعب للغاية ولا يمكن حتماً تقليصه إلى معادلة دقيقة أو وصفة أو مجموعة قواعد. وينطبق هذا كذلك على تشخيص الأمراض البشرية. ويقول لنا ثقاة إن أفضل التشخيصيين لا يتمكنون من تحليل كل الخطوات التي يتخذونها في التشخيص السريري للمرض ووضعها في سلسلة منطقية نظامية.

غير أننا لا نجد أنفسنا يائسين تماماً أمام موهبة غامضة لنبوءة قصيرة الأمد للتشخيصي الناجح. إن وسائله ليست وسائل السحر بل موهبة جعل ما هو، حتى تجعله الألفة سهلاً، تركيب صعب وجلي نادراً للخبرة السابقة والمراقبة الحالية تعميماً ناجحاً - أو حدساً قوياً إن شئت. ويمكننا في هذه الحالة المخاطرة بأكثر من علامات الثورة في المجتمعات الأربعة. في هذه المجتمعات كافة، وخصوصاً في فرنسا وروسيا، هنالك، مع اقتراب نشوب الثورة، حديث متزايد عن الثورة، شعور متنام بالتوتر الاجتماعي، "تشنج" وسخط متعاظم. ثمة متنبئون بالشر دائماً ونحن لسنا في حاجة إلى التأكيد كثيراً على أية نبوءة معينة عن ثورة معينة من مثل نبوءة الماركيز دارغنسن(*) قبل أربعين عاماً من الثورة الفرنسية. إلا أنه عندما تصبح المخاوف - أو الآمال - من هذا القبيل شيئاً مثل الملكية العامة عندما تكون، إذا استخدمنا استعارة قديمة منحها اختراع جهاز الراديو معنى ساخراً، في الهواء ويصبح إذاك مأموناً على نحو منصف تماماً اعتبار هذا الشعور العام علامة حاسمة على الثورة. غير أنه حتى في ذلك الحين لدينا علامة صعبة الاستخدام لأنه لا يبدو أن الناس يتوقعون الثورة لأنفسهم بل لأطفالهم. إن الثورة الفعلية مفاجئة دائماً. وينطبق هذا حتى على روسيا حيث كانت الثورة متوقعة منذ زمن طويل.

لا بد أن تكون حقاً متوقعة وليس في أفواه المتنبئين المهنيين أو المحافظين

(*) رينيه لويس دوبولمي (الماركيز دارغنسن) وزير الخارجية في عهد لويس الخامس عشر. ناقش المفاهيم السياسية لحركة التنوير مع فولتير والفلاسفة الآخرين وتعد مذكراته المصدر الرئيسي للتاريخ الأدبي والسياسي في عهد لويس الخامس عشر.

الجبناء. ولا بد أن تتجاوز، قبل كل شيء، المثقفين لأنه على الرغم من أهمية تحول ولاء المثقفين كعلامة، إن وجد مع علامات أخرى، فمن الصعب دائماً تمييزه عن عدم الانتماء المحض للمثقفين. وعموماً فإن من مهام المثقفين الرئيسية في المجتمع الغربي إبعاد الناس العاديين عن تفاؤلهم. وربما لكاساندرا(*) حق بقدر أفلاطون في تأسيس تقليد أكاديمي عظيم. غير أن خلفاء كاساندرا لم يحققوا تماماً عصمتها غير السعيدة.

(*) كاسندرا أو الكساندرا ابنة ملك طروادة منهما أبولو موهبة التنبؤ لجمالها إلا أنها لم تبادله الحب فألحق بها لعنة كي لا يصدق أحد نبوءاتها.

الفصل الثالث

المراحل الأولى من الثورة

1. فيغارو الخالد

ثمة مناجاة نفس شهيرة لفيغارو في مسرحية زواج فيغارو(*) التي عرضت أول مرة في باريس عام 1784. يتركز في هذه المناجاة على نحو مثير الكثير مما تولينا جاهدين تحليله في الفصل السابق. فيغارو نفسه هو الشاب القادر الوحيد الذي يتعرض للقمع ظلماً بسبب ضغط نظام اجتماعي قائم على الامتيازات. ينتظر فيغارو في افتتاح المشهد مفاجأة موعد غرامي بين عروسه وسيده كونت ألمافيفا. وتتحول أفكاره الأولى عن التقلب الأنثوي سريعاً إلى هجوم على سيده النبيل: "لأنك سيد عظيم فأنت تعتقد أنك عبقري عظيم!...النبالة، الثروة، المنزلة، المناصب، كل ذلك يجعل الرجل متكبراً ! ولكن ماذا فعلت لتستحق امتيازات كثيرة؟ لقد تكبدت معاناة الولادة!" ثم

(*) زواج فيغارو مسرحية للكاتب المسرحي الفرنسي بيير بومارشيه (1732- 1799) الذي اتسم أدبه وحياته بالمغامرات وضعها عام 1784 وألف المؤلف الموسيقي النمساوي موزارت أوبرا بالعنوان نفسه عام 1786. وعلى الرغم من حظر مسرحية بومارشيه في فيينا بسبب سخريتها من الارستقراطية فقد أصبحت الأوبرا من أنجح أعمال موزارت.

يستذكر فيغارو الصراعات التي ملأت حياته - أصله الغامض، دراسته الكيمياء والصيدلة والجراحة التي لم تكن كلها كافية، بسبب افتقاره إلى المحتد العالي، للحصول على امتياز تحضير الدواء البيطري. مغامرته في التأليف المسرحي واصطدامه المحتوم مع الرقيب وتحوله إلى الكتابة عن مالية الدولة وعقوبة السجن بسبب ذلك ومقالة أخرى في الأدب، في الصحافة هذه المرة، وقمع آخر، ورفضه كمرشح لوظيفة حكومية لأنه كان لائقاً للمنصب، وعمله كمقامر عندما استولى حماته النبلاء على معظم أرباحه وأخيراً عودته إلى مهنته القديمة كحلاق- جراح.

تتخلل هذه المناجاة الذاتية سلسلة من الملح الذكية التي أدخلت البهجة إلى نفوس الجمهور العصري وشغف بها في أنحاء البلاد. وفي الواقع كانت الأسر تتوجه إلى باريس خصيصاً لمشاهدة مسرحية زواج فيغارو وسماع أفضل الظرف الفرنسي الموجه ضد حكومة شريرة. وفيما يلي بعض أشهر سخريات بومارشيه: "لعدم استطاعتهم الحط من قدر الروح البشرية ينتقمون بإساءة معاملتها"، "الرجال الصغار وحدهم يخشون الكتابات الصغيرة" و"للتقدم في هذا العمل تساوي معرفة الأسلوب أكثر من المعرفة"، وطبعاً تلك السخرية المريرة إزاء مكاسب الكونت - "ماذا فعلت لتستحق امتيازات كثيرة؟ لقد تكبدت معاناة الولادة!" ثمة مؤشرات كثيرة في هذا الكلام إلى الثورة القادمة بحيث إنه مع حكمة ما بعد الحقيقة التي يتوصل إليها المؤرخ على نحو طبيعي يمكننا القول إن الثورة تكاد تكون منفجرة في فيغارو. ويشمل ذلك حقيقة أنه بعد تردد طويل لم يمنع الرقيب مسرحية بومارشيه.

شهدت السنوات التي سبقت مباشرة اندلاع الثورة فعلياً تصعيداً للاحتجاجات ضد طغيان الحكومة وسيلاً من المنشورات والمسرحيات والخطب وتفجر النشاط من جانب مجموعات الضغط المعنية. وفي مواجهة ذلك كله لم تكن الحكومة في مستوى السمعة التي سعى المعارضون إلى إضفائها عليها. وربما فشلت المحاولات الاستبدادية لقمع المعارضة المتمردة لأن المعارضة كانت قوية للغاية ومصممة وفعالة أو ربما فشلت محاولات الحكومة لأن

الحماسة والفعالية كانت تعوز وكلاء الحكومة وكسبت المعارضة أكثر من نصفهم. وتبقى الحقيقة أن المحاولات تفشل حقاً.

حتى فترة الحكم الشخصي لتشارلز الأول التي سبقت الثورة الإنكليزية لم تكن تماماً هادئة وناجحة كما بدت على السطح. وهرب الكثير من الكهنة المتطهرين من سعي لاود(*) إلى طردهم من الكنيسة الرسمية ووجد الآخرون الكثير من الوعاظ المستقلين والمطابع. وقد كتب سترافورد(**) عام 1638 أن "الشعب في أتم الهدوء، وإذا لم أكن مخطئاً، راضياً للغاية إن لم يكن مسروراً جداً بحكومة جلالته الحنونة وحمايتها". إلا أنه كان مخطئاً جداً. لم تكن تلك السنوات العشر من الحكم الشخصي سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة.

لا نجد في المجتمعات الثلاثة حتى هذا الهدوء المضلل بل نجد تزايداً مطرداً في الاضطراب الثوري. وفي أميركا لم تكد أية مستعمرة تنجو من شكل ما من الشغب في الفترة بين قانون الطابع ولكسنغتن(***) كما شهدت كل المستعمرات نمو الاهتياج على نحو مستمر من خلال لجان التجار ولجان المراسلة وأبناء الحرية(****) والمجموعات المشابهة. واقتربت الحكومة الفرنسية في عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر من الإفلاس شيئاً فشيئاً ومع كل ذريعة لتجنب الإفلاس اقتربت دعوة مجلس الطبقات الثلاث إلى الانعقاد وإشارة الثورة أما في روسيا فكان المجتمع واعياً على نحو لافت لاحتمالات الثورة.

(*) رئيس أساقفة كانتربري وليم لاود (1573- 1645) الذي عارض البيوريتانية (التطهرية) وأدى ذلك وتأييد الملك إلى شنقه في منتصف الحرب الأهلية الإنكليزية.

(**) ايرل سترافورد: أول من منح هذا اللقب هو توماس وينتورث (1593- 1641) مستشار الملك تشارلز الأول المقرب وكان سياسياً بارزاً في الحقبة التي سبقت الحرب الأهلية الإنكليزية التي اشترك فيها.

(***) وقعت معركتا لكسنغتن وكونكورد عام 1775 بين الثوار الأميركيين وقوة بريطانية من 700 جندي وسقط من هؤلاء 273 مقابل 95 من الثوار.

(****) أبناء الحرية: مجموعة وطنية سرية أميركية نشأت في مستعمرات بريطانيا الأميركية أثناء الثورة وهاجم أفرادها السلطة البريطانية ورموزها وممتلكات الارستقراطيين.

وحول الروس من الطبقة العليا قلقهم طوال أكثر من جيل واحد إلى صياغة عبارات من مثل "الجلوس على فوهة بركان" و "من بعدنا الطوفان"، و"العاصفة تتصاعد". وشهد العامان 1905 و 1906 تحت ضغط الهزيمة أمام اليابانيين نوعاً من تجربة ثورة كبرى. وكبحت الحماسة الوطنية عام 1914 بعض الوقت الإعداد الواضح للثورة غير أن الهزيمة العسكرية عامي 1915 و1916 أعادت خلق الظروف التي نمت يومياً تدريجياً مثل ظروف عام 1905.

2. أحداث المراحل الأولى

بدأت الثورة الروسية على نحو مثير ومحدد بحدث واحد - أعمال شغب في بتروغراد في مارس/آذار 1917 - أكثر من أي من ثوراتنا الأخرى. وأبرز التاريخ والطقوس الوطنية أحداثاً مثيرة - القتال في كونكورد، سقوط الباستيل - بكونها بدايات الثورة. غير أنه على الرغم من وعي المعاصرين للنوعية المثيرة لتلك الأحداث فإنهم لم يثقوا دائماً بتحويل التهييج الثوري إلى ثورة. وليست الخطوات الأخرى في الثورة واضحة دائماً للثوريين أنفسهم وليس الانتقال من التهييج إلى العمل أمراً فجائياً ومحدداً في هذه الثورات الأربع.

تولى تشارلز الأول العرش عام 1624 ووجد نفسه فوراً تقريباً مشتبكاً مع مجلس العموم في صراع على الضرائب بخاصة. ونشأت عن الصراع عريضة الحق عام 1628 التي انتزع فيها البرلمان موافقة الملك على بيان بقيود محددة على السلطة الملكية: وعد تشارلز بعدم الحصول على القروض الإجبارية وعدم فرض إقامة الجنود على أسر غير راغبة في ذلك وعدم السماح للموظفين بفرض الأحكام العرفية وعدم سجن أي شخص بدون تقديم سبب لذلك. وتجرأ البرلمان بقيادة سير جون اليوت المندفع على رفض منح الملك الشكل المألوف من إيراد الضرائب الجمركية - الطنية والباوندية - وأصر بطريقة عدائية وثورية على المحافظة على امتيازات أعضائه. وفي مناظرة نهائية في 2 آذار/مارس 1629 أمسك عضوان هما دنزيل هولس وفالنتاين رئيس البرلمان في كرسيه عنوة بينما اقترح اليوت إعلاناً قوياً عن عدم مشروعية دفع ضريبتي الطنية والباوندية

بدون موافقة البرلمان واندفع النواب المحافظون لإنقاذ الرئيس. ثم أعقبت ذلك مناظرة صاخبة ذات مقاييس تشبه تلك التي جرت في الجمعية الوطنية في فرنسا لاحقاً، إلا أن قرارات اليوت أقرت على نحو ما قبل تنفيذ الأمر الملكي حل البرلمان. عبر البرلمانيون بقوة عن الاحتجاج. ولم يجتمع البرلمان في إنكلترا من يومها طوال أحد عشر عاماً. وأعلن اليوت، الذي سجن لإثارته الشغب، أنه ليس للملك سلطة على عضو مجلس العموم. وتوفي شهيداً عام 1632.

بذل تشارلز في سنوات الحكم الشخصي، بمساعدة اثنين من أنصاره الكبار هما سترافورد ولاود، أقصى جهوده لتنظيم حكومة إنكلترا وفقاً لمفاهيم المركزية الفعالة والحكم الخبير وكانت التراث الرئيسي لحركة النهضة. وأدى الملك عملاً جيداً ومدهشاً من نواح عديدة. إلا أنه ربما كان، كما اعتقد المؤرخون اللبراليون في القرن التاسع عشر، ضد جوهر الطبيعة الإنكليزية والتاريخ الإنكليزي والقالب الأساسي للمؤسسات الإنكليزية. كان في طريقه إلى الإفلاس حتماً. والأرجح أن نزاعاً مع المشيخيين الاسكتلنديين عجل في حدوث ما كان أمراً محتوماً. دعا تشارلز البرلمان إلى الانعقاد في ربيع عام 1640 إلا أنه قرر حله بعد أقل من شهر واحد. ثم غزا جيش اسكتلندي إنكلترا وكان على تشارلز أن يجمع الأموال واضطر إلى الدعوة إلى برلمان آخر. لذا كان البرلمان القصير تمهيداً للبرلمان الطويل الذي اجتمع في 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1640 وحل في 20 نيسان/أبريل 1653 وأعيد إلى الحياة فترة وجيزة عام 1659 قبل إعادة آل ستيوارت. امتد عمر هذا البرلمان غير العادي نحو 20 عاماً من الثورة الإنكليزية.

شرع البرلمان الطويل بالعمل فوراً في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1640 بعد أسبوع واحد من انعقاده حرك بيم تهمة الخيانة العظمى ضد سترافورد. عرقل المحافظون في مجلس اللوردات المحاكمة إلا أن التهمة حولت في أوائل عام 1641 إلى قانون تجريم(*). وتضمنت المحاكمة على الأقل أشكال الدعوى

(*) قانون التجريم bill of attainder قانون برلماني بريطاني قديم يقضي بجواز تجريم المرء والحكم عليه بالموت دون محاكمة أو إجراءات قضائية.

القضائية حيث كان التجريم عملاً تشريعياً بسيطاً. كان اللوردات مستعدين للتخلي عن سترافورد إن لم يكن محاكمته، وفي 12 مايو/أيار سقط أمام فأس الجلاد. وبعد أقل من ثمانية أعوام وصلت الفأس إلى رأس سيده الملك.

صوت البرلمان بأغلبية أحد عشر صوتاً على الاحتجاجات الكبرى وهي تلخيص طويل لتلك المظالم المتراكمة ضد الملك في سبع عشرة سنة من الحكم. ورد تشارلز على هذا التصويت بعدم الثقة بمحاولة اعتقال ستة أعضاء في البرلمان: لورد كيمبولتن في مجلس اللوردات، بيم، هامبدن، هيسلريغ، هولس، وسترود في مجلس العموم الذين كانوا قد عرضوا أنفسهم للشبهات بالدخول في مفاوضات مع الجيش الاسكتلندي الغازي تعد خيانة من الناحية الفنية. وسارع تشارلز إلى مجلس العموم مع رجال مسلحين وحاول القبض على الأعضاء. إلا أن هؤلاء الأعضاء فروا إلى مدينة لندن وهزم تشارلز مرة أخرى. انتشى مجلس العموم بنجاحه وقرر السيطرة على الجيش بتعيين ضباط في المليشيا والفرق المدربة والمنظمة . وشرع تشارلز بدوره ببناء جيشه وأقام مقره في نوتنغهام في آب/أغسطس 1642. وهكذا اندلعت الحرب الأهلية.

متى يمكن القول في هذه السلسلة المتلاحمة من الأحداث إن الثورة الإنكليزية قد بدأت مسألة ذاتية جزئياً. شرع بالخطوات المهمة الأولى في وقت ما بين دعوة البرلمان الطويل إلى الاجتماع عام 1640 ونشوب الحرب بعد ذلك بعامين. وربما كان إعدام سترافورد تاريخاً مثيراً حقاً أو ربما فشل محاولة تشارلز إلقاء القبض على الأعضاء الخمسة في البرلمان. على أية حال اتخذت الثورة الإنكليزية بحلول صيف عام 1642 شكلاً واضحاً في الحرب الأهلية.

لم تكد الأحداث في أميركا تتحرك على نحو أسرع. ويمكن إلى حد ما القول إن الثورة الأميركية نشبت حقاً عام 1765 بقانون الطابع أو على كل حال كان التهييج الذي توج بإلغاء ذلك القانون نوعاً من التجربة للحركة العظمى في عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر. صممت الحكومة الإمبراطورية على فعل شيء بخصوص سكان المستعمرات الأميركية وصاحبت الرسوم المعتدلة التي

فرضها تاونزند(*) على الشاي والزجاج والرصاص ومواد قليلة أخرى مستوردة إلى أميركا محاولات لجمع تلك الرسوم. وكانت النتيجة سلسلة من المناوشات مع مجموعات جيدة التنظيم على نحو متزايد. وأدت أعمال تلويث المخبرين بالقار ووضع الريش عليهم وسرقة السلع المحتجزة تحت بصر موظفي الجمارك والسخرية من الجنود البريطانيين إلى حوادث أكثر إثارة ترددها الكتب المدرسية: الاستيلاء على غاسبي في بروفيدنس(**) ومجزرة بوسطن(***) عام 1770 وحفلة الشاي في بوسطن وحرق السفينة بيغي ستيوارت في أنابوليس(****).

كان إغلاق ميناء بوسطن وإرسال كيج وقواته إلى مستعمرة مساشوستس وقانون كيبيك(*****) كلها إجراءات اتخذتها الحكومة الإمبراطورية ضد المستعمرات الثائرة. ويمكن للمعنيين بتلك الأمور إجراء مناقشة تفصيلية لمسألة الموعد الدقيق لاندلاع الثورة الأميركية رسمياً. وقد يكون التاريخ انعقاد المؤتمر القاري الأول عام 1774 أو نشوب معركتي ليكسنغتن وكونكورد عام 1775 أو حتى اليوم الشهير الرابع من تموز/يوليو 1776. إلا أن صراعات المجموعات المعقدة التي تنمو منها الثورات فعلياً تتحول لاحقاً إلى مصادر رسمية للطقوس الوطنية.

(*) تشارلز تاونزند (1725- 1767) سياسي بريطاني تولى وزارة المالية وأدت القوانين التي وضعها إلى ازدياد النقمة واندلاع الثورة الأميركية.

(**) أرسل ملك بريطانيا جورج الثالث السفينة غاسبي إلى ميناء جزيرة رود آيلاند في أميركا عام 1772 لفرض قانون الطابع ومنع التهريب. ولدى جنوح السفينة هاجمتها مجموعة من الوطنيين واحتجزت طاقمها وأشعلت النار في السفينة ولم يبلغ عن أسماء الفاعلين فانتشرت روح الوحدة إلى مستعمرات أخرى.

(***) أطلق الجنود البريطانيون النار على أبناء بوسطن المحتجين على فرض ضرائب جديدة.

(****) أحرقت سفينة الشحن بيغي ستيوارت في أنابوليس عام 1774 عقاباً لمخالفة مقاطعة شحنات الشاي المستوردة التي فرضت رداً على المعاملة البريطانية لسكان بوسطن بعد حفلة شاي بوسطن.

(*****) أصدر البرلمان البريطاني قانون كيبيك عام 1774 الذي حدد إجراءات الحكم في إقليم كيبيك.

ربما يقال إن الثورة الفرنسية عام 1789 كانت في حالة تبلور عدة عقود. لم تكن في فرنسا مقاومة ظاهرة ومحددة ضد الحكومة الملكية، كما في برلماني تشارلز الأول وفي جمعيات المستعمرات الأميركية. كانت فرنسا بلا أي هيئات تمثيلية. وكان أقرب شيء إلى هيئة من هذا القبيل هو برلمان باريس وهو نوع من المحكمة العليا ويضم قضاة من النبلاء يتولون مناصبهم بالوراثة. وكان هذا البرلمان بالذات وأعقبته البرلمانات الإقليمية من شرع في العقد التاسع من القرن الثامن عشر في نزاع مع التاج توج بتحد مثير للسلطة الملكية والنفي الإجباري للقضاة. كان معظم الرأي الشعبي، في باريس على الأقل، مع القضاة وظن النبلاء أصحاب الامتيازات أنهم كانوا أبطالاً وشهداء في حينه وأصبحت ثورتهم الارستقراطية خطوة مهمة في العملية الثورية.

أرغم الإفلاس الوشيك الملك على الدعوة عام 1787 إلى عقد مجلس الوجهاء وهو نوع من هيئة دعيت على عجل ضمن هيئة خاصة من الأشخاص المهمين توقع الملك لويس السادس عشر منها التنوير بلا ريب بأسلوب القرن الثامن عشر. وقد حصل عليه بالتأكيد إذ ضمت الهيئة الكثير من مثقفي الطبقة الوسطى من مثل لافاييت الذين كانوا مقتنعين أن فرنسا يجب أن تتوقف عن أن تكون "نظاماً مستبداً" وأن تمنح نفسها دستوراً حديثاً من النوع الذي كان الاتحاد الأميركي يروج له. كانت هيئة الوجهاء تدرك ضرورة مواصلة التشاور مع الأمة. ووافق التاج في نهاية المطاف وأعاد إلى عضوية الحكومة السويسري نيكر الذي اشتهر بأنه ساحر مالي ودعا إلى اجتماع لمجلس الطبقات العامة يعقد في ربيع 1789.

كان مجلس الطبقات قد اجتمع آخر مرة عام 1614 وكان هنالك شك في أسلوب انتخاب المجلس. واختير ثلاثمائة ممثل للطبقة الأولى أو رجال الدين وثلاثمائة ممثل للطبقة الثانية أو النبلاء وستمائة ممثل للطبقة الثالثة أو العموم قبل موعد عقد الاجتماع الأول. لم تكن هنالك سابقة الاختيار المزدوج للطبقة الثالثة عام 1614 أو قبلها. وكان، ذلك، في الواقع، خطة ثورية وإقراراً بطريقة أو بأخرى أن الطبقة الثالثة أهم من الطبقتين الأخريين. غير أن القرارات النهائية

حسب الدستور القديم كانت مجرد قرارات استشارية للتاج تتخذها الطبقات كوحدات. وعندما اجتمعت الطبقات في أيار/مايو 1789 كان السؤال المهم هو تطبيق الدستور القديم وتصويت الطبقات أو التصويت في جمعية كبرى واحدة من ألف ومائتي عضو الأغلبية الواضحة فيها للطبقة الثالثة علاوة على اللبراليين بين أعضاء الطبقتين الأخريين. ترك لويس ومستشاروه تلك المسألة غامضة وبلا حسم ولم يصر التاج على ثلاث جمعيات منفصلة إلا بعد إصرار الطبقة الثالثة على جمعية كبرى واحدة.

المسألة التي نشأت منها الثورة الفرنسية رسمياً هي ببساطة مسألة التصويت بالأوامر أو تصويت الأفراد في جمعية عامة واحدة. كانت الطبقة الأولى مصممة ورفضت أي تعامل حتى تنضم إليها الطبقتان الأخريان فيما أطلق عليه اسم الجمعية الوطنية - وكان الاسم دعاية قوية للثوريين. وثمة لحظات مثيرة معينة في الصراع الذي استمر شهرين وكان برلمانياً على نحو جوهري. منع أعضاء الطبقة الثالثة بسبب غلطة ملكية من دخول مكان اجتماعهم المعتاد فاجتمعوا على عجل في ساحة تنس مغلقة كبيرة وأقسموا ألا ينفض الاجتماع حتى تمنح فرنسا دستوراً.

وبفضل لوحة ديفيد الشهيرة، التي هي رمزية أكثر منها واقعية، يحل هذا الحادث في المرتبة الثانية بعد الاستيلاء على الباستيل في الطقوس الوطنية للجمهورية الفرنسية. ويقال إن ميرابو وجه رده الشهير في جلسة مثيرة في 23 حزيران/يونيو على طلب من رئيس تشريفات الملك بالانسحاب: "نحن مجتمعون هنا بإرادة الأمة ولن نغادر إلا بالقوة؟" وسرعان ما وافق الملك ولو الأرجح ليس على خطاب ميرابو(*). وتم تأسيس الجمعية الوطنية في بداية تموز/يوليو. لقد اتخذت الخطوات الأولى في الثورة الفرنسية.

إن من يصرون على وجوب حدوث العنف قبل القول إن الثورة قد نشبت يحددون تاريخ نشوب الثورة الفرنسية في 14 تموز/يوليو 1789 عندما استولت

(*) الكونت دو ميرابو (1749- 1791) سياسي وثائر فرنسي اشتهر بلقب "خطيب الثورة الفرنسية".

الجماهير بمساعدة جنود انضموا إلى جانب الشعب على قلعة - سجن الباستيل الكئيبة على الطرف الشرقي من المدينة. إن عيد الباستيل هو العيد الوطني المعادل للرابع من تموز/يوليو (في أميركا) وهو يوم عظيم ومقدس في إحدى أفضل عقائدنا القومية المعاصرة تنظيماً. ولذا فقد أحيط الحدث بالأعاصير ومنح الهالة المحيطة بالاستشهاد وسحب بسلام من لمسة التاريخ. أما بالنسبة للمراقب من الخارج فيبدو الاستيلاء على الباستيل عملية معقدة ومربكة وقعت بسبب ضعف الحاكم الملكي دو لوناي وقوة القائمين بالحصار. الأمر المهم لنا هو أن باريس أصبحت في قبضة الجماهير ثلاثة أيام وأن الجمهور راح يهتف ضد التاج مؤيداً الجمعية الوطنية. وبعد انتهاء أعمال الشغب أمكن للجمعية الوطنية - أو بالأحرى الأغلبية الثورية في الجمعية الوطنية - المضي في ضمان وقوف الشعب إلى جانبها وأن لديها تفويضاً مطلقاً يجعلها تستخف بالاحتجاجات الملكية وأن تمضي في عملية إعادة تكوين فرنسا.

مضت الثورة في روسيا بسرعة فائقة. وكما بينا في فصل سابق وقعت حوادث سابقة مماثلة لانتفاضة روسية وكانت عدة أجيال من الروس تناقش نشوب العاصفة المحتم. غير أن الخطوات الأولى التي قادت إلى ثورة شباط/فبراير 1917 باغتت الزعماء المتقدمين من مثل كيرنسكي. اعتادت الأحزاب الاشتراكية في أنحاء العالم على الاحتفال بالثامن من آذار/مارس عيداً للمرأة. في ذلك اليوم - 23 شباط/فبراير في التقويم الروسي القديم ومنه جاء اسم ثورة شباط/فبراير التي عرفت به في التاريخ - تدفقت أعداد غفيرة من العاملات من مناطق المصانع إلى شوارع بتروغراد يطالبن بالخبز. وراح خطباء المجموعات المتطرفة يخطبون عند زوايا الشوارع. واختلط الجنود من الحامية العسكرية مع أفراد الجمهور وبدا أنهم يتعاطفون معهم. وحتى الجنود القوزاقيون لم يظهروا عداء نحو الناس أو بدوا، على كل حال، غير ميالين للعراك.

راح المسؤولون في الوقت نفسه يتشاورون وعندما فشلت الإجراءات التدريجية قرروا في 11 آذار/مارس قمع الاضطرابات وفقاً لخطة دقيقة موضوعة على الورق لحالات الطوارئ كهذه. إلا أن الخطة لم تنجح. وبدأ جنود الحامية

الذي لم يرغبوا في الذهاب إلى جبهة القتال بالتردد. وفي اليوم التالي نشب أول تمرد وراحت الأفواج الشهيرة في الجيش الإمبراطوري الواحدة بعد الأخرى تغادر الثكنات لتنضم إلى الجماهير وليس لتطلق النار عليها. وظهر قادة مغمورون وضباط صف ورؤساء عمال في المصانع وما شابههم قادوا مجموعاتهم الصغيرة في نقاط استراتيجية. وبرزت حقيقة واضحة واحدة من كل الاضطراب والجنون الذي يبعث سجله المفصل للأحداث هذا الأسبوع اليأس في نفس المؤرخ. لم تعد هنالك حكومة إمبراطورية في العاصمة ولا أية حكومة نظامية. وظهرت تدريجياً نواة حكومة بتروغراد السوفياتية المقبلة المنظمة من خلال نقابات العمال والمجموعات الاشتراكية وأفراد الطبقة العمالية الأخرى. احتار القيصر ومستشاروه وبدوا غير قادرين على السيطرة على الحركة إلا أنهم منعوا مجلس الدوما الشرعي من تولي السيطرة. وبدلاً من ذلك تجمع المعتدلون من كل الأنواع لتشكيل الحكومة الموقتة الجديدة. وفي واقع الحال بدا في تلك الحالة المضطربة أن عمل المعتدلين هو اتساق للثورات. فرضت مشاعرهم وتدريبهم عليهم محاولة وقف الاضطراب وإنقاذ ما يستطيعون إنقاذه من الأساليب الراسخة.

اتفق الاشتراكيون والليبراليون على حد سواء على وجوب تنازل القيصر عن العرش. وكان نيقولا نفسه قد توجه من مقر قيادة الجيش إلى قصره في تسارسكو سيلو بالقرب من بتروغراد غير أنه توقف عند بسكوف بسبب ازدياد الاضطرابات. وهنا قرر في 15 آذار/مارس التنازل عن العرش لشقيقه الدوق الأكبر مايكل. ويبدو أن ما بقي من الحكومة المركزية في روسيا كان في أيدي لجنة من مجلس الدوما تحيط بالدوق الأكبر شخصياً. رفض هذا العرش وتقرر أن تصبح روسيا جمهورية. ويبدو أن قرار مايكل رفض العرش قد أملاه الجبن الشخصي. وتدور إحدى المشاكل في التاريخ في الحالة الشرطية حول ما كان يمكن حدوثه لو أن هذا الرجل من آل رومانوف كان يتمتع بالشجاعة والعزم والقدرة. لا أحد يعرف الجواب إلا أن الأسئلة تذكرنا أنه حتى في أقصى لحظات التاريخ السوسيولوجية لا يمكنه إهمال دراما الشخصية والحظ.

بدأت الثورة الروسية مع تنازل مايكل في 16 آذار/مارس 1917. ترددت أصداء في الأقاليم ولم يعرف سقوط سلالة رومانوف في بعض الأماكن النائية إلا بعد مرور عدة أسابيع. غير أن أحداث تلك الأيام الثمانية قد دمرت حكومة بيروقراطية مركزية في أهم نقطة فيها - رئيسها ومركزها العصبي. لم تغير ثورة شباط/فبراير الكثير في روسيا إلا أن أسبوعاً واحداً فعل ما استغرق أشهراً في إنكلترا وأميركا وفرنسا. انتهى آل رومانوف أسرع من آل ستيوارت وآل هانوفر وآل بوربون.

3. التلقائية أم التخطيط؟

حتى من التخطيط السابق للخطوات الأولى في الثورات الأربع لا بد أن يكون واضحاً أن الفروق في نظر المؤرخ السردي في الثورات الأربع لافتة للنظر. اندلعت الثورة الإنكليزية في إحدى أقدم وأرسخ الهيئات البرلمانية، ونشبت الثورة الأميركية على نحو رئيسي في نيو إنكلاند بين ناس تعودوا على اجتماعات مجالس المدن والمستعمرات، وتطورت الثورة الفرنسية من اجتماعات هيئة تشريعية بلا سوابق مباشرة أعضاؤها رجال غير معتادين على الحياة البرلمانية، وبدأت الثورة الروسية في أعمال شغب في شوارع العاصمة واستمرت بدون الاستفادة من أية هيئة برلمانية لأنه حتى مجلس الدوما القديم لم يجتمع إلا من خلال لجنة طوارئ. وثمة فروق في الشخصية وفروق في الوقت والمكان. ويبدو تشارلز الذي أسس مقره يحدوه الأمل في نوتنغهام عام 1642 بعيداً للغاية عن نيقولا الذليل الذي شق طريقه في السهول الشمالية في عربة قطار تحت رحمة عمال مضربين وجنود متمردين متنازلاً حزيناً عن العرش في مدينة بسكوف الكئيبة. ربما كانت هنالك فروق عنصرية. وللوهلة الأولى تبدو الحرب الأهلية المنظمة في إنكلترا التي تكاد تتسم بتقاليد الفروسية لا تشبه إطلاقاً جنون 14 تموز/يوليو أو المشهد الفاجع والمبهج في آن واحد للعاصمة بتروغراد في قبضة غوغاء ليس لهم حتى شعار جيد.

غير أن المشهد الأخير يستحق التوقف عنده. على المستوى غير النظامي

للشبه الدراماتيكي أو السردي لهذه المراحل المبكرة للثورة جوانب شبه لافتة بقدر الفروق بينها. رئيس مجلس العموم لينثال يتحدى محاولة تشارلز القبض على خمسة برلمانيين وميرابو يهدر متحدياً كبير رئيس التشريفات المتحير في الجلسة الملكية في 23 حزيران/يونيو وباتريك هنري يحذر الملك من المصير غير السار لحكام آخرين - يبدو هؤلاء جميعاً أنهم يتكلمون لغة واحدة ويتخذون المواقف نفسها. ويبدو مجلس العموم البريطاني في جحيم جلسته الأخيرة عام 1629 يشبه الجمعية الوطنية الفرنسية أثناء لحظات ذروة حماستها وليس بعيداً للغاية عن جلسات مهمة معينة في سوفيات بتروغراد.

إن مشاعر الأفراد في المجموعات والخطاب والإيماءات الضرورية للتعبير عن هذه العواطف وجعلها فعالة للعمل أكثر اتساقاً مما يرغب المؤرخ الرومانتيكي - أو حتى مجرد التقليدي – أن يتصورها. وأية هيئة تمثيلية من عدة مئات من الأعضاء ترد بأساليب محددة على حوافز معينة وهي تفعل ذلك على نحو مؤكد وثابت لأنها لا تستطيع الرد على المنطق ولا مواجهة حالة جديدة مع حرية تجريبية كاملة. وتصبح الهيئات التمثيلية مستثارة بخاصة بالطريقة نفسها، سواء تضم "لا مسؤولين" روساً أو "متحمسين" فرنسيين أو "عقلاء" من الإنكليز. ولا يوجد داع لدهشتنا إذا كانت هنالك في المراحل المبكرة من الثورة متماثلات واضحة في سلوك الأفراد في تلك المجموعات.

غير أن الأمر الأهم لنا هو عدم وجود اتساقات في هذه الثورات الأربع يمكن تجميعها معاً وذات صلة بالمسار الكلي للحركات ومنحها مكاناً في مخططنا المفاهيمي للحمى. ما هو الدليل لدينا هنا أننا نتعامل مع عملية لها مراحل محددة ومشتركة؟ هل تقع هذه الخطوات الأولى في الثورة في ظل ظروف متشابهة من الناحية السوسيولوجية حتى لو أنها غير متشابهة دراماتيكياً؟

أحد الاتساقات واضح. حاولت الحكومة القائمة في كل المجتمعات الأربعة جمع الأموال من الناس الذين رفضوا الدفع. وبدأت ثلاث من ثوراتنا الأربع بين من عارضوا ضرائب معينة ونظموا احتجاجات عليها ووصلوا أخيراً إلى نقطة التهييج من أجل إسقاط الحكومة القائمة واستبدالها. وحتى في روسيا

عام 1917 كانت المشاكل المالية حقيقية ومهمة. ولا يعني هذا بالضرورة أن من عارضوا الضرائب توقعوا أو تمنوا حدوث ثورة راديكالية. ولا يعني ذلك أن الانتقال من التحدث عن تغييرات كبرى ضرورية - لأنه كان هنالك في كل هذه المجتمعات، كما شهدنا، شيء ما متوقع - إلى عمل ملموس بسبب حافز شكل من فرض الضرائب لم يشهد رواجاً.

ثمة تناسق ثان واضح كذلك، على الرغم من أن عواقبه التي تستمد منها أكثر غموضاً. الأحداث في هذه المرحلة، هذه الخطوات الأولى في الثورة، تبرز حتماً من السخط المرتبك نحو النظام القديم طرفين في تعارض واضح وإلى عنف أولي حقاً. ويمكننا تسمية هذين الفريقين على نحو وجيز فريق العهد القديم وفريق الثورة. وعلاوة على ذلك، يفوز فريق الثورة في نهاية فترة المراحل الأولى، وتصبح المياه العكرة المليئة بالشك والجدل والتهييج صافية موقتاً. وتبدو الثورة، التي ما كادت تبدأ، حتى انتهت. وفي إنكلترا بعد أن تخلص البرلمان من سترافورد وانتزع تنازلات من الملك، وفي أميركا بعد معركة كونكورد، وبعد أعظم الانتصارات المعنوية في بنكر هيل(*) وفي فرنسا عقب سقوط الباستيل وفي روسيا بعد تنازل القيصر ثمة فترة قصيرة ساد فيها الفرح والأمل، شهر العسل الوهمي للثنائي المستحيل، الواقعي والمثالي.

إن مرور الثورات الأربع عبر مرحلة مبكرة كهذه يتبلور فيها التعارض بين القديم والجديد على نحو مثير وينال الجديد انتصاراً لافتاً واضحاً للغاية بحيث لا يمكن للمؤرخ السردي الأقدم طرازاً إنكاره. إلا أنه لا يزال هنالك خلاف مستمر حول أسباب تطور هذه المرحلة بين الكتاب الذين يهتمون بتلك الأمور من مثل المؤرخين والمنظرين السياسيين وعلماء الاجتماع وكتاب المقالات. جوهر الخلاف مسألة يجب حسمها قبل أن يكون أي شيء من قبيل

(*) جرت معركة بنكر هيل كجزء من حصار بوسطن وفقد فيها البريطانيون 228 قتيلاً وأصيب 800 رجل منهم وأظهرت المعركة استعداد سكان المستعمرات الأميركية لخوض معارك التحام مع العدو.

سوسيولوجيا الثورات ممكناً. وعلى نحو وجيز يرى فريق أن الأمة المتحدة الناهضة بقوتها وفعاليتها تقبل هذه الخطوات الأولى المجيدة في الثورة تلقائياً تقريباً لصد مضطهديها، بينما يرى الفريق الآخر أن هذه الخطوات الأولى هي حصيلة سلسلة من المؤامرات المتشابكة التي تشرع بها مجموعات من الساخطين المتصفين بالتصميم. يتبنى الرأي الأول عموماً الأشخاص المؤيدون لثورة ما ويتبنى الرأي الثاني الأشخاص المعادون لها، أو على الأقل المخلصون لذكرى النظام القديم. وفي روسيا أدى اعتقاد لينين الراسخ في دور أقلية مناضلة لا تردعها الشكوك القانونية المتزمتة البرجوازية إلى تكريس نظرية "التخطيط" بوصفها النظرية الرسمية. وعلى النقيض من ذلك، يرى التقليد الأميركي والفرنسي، وحتى الإنكليزي، بصلابة أن الثورات في البلدان الثلاثة الأخرى انتفاضات تلقائية لشعوب حانقة. غير أن هذه أنواع من الاختلافات في الفكرة الرئيسية وقد وازن المعلقون المختلفون بين عناصر التلقائية والتخطيط على نحو متباين.

هذا التعارض أوضح ما يكون وفي بعض النواحي نموذجي على نحو مناسب لغرضنا في التدوين التاريخي للثورة الفرنسية. اعتاد اوغستان كوشان(*) وصف هذا التعارض بأنه مثل ذلك التعارض بين فرضية الأحداث وفرضية المؤامرة، التفسير بالظروف والتفسير بالمؤامرة. رأى من اعتبروا الثورة عموماً شيئاً جيداً أن الشعب الفرنسي، وخصوصاً سكان باريس، قد دفعوا إلى الثورة بسبب قمع الملك والبلاط وأن ظروف حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية عام 1789 هي بحد ذاتها تفسير مناسب لما حدث. وبالنظر إلى تلك الظروف والرجال والنساء من العرق الفرنسي كان لابد أن تقع الثورة تلقائياً كما يحدث في تفجير عندما تصيب شرارة البارود.

يمكن تطبيق هذا المجاز على خطوات معينة في العملية الثورية. ووفقاً

(*) أوغستان كوشان (1876- 1916) مؤرخ الثورة الفرنسية الذي نشرت معظم مؤلفاته بعد وفاته حيث أنه لقي حتفه في الحرب العالمية الأولى.

للتقليد الجمهوري الفرنسي لم تكن أعمال الشغب المتعلقة بالباستيل مخططة في أي معنى. سمعت "باريس" بطرد نيكر ولاحظت قيام الملك بتحشيد جنوده حول المدينة وانتشر عبر مليون محادثة منسية الخوف من أن الملك وفريقه على وشك طرد الجمعية الوطنية الثورية وممارسة الحكم بالقوة المسلحة. لذا انتفضت باريس في عنفوانها وبغريزة أكيدة استولت على الباستيل كرمز للنظام القديم البغيض ودمرته. وفي دراسة عامة للثورة نشرت عام 1963 كتب نورمان هامبسن(*) أن الأغلبية في الجمعية الوطنية في تموز/يوليو 1789 "أنقذت بالعمل التلقائي للطبقة الوسطى في معظم المدن الفرنسية لاسيما في باريس". قاد الناس في كل ذلك أو دفعوا بقوة طبيعية وبغض للظلم بقيادة المئات من الفقراء وضباط صف الثورة ولكن لم يشارك فيها ضباط ولم تتعمد أية مجموعة صغيرة التخطيط لشن اعتداء.

ترى النظرية المضادة أن الحركة الثورية برمتها في فرنسا هي عمل أقلية من المخططين وغير المنضبطين والماسونيين والفلاسفة ومثيري التهييج المحترفين. سيطر هؤلاء في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على الصحافة والمنابر وثابروا على تلقين القسم المتعلم من فرنسا كراهية المؤسسات العريقة القائمة خصوصاً الكنيسة. وعندما وجدت الحكومة نفسها في عسر مالي شديد تسلل هؤلاء المتآمرون إلى مجالسها وضمنوا أخيراً الوعد بعقد مجلس الطبقات العامة. وضمنوا عن طريق الدعاية الانتخابية البارعة في شعب لم يتعود على المجالس الانتخابية ملء الطبقة الثالثة بأعضاء من طائفتهم وأفلحوا في اختراق حتى صفوف الطبقتين الأولى والثانية. ولما كانوا قد تعودوا على العمل معاً وبفضل سنوات من مناقشة الإصلاح السياسي فقد أدركوا ما يريدون. ولذا استطاع من كانوا أكثر تصميماً وتلقيناً من هؤلاء المتآمرين السيطرة على أعمال الجمعية الوطنية الكبيرة والمشوهة ولو أنهم أقلية بين أعضائها الألف والمائتين.

(*) نورمان هامبسن أستاذ تاريخ أكاديمي بريطاني تولى التدريس في جامعتي يورك ومانتشستر.

يبدو يوم الباستيل مختلفاً للغاية في رأي أنصار هذه المدرسة. حشد الملك لويس السادس عشر جنوده لحماية الجمعية الوطنية وليس حلها، أي حمايتها من أقلية المتطرفين المتهورين الذين كانوا يسيئون استخدامها. ولخشية هؤلاء المتطرفين من الهزيمة فقد حرضوا باريس في مائة طريقة: أرسلوا الخطباء إلى زوايا الشوارع والمقاهي ووزعوا المنشورات والنشرات المتطرفة وأرسلوا العملاء لنشر السخط بين القوات الملكية وخصوصاً بين الحرس الفرنسي بل إنهم دفعوا العاهرات للاتصال بالجنود على نحو أكثر فعالية. خطط كل شيء مسبقاً للحظة مؤاتية وعندما منح طرد نيكر تلك اللحظة أعطيت الإشارة وتمردت باريس. غير أن ذلك لم يحدث تلقائياً. سعى بعض الضباط ومنهم ميرابو ومعظم الشخصيات ذات الشعبية في الجمعية الوطنية إلى العمل بعناية في زرع بذور التمرد.

يمكن مع التغييرات المناسبة إبراز هذا النوع من التناقض بين التلقائية والتخطيط في كل ثوراتنا. الثورة الكبرى في رأي أنصار آل ستيوارت - الذين يواصلون نشر آرائهم - مؤامرة ناجحة لسوء الحظ قام بها أنصار كالفين(*) الساعون للحصول على المال ضد إنكلترا المرحة ذات التقاليد(**). والأكثر شيوعاً، منذ أسبغ حزب الأحرار البريطاني طابع إنكلترا الحديثة، يعد البرلمانيون أطفال الماغنا كارتا(***) المحبين للحرية الذين ثاروا على نحو طبيعي وتلقائي تماماً ضد طغيان آل ستيوارت الذي لا يحتمل. واعتقد الموالون الأميركيون للتاج البريطاني دائماً أن أفضل من في البلاد يؤيدونهم وأن حزب الأحرار قد فاز بفضل التنظيم الأحسن والخداع. وقد نشأ معظمنا، طبعاً، على اعتبار ملك بريطانيا جورج الثالث طاغية استأجر الهسيين(****) ورغب في

(*) جون كالفين (1009- 11546) لاهوتي فرنسي ومصلح بروتستانتي في سويسرا وفرنسا.

(**) إنكلترا المرحة Merry England أو Merrie England أسلوب مثالي وريفي للحياة يزعم أن سكان إنكلترا تمتعوا به في فترة بين العصور الوسطى وبدء الثورة الصناعية حدده البعض بين عام 1350 وعام 1520.

(***) وثيقة الحقوق التي أرغم ملك إنكلترا يوحنا على قبولها عام 1215 بعد تمرد النبلاء عليه.

(****) المرتزقة الألمان العاملون في القوات البريطانية أثناء الثورة الأميركية.

إرغام الأميركيين على الاستسلام المهين. كانت الثورة الأميركية في نظرنا الرد التلقائي للأحرار المظلومين على الغطرسة البريطانية.

أخيراً يبدو أن بعض المهاجرين الروس ما يزالون يعتقدون أن أقلية من البلشفيين المجردين من المبادئ الأخلاقية قد دبروا على نحو ما كلاً من ثورة شباط/فبراير وثورة أكتوبر. لا تعتبر الماركسية أن الثورة مصدر أي خزي وتقر بأهمية التخطيط والقيادة في الحركات الثورية. لذا، على الرغم من أن التفسيرات الشيوعية الرسمية لا تخفف بتاتاً الإثم والظلم في العهد القيصري وعلى الرغم من أنهم يصرون على أن شعب روسيا في شباط/فبراير 1917 قد ثار بصدق وبالإجماع تقريباً ضد القيصر فإنهم يعترفون ويفخرون حقاً بدور القادة في التخطيط المتعمد للثورة. وكان هذا على الأقل التفسير المقبول لدى الدوائر الماركسية التقليدية وهو مبين تقليدياً في الجزء الأول من تاريخ الثورة الروسية لتروتسكي.

في الواقع إن نشوء هذين التفسيرين المتضاربين والمتناقضين للخطوات الأولى في الثورة هو بحد ذاته اتساق واضح يستنتج من الدراسة المقارنة للثورات الأربع. نشأ هذان التفسيران مبكراً جداً حقاً ويعزو الثوريون المنتصرون نجاحهم إلى ثورة الكثيرين ضد الطغيان الذي لا يحتمل، ويعزو الأنصار المهزومون للنظام القديم فشلهم إلى التكتيكات عديمة الضمير لأقلية من الأشرار الماكرين. لم يوضع أي من التفسيرين بوصفه تفسيراً موضوعياً للحقائق إذ يهدف كلاهما إلى إرضاء المشاعر البشرية. ومن المثير للاهتمام ملاحظة أنه حتى تفسير الثوريين يسعى إلى التغاضي عن العنف ويبدو أنه يمثل الخزي إلى حد ما من حقيقة الثورة. وهذا طبيعي تماماً لأن الثوريين بعد تسلم الحكم يرغبون في الاستمرار في السلطة. والمساعدة المفيدة لتحقيق هذا الهدف هو الشعور العام بين المحكومين أن من الخطأ مقاومة من هم في السلطة.

لذا يمكننا المضي أبعد من مجرد الإشارة إلى هذا الانقسام في الرأي بين محبي ثورة ما ومبغضيها. وقد نغامر بطرح التعميم بأن ثمة شيئاً من الحقيقة في كل من تفسير الثورة بالظروف والتفسير بالمؤامرة. وقد يبدو ذلك للكثيرين اليوم

لبرالياً للغاية وحلاً واهناً وتمسكاً غبياً بفكرة عتيقة لوسط ذهبي، غير أن له صلة مرضية فيما يبدو بالحقائق أكثر من أي التفسيرين المتطرفين .

قد يكون يوم الباستيل مرة أخرى نموذجاً. وثمة أدلة كثيرة على أن المجموعات المنظمة قد ساعدت في إثارة الاضطرابات في باريس في تلك الأيام من شهر تموز/يوليو. ونحن نعرف أنه كانت للمجموعات المتطرفة ومنها مجموعات الوطنيين في الجمعية الوطنية صلات وثيقة بسياسيي باريس. وكان ثمة نوع من التنظيم السياسي الهيكلي باقياً من انتخابات باريس لعضوية الطبقة الثالثة وساعدت تلك الانتخابات الباريسية كثيراً في نشوء جمعية بلدية جديدة وحرس وطني جديد وسط فوضى أعمال الشغب. إن معظم وصف مؤيدي الملكية للعملاء المبثوثين بين الجماهير وتوزيع النشرات التحريضية وربما حتى استغلال البغايا صحيح جوهرياً. غير أن ما هو غير صحيح إمكان تتبع عنصر التخطيط إلى أي مجموعة واحدة أو مجموعتين صغيرتين من المتآمرين هما مجموعة دوق أورليان أو مجموعة ماسونيين قليلين. إن كلمة "مؤامرة" سيئة حقاً - ماعدا أغراض الدعاية اليمينية، حيث أثبتت أنها مفيدة للغاية حقاً. يجب بالأحرى القول إن ثمة أدلة على نشاطات عدد من المجموعات من النوع الذي يعرفه جيداً أي مراقب دقيق للمجتمعات - مجموعات الضغط، الأحزاب السياسية في مرحلة التأسيس، الطوائف شبه الدينية، التجمعات الطائشة. إلا أنه لا توجد أي أدلة على أن هذه المجموعات المتباينة للغاية كانت تدار في تموز/يوليو 1789 من أي مركز واحد وتسيطر عليها جهة ماكرة صغيرة.

على العكس من ذلك ثمة أدلة على أنه حالما أثار طرد حماسة هذه المجموعات المختلفة فإن ما تبع ذلك كان من عمل الغوغاء التلقائي إلى حد ما. لم يقل أحد حتى الآن الكلمة الأخيرة عن سيكولوجية الجماهير إلا أن من المقبول عموماً أنه لا يمكن لأذكى قادة الغوغاء قياس سلوك الجماهير على نحو تام مسبقاً. وفي الواقع من الواضح أنه لم تكن في باريس في تلك الأيام فئة واحدة من الغوغاء بل العشرات. خرج الناس إلى الشوارع لأن جيرانهم قد خرجوا. راحوا جيئة وذهاباً يهتفون وينشدون، يقفون في الشوارع أحياناً لتناول

الشراب أو سماع خطيب آخر عند ركن الشارع. ولاشك أن قادة المجموعات الصغيرة الذين فرضوا أنفسهم قد أكملوا حقاً أي عمل مخطط. ويبدو أن قرار الزحف على الباستيل قد اتخذ على نحو مستقل في عدة جهات. ولا يعرف أحد على وجه التأكيد من كان أول من سنحت له الفكرة البارعة بالتوجه إلى المستشفى العسكري لضمان الحصول على أسلحة صغيرة. ويبدو أن أعمال الشغب قد تلاشت بسبب سقوط الباستيل وربما السبب الأهم إرهاق المشتركين في أعمال الشغب بعد ثلاثة أيام طويلة من العنف أو تناول الكحول أو كليهما.

يصح ما ينطبق على اجتياح الباستيل على العمل التحضيري العام والمراحل الأولى من الثورات كما ناقشناها في هذا الفصل. تركزت الثورة الروسية في شباط/فبراير في بتروغراد في أسبوع واحد ويبدو أن ما حدث يشبه الأحداث التي صاحبت اجتياح الباستيل على نطاق أوسع. ألف تروتسكي(*) بعض أفضل مؤلفاته في وصفه الثورة وفي وصفه المتوازن لما يجب أن يعد انتفاضات شعبية تلقائية وما يجب أن ينسب إلى تكتيكات ثورية واعية. وكتب كيرنسكي(**) بصراحة إن الثورة "نشبت من تلقاء نفسها بدون أن يدبرها أحد وولدت في الفوضى التامة لسقوط القيصرية". ويقر تروتسكي أنه لا أحد خطط أو توقع الثورة عندما نشبت وأنها تطورت من البيانات الاشتراكية العادية وأعمال شغب بسيطة تتعلق بالخبز. ويضيف أن ذلك التطور قاده "عمال واعون ويتصفون بالصلابة وتولى لينين تثقيفهم غالباً". وقد نثير تساؤلاً عن القسم الأخير من هذا القول غير أنه ليس هنالك شك أنه في الأيام الأخيرة من اضطرابات بتروغراد تضافرت جهود قادة سوفيات (مجلس) المدينة المقبل الذين قادوا هذه الاضطرابات وقادة الحكومة الموقتة للتطويح بالحكومة القيصرية.

كان دور مجموعة الضغط جلياً بخاصة في المراحل الأولى من الثورة

(*) ليون تروتسكي (1879- 1945) أحد زعماء الثورة الروسية أبعده ستالين عام 1929 واغتيل في المكسيك.

(**) ألكساندر كيرنسكي (1881- 1971) زعيم ثوري روسي تولى منصب رئيس وزراء الحكومة الموقتة في روسيا.

الأميركية. ومنذ نيسان/أبريل 1763 نظم تجار بوسطن "جمعية تشجيع التجارة مع أقاليم خليج مساشوستس" مع لجنة دائمة تضم خمسة عشر عضواً لمراقبة الشؤون التجارية والدعوة إلى عقد اجتماعات. وكانت تقارير عن نشاطات الأعضاء ترسل إلى التجار في المستعمرات الأخرى. ولمكافحة قانون الطابع نظم المتطرفون أنفسهم في تجمع باسم "أبناء الحرية"، منظمة جماهيرية اجتمع أعضاؤها علناً أحياناً وسراً أحياناً لدعم معارضة التاج. وتولت لجان الأمن الأهلية "ممارسة نوع من نشاط محاكم التفتيش إزاء مبيعات ومشتريات كل صاحب عمل تجاري ونفقات وإيرادات كل أسرة وآراء الأفراد". وقدمت المدن والأرياف في الشمال والأرياف في الجنوب إطاراً للاجتماعات والقرارات العامة. وأدار سام آدمز(*) لاحقاً بمهارة لجان المراسلة، التي أسست أصلاً كمجموعات ضغط خاصة، حتى حلت جزئياً محل اجتماعات المدن الأكثر محافظة. وفي عام 1773 دعا آدمز إلى لجنة مشتركة لمدن بوسطن ودورتشستر وروكسبري وبروكلين وكيمبرج تمكنت من الحصول على معظم أصوات التجار المحافظين نوعاً ما. واستخدم العنف في الحركة كلها كلما بدا ذلك ضرورياً، في المسائل المهمة من مثل حفلة شاي بوسطن إلى عمليات ضرب منعزلة للمحافظين.

غير أن الأكثر "واقعية" بين مؤرخينا الحديثين لن يذهب بعيداً بحيث يدعي أن أقلية صغيرة هي التي صممت الثورة الأميركية. وكان التأثير الصافي لاثنتي عشرة سنة من الأخطاء البريطانية والتنازلات والتقلصات والتقلبات علاوة على مجموعة كبيرة من التهييج الأميركي إنتاج دعم شعبي واسع عام 1775 للمؤتمر القاري(**) في مقاومته جورج الثالث. كانت الثورة الأميركية، شأنها شأن الثورات الأخرى، على نحو جزئي نتيجة أقلية نشيطة وقادرة وبعيدة عن أن

(*) سام (صامويل) آدمز (1722- 1802) ثائر وطني أميركي.

(**) يطلق اسم الكونغرس القاري على جمعيتين تشريعيتين قادتا سياسة المستعمرات الأميركية في سنوات الثورة الأميركية الثلاث عشرة عقدتا عام 1774 و 1775.

تكون أقلية ضئيلة تحاول التأثير في مجموعة كبيرة بمظالم تكفي لأن تثار على نحو فعال عندما يحين الوقت المناسب.

لتلخيص المسألة في استعارة فإن مدرسة الظروف تعد الثورات نمواً جامحاً وطبيعياً وتغرس بذورها بين الطغيان والفساد وتحدد قوى خارج نفسها أو على كل حال خارج التخطيط البشري تطورها برمته. وتعد مدرسة المؤامرة الثورات بوصفها نمواً مفروضاً ومصطنعاً وغرست بذورها بعناية في تربة تولى معالجتها وتسميدها الثوريون- البستانيون وجعلها هؤلاء البستانيون على نحو غامض تنضج وسط قوى الطبيعة. إننا، في الواقع، يجب أن نرفض المدرستين كليهما لأنهما كلام فارغ ونعتقد أن الثورات تنمو من بذور يغرسها أفراد يريدون التغيير، ولا يعمل هؤلاء الأفراد ضد الطبيعة بل في التربة وفي مناخ موات لعملهم، وتمثل الثمار النهائية تعاوناً بين الأفراد والطبيعة.

4. دور القوة

ثمة اتساق نهائي يمكن تمييزه في هذه المراحل الأولى في الثورات الأربع ربما هو الأوضح والأهم. هنالك في كل ثورة نقطة، أو عدة نقاط، حيث تواجه السلطة المنصبة تحدي أعمال غير قانونية يقوم بها الثوريون. وفي تلك الحالات يكون الرد الروتيني لأية سلطة اللجوء إلى القوة أو الشرطة أو الجيش. كان رد السلطات رداً من هذا القبيل، غير أنها فعلت ذلك في كل حالة بفشل لافت للنظر. وأثبت المسؤولون في الطبقة الحاكمة عن تلك الردود في كل المجتمعات الأربعة عجزهم على نحو بارز عن الاستخدام المناسب للقوة. لنلق أولاً نظرة على الحقائق.

لم يكن في إنكلترا جيش دائم ولم تكن هنالك قوة شرطة حديثة. وفي الواقع إن مسألة السيطرة على الجيش الدائم كانت من المسائل المهمة بين أول ملكين من آل ستيوارت وبرلماناتهما. اضطر التاج إلى إيواء ربع جنوده لدى المواطنين بهدف الإبقاء على أي نوع من الجيش معاً وكانت عملية الإيواء هذه من المظالم الرئيسية ضد الملك تشارلز الأول. وعندما اجتاز جيش اسكتلندي

الحدود لجأ تشارلز إلى دعوة البرلمان الطويل للانعقاد بهدف الحصول على المال لإبعاد هذه القوة المسلحة، وعندما اقترب الصدع الفعلي بين أنصار الملكية والبرلمانيين حاول كلا الجانبين تأسيس قوة مسلحة. استفاد تشارلز من وجود طبقة الضباط النبلاء المخلصين وعدد كاف من أتباع النبلاء والأرستقراطيين لتشكيل القوة المسلحة المتوافرة الأقوى بكثير تحت سيطرة الحكومة أو المحافظين أو جانب الطرف في الحكم في أي من الثورات الأربع. غير أن الحرب الأهلية أظهرت عدم وجود العدد الكافي من الجنود الجيدين لديه بالمقارنة مع الموارد البشرية المتوافرة لدى البرلمان. وهزم تشارلز في الحالة الأولى لأنه كان يفتقر إلى القوة العسكرية الحاسمة.

كما أنه في الثورة الأميركية لم يكن لا الموالون الأميركيون لبريطانيا ولا الجيوش البريطانية قوية على نحو كاف حيث أنهم في الواقع استخدموا قوتهم المسلحة في محاولة قمع الثوريين. ويلاحظ في المراحل المبكرة تولي البريطانيين تطبيق ما كانوا يعرفون أنها تغييرات حكومية غير شعبية مع ما يعد حالياً عدم اهتمام مذهل بحاجات الشرطة. ولا شك أن التقليد الطويل للحكومة المحلية الموالية لبريطانيا جعل من الصعب أن تتصور الإدارة البريطانية للمستعمرات تصور أي وسائل أخرى. إلا أن الحقيقة تبقى أن هذه القوات في أميركا الشمالية كانت غير كافية لفرض السلطة. إن العدد الإضافي الضروري الذي كان غيج يحتاجه للمحافظة على النظام في خليج مساشوستس مسالة تخمين. غير أن من الإطراء غير المناسب لحب اليانكي (الأميركي الشمالي) الاستقلال افتراض عدم وجود قوة كبيرة كافية للسيطرة على مساشوستس. وفي أميركا كان هنالك كذلك فشل أولي مهم للحكومة هو عدم استخدامها القوة على نحو مناسب وبارع.

كان لدى لويس السادس عشر عام 1789 قوة مسلحة جديرة بالثقة. وكان جنوده الفرنسيون معرضين لتأثير الدعاية من جانب الوطنيين. ولكن كانت لديه قوة مهمة أخرى متمثلة في الجنود المرتزقة المجندين من الأقوام الأجنبية، من السويسريين والألمان بخاصة، ولم يكن دعاة الإثارة يستطيعون الوصول إلى

هؤلاء بسهولة. وقد برهن الجندي السويسري أنه مستعد للموت من أجل الملك أو من أجل الواجب بعد ثلاثة أعوام لدى اجتياح قصر التويلري. وكان لديه، خصوصاً في المدفعية، مجموعة من الضباط القديرين يمكن الاعتماد عليهم في تلك المرحلة. إلا أنه فشل ومستشاروه في اللحظة الحاسمة أثناء أعمال الشغب في تموز/يوليو في استخدام الجيش على نحو فعال. ومرة أخرى نتجه إلى الافتراض التاريخي أن المرء لا يستطيع تجنب التساؤل عما كان ممكناً أن يحدث لو أن بعض الجنود المنضبطين المسلحين بالمدافع حاولوا إخضاع باريس في تموز/يوليو 1789. أظهر نابليون فيما بعد أنه يمكن لقوة من ذلك القبيل بسهولة دحر المقاومة المدنية وبرهن على هذه الحقيقة على نحو كاف في حزيران/يونيو 1848 وعام 1871. ربما كان فشل الملك لويس. غير أن النقطة المهمة هي أنه، على الرغم من رأي المؤرخين الجمهوريين والاشتراكيين الفرنسيين، لم يحاول حقاً. ومرة أخرى فشلت الحكومة في استخدام القوة على نحو مناسب.

بتروغراد عام 1917 هي النموذج الأكمل لهذا الدور المهم للجيش والشرطة. ويقر الجميع، من مؤيدي القيصر الروسي إلى التروتسكيين، أن سبب تحول مظاهرات شوارع مشوشة وبلا هدف إلى ثورة هو فشل خطة الحكومة المحكمة في استعادة النظام في بتروغراد في حالة نشوب انتفاضات. فشلت تلك الخطة لأن الجنود رفضوا في اللحظة الحاسمة مهاجمة الناس وتقدم الفوج بعد الفوج للانضمام إليهم. ومرة أخرى، تلك هي الميزة التي تملكها قوة منضبطة لديها مدفعية حديثة بالمقارنة مع أكثر الثوريين المدنيين اندفاعاً، بحيث لا يوجد شك أنه لو كان الجنود القوقاز والأفواج المقاتلة الشهيرة مخلصة حقاً للحكومة ربما كان في وسع حتى حكام بتروغراد غير الأكفاء قمع الاضطرابات. إلا أننا قد نلاحظ، ولو اعتراضياً، أن الرأي الشائع حالياً بأن الأسلحة الحديثة قد جعلت انتفاضات الشوارع مستحيلة هو على الأرجح رأي خطأ. يجب أن يستخدم الأسلحة الحديثة رجال الشرطة أو الجنود، الذين ربما يكون ولاؤهم قد أفسد، حتى في العصر الذري.

لا يرجح أن هذا الفشل اللافت من جانب الحكام في استخدام القوة

بنجاح حالة منعزلة وظاهرة تمثل صدفة. ويبدو، في الواقع، أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعدم الكفاءة والفشل من جانب الطبقة الحاكمة كما لاحظنا في الفصل الماضي. لقد قوضت السنوات الطويلة من التدهور انضباط الجنود وزودت المعاملة السيئة الجنود قضية مشتركة مع المدنيين وفقد الكثير من أبرع الضباط الإيمان في المزايا العسكرية التقليدية والحمقاء. ليست هنالك قيادة تنسيق لائقة ولا رغبة في العمل. وإذا كان هنالك بعض من هذه الأشياء فإنها غير موجودة إلا في حالات فردية معزولة وهي تضيع وسط عدم الكفاءة والتردد والتشاؤم العام. ويبدو أن قضية المحافظين - حتى قضية تشارلز الأول - تبدو قضية خاسرة من البداية. أما الحالة الأميركية فإنها مختلفة بعض الشيء. هنا لدينا حكومة مستعمرات غير مناسبة في لندن ولكن ليس طبقة حاكمة محلية غير مناسبة.

نستطيع بعد ذلك بشيء من الثقة أن نعزو جزئياً فشل المحافظين في استخدام القوة بمهارة إلى تدهور الطبقة الحاكمة. إننا نتعامل عموماً مع مجموعات كبيرة بعض الشيء من النوع الذي تعودنا التعامل معه كمادة للتعميم السوسيولوجي. إلا أننا عندما نحاول إخضاع الملوك الأربعة لمجتمعاتنا إلى قاعدة عامة نكاد نشعر أنه ليست لدينا قاعدة إحصائية كافية. يظهر تشارلز الأول وجورج الثالث ولويس السادس عشر ونيقولا الثاني جوانب تشابه واضحة بحيث يتردد المرء في استخدام الصدفة كتفسير. ويؤكد تروتسكي بثقة أن مجتمعاً متهوراً سيتجه حتماً نحو نوع من عدم الكفاءة متمثلاً في هؤلاء الملوك. وبدون دعم من الإيمان بالمادية الديالكتيكية لا نتجرأ هنا على بيان ثقة كهذه غير أننا يجب أن نعرض هذه الاتساقات في سلوك الرجال الأربعة بوصفها جزءاً من الاتساقات التي لاحظناها. وعلى كل حال، فإن لهم دوراً مهماً في تلك العملية التي ربحوا من خلالها انتصارات أولية وحاسمة على السلطة غير الفعالة.

يمكننا أن نطرح هذا الاتساق الأخير للثورات الأربع كما يلي: كانت الثورات الأربع ناجحة في مراحلها الأولى، وأصبحت ثورات فعلية بدلاً من محض مناقشات وشكاوى وأعمال شغب بعد أن هزم الثوريون أو استمالوا القوات المسلحة التابعة للحكومة. ولا يمكننا هنا محاولة إقامة اتساقات لثورات

أخرى أو للثورات عموماً. غير أننا يمكن أن نشير في شكل تجريبي وافتراضي من التعميم إلى أنه لم تسقط أية حكومة أمام المهاجمين إلا بعد فقد السيطرة على القوات المسلحة أو القدرة على استخدامها على نحو فعال - أو، طبعاً، فقد تلك السيطرة على القوة بسبب تدخل قوة أجنبية أقوى، كما حدث في المجر عام 1849 و1956 وأنه لم ينجح أي ثوريين حتى أصبحت القوة المسلحة الفعالة بجانبهم. وهذا ينطبق على الرماح والسهام والرشاش والغاز من هيبياس(*) إلى كاسترو.

5. شهر العسل

تنتهي المرحلة الأولى من الثورة في كل من المجتمعات الأربعة بانتصار الثوريين بعد سفك الدماء. دحر النظام القديم على نحو سهل للغاية! أصبح الطريق مفتوحاً أمام التجديد الذي كان الناس يتحدثون عنه ويأملون حدوثه طويلاً. وحتى ثورة شباط/فبراير الروسية، على الرغم من أنها اندلعت في وسط البؤس وعار الهزيمة أمام الألمان والنمساويين، قوبلت بالترحيب بالأمل والمتعة اللذين يبدوان تراثاً طبيعياً في الثورات الأربع. سمع الروس في كل أرجاء العالم الأخبار الطيبة بسرور. وكان اللبراليون مسرورين مثل أجدادهم. وتخلصت روسيا الجديدة من وصمة الاستبداد وأصبح في مقدورها المشاركة بثقة في صفوف الدول الديمقراطية الشقيقة في الغرب والانضمام بفعالية جديدة في الحملة ضد القوى الوحيدة الباقية للظلام، آل هوهينزولرن(**) وآل هابسبورغ(***).

(*) هيبياس: طاغية أثينا في القرن السادس قبل الميلاد. طرد من أثينا عام 510 ق.م. ولجأ إلى فارس.

(**) حكمت أسرة هوهينزولرن المالكة الألمانية بروسيا من عام 1701 إلى عام 1918 وألمانيا من عام 1871 إلى عام 1918

(***) حكمت أسرة هابسبورغ المالكة النمسا والنمسا- المجر والإمبراطورية الرومانية المقدسة وإسبانيا وعرفت برجعيتها الشديدة.

تطورت مرحلة شهر عسل الثورة على النحو الأكمل في فرنسا حيث اندلعت الثورة في وقت السلم وفي نهاية حركة فكرية عظيمة سميت حركة التنوير التي أعدت أذهان الناس لمعجزة جديدة وعملية. وأبيات وردزورث مألوفة:

«تقف فرنسا على قمة الساعات الذهبية

وتبدو الطبيعة البشرية قد ولدت من جديد».

غير أن الشعراء الناطقين بعشرات اللغات انطلقوا ينظمون القصائد احتفالاً بانبعاث فرنسا والبشرية. وليس الشعراء وحدهم بل انضم رجال أعمال وقورون ومهنيون وسادة ريفيون وأناس يميلون في القرن العشرين إلى النظر إلى الثورة بهلع إلى الاحتفال بالثورة. وفي روسيا البعيدة أضاء نبلاء روسيا غير المتنورين بيوتهم تكريماً لسقوط الباستيل. ويروي الأديب الدانمركي ستيفينس كيف أن والده قدم إلى البيت ذات ليلة في كوبنهاغن وجمع أبناءه حوله وأخبرهم والدموع في عينيه أن الباستيل قد سقط وأن حقبة جديدة قد بدأت وأنهم إذا كانوا فاشلين في الحياة يجب أن يلوموا أنفسهم لأنه من ذلك الوقت فصاعداً "سيختفي الفقر وسيبدأ المتواضعون في المنزلة الكفاح في الحياة على قدم المساواة مع الأقوى وبأسلحة متكافئة وأرض متعادلة". وابتهج الأميركيون والإنكليز لأن العدو القديم قد انضم إلى الشعوب التي تحكم نفسها. واستمتع الفرنسيون كافة تقريباً بلحظة سعيدة قصيرة. أدرك الملك خطأ أساليبه واحتضن لافاييت(*) نصير الثورة وقدم بملء إرادته إلى مدينته الطيبة باريس ليسمع هتافات أبطال الباستيل.

غير أن فترة شهر العسل في باريس كانت عابرة، وكانت أقصر في روسيا، وفي إنكلترا وأميركا لم تكن واضحة ومحددة جداً. وفي المراحل الأولى وفي اللحظة الحاسمة عندما حان اختبار القوة واجه النظام القديم معارضة صلبة.

(*) المركيز دو لافاييت (1757- 1834) نبيل وقائد عسكري فرنسي حارب في صفوف الثورة الأميركية وأيد الثورة الفرنسية.

كانت المعارضة في الواقع مشكلة من مجموعات متنوعة ولم تكن إطلاقاً التبسيط المبالغ فيه الذي يدعى "الشعب المتحد". إلا أنها كانت ملتحمة بضرورة معارضة الحكومة على نحو فعال في وحدة سياسية حقيقية، إلى شيء أكثر من تحالف عفوي يضم عناصر متناقضة. إن انتصار المعارضة، إذا كنا مستعدين لاستخدام المصطلحات نقدياً وليس عاطفياً، هو انتصار "الشعب" على "مضطهديه". وقد برهنت المعارضة أنها أقوى وأكثر قدرة من الحكومة في هذه الأزمة. وأصبحت الآن هي الحكومة وهي تواجه مجموعة جديدة من المشاكل. وعندما تشرع في العمل الفعلي في معالجة تلك المشاكل سرعان ما ينتهي شهر العسل.

الفصل الرابع

أنواع الثوريين

1. الرواسم (clichés)

من المفيد عند هذه النقطة في بحثنا أن نعزل الثوري بوصفه نوعاً. ولمتابعة التشبيه بالحمى ربما على نحو بعيد غير مناسب. أليس ممكناً أن يتصرف أفراد معينون بوصفهم "ناقلين" ويمكن تصنيفهم وتسميتهم ووصفهم اقتصادياً وسوسيولوجياً وكذلك من حيث علم النفس أو الإدراك السليم. يبدو هذا على كل حال دليلاً جديراً بالمتابعة.

غير أنه توجد عدة وسائل يمكن فيها أن يضللنا هذا الدليل. يجب أن نحذر اعتبار أن الثوريين والقادة الثوريين خصوصاً هم من يحملون الجراثيم المرضية للثورة. هنا كما في كل هذه الدراسة يجب ألا يسمح لمخططنا المفاهيمي بقيادتنا إلى الخيال. يجب أن يكون المخطط شيئاً ملائماً وليس تسلط فكرة على نحو مقلق. ويجب أكثر من أي وقت مضى تجنب استخدام مصطلحات الإطراء أو الذم التي تكمن في كل زاوية من هذا الميدان بالذات. والأرجح أن تثير مفردة "الثوري" في أذهان معظمنا تشخيصاً غير نقدي نسبياً يخدمنا جيداً على نحو كاف لينسجم مع "شاعر" أو "أستاذ" أو "فرنسي".

حتى أكثر المفكرين براعة والفنان الأكثر رقة والحي الضمير في استخدام الكلمات اقترب في الحياة اليومية من الرواسم التي تخدم الإنسان في الشارع. أنت وأنا، بالطبع، لا نتصور الشعراء بأنهم ذوو شعر طويل ويتصفون باللطف وبوهيميون ومصابون بالسل ولا نتصور الأساتذة بأنهم غير عمليين وشاردو الذهن ورقيقو الفؤاد وملتحون ولا نتصور الفرنسيين بأنهم مؤدبون ويتسمون بالأناقة والشوارب المشذبة ومغرمون بمطاردة النساء. إلا أننا لا نستطيع التدقيق في تعقيدات بروستية(*) مع أنفسنا عندما نستخدم كلمات من هذا القبيل كما أننا لا نستطيع استخدامها على نحو دقيق كما يستخدمها مبتكر التصنيف العلمي. إننا ننسجم معها على أفضل نحو ونكيفها عموماً على نحو تقريبي وفقاً لخبرتنا ومشاعرنا.

الآن ما يعنيه مصطلح "ثوري" على هذا المستوى لدى مختلف الأفراد والمجموعات بحد ذاته عنصر مهم في سوسيولوجيا كاملة للثورات. وما يحسه كل أنواع الناس نحو الثورة ربما يدرس بسهولة في الرواسم التي تنشأ من كلمات من مثل "الثائر" و "الثوري" أو المرادفات الموازية: "اليعقوبي"(**)، "الشيوعي" "الأحمر" وما شابه. ولا نستطيع القيام بدراسة هنا إلا أننا يجب أن نتأمل بعض هذه الرواسم ولو كتحذير ولغرض المقارنة.

الأرجح أن لكلمة "ثوري" معانيَ بغيضة. على مستوى صحافة اليمين المتطرف يبدو الثوري قذراً، هائجاً، غير حليق، كثير الصخب، وجودي السلوك، بيتياً(***)، مغرماً بالخطابة معتلياً صندوق الصابون ومتآمراً ضد الحكومة ومستعداً للعنف إلا أنه يخشاه. وحتى على المستويات الأكثر تكلفاً

(*) نسبة إلى مارسيل بروست (1871- 1922) الروائي وكاتب المقالات والناقد الفرنسي البارز.

(**) اليعقوبي Jacobin عضو جماعة اليعاقبة السياسية المتطرفة التي مارست نشاطات إرهابية أثناء الثورة الفرنسية.

(***) بيتي beatnik نسبة إلى حركة البيتيين التي نشأت في الولايات المتحدة في عقد الخمسينات وعبر أفرادها عن تبرمهم بقيود المجتمع وقواعده الأخلاقية وعن رغبتهم في الانغماس في الملذات وإدمان المخدرات وإرسال شعر الرأس والوجه وعدم العناية بالنظافة الشخصية.

يرى المرء أن الكثيرين من مواطنينا يشعرون مثل ما يشعر به الثوريون أو أنهم على كل حال مقتنعون أنهم غريبو الأطوار على نحو قاطع، فاشلون في الظروف ما قبل الثورية ويعانون من عقد النقص ويحسدون من هم أفضل منهم أو مشاكسون في المبدأ والنزعة. وتنشأ الصور الأخرى الأكثر إيجابية للثوري بلا شك في عقول أخرى. ويرى بعض كتابنا البروليتاريين - وهم ليسوا من الطبقة الكادحة أنفسهم - أن الثوري عامل فولاذ قوي عريض المنكبين لم تفسده الأكاذيب التي تدعوها البرجوازية تعليماً بل هو متضلع من أفكار ماركس ولينين ومتحمس وعطوف ويحمل روح المحارب مع لمسة الاستعداد للتضحية تشبهاً بشيلي(*).

إن الاستخدامات الاجتماعية للمعتقدات من هذا النوع بسيطة على نحو كاف. وفي مجتمع برجوازي من مثل الولايات المتحدة الأرجح أن المشاعر المعادية للثوريين عوامل مهمة في المحافظة على الاستقرار الاجتماعي. كان الثوريون على صواب عام 1776 ولكن ليس الآن. ولابد أن يضم أي مجتمع في قلق مستمر أعداداً كبيرة من الناس الذين لديهم هذا الشعور نحو الثوريين. وحتى في روسيا، حيث ما تزال ذكريات الثورة العنيفة حديثة نسبياً تبذل الحكومة جهوداً حثيثة لتشويه سمعة ثوريين أحياء وعلى وجه التأكيد تشويه سمعة ما يفعله الثوريون من هذا القبيل في الصين. كانت الثورة مقبولة عام 1917 ولكن ليس حالياً. وعلى الأقل، الثورة الآن في روسيا، كما في أيام محاكمات كيروف(**) في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين هي "ثورة مضادة". ومن الناحية الأخرى واضح أن الراديكاليين والمتطرفين الذين يعدون الثوريين أشخاصاً جيدين وأبطالاً وشهداء يضيفون كذلك إلى نظامهم الاجتماعي ويعززون موقفهم في الخلاف.

(*) بيرسي شيلي (1792-1822) شاعر رومانتيكي إنكليزي بارز مات غرقاً وهو في ريعان الشباب.

(**) استهدفت المحاكمات تصفية خصوم ستالين من البلاشفة القدماء في حملة تطهير كبرى بحجة التآمر مع الدول الغربية لاغتيال ستالين وقادة آخرين وتقطيع أوصال الاتحاد السوفياتي وإعادة الرأسمالية. وقد انتقدها خروتشوف بشدة بعد وفاة ستالين.

غير أنه لا يمكن للعالم الاجتماعي ترك المسألة كما هي. ولابد أن يحاول إجراء تصنيف موضوعي للثوريين تتطلبه بياناته المعقدة عنهم. ويمكننا القول واثقين إنه حتى مراجعة مستعجلة للثورات الأربع التي نبحثها بعيدة عن تأكيد أية من مجموعتي الرواسم اللتين قمنا بإيجازهما. وجدير بالذكر أنه لما كانت المجموعة المتسمة بالانتقاص أكثر شيوعاً في هذه البلاد فإن مراجعة من هذا القبيل لا تؤكد بتاتاً فكرة كون ثوريينا ذوي سمعة رديئة وكثيري الصخب ورماة قنابل فاشلين في الأنظمة القديمة. وإذا أضفنا، كما يجب أن نفعل، من خطوا الخطوات الأولى في الثورة علاوة على من حكموا في عهد الإرهاب يصبح النوع أقل بساطة ويصبح في الحقيقة عدة أنواع وليس نوعاً واحداً.

لنتناول قائمة عشوائية بالأسماء كما ترد إلى الذهن: هامبدن، سير هنري فين، جون ملتون، سام آدمز، دانتون، روبسبير، مارا، تيليران، ايبيرت، ميليوكوف، كمنافولوف، كيرنسكي، تشيتشيرين، لينين ، ستالين(*).

كلهم ثوريون وكلهم عارضوا السلطة القائمة باللجوء إلى القوة. وتضم القائمة نبلاء ووجهاء وتجاراً وصحفيين وطالباً يريد الانخراط في سلك الكهنوت وأستاذ تاريخ ومحامين وزعيماً سياسياً وداعية لمرشح سياسي. كما تضم أثرياء للغاية وفقيراً أو اثنين. وتضم القائمة كثيرين يبدون رجالاً طيبين حسب المعايير المسيحية التقليدية، كما تضم عدة أشخاص ربما كانوا أشراراً حسب تلك المعايير. وتضم بعض من كانوا شخصيات مهمة في أيام ما قبل الثورة وبعض المجهولين واثنين أو ثلاثة من الفاشلين في الحياة فيما يبدو حتى منحتهم الثورة فرصة الصعود. ومن المؤكد أن إيجاد صفة مشتركة لقائمة كهذه ليست مهمة سهلة.

(*) سبق التعريف ببعض هؤلاء في الهوامش ومن بين الآخرين المذكورين هنا هامبدن وسير هنري فين وهما سياسيان إنكليزيان وجون ملتن الشاعر الإنكليزي مؤلف ملحمة الفردوس المفقود وجون هانكوك القائد العسكري والسياسي الأميركي وروبسبير ومارا من زعماء الثورة الفرنسية المتطرفين وايبيرت الصحفي الراديكالي الفرنسي والأمير تاليران السياسي الفرنسي.

لا شك أنه سيساعدنا التمييز بين من يهيمنون في المراحل الأولى من الثورة وهم المعتدلون عموماً وبين من يسيطرون في مرحلة الأزمة أو المتطرفون عموماً. غير أنه ليس مفيداً القول إن هؤلاء المتطرفين ثوار حقيقيون. وعموماً حتى جورج واشنطن أقسم يمين الولاء للتاج البريطاني وحنثه بهذا اليمين خيانة لو فشلت الثورة الأميركية. وقد جعلنا المؤرخون الهويغيون (نسبة إلى حزب الهويغ الذي أصبح حزب الأحرار لاحقاً) نعتقد أن اسكس(*) وبيم كانا يدافعان عن قوانين إنكلترا المقدسة ولذا فإنهما لم يكونا ثائرين حقيقيين.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي: عامة الناس

من أكثر الطرائق فائدة في تناول مشكلة أعضاء الحركات الثورية استخدام المؤشرات الموضوعية نسبياً للوضع الاقتصادي والاجتماعي لمن يشاركون في الانتفاضة. أصبح الآن صعباً للغاية اكتشاف الكثير عن الأعضاء الثوريين العاديين. ومثل الجندي العادي في الحرب فإن الثوري العادي لا يفصح عن آرائه وهو عديم الاسم. إلا أن دراسة كهذه في الثورة الفرنسية ليست مستحيلة. وفي السجلات الباقية من أندية اليعاقبة، التي كانت بمثابة مراكز للعمل الثوري، وتشبه مجموعة الاستقلاليين(**) الإنكليز ومجالس السوفيات الروسية واللجان المقابلة الأميركية، لدينا عدد كبير من قوائم الأعضاء - ناقصة طبعاً غير أنها قوائم. وقام المؤلف قبل سنوات بدراسة هذه القوائم وتمكن بمساعدة سجلات الضرائب ووثائق أخرى في المحفوظات الفرنسية المحلية من التوصل إلى تعميمات إحصائية معينة عن هؤلاء الثوريين. ويمكن فيما يلي تلخيص بعض هذه التعميمات من كتاب اليعاقبة: دراسة في التاريخ الجديد.

يمكن عموماً التوصل إلى تقدير تقريبي للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

(*) ايرل اسكس أو ديفروكس (1566- 1601) قائد عسكري وسياسي إنكليزي.

(**) أنصار الحركة الدينية الأنجليكانية الداعية إلى الاستقلال الكنسي.

لهؤلاء الثوريين اليعاقبة في فرنسا ما قبل الثورة. هنالك سجلات ضريبية لسنوات مختلفة بين عام 1785 و عام 1790 ومنها سجلات عدد كبير من اليعاقبة مع المبالغ التي قدر أنهم ملزمون بتسديدها. ولما كانت هذه ضرائب مباشرة فإنها تتناسب نوعاً ما مع الدخل وهكذا يمكن الحصول على تقدير عام لثروة اليعاقبة. المهن مذكورة عادة وهذا مؤشر مفيد على الوضع الاجتماعي. وأخيراً يمكن كذلك دراسة أندية معينة في أوقات معينة من الثورة ويمكن أخذ عينة أثناء فترة مبكرة أو معتدلة وعينة أخرى أثناء فترة حكم أخرى للمتطرفين. وفيما يلي النتائج بإيجاز.

في اثني عشر نادياً بلغ مجموع عدد أعضائها 5،405 طوال الثورة برمتها 1789- 1795 في الفترتين المعتدلة والعنيفة كان 62% من الأعضاء من الطبقة الوسطى و28% من الطبقة العاملة و10% من الفلاحين. وفي اثني عشر نادياً في الفترة المعتدلة 1789- 1792، بلغ مجموع الأعضاء فيها 4،037 كان 66% من الطبقة الوسطى و26% من الطبقة العاملة و8% من الفلاحين. وفي اثنين وأربعين نادياً في الفترة العنيفة بلغ مجموع أعضائها 8.260 كان 57% من الطبقة الوسطى و32% من الطبقة العاملة و 11% من الفلاحين. وتؤكد سجلات الضرائب ما يشير إليه التصنيف المهني والاجتماعي. في ثمانية أندية درست في فترة الثروة برمتها دفع أعضاء الأندية معدل ضريبة بلغ 32.12 ليفر(*) حيث كان معدل الضريبة لكل مواطن من الذكور يسدد هذه الضريبة المباشرة في المدن قيد البحث يبلغ 17،02 ليفر. وفي الأندية الستة والعشرين قيد البحث في الفترة العنيفة وحدها دفع أعضاء الأندية معدل 19.49 ليفر ودفع المواطن من الذكور 14.45 ليفر. وهكذا، على الرغم من وجود ميل نحو ضم الأعضاء إلى الأندية في الفترة العنيفة من أفراد الشريحة الاجتماعية الأدنى بعض الشيء يستنتج المرء عموماً أن "اليعقوبي لم يكن نبيلاً ولا متسولاً بل أي شخص بينهما. مثل اليعاقبة مقطعاً عرضياً كاملاً من مجتمعاتهم السكانية".

(*) الليفر وحدة نقد فرنسية قديمة.

تساعدنا قليلاً مؤشرات أخرى موضوعية نسبياً. في الإمكان غالباً بيان أعمار أعضاء الأندية أثناء الثورة. وبقدر تعلق الأمر بالأعضاء العاديين في هذه الأندية لم تثبت فكرة أن الثوريين يجندون من بين الشباب وغير المسؤولين. تراوح معدل عمر الأعضاء لعشرة أندية بين 38.3 سنة و45.4 سنة ولكل الأندية العشرة معاً بلغ المعدل 41.8 سنة. واضح أن هؤلاء ليسوا شباناً متهورين ولا متجولين غير مقيدين أو قوات صاعقة مستوردين من مراكز ثورية في مدن من مثل باريس. ومن بين 2.949 عضواً في خمسة عشر نادياً انتقل 378 عضواً أو 13% إلى المدن منذ نشوب الاضطرابات عام 1789. وتنوع الأعضاء الحقيقيون مع تزايد تطرف الحركة الثورية أكثر فأكثر - أو اتجهت إلى اليسار أكثر فأكثر في المصطلحات الحديثة. وهاجر الكثير من المعتدلين أو أعدموا بالمقصلة ولم يلتحق الكثير من المتطرفين ذوي السمعة السيئة، ولكن ليس دائماً من الطبقات الدنيا، بالأندية إلا في وقت لاحق. غير أنه في ستة أندية بلغ مجموع أعضائها 3.028 بين عام 1789 وعام 1795 بقي أكثر من 31% في السجلات للفترة كلها ليصبحوا على التوالي ملكيين جيدين وجيرونديين(*) جيدين وجبليين(**) جيدين. وليس صحيحاً أن شخصية هذه الأندية أصبحت تخضع لهيمنة الطبقة أو الوضيعة أو العاملة بعد سقوط الملكية عام 1792 ولا حتى أن الأعضاء الجدد عموماً من الطبقة الكادحة. وواضح أن هؤلاء الناس لم يكونوا عموماً فاشلين في بيئتهم السابقة بل مثلوا السكان الذين هم أقدر وأكثر طموحاً وأنجح في مدينة ما. كأن أعضاء نادي الروتاري الحاليين ثوريون.

الأرجح أنه لا يمكن إجراء دراسة إحصائية مشابهة للثورة الإنكليزية لأن القوائم المقابلة لليعاقبة غير متوافرة. غير أن المادة موجودة حتماً لدراسة من

(*) أعضاء الحزب الجيروندي وهو حزب جمهوري معتدل كان له دور مهم في الفترة بين 1791 و 1793 في الثورة الفرنسية وعرف بهذا الاسم لسيطرة عدد من محافظة جيروند عليه.

(**) أعضاء مجموعة سياسية جلس أعضاؤها في المقاعد العليا في الجمعية الوطنية وساهمت في إسقاط روبسبير.

هذا القبيل في العضوية الفعلية لمجالس السوفيات في سنة 1917 المهمة مثلاً، إلا أنه يجب تجميعها سوية من مصادر متناثرة متوافرة في روسيا وحدها. إننا نعرف الكثير عن عضوية المجموعة الثورية الأميركية من لجان التجار واللجان المقابلة للمؤتمرات القارية. وحتى بالنسبة للثورة الإنكليزية لدينا ما يكفي من المواد المتناثرة للتمكين من وضع بعض التعميمات عن أعضاء الحركة في المراحل المبكرة من الثورة الإنكليزية لا يوجد شك بشأن تمتع الذين أيدوا البرلمان بالاحترام وبازدهارهم الاقتصادي. كتب باكستر(*)، مع بعض المبالغة ولكن مع قدر من الحقيقة، أنه عندما اندلعت الثورة الكبرى "كان من آثار الحرب هم الممتثلون Conformists والبروتستانت الأسقفيون المعتدلون الذين طالما شكوا من البدع والمذهب الأرمينيوسي(**) والبابوية(***) والاحتكارات والضرائب غير المشروعة وخطر الحكومة التعسفية". ثار تجار لندن وبريستول ومدن أخرى ولوردات بارزون وأرستقراطيون من ملاك الأراضي الصغار كافة ضد ملكهم. وحتى في الفترة التي يمكن تسميتها فترة الأزمة أو فترة التطرف في الثورة الإنكليزية، التي بدأت عام 1646 أو 1647 عندما أصبح التوتر حاداً بين الجيش الجديد والمشيخيين(****)، لم يكن الثوريون رعاعاً أبداً. ويبين حتى باكستر أن الجيش، الذي كان بالنسبة للثورة الإنكليزية بمثابة اليعاقبة للثورة الفرنسية والبلاشفة للثورة الروسية، أن "الكثير من الجنود العاديين والكثير من الضباط وجدتهم رجالاً صادقين وقورين وراشدين ووجدت آخرين طيعين ومستعدين لسماع الحقيقة وذوي نوايا مستقيمة". وقدر مؤرخ آخر أنه عندما

(*) ريتشارد باكستر (1615- 1691) لا هوتي من قادة الكنيسة البيوريتانية (التطهرية).

(**) مذهب اللاهوتي البروتستانتي الهولندي يعقوب آرمينيوس الذي انتقد تعاليم المصلح الديني كالفن وقال بإمكانية الخلاص للبشر كافة.

(***) معتقدات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وممارساتها وطقوسها.

(****) أعضاء الكنيسة المشيخية (البرسبتارية) البروتستانتية التي يديرها شيوخ منتخبون متساوون.

"نزل الجيش الجديد(*) إلى الميدان عام 1645 كان تسعة من كبار ضباطه السبعة والثلاثين من النبلاء وواحد وعشرون نبلاء المحتد وسبعة فقط من أصل غير كريم المحتد" . وقفت الطبقات السفلى، أو على الأقل عناصر العمال والفلاحين عموماً بمعزل عن الصراع. وبدا أنه حتى المتعصبون الجامحون قد جندوا من الناس المتواضعين ولكن ليس الفقراء، رجال دربوا أنفسهم على متابعة النزاعات اللاهوتية، رجال يمثلون عموماً الأكثر نشاطاً وطموحاً من أفراد طبقتهم. والواقع أن الأفقر من المزارعين، خصوصاً في الشمال والغرب، قد وقفوا في صف الملك ضد الثوريين.

في أميركا سبق أن بينا الحقيقة المعروفة جيداً وهي أن التجار أول من نظموا المعارضة للتاج. وقد ردد صدى هذه المعارضة الكثير من أصحاب المزارع في السهل الساحلي الجنوبي والكثير من الفلاحين مالكي الأرض الصغار المحترمين في منطقة بيدمونت. وتوجد في الواقع علامات كثيرة على المشاركة النشيطة لمن يعدهم المحافظون حثالة السكان. وجند في بوسطن أبناء الحرية ، الذين نفذوا معظم أعمال العنف هناك، من العمال وكانوا يلتقون عادة في مكتب المحاسبة وعقد الصفقات في معمل التقطير. وكان طبيعياً أن يعد المحافظون، الذين أصبح شائعاً حالياً وصفهم بالموالين لبريطانيا، خصومهم بأنهم فئة خسيسة. وكتب هتشنس عن اجتماع مدينة بوسطن أنه "ضم الطبقة الدنيا من الناس بتأثير عدد قليل من الطبقة العليا، غير أنهم ذوو نزعات متطرفة وصاخبة ويائسة. لقد تخلى أصحاب الملكيات والأخلاق السامية عن هذه الاجتماعات حيث كانوا واثقين بتلقي المهانة" .

في الواقع أن الحد الفاصل بين المحافظين والأحرار غير منتظم للغاية

(*) أسس أعضاء البرلمان الجيش الجديد New Model Army في الحرب الأهلية الإنكليزية وكان يختلف عن الجيوش الأخرى في أن الهدف منه أن يكون جيشاً مستعداً للخدمة في أي مكان في البلاد وليس مرتبطاً بمنطقة أو حامية واحدة وأصبح جنوده محترفين متفرغين لا أفراد مليشيا.

اعتماداً على الكثير علاوة على الوضع الاقتصادي كما يلاحظ في كتاب ج. ف. جيمسن \الثورة \الأميركية كحركة \اجتماعية. وفي حين أيد السادة الأثرياء في كيمبرج التاج البريطاني تحول الكثير من المزارعين والتجار والمحامين المحترمين إلى ثوار. ومن العلامات الجيدة على احترام الثورة تلاحم رجال الدين الذي كان عاماً باستثناء أتباع الكنيسة الأسقفية(*) في معظم المستعمرات. وكما كتب أحد أنصار الملكية الساخطين:

«كان بين أبناء الحرية البارزين قساوسة دعوا من منبر الكنيسة إلى الحرية والاستقلال ومواصلة السعي لتغيير الولاء للوطن الأم بدلاً من دعوة الرعية إلى الوداعة والوقار والاهتمام بشؤونهم ومواصلة طاعة قوانين بريطانيا، لقد كان القساوسة المستقلون دائماً هم الذين يحرضون ويحثون على كل مضايقة ومؤامرة».

باختصار يجب أن نتفق مع جيمسن على أن قوة الحركة الثورية في المدى البعيد تمثلت في الناس العاديين وليس في الدهماء و"الغوغاء" لأن المجتمع الأميركي كان ريفياً وليس مدينياً ولكن بوجود الحرفيين والمزارعين الصغار والقاطنين في التخوم. غير أننا يجب أن نتفق مع الكساندر غريدن أن "معارضة مطالب بريطانيا نشأت أصلاً مع الفئة الفضلى. كانت أرستقراطية حقاً في بدايتها" .

يبدو أن ثورة شباط/فبراير في روسيا لقيت ترحيب كل الطبقات باستثناء المحافظين المغالين - عدد قليل من ضباط الجيش وبعض رجال البلاط والنبلاء القدماء. ولا يعرف أحد من صنع ثورة شباط/فبراير غير أنه ليس هنالك شك في شعبيتها. كان كل واحد، النبيل الحر، المصرفي، الصناعي، المحامي، الطبيب، الموظف الحكومي، الكولاك (المزارع الغني) والعامل مسروراً بالتعاون في توجيه الضربة الأخيرة إلى النظام القيصري. وحتى البلاشفة، الذين يجعل انتصارهم في ثورة أكتوبر 1917 المخطط الزمني للثورة الروسية مختلفاً للغاية

(*) الكنيسة الأسقفية التي خلفت الكنيسة الإنكليزية في المستعمرات الأميركية بعد الثورة وهي كنيسة بروتستانتية تحتفظ بوظيفة الأسقف الكاثوليكية القديمة التي ألغاها عدد من الكنائس البروتستانتية.

عن مخططي الثورتين الإنكليزية والفرنسية، لم يكونوا بتاتاً كما دعاهم مبغضو الثورة رعاعاً، غوغاء، "العامة". ويبدو أنهم جندوا من العمال الأقدر والأمهر في مصانع بتروغراد وموسكو والمراكز الصناعية المتخصصة من مثل ايفانوفو- فونسنسنك أو حوض نهر الدون. وكان أهم زعمائهم من الطبقة الوسطى عموماً. وقد يجادل المرء أنه ربما لم يكن ممكناً الاعتماد في البداية على أعضاء الحزب الديمقراطي الدستوري بقيادة ميليوكوف الذين كانوا محبطين جداً في البداية بحيث لم يكن ممكناً اعتبارهم حزباً ثورياً. إلا أن المناشفة(*) والحزب الاشتراكي الثوري، الذين احتقرهم المؤرخون البلاشفة المنتصرون لاحقاً بوصفهم "توفيقيين" هم عناصر ثورية حتماً. وربما كان المناشفة مثقفين غالباً غير أن أعضاء الحزب الاشتراكي جندوا كذلك من المزارعين الأثرياء وممن كانوا يديرون التعاونيات ومن البقالين الصغار ومن شابههم.

3- الحالة الاقتصادية والاجتماعية: الزعماء

تناولنا حتى الآن الهيئات الرئيسية للثوريين ووجدنا أنهم لا يمثلون عموماً حثالة المجتمع حتى في انتفاضة الطبقة الكادحة الكبرى. وتعترف النظرية الماركسية طبعاً أن أفراد الحرس المتنقل في الثورة الفرنسية 1848 ليسوا ثوريين وأن فكرة أهمية المضطهدين والفقراء في البدء بالثورات ومواصلتها هي فكرة برجوازية.

لنتناول الآن كيف نفسر الزعماء والحكم عليهم بالمعايير الموضوعية نسبياً لأصولهم الاجتماعية ووضعهم الاقتصادي. تمكن المؤلف في تقصيه عن اليعاقبة من دراسة الزعماء المحليين الصرف، الرجال الذين لا يدخلون عموماً التاريخ العام. وبدا الاستنتاج واضحاً من السيرة العملية لعشرات الضباط الصغار في

(*) أطلق عليهم كاديتس Kadets وليس cadets (أي طلبة الكلية العسكرية) مختصر اسم الحزب الديمقراطي الدستوري بالروسية، وكان حزباً سياسياً ليبرالياً في روسيا القيصرية دعمه أساتذة جامعيون ومحامون وبعض الصناعيين.

الثورة: "الزعماء هم من حيث الجوهر من الطبقة الاجتماعية للأعضاء العاديين. وربما كان هنالك، بين الزعماء في عهد الإرهاب، رجال أكثر بدوا حتماً فاشلين عام 1789، أو على الأقل على تناقض مع بيئتهم. إلا أن نسبة هؤلاء القرويين من أمثال مارا ليست لافتة".

أما بالنسبة للزعماء الوطنيين في الثورة الفرنسية فقد كانوا، قياساً إلى هذه المعايير، مجموعة متنوعة ضمت في السنوات 1789- 1792 نبلاء من مثل ابن عم الملك الدوق أورليانز وميرابو وآل لاميت ولافاييت وعدداً كبيراً من المحامين من مثل كامو ومحامين مغمورين علاوة على محامين إقليميين محترمين من مثل الشاب روبسبير من منطقة آراس (الذي كتب اسمه مرة دو روبسبير) أو محامين من مثل دانتون وعلماء من مثل عالم الفلك بيلي وعالم الكيمياء لافوازيه وعالم الرياضيات مونغ. وساعد الثورة صحفيون من السلطة الجديدة للصحافة من مثل مارا وديسمولان ومعلقون من مثل بريسو وبرجوازيون من إقليمي شارتر وكوندورسيه ومركيز وفيلسوف. ولم يصعد إلى القمة سوى زعماء قليلين جداً بعد عام 1792. وربما كان من أداروا فرنسا في العامين 1793 - 1794 رجالاً أقل منزلة أو تميزاً من المثقفين في حلقة مدام رولان(*) ولكانوا بدوا في غير محلهم للغاية في قصر فرساي عام 1783. إلا أنهم من أصول اجتماعية مختلفة جداً عن الرجال الذين أداروا فرنسا القديمة - الطبقة البرجوازية المتعلمة التي اختير منها الموظفون الحكوميون.

إن معظم الأميركيين يدركون تماماً المنزلة المحترمة والمكانة الاجتماعية الممتازة للرجال الذين وقعوا إعلان استقلال الولايات المتحدة. كان ثلاثة وثلاثون من بين الموقعين الستة والخمسين حائزين شهادات جامعية في عصر كان القليلون ينتمون إلى الكليات، ولم يكن لغير نحو أربعة منهم تعليم نظامي محدود. وبين الموقعين خمسة أطباء وأحد عشر تاجراً وأربعة فلاحين واثنان وعشرون محامياً وثلاثة قساوسة. وكان اثنا عشر منهم أبناء قساوسة. وكان

(*) من بطلات الثورة الفرنسية.

معظمهم مرفهين. وكان سام آدمز، الذي يبدو أنه الأكثر تطرفاً بين زعمائنا، ينتمي إلى أسرة تجار على جانب من الثراء وتخرج في جامعة هارفرد عام 1740. وحتى الملكيون الموالون لبريطانيا، على الرغم من استخدامهم مفردة "غوغاء" بكثرة، وبخوا باستمرار الزعماء الثوريين بأنهم هواة في فن الحكم. وكتب محافظ أو معتدل في ميدلسيكس جورنال الصادرة في 6 نيسان/ أبريل 1776: "كل فرد في الحزب الحاكم في أميركا يملأ، في خياله، منصباً ليس فقط أعلى من المنصب الذي سبق أن شغله قبلاً بل وأرفع من أي منصب توقع شغله".

لسنا في حاجة إلى تناول الأصول الاجتماعية للزعماء المعتدلين في الثورة الإنكليزية. من الواضح أنهم بين الأعلى في البلاد. ويثير غير المعتدلين مشهداً مثيراً للاهتمام، مزيج من السادة من محتد كريم ومهنيين ذوي تعليم ذاتي ورجال متواضعين ملهمين بضراوة غير دينية وبدون الاستفادة من التحليل النفسي. كان كرومويل نفسه رجلاً ريفياً نبيل المحتد من مقاطعة ايست أنجليا تتشعب شجرة عائلته إلى قدر كبير من الثروة الجديدة التي يعود أصلها إلى عمليات المصادرة التي قام بها آل تيودور. وكان آيرتن، الذي أصبح صهره، من أسلاف مشابهين مثل الكثير من القادة الاستقلاليين أنصار الحركة الأنجليكانية الدينية الداعية إلى استقلال الكنيسة. في إنكلترا القديمة وفي مستعمرة نيو إنكلاند الأميركية. وكان لودلاو المشارك في قتل الملك ابن سير هنري لودلاو ودرس في كلية ترينيتي بجامعة كيمبرج. وحتى جون ليلبورن يوصف بأنه "من أسرة كريمة" يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ويبدو أنه كان نموذجاً لأفراد الطبقة الارستقراطية الأقل شأناً التي تحول أبناؤها أحياناً إلى ممارسة التجارة. ولا نعرف سوى القليل عن رجال من مثل وينستانلي الحفار أو أدوارد سيكسباي، أحد جنود فوج كروميل الذي يظهر لاحقاً كنوع من وكيل دولي للنزعة الجمهورية. وكان روبرت ايفرارد مع وينستانلي زعيماً لمجموعة ذات نزعة شيوعية عرفت بالحفارين وكان ضابطاً في الجيش ويوصف بأنه "سيد ذو تعليم لبرالي". وكان جون روجرز ابن رجل دين أنجليكاني مناصر للملك.

تمثل روسيا حالة تكاد تكون موازية للبلدان الأخرى فيما يخص الأصول الاجتماعية لزعماء ثورتها أكثر مما قد يبدو مرجحاً للوهلة الأولى في ثورة بروليتارية. وربما تولى المعتدلون في روسيا السلطة فترة وجيزة وعلى نحو غير مريح بحيث لا يكادون من ذوي الشأن. ويذكرنا أعضاء الحزب الديمقراطي الدستوري من مثل ميليوكوف، المؤرخ من أسرة محترمة، وتيريتشنكو، مليونير السكر من كييف، والأمير لفوف المسن(*) باللوردات والتجار المتطهرين الأثرياء في الثورة الإنكليزية والفولانيين(**). وكان أغلب المناشفة والثوريين الاجتماعيين مثقفين وموظفين صغاراً وزعماء نقابات وتعاونيات، وكان بعض أبلغ خطبائهم من جورجيا، "جيروند الثورة الروسية". وكان كيرنسكي محامياً راديكالياً من أسرة بيروقراطية ريفية من بلدة سيمبرسك الصغيرة على نهر الفولغا تدعى الآن أوليانوفسك تخليداً لذكرى رجل أعظم من كيرنسكي وأصله من سيمبرسك كذلك. وفي الحقيقة أن اوليانوف الذي عرف باسمه الثوري "لينين، يعود أصله إلى الطبقة الاجتماعية نفسها التي ينتمي إليها كيرنسكي. كان أبوه مفتش مدارس في سيمبرسك، وهي وظيفة ذات منزلة اجتماعية في روسيا القيصرية أعلى مما تبدو لنا - حتماً في البرجوازية العليا.

الزعماء البلاشفة الآخرون مجموعة متنوعة: مثقفون من مثل تروتسكي وكامينيف، وفليكس زيرزنسكي وهو من أصل بولندي - ليتواني نبيل، والكيميائي سفيردلوف ، وكالينين، الذي قد يوصف بأنه مزارع محترف، وستالين، الذي (ولد باسم جوغاسفيلي) من أصل فلاحي- حرفي جورجي والذي أرادت أمه أن يصبح قساً ودرس فترة في معهد لاهوتي، وشيشرين وكان

(*) الأمير لفوف (1861- 1925) رئيس الحكومة الموقتة الروسية (21 تموز/يوليو - 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1917)

(**) الفولانيون Feuillants أعضاء التجمع السياسي الذي ظهر أثناء الثورة الفرنسية إثر انشقاق اليعاقبة وعارض أعضاؤه التطويح بالملك وقد طوردوا إثر سقوط الملكية وحوكموا وأعدم زعيمهم بارناف واستمرت الصفة تستعمل كصفة ازدراء للمعتدلين والملكيين والارستقراطيين.

من أصل ارستقراطي، وأنتونوف- أوفسينكو، قائد الجيش الأحمر وهو من أسرة برجوازية رفيعة ذات اسم مركب. غير أن المفاوضات في بريست- ليتوفسك تمنح موجزاً بارعاً للزعامة البلشفية ودليلاً على طبيعتها غير البروليتارية. وعندما أرسل الوفد الروسي الأول إلى تلك المدينة لمقابلة الألمان ضم نماذج للإنجازات البروليتارية للثورة: بحار وعامل وفلاح. ويقال إن الفلاح، كما يقول أعداء الطبقة العاملة الحقودون، تميز باهتمامه بتجهيز الخمور. غير أنه عندما استؤنفت المفاوضات بعد فترة استراحة استغنى الروس عن بحارهم وعاملهم وفلاحهم ومثلهم رجال ليسوا بالطبع مساوين للألمان من المحتد النبيل في مواجهتهم ولكن المرء يعتقد أنه أكثر ثقافة منهم - جوف، كامينيف، بوكروفسكي، كاراخان - ومدام بيتزنكو، السيدة البلشفية المصابة بالعصاب التي نالت ارتقاءها المفاجئ بإطلاق النار على موظف قيصري في الأيام الرديئة الماضية. إلا أنه يجب الملاحظة مرة أخرى أن الماركسية مستعدة للاعتراف أن الطبقة الكادحة لا يمكنها رفع نفسها بعرى جزماتها ولذا لابد أن يكون زعماؤها من طبقات ذات امتيازات كافية لنيل تعليم يمكنهم من تفسير تفاصيل العقيدة الماركسية.

أخيراً، لقد بالغت كتبنا عموماً في افتقار زعماء الثورة إلى الخبرة وكونهم جدداً. كانوا، خصوصاً في روسيا، قد تلقوا تدريباً طويلاً في توجيه المجتمعات الصغيرة الساخطة والمضطهدة، المجموعات الثورية. كما أن الثوريين كمجموعة في مجتمع ناضج حقاً للثورة هم مثل أي مخلوقات بشرية بحيث يعني تعلم فن قيادتها المضي طويلاً في التدريب السياسي. وحتى في فرنسا لم يكن أعضاء الجمعية الوطنية بريئين سياسياً كما يفترض. وكان للكثير منهم خبرة في الأعمال التجارية أو كانوا دبلوماسيين أو موظفين أو شاركوا في السياسة المحلية في المحافظات. وقد اعتادوا جميعاً على ممارسة العمل السياسي في مجموعات الضغط. لم يكن هؤلاء الزعماء الثوريون غالباً منظرين أكاديميين روحيين صرفاً ولم ينتقلوا فجأة من الدير إلى قاعة المجلس. وربما لم يعدهم تدريبهم لتزعم

مجتمع مستقر، غير أن هذه مشكلة أخرى غير قابلة للحل. لقد هيأهم تدريبهم حتماً للزعامة في مجتمع غير مستقر.

وجدنا إذاً أنه لا يمكن تصنيف الأعضاء العاديين وزعماء المجموعات الثورية النشيطة بأنهم من أية مجموعة اجتماعية أو اقتصادية واحدة. وهم حتى ليسوا في أعمار شابة على نحو لافت ومبكر النضج بل كان هؤلاء الزعماء في منتصف العمر عادة في الثلاثينيات والأربعينات وبالتالي أصغر سناً من معظم البارزين سياسياً في المجتمعات المستقرة، التي تميل طبيعياً إلى أن يحكمها من هم أكبر في السن. إلا أن أمثال سان جوست(*) وبونابرت، الشابين في العشرينات من العمر، كانوا الاستثناء وليس القاعدة. والأرجح أننا نعتبر زعامة الثورة الروسية، التي كان معدل أعمار زعمائها الأعلى في الثورات الأربع، مع الاستثناء القادم من المعاصرة، أكثر تطرفاً. ويميل الثوريون إلى تمثيل مقطع مستعرض كامل تقريباً من مجتمعاتهم المحلية مع عدد قليل من أصحاب المراتب العليا في مجتمعاتهم، رجال من مثل لافاييت، مثلاً، وبقدر ما يتعلق الأمر بالمجموعات الحاكمة النشيطة عدد قليل جداً من الصعاليك والمسحوقين والأدنى منزلة. وينطبق هذا على البلاشفة كما ينطبق على المتطهرين واليعاقبة. يمكن تجنيد السكارى والرعاع والدهماء للقيام بقتال الشوارع وحرق الثورات غير أنهم حتماً لا يصنعون الثورات ولا يديرونها - حتى ولا الثورات البروليتارية.

الشخصية والترتيب

نواجه الآن مهمة أصعب كثيراً، حيث إن معلوماتنا فيها ليست موضوعية جداً ولا مصنفة بسهولة مثل معلوماتنا عن وضع الثوريين الاجتماعي

(*) سان جوست متطرف فرنسي وعضو لجنة السلامة العامة حرض على شن الحرب ضد أعداء الثورة داخل فرنسا وخارجها وكان صديقاً لروبسبير ولقي حتفه معه.

والاقتصادي. إن هذه مشكلة - نفسية في العمق - تتعلق بمدى انتماء هؤلاء الثوريين إلى أنواع يعدها جون جونز عادة غريبة الأطوار وشاذة أو مجنونة محض. ونفترض هنا، خلافاً لماركس ودوركهايم(*)، أن بعض الاختزال من علم الاجتماع إلى علم النفس ممكن ومهم. والآن قد يجادل المرء مسبقاً على نحو مبرر تماماً أن الرجل التام الرضا لا يمكن أن يكون ثورياً. إلا أن المشكلة هي وجود وسائل كثيرة للغاية للسخط والرضا في هذا العالم. وفي الواقع أن الماركسيين والاقتصاديين الكلاسيكيين الأكثر فجاجة يرتكبون خطأ مماثلاً: يفترضون كلهم أن علم الاقتصاد يتعامل على نحو شامل مع كل ما يجعل الإنسان سعيداً أو تعيساً. إن للإنسان حوافز كثيرة للعمل لا يستطيع عالم الاقتصاد، المقيد بدراسة أعمال الإنسان العقلانية، تضمينها في عمله. إنهم يقومون على نحو جدير بالملاحظة بقدر كبير من عمل ليس له معنى إطلاقاً، إذا افترضنا أنهم موجهون كلياً بأي دافع اقتصادي عقلاني يمكن تصوره: الإشراف على الموت في المتحف البريطاني من أجل تأليف رأس المال، مثلاً، أو الاستيلاء على صحارى انسياقاً وراء الوهم المريح بأن التجارة تتبع الراية، أو جعل العالم آمناً من أجل الديمقراطية. من الواضح أن من يشارك في ثورة ما قبل إثبات نجاحها هو شخص ساخط أو، على الأقل، إنسان داهية إلى حد كاف بحيث يقدر وجود ما يكفي من الساخطين لكي يندمج في مجموعة تستطيع إحداث ثورة. يجب أن نبذل بعض الجهد لدراسة طبيعة هذا السخط كما يشاهد لدى الأفراد.

هنا لن تنجح طريقة الدراسة الإحصائية لمجموعات الثوريين الكبيرة من مثل اليعاقبة. في الغالب إن معظم هؤلاء الأعضاء العاديين مجرد أسماء مع إشارة إلى المهنة وربما إشارات أخرى إلى الوضع الاجتماعي. لقد مكن الاهتمام الحديث بالتاريخ الاجتماعي والإنسان العادي من تأمين عدد من دفاتر اليوميات

(*) دوركهايم (1858- 1917) عالم اجتماع فرنسي كانت مساهماته قيمة في تأسيس علم الاجتماع وعلم الإنسان.

ورسائل الناس العاديين، كما بذلت الثورة الروسية أقصى جهودها لكي تبقي حية ذكرى عامل في مصنع بوتيلوف أو بحار من السفينة أورورا. وكان تروتسكي نفسه بليغاً جداً في الحديث عن الأدوار البطولية لهؤلاء العمال والبحارة والفلاحين في كتابه تاريخ الثورة الروسية غير أنه يكرس قدراً كبيراً من وقته في الحديث عن الأسماء البارزة وكأنه مجرد مؤرخ برجوازي. هنالك طبعاً مجموعة الاتهامات - التي لا تكاد تمثل أوصافاً - الموجهة من جانب ضد جانب آخر. هذه الاتهامات تتسم عادة بعاطفية أشد من أن تجعلها ذات أهمية واضحة، باستثناء شدة الانفعالات التي تثار أثناء الثورات. وحتى في ثورتنا (الأميركية) التي يفترض أنها معتدلة نسبياً يجد المرء مناصراً للملك البريطاني نقل عنه أنه قال: "من الممتع الخوض في الدم الأميركي إلى محور عجلات مركبتي".

وإذا لم نتمكن لهذه الأسباب من عمل الكثير باستخدام علم النفس السياسي والاجتماعي لمجموعات الثوريين الكبيرة، نستطيع على الأقل استعراض بعض الزعماء آملين أن تكون القائمة التي نختارها ممثلة على نحو كاف. وهنا يجب على الأقل الاعتماد على المعلومات المتعلقة بسير الحياة. وبفضل الكتابين البارزين: معجم السير الوطنية و معجم السير الأميركية نستطيع اختيار عينات حتى من بعض الزعماء الأقل شأناً في الثورات. ويعمل الفرنسيون حالياً على تأليف معجم السير الخاص بهم الذي يؤمل أن يكون أكثر شمولاً من النموذج الأنكلوسكسوني ولما كان لم يتجاوز الحرف D فإنه ليس ذا فائدة كبيرة لنا. أما سير زعماء الثورة الروسية فإنها ذات صعوبة حقاً من هذه الناحية. ثمة تعليقات كثيرة بارعة عن لينين وتروتسكي وستالين إلا أنها متناقضة أيضاً. كما لا تتوافر مؤلفات معتمدة عن الشخصيات الأقل شهرة باللغات الغربية. غير أننا نستطيع ملاحظة أن الانتشار غير العادي للأسماء المنتحلة في الثورة الروسية - لينين، ستالين، مولوتوف، تروتسكي وغيرهم - ربما غير ناشئ في حالة معظم هذه الأسماء المستعارة عن شعور الخزي بسبب ماض إجرامي أو مشين. كانت جرائمهم كثيرة بلا ريب إلا أنها جرائم ضد الاضطهاد القيصري. هنالك على

الأرجح فكرة مثيرة بعض الشيء بأن هذه الأسماء المستعارة كانت مفيدة ضد الشرطة القيصرية إلا أنها سرعان ما أصبحت مجرد نمط، بدعة ثورية.

ثمة درجة ما في هذه المرحلة من دخولنا قائمة مملة. سيتعين أن نقوم بتصنيف الحقائق لدينا ونحن نقدم أنواعاً بشرية أو شخصيات معينة. وهذه عملية أنجزها بنجاح الكثير من المراقبين البارعين للسلوك البشري من ثيوفراستوس(*) إلى موليير(**) وسنت بوف(***) وباجيت(****). ولعلها من بعض النواحي طريقة مفيدة لتصنيف الرجال أكثر مما أنجز علم النفس النظامي أو علم الاجتماع النظامي. ليست هذه، كما يأمل المرء، شخصيات خيالية. وإذا كانت حقيقية بمقدار عشر شخصية كل من ألكست(*****) أو هارباغون(******) فإنهم واقعيون أكثر من أي شخص تعامل معه عالم الاجتماع العادي.

يمكن أن نبدأ بالسيد- الثوري، "المخدوع الأرفع مقاماً"، الرجل المولود لكي يبلغ القمة، إلا أنه غير مستعد على نحو منحرف للبقاء هناك. إنه ليس أبداً شخصاً بسيطاً ويدبر أحياناً الجمع بين عدد من السمات الثورية. ولا بد من الاعتراف أنه بالنظر لوجود الكثير من هؤلاء المخدوعين الأرفع مقاماً في المجتمعات الأربعة فإن كراهية طرائق طبقتهم تحركها على نحو جزئي عدم قدرتهم على النجاح في نشاطات معينة تقابل بالفخر في تلك الطبقة. ولا حاجة

(*) ثيوفراستوس (371- 286 ق.م.) فيلسوف إغريقي من تلاميذ أفلاطون وأرسطو الذي كان تلميذه المفضل وسماه خليفته وأوصى له بمكتبته ومخطوطاته ويعد أبا العلوم الطبيعية وخصوصاً علم النبات.

(**) موليير (1622- 1673) أبرز كاتب مسرحي أشهر مسرحياته مبغض البشر و البخيل.

(***) شارل سنت بوف (1804-1869) ناقد أدبي فرنسي وشخصية بارزة في التاريخ الأدبي الفرنسي.

(****) والتر باجيت (1826-1877) رجل أعمال وكاتب مقالات وصحفي بريطاني له إنتاج غزير في الأدب والحكومة والشؤون الاقتصادية.

(*****) الكست شخصية رئيسية في مسرحية مبغض البشر لموليير.

(******) هارباغون من شخصيات مسرحية البخيل لموليير.

أن تكون مؤرخاً يفضح الزيف للاعتراف أن لافاييت ثار ضد بلاط لويس السادس عشر وماري انطوانيت لأنه لم يكن في فرنسا. ولذا عندما نجد اليوم في إحدى كلياتنا شاباً جيد التربية وقد تحول إلى ماركسي أو على كل حال وجودي فمن المؤكد تقريباً أنه ليس رئيس فريق كرة القدم أو رئيس جمعية أخوية. ربما يكون عضواً في جمعية في بيتا كابا(*). ولا حاجة بنا إلى إطراء هذه الحالة أو إدانتها بل نكتفي بالإشارة إليها.

إلا أن من السخرية - ولذا من المنافي للروح العلمية - إنكار أن ما يتعين علينا تسميته بالمثالية المخلصة يدفع الكثير من هؤلاء الأعلى منزلة. وتبدو مجموعتهم الاجتماعية في نظرهم منغمسة في الملذات أو مملة أو قاسية أو متحجرة القلب. وهم يرون إمكانيات عالم جديد. وهم متأثرون بمؤلفات المثقفين الذين شرعوا بالتخلي عن النظام الراسخ. كما أنهم يشرعون بحدة إدراك الفروق بينهم وبين آبائهم وأجدادهم. إنهم جيل في ثورة. وهم يكافحون من أجل مملكة الرب على هذه الأرض. وهم عادة غير مرتاحين، بالطبع، في هذا العالم لأسباب كثيرة لا يمكن اعتبار الكثير منها ضمن مجال عمل الطبيب النفسي. إن شيلي، الذي لم تسنح له فعلياً فرصة للثورة خارج الشعر، نموذج مألوف لهذا النوع الحساس والعصابي غالباً. وكان زيرجينسكي، الأرستقراطي البولندي الذي كرس حياته لتشيكا الرهيبة(**) متعصباً رقيقاً ومخلصاً. ويبدو المركيز دو سان هوروغ، الرديء السمعة في الاضطرابات وقتال الشوارع في الثورة الفرنسية مجنوناً وليس رجلاً مهذباً وشهماً بينما كان الماركيز كوندورسيه سيداً مهذباً وشهماً وعلامة ومع أنه كان يمتلك قدراً كبيراً من الغرور الذي يرافق كليهما والقليل من الإحساس الذي يرافق أحياناً أياً منهما فقد كان رجلاً ذا قلب طيب وحساس.

(*) Phi Beta Kappa جمعية أميركية ترعى الطلبة الجامعيين الموهوبين في الآداب والعلوم أسست عام 1776.

(**) أسس لينين التشيكا أول منظمة أمنية حكومية عام 1917 وقادها زيرجينسكي بعدئذ.

ويتخلى آخرون عن طبقتهم وينضمون إلى الثورة من أجل السبب الحقير ولو أنه المفيد اجتماعياً أحياناً بحيث يعتقدون أن العلامات تشير إلى انتصار الثورة. وأحياناً يكون هؤلاء الرجال من مثل الكونت دو ميرابو، شخصيات مشبوهة سمحوا لأنفسهم أن يعيشوا بعض الوقت حياة شاذة. وأحياناً هم رجال من مثل تاليران، وهو أيضاً من أصل نبيل، يتسمون بالحرص والوعي ورغبتهم الوحيدة التمسك بمركز سام وفي بحبوحة ومن لا يتمسكون بالأفكار المجردة المتعلقة بما هو صحيح أو خطأ - أو الولاء للعرش والتحول لاحقاً. وطبعاً هنالك في المراحل الأولى من الثورات حتى الروسية منها الكثير من الأثرياء وذوي النفوذ بدون ذكاء أو غباء غير عادي انضموا إلى الثورة لأنها كانت رائجة وناجحة كما يبدو. وكثيراً ما كان هؤلاء ، الذين لم تكن لديهم سلطة سياسية مباشرة، يشعرون بإغراء احتمال نيل السلطة السياسية - رجال من مثل دوق أورليانز أو بيلي(*) أو تيريشينكو(**) أو كونوفالوف(***). غير أنهم أشخاص عاديون لا يستحقون تدوين سيرهم - سواء كانوا مسيحيين أو فرويديين أو ماركسيين - أكثر منك ومني.

وإذا تركنا أصحاب المنزلة الفضلى، من ينتمون بالولادة أو التنشئة إلى الطبقات الحاكمة، ومع ذلك يقفون إلى جانب الثورة ويتحولون إلى زعماء من طبقات أدنى من الطبقة الحاكمة، فإننا سنجد التنويع الواسع جداً فيما يجب أن ندعوها الطبيعة البشرية. وسنجد حمقى وصعاليك ومثاليين وثوريين محترفين ودبلوماسيين ومجاذيب وجبناء وأبطالاً.

(*) دوق أورليانز (1747- 1793) من آل بوربون الملكية الحاكمة وساند الثورة الفرنسية إلا أنه أعدم بالمقصلة في عهد الإرهاب.

(**) جان سيلفين بيلي (1736- 1793) عالم فلك وخطيب من زعماء المرحلة المبكرة في الثورة الفرنسية.

(***) الكساندر كونوفالوف (1875- 1948) سياسي روسي وأكبر منتج للمنسوجات أصبح زعيماً في الكتلة التقدمية في مجلس الدوما الرابع أثناء الحرب العالمية الأولى وأصبح وزير التجارة والصناعة بعد ثورة شباط/فبراير وهاجر إلى فرنسا بعد ثورة أكتوبر ثم إلى الولايات المتحدة.

من العقم الآن إنكار أن بين من يصعدون إلى القمة في أوقات الثورة المضطربة الكثير ممن لا يسمع بهم أبداً في الأوقات العادية. كان بعض هؤلاء فاشلين حتماً في المجتمع القديم، رجالاً غير قادرين على تحقيق أهداف طموحاتهم. كان مارا ذاتي التثقف من أصل متواضع اعتاد تقديم نفسه بأنه حاصل على شهادات أكاديمية وأوسمة لم يكن كتاب سيرته - وحتى معاصروه - قادرين دائماً على تأكيدها. حاول جاهداً الانضمام إلى معقل الفلاسفة غير أنه لم يقبل أبداً. وكان مارا، الذي رفضه قادة الرأي، طافحاً بالغيرة والكراهية عام 1789 نحو كل شيء راسخ ومحترم في فرنسا. وسرعان ما منحته الصحافة الثورية منفذاً مناسباً وأصبح كلب الحراسة المسعور في خدمة الثورة يسعى في صحيفته صديق الشعب إلى اقتفاء رائحة المؤامرات ضد الشعب ويكره من في السلطة دائماً حتى من كانوا من حزبه ويواصل المطالبة بالدم والانتقام. كان شخصاً بغيضاً بلا ريب.

غير أن الفاشلين لم يكونوا بتاتاً من نوع مارا البسيط نسبياً. كان سام آدمز حتماً فاشلاً وفق معايير مستعمرة نيو إنكلاند الحريصة والوقورة. إلا أن آدمز تمكن من أداء أمور معينة على نحو ممتاز وإذا لم تكن تلك الأمور في عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر مجزية مالياً كما هي حالياً، فقد نال آدمز على الأقل مكافآت ملموسة أقل في زمنه - وأصبح حاكم ولاية مساشوستس. وكانت مكافآت آدمز طبعاً، كما يحللها ج. سي. ميلر ببراعة في دراسة له مكافآت خبير الدعاة والمنظم. ومن الصعب تصديق أن صناعة الإعلان اليوم ستترك رجلاً في مثل مواهبه غير مكتشف أو غير مكافأ.

توماس بين، الذي استطاع الاشتراك في الثورتين الأميركية والفرنسية، ثوري آخر لم يكن له شأن قبل الثورة. أبحر إلى أميركا عام 1774 في الثامنة والثلاثين أي أنه لم يعد شاباً. قدم من أسرة حرفية في ايست أنجليا (في إنكلترا) تعتنق مذهب الكويكرز وكان قد حصل على تعليم القرن الثامن عشر خصوصاً في العلوم وفي فلسفة حركة التنوير أثناء ممارسته ست مهن مختلفة من العمل في مهاجمة سفن العدو بتفويض من الحكومة إلى صنع الحبال المتينة

والبقالة. وكان قد خاض تجربة زواج فاشلة وعمل فترات متقطعة في إدارة الضرائب واكتسب سمعة بأنه "ملحد" المدينة في لويس بمقاطعة سسكس (الإنكليزية) وقام بمحاولة فاشلة ومبكرة نوعاً ما في ممارسة التأثير لمصلحة زملائه موظفي الضرائب. وصل بين إلى مدينة فيلدلفيا مثل أوروبيين كثيرين آخرين رجلاً غير ناجح يبحث عن بداية جديدة. منحته الثورة تلك البداية وجعله كتابه الإدراك السليم خبيراً في الشؤون العامة. كان تومس بين ذلك الراديكالي المهني، الصحفي المكافح، والعقلاني الديني، رجلاً لم يكن ليصبح في الأوقات الهادئة أكثر من برادلوغ آخر(*).

من الناحية الأخرى، ترفع الثورة أحياناً إلى القمة رجالاً ذوي قدرات عملية للغاية، رجالاً من النوع الذي لابد أن يقر حتى المحافظون الحذرون والمتصفون بالعناد بأنه جدير بالاحترام. ربما عاش رجال من هذا القبيل مغمورين لمجرد أنهم لم يتعرضوا للإقلاق، أو ربما كانوا ضحايا نوع من الصد في صفوف النخبة، المهنة المفتوحة أمام المواهب، كما لاحظنا في فصل سابق. إن كرومويل نموذج تقليدي للرجل الذي ربما بقي سيداً ريفياً بسيطاً سيرته غير متميزة في مجلس العموم لولا ثورة المتطهرين. ويمكن إطلاق حكم مشابه على واشنطن. وسنعود لاحقاً إلى هذه المسألة المتعلقة بسلامة القيادة الثورية.

لم نقل شيئاً حتى الآن عن المقاتلين، عن كارييه وعمليات الإغراق(**) في مدينة نانت، وكولوت ديربوا(***) وعمليات الإعدام الجماعية في مدينة ليون، ووكلاء التشيكا المجهولين، والوكلاء الإنكليز لما سميت مستوطنة ايرلندا

(*) تشارلز برادلوغ (1833- 1891) ناشط سياسي ومن أشهر الملحدين الإنكليز في القرن التاسع عشر. أسس الجمعية العلمانية الوطنية عام1866.

(**) أشرف مفوض الثورة الفرنسية جان- بابتيست كارييه على إعدام نحو ألفي شخص بربطهم عراة في زوارق لنقل البضائع وإغراقهم في مصب نهر اللوار.

(***) جان- ماري كولوت ديربوا (1749- 1796) ممثل وكاتب مقالات وثوري فرنسي وعضو لجنة السلامة العامة أثناء عهد الإرهاب وكلف معاقبة المشتركين في ثورة ليون.

الكرومويلية الذين حملوا الرقم القياس بين الإرهابيين زمناً طويلاً. وسنعود إلى مشكلة الأساليب الإرهابية أثناء فترات الأزمات في الثورات. نحن نهتم هنا بالتوضيح أن بين الثوريين بعض الرجال الذين اختارتهم الأجيال كنماذج لذلك النوع من الوحوش الذي يظهر على السطح في الثورات. لا يستطيع أحد إنكار هذا الظهور ولا حقيقة أنه لا يكاد يمكن فهم الرجال من هذا النوع إلا بمساعدة علم الإجرام وعلم النفس.

إن كارييه نفسه نموذج جيد تماماً لهؤلاء الرجال. غير أنه مهما يحاول ملتمسو الأعذار الجمهوريون تخفيف الأوصاف الميلودرامية التي وضعها أعداؤه عن نشاطاته في نانت، تبقى حقيقة أنه عجل عمل المحاكم الثورية بحيث أصبح إغراق المدانين في دفعات في نهر اللوار أسهل كثيراً من انتظار المقصلة البطيئة الحركة. كان كارييه محامياً إقليمياً دبر انتخابه إلى المؤتمر(*) بالانضمام إلى ناديه المحلي وتكرار العبارات المألوفة لحركة التنوير. وأرسل ممثلاً للثورة في مهمة إلى مدينة نانت. ويبدو أن القوة قد استحوذت عليه هناك. كما أن نانت كانت على حافة مقاطعة فينديه الخطرة دائماً وربما دفع الخوف من التآمر على حياة كارييه إلى تطهير أعدائه في مجموعة. أظهر أنه جريء وراح يتجول مختالاً في المدينة وأقام الحفلات وتحدث متبجحاً وخلف وراءه كراهية متقيحة أدت إلى سقوطه وإدانته بالموت بعد انتهاء عهد الإرهاب.

يذكر كارييه بأحد رجال العصابات كما يظهرون في المأثور الشعبي الأميركي. هنالك التظاهر بالشجاعة، الوعي بحياة على مستوى الميلودراما، الشعور الجديد والخام بالقوة، الخوف المستحوذ المتواصل من عمليات القمع، الفورية الصبيانية للغرض. إن ما يجده المرء في كارييه حب مرضي محدد لسفك

(*) انتخب المؤتمر الوطني وأعلنت فرنسا جمهورية شعارها الحرية والمساواة والإخاء وحوكم الملك وأعدم واتخذت الثورة منحى أكثر تطرفاً وهيمن روبسبير ودانتون ومارا. ثم اغتالت شارلوت كورديه مارا وبدأ عهد الإرهاب وصدر نحو 18 ألف حكم بالإعدام غير أن عهد الإرهاب انتهى بإعدام روبسبير.

الدماء، ذهن سقيم من النوع المرتبط باسم المركيز دو ساد. هذا النوع من الجنون ينتشر بين السجانين والسفاكين والمتطفلين على الثورة على نحو أكثر منه بين زعمائها، حتى الزعماء على مستوى كاريه. ويرى الكثير من الناس طبعاً أن الأعمال الأكثر إثارة للاشمئزاز عموماً هي أعمال الرعاع الثوريين - مجازر أيلول/سبتمبر في باريس عام 1792، مثلاً، التي يوازيها على نحو وثيق جداً تاريخ عمليات الإعدام بلا محاكمة في أميركا. يظهر هنا وهناك بعض أفظع حالات الوحشية البشرية. غير أنها يجب ألا تربط على وجه التحديد بالثورات. المذابح المنظمة في روسيا(*) وعمليات الإعدام بلا محاكمة في أميركا(**) لا تقل سوءاً عنها. الثورات والغوغاء ليستا مصطلحين متبادلين يمكن وجود أحدهما بدون الآخر. ونوع الوحشية المرتبط على نحو أكثر تكراراً بالثورات هو وحشية الاغتيالات القضائية بدم بارد - يراها البعض فظيعة أكثر من وحشية الرعاع - ومن حيث المبدأ، كما في انتشار الإرهاب في روسيا عقب اغتيال كيروف عام 1934 ("فترة يزوف"(***)).

ثمة نوع آخر يعد عموماً، ولكن ليس على نحو خاطئ، أنه يقع في القمة في الثورات. إنه القائم بالتخطيط الغريب الأطوار، النظري وغير العملي، الرجل الذي يمتلك أداة يحقق بها المدينة الفاضلة. باختصار ربما للجماعة المتطرفة المجنونة في مرحلة شهر العسل أدوارها وفي الثورة الإنكليزية أكثر من مجرد أدوارها في المطبوعات على الأقل. غير أن الثورات عمل خطير لا تصرف غرابة الأطوار الأنظار عنها. وما إن يترسخ خط العقيدة الثورية - وعلى الرغم من أنه كما سنرى خط مقيت ومتشدد - يضغط على المجانين على نحو معتدل

(*) هي المذابح المنظمة في روسيا pogrom الموجهة ضد اليهود لاسيما في العقد التاسع من القرن التاسع عشر.

(**) هي عمليات الإعدام خارج القضاء lynching مارسها الغوغاء في أميركا وقد صدرت قوانين بتحريمها.

(***) نيقولاي يزوف (1895- 1940) ضابط كبير في الشرطة السرية أثناء حملة التطهير الكبرى في عهد ستالين. تولى منصب أمين اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي.

أو خطير. ثمة ثورات ماركسية، ثورات الحقوق الطبيعية، ولكن ليس ثورات من أجل الضريبة الموحدة أو الائتمان الاجتماعي أو الثيوصوفية(*) أو النباتية(**) أو الإدراك الحسي الإضافي. إن المجتمعات المستقرة جداً وحدها، من مثل إنكلترا الفكتورية، هي التي يمكن أن تسلم هايد بارك إلى جماعة مصابة بالجنون. ينتمي كرومويل وواشنطن وروبسبير ونابليون ولينين وستالين جميعاً إلى هذه المجموعة ويجب أن تقر أنهم ضغطوا في عز سطوتهم على آخرين وعلى طائشين شاذين.

كما لا يمكن عزل نوع ثوري يوصف بأنه "إجرامي" و"فاسد" وتنطبق عليه تماماً المعايير الأنثروبومترية (المتعلقة بدراسة قياس الجسم البشري لأغراض التصنيف المقارن). وقد بذلت حتماً محاولات للقيام بمثل ذلك. والأرجح أن هنالك من يرون أن للثوريين مؤشراً للرأس أو أن شعرهم أدكن. ولا ريب أنه يوجد الكثير من الثوريين يتصرفون، مثل كارييه، كمجرمين في المجتمعات المستقرة. ولا تبدو نسبة هؤلاء الثوريين عالية على نحو استثنائي.

ثمة نوع ثوري أكثر وضوحاً هو الشخص الميال للجدل والمولع بالمواقف المخالفة والمغرم بأن يبرز عن جمهور الملتزمين. وفي الحقيقة أن المجموعة الثورية، المتطهرين الإنكليز، حفلت بهذه الفوضوية الصارمة. لا يكتفي بعض الأفراد بالبروز في هذا الصدد بل تنأى المجموعات ككل بنفسها عمداً عما هو عظيم ورائج. وكما كتب مؤرخ اجتماعي:

«يرفض المتطهر ارتداء كل ما هو رائج. وعندما كانت أطواق الرقبة المكشكشة رائجة كان يرتدي شريطاً واسعاً متدلياً، وعندما لم يكن هنالك طلب على أطواق الرقبة المكشكشة [1638] وظهرت شرائط عريضة متدلية بحافة ذات رباط رفيع كان يضع شريطاً صغيراً جداً. وكانت الأحذية عريضة عند الأصابع

(*) الثيوصوفية Theosophy معتقدات حديثة نشأت في الولايات المتحدة الأميركية مبنية على التعاليم البوذية والبراهمية.

(**) النباتية Vegetarianism نزعة العيش على الخضر والحبوب والفواكه.

بينما كان حذاؤه حاد الطرف. وكانت الجوارب الرائجة غالباً من أي لون عدا الأسود بينما يرتدي المتطهر الجوارب السود. وكان رباط جوربه قصيراً وشعره قصيراً كذلك. وحتى في نهاية عهد الملكة اليزابيث كان الشعر القصير من علامات مذهب المتطهرين».

غير أن هذا النوع يلاحظ في أفراد معينين. كان جون ليلبورن يجسد ذلك ويبدو أنه من أسرة من الأفراد غير المهذبين لأن والده كان سيداً من مدينة درهم ويقال إنه كان آخر إنكليزي لجأ إلى الحق الإقطاعي لطلب الحكم عن طريق النزال في قضية مدنية. كان جون ليلبورن مدمناً الجدل وهاجم المسيحيين المشيخيين وأنصار الحركة الدينية المستقلة بشدة كما سبق له مهاجمة البلاط. ويبدو أنه حافظ على قدر كبير من الغرور الاجتماعي بجانب ذلك الغرور الفكري والروحي وهو من سمات المتطهر الإنكليزي. وأبلغ قاضيه، وهو رجل عصامي من خلفية حرفية صعد مع كرومويل، لدى محاكمته عام 1653، "إن الأفضل له [للقاضي] بيع قطع الكشتبان والمخرز لا الجلوس على كرسي القضاء للحكم على شخص أعلى منه منزلة". وقال هنري مارستن، المشارك في قتل الملك تشارلز الأول، الذي كان ينبغي أن يكون حكماً جيداً في تلك الأمور، إنه لو لم يوجد في العالم أحد سوى جون ليلبورن لتنازع ليلبورن مع جون ولتنازع جون مع ليلبورن.

لا ريب أن دوافع ليلبورن كانت الأعلى. آمن بالديمقراطية المطلقة وفي يوم ما حصل برنامجه القائم على إلغاء الرق البشري والبرلمانات كل سنتين والتسامح الديني والمساواة أمام القانون على القبول التام في إنكلترا. غير أنه لم يكن ممكناً لشخص عقائدي للغاية ومتطرف عام 1645 أن يعد ذلك البرنامج ممكن التنفيذ. لم يكن ليلبورن رجلاً مثيراً للجدل فحسب بل كان ما يدعوه العالم عموماً مثالياً من النوع الذي يظهر غالباً في هذه الثورات. ولا يبدو من الحكمة إجمالاً إبراز نوع واحد بوصفه الثوري الكامل، ولكن إن كان هنالك هذا النوع فلا بد أن نأخذ في الاعتبار المثالي وليس الفاشل الذي يشعر بالمرارة، أو المجنون المتعطش للدماء. المثاليون في زمننا طبعاً هم المادة التي

ترسخ مجتمعاً مستقراً وعادياً. ومن المناسب لنا جميعاً وجوب وجود رجال ذوي طموحات نبيلة، رجال وضعوا خلفهم نفاية هذا العالم من أجل العالم النقي، من أجل الفكرة والمثال كما عرفهما أنبل الفلاسفة. غير أنه في الظروف الاعتيادية لا يحتل هؤلاء المثاليون، في العالم الغربي على الأقل، مراكز القوة والمسؤولية. نتطلع في زمننا غير الاعتيادي حالياً إلى مثاليينا ونمنحهم أحياناً جوائز وشهادات فخرية إلا أننا لا نختارهم لحكمنا. إننا نرفض بخاصة من يصنعون سياساتنا الخارجية.

في الواقع أن إحدى العلامات البارزة لثورة ما حصول المثالي في الأوقات الثورية على الأقل على فرصة تجربة المثل التي يؤمن بها وتنفيذها. وتحفل الثورات بالرجال الحاصلين على معايير رفيعة للسلوك البشري، تلك المعايير التي وصفت طوال عدة آلاف من السنين بكلمة أو عبارة لها المعاني التي تحملها مفردة "مثالي" اليوم. ولا داعي أن نشعر بالقلق بسبب المضامين الميتافيزيقية والدلالية للمصطلح. كلنا نعرف المثالي عندما نراه وبالتأكيد عندما نسمعه.

إن روبسبير مثالي في أي مجتمع. وثمة قصة شائعة عن استقالة روبسبير الشاب من منصبه القضائي بدلاً من فرض عقوبة الموت، التي كانت ضد تنشئته الإنسانية في القرن الثامن عشر. وقد حطم المؤرخون تلك القصة كما فعلوا في حالات كثيرة من حكاية واشنطن وشجرة الكرز(*) إلى حكاية ألفرد وقطع الكعك(**). غير أنه فيما عدا المعنى الأضيق والأكثر فائدة للكلمة هذه الحكايات "حقيقية" في طرائق مهمة كثيرة. وتشير القصة عن روبسبير إلى أنه

(*) اختلق ميسن ويمز القصة في كتاب نشره بعد وفاة واشنطن مباشرة عام 1800 واستهدف تمجيد واشنطن.

(**) تقول الحكاية إن ملك إنكلترة ألفرد الكبير (849- 899) كان يدافع عن مملكته ضد الغزاة الدانمركيين إلا أنه هزم في معركة تلو الأخرى فهرب ولجأ إلى كوخ حطاب وطلب من ربة البيت طعاماً وملاذاً ولأن المرأة لم تعرفه فقد طلبت منه مراقبة نضج كعك كانت تخبزه غير أن انشغاله بالتفكير في جمع شتات جيشه جعله يغفل المهمة فوبخته المرأة وضربته بالعصا !

كان طفلاً طيباً في عهد حركة التنوير. ويكفي أن يقرأ المرء بعض خطبه الحافلة بالأمور البسيطة، الحكم الأخلاقية، وطموحات ذلك العصر البريء غالباً وأنه كان قادراً على الاستقالة من منصب القضاء أو شرائه وليس التنازل عن مبادئه. من أقواله الشهيرة: "لتهلك المستعمرات ولكن ليس مبدءاً واحداً!" حقاً لقد قام بالقتل من أجل مثله التي آمن بها.

قد تبدو تلك المثل، كما تكونت بحلول عام 1793، أقل من مثل بطولية وقد عززها حتماً قدر كبير من الطموح الشخصي والغرور الصرف لدى روبسبير، الذي أراد فرنسا ليس فيها لا غني ولا فقير وحيث يجب ألا يقامر الناس ولا يصبحوا سكارى ولا يرتكبوا الخيانة الزوجية أو يخدعوا أو يسرقوا أو يقتلوا - باختصار حيث لا تكون هنالك عيوب بسيطة أو كبرى - بل فرنسا يحكمها رجال مستقيمون وأذكياء ينتخبون بالاقتراع العام الشعبي، رجال بدون أي جشع أو تشبث بالمناصب ويتخلون عنها بمحض إرادتهم في فترات سنوية ليحل محلهم خلفاؤهم، فرنسا تعيش في سلام مع نفسها ومع العالم - ولكن هل يكفي هذا؟ لا يكاد أحد يشك الآن حتى المؤرخون المعادون لما كان يدافع عنه في استقامة روبسبير الشخصية. لقد اتهم في زمنه وخصوصاً بعد سقوطه مباشرة بارتكاب كل جريمة وانحراف أخلاقي ممكن. ويبدو فعلياً أنه بدون أي من الرذائل الشائعة - معاقرة الخمر، المقامرة، مطاردة النساء. ويدعي المؤرخون حالياً أن لديهم أدلة على أنه احتفظ بعشيقة في باريس فترة قصيرة. إذا كان قد فعل ذلك يفترض المرء أنه لدوافع الصحة المتخيلة أو ربما كانت للمحامي الريفي بضعة أسابيع للتفكير في العيش مثل الباريسيين المعاصرين. غير أن روبسبير في عصر الإرهاب وضع وراءه أفكاراً من هذا القبيل وكان بوصفه غير قابل للفساد رمزاً حياً لجمهورية الفضيلة في حياته العامة والخاصة.

هذا النوع المثالي ليس بسيطاً بتاتاً. يجب بوضوح عدم إدراج كرومويل في هذه الفئة على نحو رئيسي ولو أن هنالك بعض الشيء من "الباحث" المتطهر في كرومويل، يجعل سياسته الملتوية - حتى نفاقه، في الواقع - صعبة الفهم للغاية إذا كنت تصر على رؤية المخلوقات البشرية كلاً ثابتاً منطقياً. لينين

وتروتسكي كلاهما مركبان غريبان من المثالية والواقعية. وهذا الجمع بين المثالية والواقعية لا يعني مجرد استطاعة كليهما بين الفينة والفينة تطبيق طرائق واقعية لتحقيق الأهداف التي تفرضها مثلهما. كان روبسبير أو كرومويل أو غلادستن(*) أو ودرو ولسن(**) يستطيعون فعل ذلك. ويعني ذلك أنهم كذلك قادرون على السعي إلى تحقيق أهداف واقعية مباشرة. وكان لينين طبعاً داعية ومنظماً ماهراً للغاية مع قدر كبير مما يجب أن ندعوه قدرة تنفيذية. غير أنه اعتقد، عام 1917 على الأقل، كما يبدو، أن الثورة على نطاق العالم وشيكة وأنه يمكن تطبيق المساواة الاقتصادية المطلقة فوراً في روسيا. وكانت السياسة الاقتصادية الجديدة عام 1921 مؤشراً واضحاً على أن لينين لن يسعى إلى تحقيق مثله حتى النهاية المرة للهزيمة والاستشهاد.

كان لتروتسكي واحد من أفضل العقول النقدية بين الماركسيين، وكان قادراً أحياناً على ذلك النوع من الشك في أهدافه. وقد منحت الحرب الأهلية في روسيا دليلاً مقنعاً على قدراته كخطيب وموظف إداري مهم تحت الضغط. إلا أن تروتسكي في سنوات المنفى بدأ يطلب المستحيل وهو تعريف واحد ربما قاس للمثالية. ولو أن تروتسكي بقي في السلطة لكان قد تصالح مع البيروقراطية، عدم المساواة، الاشتراكية في دولة واحدة، الانحطاط الثيرميدوري(***)، الحكم الشخصي، وكل الشرور الأخرى التي ربطها باسم ستالين. وعلى الرغم من ذلك يبدو من غير المرجح أن يساعد عناد تروتسكي وإصراره على جلب السماء فوراً إلى الأرض وعدم الاستعداد للتوفيق بين أهدافه

(*) وليم غلادستن (1809- 1898) زعيم حزب الأحرار البريطاني ورئيس الوزراء عدة مرات.

(**) ودرو ولسن (1856- 1924) الرئيس الأميركي الثامن والعشرون ومن زعماء الحزب الديمقراطي.

(***) ثيميدور هو الشهر الحادي عشر في تقويم الثورة الفرنسية والشهر الثاني من فصل الصيف والإشارة هي إلى انقلاب 9 ثيميدور (27 تموز/يوليو 1794) يوم إعدام روبسبير بالمقصلة وانتهاء عهد الإرهاب. وقد أصبح مصطلح ثيرميدور يعني لدى المؤرخين عودة الثورة إلى حالة تشبه مرحلة ما قبل الثورة وانزلاق السلطة من أيدي السلطة الثورية الأصلية.

والضعف البشري، أو إن شئت، الطبيعة البشرية، في تفسير سبب عدم استمراره في روسيا ما بعد الثورة.

واضح طبعاً أن المثالية العاطفية غير رائجة في روسيا عام 1917. كانت الحقائق القاسية أو على الأقل المعادلات القاسية للاشتراكية الماركسية قد حلت محل الآمال الساذجة التي انطلقت منها الثورة الفرنسية لتخلق عالماً أفضل. وتستطيع أن تقتفي في لينين وتروتسكي هذه الرغبة بحيث تبدو واقعية ولن يكون مفيداً تضمين أنهما لم ينجحا من بعض النواحي. ومن الواضح للغاية أن ستالين قد نجح. غير أن ثمة مثالياً نقياً واحداً بين الزعماء الروس الأوائل، زعيماً يقدم لنا شكلاً مختلفاً من النوع نفسه. إنه لوناتشارسكي(*)، مفوض التعليم سنوات طويلة والفنان ورجل الثقافة في الحركة. على الرغم من ماضيه كمحرض ثوري فقد كان شخصاً عاطفياً بلا ريب امتلك القدرة على التحدث على نحو مؤثر عن الحياة والتعليم والفن ونقل إلى قرن بدا فيه غريباً شيء من روسو أو من بول وفيرجيني. إلا أن العالم يجب أن يشعر بالامتنان له لأنه ساعد كثيراً على منع التدمير بالجملة لأعمال فنية تشخص ارتجالاً بأنها ماض رأسمالي ومسيحي.

يستنتج أريك هوفر في كتابه الممتع عن الحركات الجماهيرية المؤمن الحقيقي أن الثورات يعدها "رجال الكلمات - أي المثقفون الذين حولوا الولاء - الذي أنجزه "المتعصبون" - روبسبير مثلاً - وأخيراً روضها واختصرها "رجال عمليون" - كرومويل، بونابرت، ستالين. ويجد هوفر "رجال الكلمات" موهوبين على نحو غير عادي يتولون الدور العادي للمثقف في المجتمع الغربي، الذي يشكو من هذا العالم القاسي غير أنهم أنفسهم غير مناسبين بتاتاً للعمل الشاق في الثورة الفعلية، ويجد أن "رجال العمل" مرة أخرى هم جوهرياً رجال العمل في كل زمان حريصون على تنفيذ مهام الحكومة. ويجد هوفر أن العامل المميز والمهم في القيادة الجماهيرية الثورية هو "المتطرف" الذي يعتقد أنه

(*) أناتولي لوناتشارسكي (1875- 1933) ثائر ماركسي روسي وأول مسؤول سوفياتي عن الثقافة والتعليم وكان نشيطاً كناقد فني وصحفي.

المثقف المبدع المحبط، الرجل الذي لم ينجح في إثارة إعجاب الآخرين بعمقه وبصيرته كمفكر وفنان. ويصنف في هذه الفكرة تماماً مارا العالم المهمل، روبسبير الهاوي في كتابة المقالات ونظم الشعر في آراس (في شمال فرنسا)، لينين المفكر الفلسفي الطموح الذي يتفوق على ماركس، أو على الأقل بليخانوف(*)، موسوليني مدعي الثقافة، هتلر الرجل الذي فشل كرسام، ومعظم الزعماء النازيين. كان تعصبهم يتغذى على شعورهم بالفشل الشخصي في الفن الإبداعي الذي سعوا إلى التفوق فيه. أرادوا في دورهم الثوري تدمير مجتمع لا يعجب بهم. إنهم مثاليون حقاً، مثاليون يحسون بالمرارة ومتلبسون غير إنسانيين وأنانيون خارج أصول الفلسفة، مثقفون منعزلون يتولون على نحو محزن مناصب السلطة.

يجب أن نشير هنا إلى أن الثوريين من كل الأنواع والأمزجة قد اكتسبوا في القرون القليلة الماضية قدراً كبيراً من المهارات الفنية الصرف، على نحو جزئي على الأقل بدراسة الثورات الماضية. أبرزت اليزابيث آيزنشتاين فيليبو بوناروتي(**)، الذي بدأ عمل عمره في الأيام الأخيرة من الثورة الفرنسية أثناء "مؤامرة" بابوف(***) بوصفه الثوري المهني الأول. وهو حتماً اختيار جيد لأنه خلق سيرة من التخطيط والدعوة إلى الثورة ولو أنه لا يكاد يمكن القول إنه كان عاملاً مهماً في إحداث ثورة. ولدى لينين وتروتسكي وحتى قبلهما - مع بعض رجال 1848 و1870 - ساعدت المهارات الفنية على تحقيق النتائج. إلا أنه ما لم يكن الثوري المحترف رجل كلمات وأوضاع فإنه لا يكاد يكون نوعاً نفسياً واحداً.

(*) جورجي بليخانوف (1856- 1918) ثوري روسي ومنظر ماركسي ومؤسس الحركة الاجتماعية - الديمقراطية.

(**) فيليبو بوناروتي (1761- 1837) اشتراكي ومحرض ثوري وصحفي وكاتب وماسوني إيطالي نشط في فرنسا بخاصة.

(***) كانت مؤامرة بابوف اليسارية القصيرة عام 1796 محاولة فاشلة للتطويح بحكومة الإدارة التي حكمت فرنسا.

أخيراً هنالك رجل واحد يستطيع أن يسحر الجماهير هو الخطيب الثوري. يمكن أن يعد مثالياً لأنه على الرغم من أن جزءاً من دوره هو تحريض الجمهور على العنف فإنه كذلك المهدئ، الواعظ، صانع الطقوس، الرجل الذي يجمع الجمهور معاً. وفي دوره هذا تكاد كلماته لا تحتاج إلى أي معنى إطلاقاً، غير أنه يمكن تحليلها إلى طموحات وعبارات سارة. إن الكثير من روبسبير هو في ذهنه وكذلك باتريك هنري(*) وفيرجينو(**) وتسيرتيلي(***). إن هذا النوع يوجد طبعاً في كل المجتمعات العادية وهو محترم عادة.

ويبدو أن زينوفيف(****) قد تولى دوراً من هذا القبيل. وأدرك لينين مدى فائدة زينوفيف كخطيب وحتى كنوع من زعيم لبتروغراد إلا أنه كان يحتقر تماماً إحساسه وذكاءه كما يبدو.

(*) باتريك هنري (1736- 1799) محام أميركي انتخب عضواً في المؤتمر القاري وقاد مليشيا فيرجينيا وانتخب حاكم فيرجينيا.

(**) بيير فيرجينو (1753- 1793) من زعماء الثورة الفرنسية وأشهر خطبائها.

(***) اراكلي تسيرتيلي (1881- 1959) سياسي روسي من زعماء حزب العمل الاجتماعي- الديمقراطي والمناشفة الجورجيين.

(****) غريغوري زينوفيف (1883- 1936) ثائر شيوعي وسياسي سوفياتي.

الخلاصة

باختصار يجب أن يكون واضحاً الآن أن صنع ثورة ما يتطلب أنواعاً كثيرة من الرجال والنساء بقدر ما يتطلب صنع عالم. والأرجح أنه، خصوصاً في فترات الأزمات، عينت الثورات الأربع في المراكز المهمة وحتى المسؤولية رجالاً من النوع الذين لا يحتلون في المجتمعات المستقرة مراكز مشابهة. ويبدو أن الثورات الكبرى تمنح السلطة أثناء فترات الأزمات إلى مثاليين متطرفين لا يحصلون عليها عادة. كما يبدو أنها تمنح المجال إلى مواهب خاصة، من مثل مواهب مارا، وإلى الصحافة الصفراء والبحث عن الفضائح من النوع المثير للغاية. وهي تخلق بالتأكيد عدداً من الأماكن الفارغة لمنح الفرصة ليملأها شبان أذكياء ربما هم مجردون من المبادئ الخلقية، وربما يضمنون نيل بعض اهتمام الجمهور فترة ما على الأقل بالمتمرد والشاكي المزمن علاوة على المجموعة المجنونة من باعة العلاجات الاجتماعية والسياسية.

غير أنهم لا يعيدون خلق البشرية كما أنهم لا يستفيدون حتى من مجموعة جديدة تماماً وغير مقهورة حتى الآن من الرجال والنساء. وفي الثورات الأربع كافة، حتى في الثورة الفرنسية، كان الأعضاء العاديون رجالاً ونساء، الأرجح أعلى منزلة من رفاقهم الأقل نشاطاً في الطاقة والاستعداد للتجريب، وفي الثورات الإنكليزية والأميركية والفرنسية، حتى في فترات أزماتها ثمة أشخاص لهم ثروات طائلة. لم تكن هذه الثروات عموماً مبتلية بأي شيء يمكن أن يستدعى الطبيب النفسي بسببه. لم يكونوا حتماً دهماء، أوغاداً، أو حثالة العالم. لم يكن زعماؤهم بتاتاً مجموعة دنيا رفعوا فجأة إلى مراكز السلطة التي لم

يكونوا جديرين بشغلها. ولا شك أنه في الاضطراب المصاحب للثورة يصعد الكثير من الأوغاد إلى القمة - ولو أنهم يمكن أن يصعدوا إلى القمة بدون الاستفادة من الثورة، كما قد تثبت نظرة سريعة على بعض مراحل إدارتي غرانت(*) أو هاردينغ(**) على نحو واف. غير أن مستوى القدرة، بدون معان أخلاقية بل في المعنى الفني الصرف، القدرة العاليمة حقاً على التعامل مع الرجال كما تشير أسماء هامبدن، بيم، كروموبل، واشنطن، جون آدمز، هاميلتن(***)، جيفرسن(****)، ميرابو، تاليران(*****)، كارنو(******)، كامبون(*******)، دانتون(********)، لينين، تروتسكي، وستالين.

كل هذا لا يصل بتاتاً إلى تأكيد المفارقة أنه لا توجد فروق حقيقية بين الثورات والأزمنة الحديثة. بل على العكس من ذلك، خصوصاً في فترات الأزمات، لا تشبه الثورات شيئاً على الأرض. غير أنه لا يمكن تفسير الفروق بين المجتمعات التي تشهد ثورة والمجتمعات المستقرة بالقول إن طاقماً جديداً تماماً يعمل أثناء الثورة. وعندما تقول إنك تكره ثورة معينة وكل أعمالها وإن الأوغاد والمتسكعين قد فرضوها على الناس الطيبين، أو، إذا صادف أنك

(*) يوليسيس غرانت (1822- 1885) الرئيس الأميركي الثامن عشر الذي دافع عن حقوق السود المدنية.

(**) وارن هاردينغ (1865- 1923) الرئيس الأميركي التاسع والعشرون.

(***) الكساندر هاميلتن (1755- 1804) سياسي أميركي شارك في حرب الاستقلال.

(****) توماس جيفرسن (1743- 1826) الرئيس الأميركي الثالث عشر والواضع الرئيسي لوثيقة الاستقلال.

(*****) تاليران (1754- 1838) سياسي وأسقف فرنسي تولى وزارة الخارجية فترة طويلة وتعاطف مع الثورة فعاقبه البابا.

(******) لازار كارنو (1753 - 1832) عالم رياضيات وسياسي فرنسي.

(*******) جول كامبون (1845- 1935) دبلوماسي فرنسي أصبح الحاكم العام للجزائر عام 1891 وسفيراً في واشنطن ومدريد وبرلين.

(********) جورج جاك دانتون (1759- 1794) من زعماء الثورة الفرنسية كان خطيباً مفوهاً وسياسياً انتهازياً.

تحب ثورة معينة وتطريها، أن الأبطال والثوار قد طردوا العصابة القديمة الفاسدة. إن الأمر كله ليس بهذه البساطة. ولما كانت الأدلة عموماً تظهر أن الثوريين عينة من البشرية، يجب البحث عن تفسير للحقيقة التي لا يشك فيها أنه أثناء مراحل معينة من الثورة يتصرف الثوار على نحو لا نتوقع أن يسلكه هؤلاء وذلك في التغييرات التي تفرضها عليهم الظروف التي يعيشون في ظلها، أي بيئتهم الثورية.

الفصل الخامس

حكم المعتدلين

1. مشكلة المعتدلين

غادر لافاييت مع بعض ضباطه في صيف عام 1792 الجيش الفرنسي وانتقلوا إلى الخطوط النمساوية.وسرعان ما أودعه النمساويون السجن فقد كان في نظرهم نوعاً خطراً من المحرضين على الثورة. إلا أن حظ لافاييت كان أقوى كثيراً من الكثير من زملائه أبطال 1789، الذين اختاروا البقاء في فرنسا وأعدموا بالمقصلة بوصفهم رجعيين وأعداء خطرين للثورة. وحرك فيدور ليند، الاشتراكي المعتدل الذي أرسل فيما بعد إلى الجبهة في أبريل/ نيسان 1917 الفوج الفنلندي ليقوم بمظاهرة متمردة ضد ميليوكوف المؤيد للحلفاء والأكثر اعتدالاً، وأرسل لاحقاً إلى الجبهة كمفوض حكومي بقيادة كيرنسكي وأعدمه جنود متمردون من غير محاكمة لأنهم رفضوا إطاعة أوامره. وفي عام 1647 استبعد دينزيل هولس، الذي سبقت الإشارة إليه سريعاً عندما ساعد على إرغام رئيس مجلس العموم على البقاء في كرسيه، مع عشرة أعضاء مشيخيين آخرين من البرلمان لأنهم "حاولوا تخريب حقوق المواطنين وحريتهم". عاد هولدس إلى مقعده فترة وجيزة عام 1648 إلا أنه سرعان ما اضطر إلى الهرب إلى فرنسا

لينجو بحياته. وثمة قول معبر للمعتدل الفرنسي فيرجينيو" "الثورة، مثل ساترن (إله الزراعة عند الرومان)، تلتهم أبناءها".

كان شهر العسل في تلك الثورات قصيراً. سرعان ما بدأت بعد سقوط النظام القديم علامات واضحة على أن المنتصرين لم يكونوا مجمعين على ما يفعلونه لإعادة تشكيل البلاد كما دلت خطب واحتفالات الانتصار. كان الذين تولوا جهاز الحكم مباشرة في المجتمعات الأربعة كافة رجالاً من نوع من يدعون عادة المعتدلين ويمثلون الرجال الأكثر ثراء والأشهر ومن يُولّون مراتب أعلى في المعارضة القديمة للحكومة وكان الشيء الوحيد المتوقع هو توليهم زمام الأمور من تلك الحكومة. وفي الواقع، كما شهدنا، كان توليهم المسؤولية عملاً تلقائياً تقريباً. وكان الشعور قوياً جداً أن يتولى المعتدلون السلطة بحيث ساد الشعور حتى في روسيا في شباط/فبراير 1917. ولم يشكل الاشتراكيون بل "الأحرار" برئاسة الأمير لفوف الحكومة المؤقتة.

ما أن تولى المعتدلون الحكم حتى تبين أنهم أقل تجانساً وانضباطاً مما بدا عندما كانوا في صفوف المعارضة. واجهوا المهمة العسيرة بإصلاح المؤسسات القائمة أو وضع دستور جديد والاهتمام في الوقت نفسه بمتطلبات الحكم العادية. وسرعان ما واجهوا أعداء مسلحين ووجدوا أنفسهم مشاركين في حرب أجنبية أو أهلية أو كليهما. وجدوا ضدهم مجموعة قوية ومتشددة على نحو متزايد من الراديكاليين والمتطرفين الذين أصروا على أن المعتدلين كانوا يحاولون وقف الثورة وأنهم قد خانوها وأنهم سيئون مثل الحكام في العهد القديم - بل أسوأ كثيراً لأنهم خونة وكذلك حمقى وأوغاد. وبعد فترة، قصيرة في روسيا وبعد فترة أطول في فرنسا وإنكلترا حدث عرض للقوة بين المعتدلين والمتطرفين، عرض للقوة يشبه في نواح كثيرة ما حدث بين الحكومة القديمة وبين الثوريين وهزم المعتدلون. هربوا إلى المنفى وأودعوا السجن في نهاية المطاف ليواجهوا المشنقة أو المقصلة أو فرقة الإعدام أو إذا كانوا محظوظين تواروا عن الأنظار ولفهم النسيان. وتولى المتطرفون بدورهم السلطة.

لم تكن العملية نفسها تماماً في الثورة الأمريكية حيث يمكن القول إن المتطرفين من مثل المستقلين واليعاقبة والبلاشفة، لم يحصلوا على الحكم غير المشتت. غير أنه، كما سنرى، دار صراع في أميركا في وقت سابق في العملية الثورية بين المعتدلين وبين المتطرفين وانتهى بانتصار المتطرفين. وكانت ثمرة ذلك الانتصار إعلان الاستقلال.

يمكن القول إن في كل الثورات الأربع ميلاً إلى الانتقال من اليمين إلى الوسط ثم إلى اليسار ومن المحافظين في العهد القديم إلى المعتدلين ثم إلى الراديكاليين أو المتطرفين. وإذ تتحرك السلطة وفقاً لهذا النحو تتركز أكثر فأكثر وتصبح قاعدتها أضيق فأضيق في البلاد وبين الناس لأنه في كل أزمة مهمة يجب أن تتخلى المجموعة المهزومة عن العمل السياسي. بعبارة أخرى: بعد كل أزمة يميل المنتصرون إلى الانقسام إلى جناح محافظ أكثر يتولى السلطة وجناح أكثر تطرفاً في المعارضة. وتشهد كل أزمة، في مرحلة معينة، انتصار المعارضة الراديكالية. وتتباين تفاصيل هذه العملية طبعاً من ثورة إلى ثورة أخرى. مراحلها ليست متماثلة في طولها أو في سلسلتها الزمنية وفي أميركا لم تصل السلطة إلى اليسار بقدر ما حدث في البلدان الأخرى.

أخيراً، يجب الإصرار على أن لكلمة "المعتدلين" كما هي مستخدمة هنا للمجموعات في هذه الثورات الأربع بالذات معاني غير موجودة عندما تستخدم الكلمة لوصف المجتمعات المستقرة سياسياً. يتصرف المعتدلون الثوريون من حيث الوسائل والأهداف غالباً على نحو غير معتدل. ويمكن الدفاع عن الموقف بأن المشيخيين وليس المستقلين، الجيرونديين وليس الجبليين، وربما المناشفة وليس البلاشفة هم من كانوا متطرفين. وأصبحت المجموعات الثلاث من كل من الفئات المعارضة في النهاية مدافعة عن النظام والسلطة. غير أنه بسبب تغيير المواقع في السياسة الثورية العنيفة أرغمت المجموعات الثلاث الأُوَل من كل منها من خلال المناورة على تبني موقف تعرضت فيه إلى الهجوم من اليمين واليسار. وربما مصطلح "التوفيقيون"، الذي ألصقه البلاشفة المنتصرون

بالمناشفة والثوريين الاجتماعيين والنارودينيين(*) والآخرين مصطلح أفضل حتى من مصطلح "المعتدلون" لوصف الواقع الذي نحاول تثبيته بالكلمات في هذا الفصل.

على كل حال هذا الصراع بين المعتدلين وبين المتطرفين مرحلة في الثورات التي نتولى تحليلها محددة مثل تلك المراحل التي تولينا دراستها في الفصول السابقة وهي تزودنا من خلال وجودها بتناسق مفيد ولو أنه بسيط نوعاً ما. وقبل محاولة إدخال تعديلات في هذه المتابعة وقبل أن نحاول تمييز حالات التناسق في سلوك المعتدلين والمتطرفين يجب أن نستعرض بإيجاز مسار الأحداث أثناء حكم المعتدلين.

2. الأحداث أثناء حكم المعتدلين

مع نشوب الحرب الأهلية في صيف عام 1642 لجأ الملكيون والبرلمانيون إلى السلاح بعضهم ضد بعض. وأصبحت قضية الملكيين، لدى نشوب معركة مارستن عام 1644 وحتماً في نهاية معركة نيسبي عام 1645، ميئوساً منها في المعنى العسكري. غير أنه كان واضحاً من النزاع الواضح الأول مع تشارلز أن البرلمانيين قد ربحوا ثورتهم. تولى الملكيون على نحو أكثر فعالية الدور الذي تولاه الموالون في أميركا وتولاه الملكيون ورجال الدين في المحافظات والمهاجرون خارج فرنسا وتولته في روسيا الجيوش البيضاء التي عارضت البلاشفة حتى عام 1921. ولسنا مهتمين هنا بالملكيين بقدر اهتمامنا بالبرلمانيين. وفي صفوف المجموعة الأخيرة هنالك من عام 1642 انقسام واضح على نحو متزايد بين المجموعات التي قد ندعوها معتدلة ومتطرفة عموماً.

ليس هذا انقساماً بسيطاً بين حزبين. في اليمين المتطرف للبرلمانيين هنالك

(*) النارودينيون Narodniks هم الثوريون الروس في عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر والاسم مشتق من العبارة الروسية التي تعني "اللجوء إلى الشعب".

بعض الأسقفيين المعتدلين المتأثرين قليلاً بأفكار المتطهرين وكذلك الملكيون الدستوريون عادة. كان الكثير من أعضاء هذه المجموعة لا مبالين عموماً بالمسائل الدينية ويشعرون أن الأفضل تسوية مسائل الكنيسة بأنفسهم على نحو لائق إذا أمكن تكييف الصعوبات السياسية. وكان هنالك في الواقع فرق بسيط بين هؤلاء وبين الملكيين المعتدلين، الذين اختاروا مترددين الوقوف بجانب الملك. يلي ذلك الحزب المعتدل الكبير، الأسقفي في الدين، المتطهر في الأخلاق إلا أنه ملكي في المعنى الدستوري. أما الجناح اليساري من الأسقفيين، الذي كان خائب الأمل مبكراً نحو فكرة الملكية بسبب بغضه تشارلز، فقد اندمج بسهولة مع المجموعة الرئيسية من المتطرفين. يدعى هؤلاء في الثورة الإنكليزية المستقلين، وهم كالفنيون متطرفون أصروا على أن تكون كل طائفة منفصلة. كانت أفكارهم عن حكومة الكنيسة هي الأفكار المعروفة في هذه البلاد الأبراشينية(*) وكانت معهم لأغراض سياسية إلى حد بعيد مجموعات أخرى شكلت فيما بعد المنشقين الإنكليز - لاسيما المعمدانيون. ضم الجيش الجديد، الذي جعل من هؤلاء المتطرفين الجدد قوة فعالة في الثورة، أفراداً يعتنقون كل نوع تقريباً من العقيدة الدينية التبشيرية وأنواعاً كثيرة من الأفكار الاقتصادية والاجتماعية. إلا أن المجموعة عملت بوصفها مجموعة فعلاً وكانت مستقلة في الجوهر. وإلى اليسار كانت هنالك مجموعات أخرى: المساواتيون، الحفارون، ورجال الملكية الخامسة، الذين سنتناولهم في فصل لاحق.

إن حقيقة كون الأسقفيين والمشيخيين والبروتستانت المستقلين في الثورة الإنكليزية محافظين ومعتدلين ومتطرفين أمر يشوش القارئ الحديث. بالنسبة للمثالي من الطراز القديم كان هؤلاء الإنكليز في القرن السابع عشر يتنازعون حول مسائل دينية ومثل ويجد من السخف مساواتهم مع الفرنسيين المكافحين

(*) الأبراشينية Congregationalism: نوع من التنظيم الكنسي تتمتع فيه كل أبرشية باستقلال ذاتي في الشؤون الكنسية.

من أجل الحرية والمساواة والأخوة الدنيوية وأن من المثير للاشمئزاز مقارنتهم بالروس المناضلين من أجل مصالح اقتصادية صرف. ومن الناحية الأخرى، الأرجح أن المتحول الحديث إلى التفسير الاقتصادي للتاريخ يعتبر هذه الفروق الدينية مجرد "عقائد" أو ذرائع من أجل نزاع كان اقتصادياً بسيطاً حقاً. كان المشيخيون في رأيه طبقة من الأرستقراطيين الصغار أو رجال الأعمال البرجوازيين والمستقلون تجاراً برجوازيين صغاراً وحرفيين ومزارعين وموظفين صغاراً بعد أن تخلصوا من الطبقات الإقطاعية العليا. واضح أن كلاً من المثاليين والماديين هنا على خطأ. وتمتزج السياسة والاقتصاد والحكومة الكنسية واللاهوت على نحو لا ينفصم في عقول وقلوب الإنكليز في القرن السابع عشر. إن صراعاتهم هي بين بشر وليس بين تجريدات الفيلسوف أو الاقتصادي أو عالم الاجتماع. هنا يجب مراقبة الوسائل التي أعدت بها هذه الصراعات. ومن المفيد من وجهات نظر كثيرة اعتبار أن هذه الصراعات تبين سلسلة السيطرة أولاً من المحافظين ثم المعتدلين ثم المتطرفين. ومن الطبيعي أن هؤلاء المحافظين والمعتدلين والمتطرفين لم يكونوا مجموعات متماثلة بل متشابهة في ثوراتها. وبالمقارنة مع رجال 1789 أو 1917 فإنهم يطالعون كتباً مختلفة ويتنازعون حول أفكار مختلفة كما أنهم يرتدون ملابس مختلفة. غير أن مسار الثورة لا يبين تماثلاً لافتاً مع الثورات الأخرى في العلاقة بين المنظمة السياسية والبرلمانات البشرية. وأزاح رجال أكثر تصميماً إن لم يكونوا أكثر تطرفاً على نحو مجرد من المبادئ الأخلاقية "التوفيقيين" المشيخيين، كما حدث للفويلانيين والجيرونديين في فرنسا والكاديتس والمجموعات الاشتراكية التوفيقية في روسيا. وفي أميركا تلفت الاهتمام سيرة جون ديكينسن، المعتدل الذي رفض توقيع إعلان الاستقلال. وعلى الرغم من أنه لم يتعرض قط للأذى أو حتى للسجن فقد انتقد بمرارة ولم يحصل على سلطة سياسية مرة أخرى.

في ظل قيادة مجمع وستمنستر، المجمع الكنسي المشيخي الذي بدأ اجتماعات في صيف عام 1643، وضع ذلك الجزء من إنكلترا الخاضع لسيطرة

البرلمان تحت ظل العقد الاسكتلندي الشهير(*). مُزّقت الصلبان والصور والتماثيل التي تصور السيد المسيح مصلوباً وأزيل الزجاج الملون من الكنائس ومُددّت فترة المواعظ وجرى تبسيط الطقوس الدينية. وأصبح البرلمان هو القانون الأعلى في البلاد. غير أنه كانت هنالك علامات على أن حكم المشيخيين لم يكن بدون معارضة. ولم تكن مارستن مور(**) انتصاراً للمشيخيين بل ربحها كرومويل وأفراد قواته "آيرونسايدس"(***)، ولم يكن هؤلاء مشيخيين جيدين بل مستقلين وكان بعضهم من الطائفة البروتستانتية المتطرفة القائلة بتجديد المعمودية واللاناموسيين(****) وما أشبه. ويقال إن أحداً اشتكى لدى كرومويل لأن أحد ضباطه كان من المؤمنين بتجديد المعمودية فأجابه: "لو سلمنا بذلك فهل يجعله هذا غير قادر على خدمة الشعب؟ احذر أن تكون صارماً ...ضد من يمكنك الاعتراض عليهم قليلاً إلا أنهم لا يتفقون معك في كل رأي يتعلق بأمور الدين".

عندما شكل الجيش النموذجي الجديد من نواة قوة كرومويل وانتصر في معركة نيسبي وجد الجيش والبرلمان، مستقلين ومشيخيين، متطرفين ومعتدلين، أنفسهم يختلفون في مسائل مختلفة لاسيما في التسامح الديني وما يجب فعله تجاه الملك تشارلز الأول. أراد المشيخيون كنيسة دولة راسخة تقام على أساس أفكارهم في حكومة الكنيسة واللاهوت مع حد أدنى من التسامح نحو الكاثوليك والأساقفة في اليمين والطوائف في اليسار. وأرادوا ملكاً حتماً، حتى لو كان

(*) كان الملك تشارلز الأول ورئيس الأساقفة لاود قد حاولا التقريب بين كنيستي إنكلترا واسكتلندا عام 1637 وفي عام 1643 أثناء الحرب الأهلية الإنكليزية تحقق المزيد من التقارب وعقد تحالف عسكري بين البرلمان الإنكليزي والأقاليم الاسكتلندية ضد الملكية مما أسهم في دحر قضية الملك.

(**) جربت معركة مارستن مور عام 1644 أثناء الحرب الأهلية الإنكليزية الأولى وهزمت فيها القوات الاسكتلندية وقوات البرلمان القوات الملكية.

(***) اسم جندي في فرقة فرسان البرلمان التي شكلها كرومويل أثناء الحرب.

(****) اللاناموسيون هم القائلون بأن الخلاص غير مرهون بخضوع المرء للقانون الأخلاقي.

تشارلز ستيوارت. وأراد المستقلون ما دعوه التسامح الديني. لم يكونوا يقصدون بالتأكيد ما كان يعنيه إنكليزي أو أميركي في القرن التاسع عشر بالتسامح الديني، إلا أنهم عندما تسلموا السلطة كانوا بعيدين جداً عن ممارسة التسامح الديني، حتى في المعنى الذي دعوا إليه. إلا أنهم على الأقل أيدوا في المعارضة أن العقيدة الدينية مسألة شخصية وأن الدولة يجب ألا تسعى إلى فرض ممارسات دينية وتنظيم على نحو متماثل على مواطنيها. أما ما يتعلق بالملك فقد كان معظمهم بحلول عام 1645 واثقين أن الملك تشارلز ستيوارت لن يكون مناسباً. والأرجح أن كرومويل لم يكن جمهورياً مغالياً إلا أن الكثير من رجاله كانوا كذلك حتماً.

ليس هنالك حدث واحد يحدد بدقة نقل السلطة من المعتدلين إلى المتطرفين في إنكلترا. مضت العملية بعيداً عندما قبض كورنيت جويس من الجيش في يونيو/حزيران 1646 على الملك في هولمبي هاوس وهو على وشك الرضوخ للبرلمان والموافقة على أن يحكم بوصفه ملكاً مشيخياً ثلاثة أعوام. أي أنه بعد شهرين وبأمر من الجيش وافق البرلمان على إبعاد أحد عشر من أعضائه وكانوا قادة معروفين للمجموعة المشيخية. انتهز تشارلز فرصة النزاع ليحاول تعزيز مصالحه. وانتهت دسائسه المعقدة بحرب قصيرة بين المشيخيين الاسكتلنديين وأنصار كرومويل تطلع فيها المعتدلون بتفاؤل فترة قصيرة. دحر كرومويل الاسكتلنديين في معركة بريست بانس في آب/أغسطس 1648 وأصبح جيشه يسيطر على بريطانيا بلا منازع. وبعد ذلك كانت النهاية النظامية للمعتدلين في عملية برايد(*) غير مهمة. كان العقيد برايد وبضعة جنود يتخذون مواقعهم عند باب مجلس العموم لمنع دخول الأعضاء غير المناسبين لدى قدومهم. وهكذا استبعد ستة وتسعون مشيخياً وبقيت مجموعة من خمسين أو ستين عضواً

(*) أخرج جنود بقيادة العقيد توماس برايد في كانون الثاني/يناير 1648 قادة المشيخيين والمستقلين. وتعتبر الحركة الانقلاب الأول والوحيد في تاريخ إنكلترا.

صوتاً نظامياً يمكن للمتطرفين الاعتماد عليهم. وأصبح البرلمان الطويل ما يدعى "البرلمان المتبقي"(*).

في أميركا لم يتخذ الصراع خطوطاً واضحة كهذه. ويمكننا القول إن المحافظين كانوا أولئك الموالين للملك الذين لم يشكوا حقاً من الحكومة الإمبراطورية - والذين، ومنهم جوناثان بوشر مثلاً، دعوا ضد المحرضين - وكان المعتدلون من مثل أولئك التجار وأصحاب الأملاك المزدهرين الذين أطلقوا الحركة كلها بالتحريض ضد قانون الطابع، بينما كان الراديكاليون مجموعة غير متحدة أنجزت إعلان الاستقلال. وهكذا كان هنالك نوع من الصراع الثلاثي المتواصل بين هذه المجموعات الثلاث في السنوات العشر التي سبقت نشوب الأعمال العدائية ضد الجيش البريطاني. وأظهر الراديكاليون في هذا الصراع مهارة فنية استثنائية في السياسة العملية للثورة. وكما كتب جون آدمز لاحقاً عن المنظمات التي، بدءاً من لجان المراسلة المحلية ولجان السلامة، عملت حتى عقد المؤتمرات القارية: "يا لها من ماكنة! قلدتها فرنسا وأنتجت ثورة...وكانت كل أوربا ميالة إلى تقليدها للغرض الثوري نفسه".

أحرز الراديكاليون حقاً انتصارهم الحاسم بتنظيم صفوفهم كما فعلوا في المؤتمر القاري الأول عام 1774. ويلخص الأستاذ أ. م. شليسنغر الابن عمل هذا الكونغرس على نحو مثير للإعجاب.

> حقق الراديكاليون عدة أهداف مهمة. أعادوا على نطاق وطني إنتاج نوع من التنظيم ونموذج للتكتيك مكن في أرجاء كثيرة من أميركا البريطانية أقلية مصممة من السيطرة على زمام الأمور... لقد انتزعوا من طبقة التجار الأسلحة التي كان هؤلاء قد صاغوها لتعزيز مصالحهم الأنانية الخاصة في السنوات السابقة وقلبت الأسلحة ضدهم في محاولة لضمان الأهداف التي لا يسعى إليها سوى الراديكاليين.

(**) أطلق هذا الاسم Rump Parliament بعد حركة تطهير البرلمان الطويل من معارضي نيات قادة الجيش الجديد محاكمة الملك بتهمة الخيانة. وتعني كلمة rump كفل (ردف) الحيوان وأصبحت العبارة تطلق على أي برلمان متبق من البرلمان المشروع الفعلي.

وحسم الاستيلاء على الباستيل في 14 تموز/يوليو 1789 في فرنسا اندحار المجموعة الأكثر تطرفاً، الملكيين الحقيقيين. لم يبق الثوريون المنتصرون منسجمين طويلاً، وبدأت عملية تحول السلطة إلى اليسار بعد بضعة أشهر. وفي تشرين الأول/أكتوبر من السنة نفسها أعيد الملك والملكة على نحو عنيف إلى باريس من فرساي فيما تعرف بأيام أكتوبر. أرغمت تلك الأحداث قادة المحافظين المعتدلين على اللجوء إلى المنفى، من مثل مونيه الذي كان شديد الإعجاب بالدستور الإنكليزي ورغب أن يكون لفرنسا برلمان من مجلسين، مجلس لوردات ومجلس عموم، وملك حقيقي. وطوال عدة سنوات كانت مجموعة من المعتدلين حول رجال من مثل ميرابو ولافاييت والأخوين لاميت (دوبورت وبيلي) تواجه معارضة من مجموعة من الراديكاليين حول رجال من مثل بيتيون، روبسبير، دانتون، بريسو سرعان ما أصبحوا زعماء المجموعتين الجمهوريتين المتنافستين الجيرونديين والجبليين، إلا أنهم اتحدوا ضد المعتدلين. ونجح المعتدلون في وضع الدستور وإطلاق النظام الجديد. غير أن الحرب نشبت بين فرنسا وبين النمسا وبروسيا في وسط أوروبا، وتعرضت فرنسا للغزو وأصبحت باريس في خطر ولم تنجح أحكام معينة في الدستور، لاسيما المتعلقة بالدين والملكية، وحامت شكوك الكثيرين من الفرنسيين حول ارتكاب الملك لويس نفسه الخيانة العظمى وفي الاضطراب السياسي العام أطاح الراديكاليون النشيطون والمنظمون جيداً النظام الملكي في الهجوم الشهير على قصر التويلري في باريس في 10 آب/أغسطس 1792.

استبعد الملكيون المخلصون والمصلحون المعتدلون والليبراليون من مثل لافاييت من السلطة وأصبحت فرنسا جمهورية. غير أن اندحار المعتدلين النهائي والحاسم في فرنسا حدث بالأحرى في 2 حزيران/يونيو 1793. وفي مسائل كهذه، كما في تصنيف الأحداث التاريخية إلى فترات، ربما هنالك اختلافات في التفسير. ليس المحافظون والمعتدلون والراديكاليون والمتطرفون في المجتمعات الأربع مجموعات واضحة ومحددة على نحو مطلق، وينطبق الشيء

ذاته على انتقال السلطة من حدث أوحد غالباً إلى آخر يتفق عليه الجميع على أنه كذلك. وقد تشعر أنه لم يصوّت معتدل مؤيداً إنهاء النظام الملكي في فرنسا. ومع ذلك، يبدو أن أنصار الجناح اليميني من الجمهوريين، المعروف في التاريخ بالجيرونديين، ولمعاصريه باسم البريسوتيين(*)، كانوا معتدلين حقاً فرضت عليهم الظروف تبني أعمال كانت في رأيهم راديكالية ومتطرفة على نحو كريه. لم يرغبوا خصوصاً في موت الملك. وكانوا برجوازيين ميسوري الحال ومحامين ومثقفين، وأصبحوا بعد محاكمة الملك في كانون الثاني/يناير 1793 واثقين جداً أن الثورة قد ذهبت بعيداً على نحو كاف وأنه يجب وقفها. ومهما كان ماضيهم وراديكاليتهم الفلسفية فقد أصبحوا معتدلين. وبحلول الأشهر الأولى من عام 1793 فقدوا السيطرة على نادي اليعاقبة في باريس ومعه كل الأندية الثورية الأخرى وكل شبكة المنظمات التي ساعدت الراديكاليين على تحقيق أهدافهم في الأيام الأولى من الثورة. لم يتمكنوا من الحصول على تأييد النواب المترددين والمحايدين عموماً في المؤتمر الذي أطلق عليهم اسم نواب السهل. كان أعداؤهم أفضل تنظيماً وأكثر عدوانية وربما أكثر وضوحاً. كانوا حتماً أكثر نجاحاً.

كما هو الحال مع المشيخيين في إنكلترا نشأت المطالبة باستبعاد هؤلاء الزعماء المعتدلين من المؤتمر الوطني واعتقالهم. وفي اختبار القوة في المؤتمر الوطني في 2 حزيران/يونيو 1793 حرض المتطرفون على تطويق مكان اجتماع المؤتمر برجال ميليشيا باريسيين متعاطفين ووقف خلفهم جمهور كبير ومعاد. حاول أعضاء المؤتمر الوطني التمسك بكرامتهم التمثيلية ورفض السماح باعتقال الأعضاء الاثنين والعشرين الذين طالب بهم الجبليون الراديكاليون. وخرجوا بقيادة رئيسهم بوقار لضمان احترام مركزهم كتجسيد لإرادة الشعب. ودار النواب حول الحدائق ووجدوا صفاً من الحراب الصامدة عند كل بوابة و"جمهوراً" له

(*) البريسوتيون نسبة إلى جاك (أو جان) بيير بريسوت (1754- 1793) عضو قيادي في حركة الجيرونديين أثناء الثورة الفرنسية. اتخذ له اسم وارفيل.

إرادته الخاصة به. عادوا إلى داخل بناية المجلس وصوتوا مؤيدين اعتقال الجيرونديين الاثنين والعشرين. وأصبح نواب الجبل مسيطرين بلا منازع.

سارت الأحداث على نحو أسرع في روسيا إلا أن تسلسلها ماثل الأحداث في إنكلترا وفرنسا. تشكلت الحكومة المؤقتة الأولى، برئاسة الأمير لفوف اسمياً وميليوكوف فعلياً، من أعضاء الحزب الديمقراطي الدستوري غالباً، الجناح الأيسر من مجموعات الطبقة الوسطى في مجلس الدوما القديم، لا أكثر من "التقدميين" و"الليبراليين" أو "الديمقراطيين" في المصطلحات السياسية الغربية. وكان هنالك عدة ممثلين لمجموعات ذات طابع محافظ أكثر واشتراكي واحد هو كيرنسكي. وبعد أقل من شهرين انهارت هذه الحكومة بسبب مسألة مواصلة حرب "استعمارية" في صف الحلفاء الذين أصبحت الولايات المتحدة مرتبطة بهم. وأرغم ميليوكوف على الاستقالة بسبب الامتثال المفرط لرغبات الحلفاء وقبل عدد من المناشفة والبلاشفة مناصب في الحكومة الجديدة. تولى كيرنسكي منصب رئيس الحكومة بعد حدوث أزمة وفي أيلول/سبتمبر انسحب وزراء الحزب الديمقراطي الدستوري (الكاديتس) أخيراً وتركوا كيرنسكي على رأس حكومة اشتراكية معتدلة متداعية.

قبل الاشتراكيون التعاون مع حكومات برجوازية في مواصلة الحرب. إن هؤلاء الثوريين-الاجتماعيين، الترودوفيك الناردوفيك والمنشفيك، يجب عدهم معتدلين في الحال الروسية الخاصة. لم يأملوا تطبيق دكتاتورية البرولتاريا بل أرادوا كسب الحرب وكانوا مستعدين لاستثمار الوسائل البرلمانية لضمان إصلاحات اجتماعية. كانوا زمناً طويلاً لا يثقون بأعضاء الحزب الديمقراطي الدستوري إلا أنهم قبلوا تحت ضغط الأحداث بالتعاون معهم. وعانى أعضاء الحزب الديمقراطي أنفسهم من مصير الأسقفيين المتطهرين والفولانيين. لقد دفعهم المتعاونون معهم إلى اليسار.

رفض البلاشفة الاشتراك في أي من هذه الحكومات. وبدلاً من ذلك أصروا على وجوب أن تتبع الثورة البروليتارية، التي كان قد دعا إليها ماركس وتنبأ بوقوعها عاجلاً أم آجلاً، ثورة شباط/فبراير البرجوازية. وقرر لينين، الذي

عاد من منفاه في سويسرا في نيسان/أبريل ليتمتع ببضعة أشهر من الحرية البرجوازية، أنه يمكن تحقيق الثورة البروليتارية في روسيا. ولم يكن حزبه مجمعاً على ذلك إلا أن زعامته أبقت على المجموعة الصغيرة سوية واستغل لينين أخطاء التوفيقيين وتراث الاندحار وسوء التنظيم. وفي تموز/يوليو قاد بعض أعضاء الحزب كما يبدو انتفاضة قبل الأوان في بتروغراد وأدى فشلها إلى تواري لينين عن الأنظار وأودع تروتسكي ولوناتشارسكي السجن. وانتهى التحول اللاحق نحو اليمين بمحاولة الجنرال كورنيلوف الفاشلة للزحف على بيتروغراد وفي هذه العملية كلها اكتسب البلاشفة تدريجياً شجاعة جديدة والمزيد من الأتباع. وتولى لينين التوجيه من مخبئه وأطلق سراح تروتسكي وانتخب رئيساً لسوفيات بتروغراد الذي أصبح خاضعاً لسيطرة البلاشفة. وعاد لينين إلى بتروغراد سراً ليرأس اجتماعاً نهائياً للجنة الحزب المركزية وتقرر القيام بتمرد. وفي عرض بارع للأسلوب الثوري ضمنت اللجنة العسكرية للثورة حامية بتروغراد ووضعت مجموعات أخرى خططاً لشل الصحافة والاتصالات وفي اليوم المتفق عليه استولى البلاشفة على بتروغراد بصعوبة قليلة تثير الدهشة وبدون سفك دماء تقريباً. واتسم حتى حصار قصر الشتاء، الذي يشكل ذروة الانتفاضة، بمسحة هزلية. كادت ثورة تشرين الأول/ أكتوبر في بتروغراد تكون غير مصحوبة بإراقة دماء مثل حملة التطهير التي نفذها برايد أو يوم 2 حزيران/ يونيو 1793، الحدثين المقابلين في الثورتين الإنكليزية والفرنسية. وقع في موسكو قتال حقيقي إلا أن البلاشفة هناك انتصروا كذلك في غضون أسبوع واحد. هرب كيرنسكي وانتهى حكم المعتدلين في روسيا.

2. السيادة المزدوجة

تعطي الثورة الروسية أقرب مثال للاتساق الذي يمكن أبعد من الاتساق المصطنع نوعاً ما لسلسلة انتقال السلطة من المحافظين إلى المعتدلين إلى المتطرفين، من اليمين إلى الوسط إلى اليسار. هذا في الوقت نفسه مؤسسة وعملية، أو بالأحرى عملية تمر من خلال مجموعة متشابهة للغاية من

المؤسسات. ويطلق منظرو ومؤرخو الثورة الروسية عليها مصطلح "السلطة الثنائية" غير أنها تنطوي على معانٍ تجعل من الأفضل ترجمتها ربما إلى "السيادة الثنائية". يجب أن نتناول بإيجاز الحالة العامة التي يشير إليها هذا المصطلح.

إن في مشكلة السيادة بحد ذاتها منذ زمن طويل ما يكفي لجعل مئات الفلاسفة السياسيين مشغولين ومسرورين. في المجتمع الغربي العادي قد يكون صعباً أو مستحيلاً تحديد شخص معين أو مجموعة أشخاص معينة تمتلك السلطة النهائية والجازمة لحسم المسائل المتعلقة بما سيفعله المجتمع. ويبدو المؤمنون بالتعددية مصيبين تماماً من وجهة نظر وصف العمليات الاجتماعية. وحتى السياسات الأوسع لدولة حديثة يمكن التوصل إليها بعملية طبيعية متقنة تكيف رغبات المجموعات المتعارضة، أي القول إن كون "مستقل" واحد يمكن تحديده هو من يقرر تلك السياسات هراء، ومع ذلك في مجتمع عادي، وحتى في مجتمع ديمقراطي مفتوح ومقسّم السلطات، ثمة سلسلة منسقة واحدة على الأقل من المؤسسات التي تكيف المجموعات المتعارضة نزاعاتها في خاتمة المطاف. وقد يبدو ذلك التنسيق غير فعال وغير عقلاني لدى تحليله أكاديمياً وقد يكون معقداً جداً بحيث أنه حتى السياسيون الذين يجعلونه يعمل لا يفهمونه. لا يدرك البشر كيف ينجحون في أداء الأمور.

إلا أن ذلك لا ينجح وتتقرر المسائل من خلالها - أو تنسى، وهو كذلك نوع من اتخاذ القرار. ومن لا يحبون القرار قد يحاولون تغييره بمجموعة متنوعة للغاية من العمل، من التحريض إلى التآمر أو الوقف. وقد تذهب المجموعات القوية أو الكثيرة اجتماعياً تحت ظروف مؤاتية إلى حد إلغاء قرار ما بعض الوقت: سيتكرر مثال التعديل الثامن عشر في الولايات المتحدة وإلغاء العزل العرقي في المدارس في أعمال الجنوب الأمريكي للجميع. غير أن القرارات تنفذ غالباً.

عندما تقدم سلسلة متعارضة من المؤسسات مجموعة أخرى من القرارات المتعارضة تكون هنالك سيادة ثنائية. وتتطلب مجموعتان من المؤسسات،

القادة، والقوانين ضمن المجتمع نفسه الطاعة، ليس في ناحية واحدة بل في السلسلة المتشابكة كلها من الأعمال التي تشكل الحياة للإنسان العادي. إن مقاومة الفصل العنصري في الجنوب وانحراف الأحداث وفساد قطاعات كثيرة من السياسة الأميركية ليست على كل حال أمثلة على السيادة الثنائية، مجرد مقاومة القانون. ويكاد يكون الصراع بين حكومات الولايات وبين الحكومة الاتحادية أقرب إلى كونه حالة سيادة ثنائية. ولو أن مجالس المواطنين البيض وكو كلوكس كلان ونقابات العمال البيض والمجموعات الأخرى بقيادة قيادة ثورية تستولي مباشرة على جزء من إدارة ولاية ألاباما، يجب أن يكون لدينا نوع من السيادة الثنائية معقد طبعاً بسبب الهيكل الاتحادي لسياستنا. وفي الحقيقة يجب أن يكون لدينا حالة تشبه تلك الحالة السائدة في روسيا في صيف عام 1917، عندما تحدت مجلس السوفيات "غير الشرعي" الحكومة المؤقتة "الشرعية".

في كل الثورات الأربع تجد الحكومة الشرعية في المعارضة ضدها ليس أفراداً معادين وأحزاباً معادية فحسب - هذا ما تجده أية حكومة - ذلك بل حكومة منافسة أحسن تنظيماً وذات موظفين أفضل وتطاع على نحو أكثر. هذه الحكومة المنافسة غير شرعية طبعاً غير أنه ليس كل قادتها وأنصارها من البداية يهدفون عن وعي إلى الحلول محلها، وربما المحافظة عليها في مسار ثوري. إنها حكومة منافسة وليست مجرد نقاد أو خصوم. ولدى حدوث أزمة ثورية ما يتحركون على نحو طبيعي ويحلون محل الحكومة المهزومة.

لا تبدأ هذه العملية في الأنظمة القديمة قبل اتخاذ الخطوات الأولى في الثورة. كانت للمتطهرين في إنكلترا، الويغز في أميركا، الطبقة الثالثة في فرنسا، الكاديتس والاشتراكيين التوفيقيين في روسيا جميعاً منظمات طالبت بتقديمهم الولاء ومكنتهم من مكافحة النظام القديم مع وجود الثورة على الأقل في فكرهم. غير أن العملية أكثر وضوحاً وبروزاً في المرحلة التي وصلنا إليها.

وحالما تنتهي المرحلة الأولى من الثورة يصبح الصراع الذي ينشأ بين المعتدلين والمتطرفين صراعاً بين حكومتين متنافستين. ورث المعتدلون، الحكومة

الشرعية، بعض السمعة المرافقة لكونها مؤسسة ولديها بعض الموارد المالية - الفعلية أو المحتملة - العائدة للحكومة القديمة ومعظم مسؤولياتها وكل مؤسساتها. وعندما تحاول تغيير هذه لاحقاً ستجدها مستمرة ويصعب التخلص منها. إن الحكومة الشرعية غير شعبية لدى الكثيرين للسبب نفسه الذي يجعلها حكومة واضحة ومسؤولة ولذا عليها تحمل بعض عدم شعبية حكومة العهد القديم.

غير أن حكومة المتطرفين غير الشرعية لا تواجه صعوبات كهذه. إنها تتمتع بالسمعة التي منحتها الأحداث الأخيرة إلى المهاجمين، إلى من يستطيعون الادعاء أنهم في طليعة الثورة. ولديها مسؤوليات أقل نسبياً من مسؤوليات الحكومات. وهي غير مرغمة، ولو مؤقتاً، على استخدام الجهاز الحكومي البالي، مؤسسات العهد القديم. بل على العكس من ذلك تتمتع بميزة كبرى هي استخدام الجهاز الحكومي الفعال الذي يبنيه على نحو تدريجي الثوريون، المعتدلون والمتطرفون على السواء، من الوقت الذي يشرعون في ظل العهد القديم بالظهور كمجموعة ضغط حتى، كما في روسيا، كمجموعة سرية من المتآمرين. وفي الواقع يبدو أن الاستيلاء النهائي على هذا الجهاز الحكومي - أو هذه المنظمة، إن شئت - هو الذي يقرر حقاً الانتصار النهائي للمتطرفين على المعتدلين، قبل زمن طويل من أن يصبح ذلك الانتصار النهائي جلياً في الأحداث. لماذا لا يبقي المعتدلون السيطرة على التنظيم الذي فعلوا الكثير من أجل إطلاقه وصياغته سؤال ليس له جواب بسيط. وقد نأمل أن ينبثق جواب ما من دراسة أكثر تفصيلاً لمصير المعتدلين. غير أننا يجب أولاً أن نرى مدى نجاح التحليل السابق في التوافق مع الحقائق في الثورات موضوع دراستنا.

كان واضحاً أن الملك تشارلز والبرلمان الطويل يمثلان سيادة ثنائية منذ النشوب الفعلي للأعمال العسكرية عام 1642 إن لم يكن منذ الجلسة الأولى عام 1640. وما أن حسمت الحرب الأهلية بدحر تشارلز حتى وجد البرلمان نفسه تحت سيطرة المعتدلين أنه الحكومة الشرعية. إلا أنه واجه فوراً الجيش الجديد الراديكالي، الذي سرعان ما شرع باتخاذ ذلك النوع من العمل الذي لا

تتمكن سوى الحكومة اتخاذه في هذا العالم. وزاد الوضع تعقيداً في السنوات الثلاث أو الأربع قبل إعدام تشارلز عام 1649 حقيقة استمرار بقاء تشارلز ووجود الجيش الاسكتلندي، غير أن الخطوط العامة للصراع كانت واضحة بين الحكومة الشرعية الجديدة التي شكلها المعتدلون المشيخيون في البرلمان والحكومة غير الشرعية للمستقلين المتطرفين في الجيش الجديد.

هذه السيادة الثنائية واضحة كثيراً في أميركا في السنوات قبل الاندلاع النهائي للثورة عام 1776. كانت الخطوط بين الحكومة الشرعية والحكومة غير الشرعية مبهمة، خصوصاً في مستعمرة مساشوستس مثلاً، بالنظر لحقيقة أن اجتماعات المدن والمجالس التشريعية في المستعمرات كانت جزءاً من الحكومة الشرعية، إلا أنها غالباً ما خضعت لسيطرة رجال نشيطين في الحكومة غير الشرعية. ومع ذلك واضح أن الثوار استخدموا الجهاز الذي توج بالمؤتمرات القارية - هي نفسها هيئات غير شرعية - ضد السلطة القائمة.

بينما استمر المعتدلون في فرنسا، الفولانيون أو الملكيون الدستوريون، في السيطرة على الهيئة التشريعية والجهاز النظامي للدولة المركزية، سيطر معارضوهم الجمهوريون على نحو متزايد على شبكة جمعيات اليعاقبة التي شكلت إطار الحكومة الأخرى أو غير الشرعية. ومن خلال سيطرتهم على هذه الجمعيات تمكنوا من السيطرة على الكثير من وحدات الحكومة المحلية وتمكنوا من هذا المركز المتميز من طرد المعتدلين الفولانيين وتدمير الملكية. ثم تكررت العملية مع المعتدلين الجيرونديين المسيطرين على الهيئة التشريعية والمتطرفين الجبليين المهيمنين على الوحدات المهمة لشبكة اليعاقبة وعلى وحدة حكومية محلية واحدة على الأقل - كوميون باريس(*). وفي أزمة 2 حزيران/يونيو 1793 هزمت الحكومة غير الشرعية مرة أخرى الحكومة الشرعية. وكانت حكومتا

(*) كوميون باريس أو اللجنة الثورية التي حلت محل بلدية باريس لدى اندلاع الثورة الفرنسية عام 1789 واستولت على السلطة العليا حتى عام 1794. أما كومونة باريس فهي حكومة باريس الاشتراكية التي استمرت نحو شهرين عام 1871.

باريس الشرعية وغير الشرعية تجلسان برهة في أزمة 10 آب/أغسطس 1792 في قاعتين مختلفتين في دار البلدية نفسها.

كانت السيادة الثنائية واضحة في روسيا. كان للحكومة المؤقتة التي نشأت من ثورة شباط/فبراير بعض الحق في الشرعية من خلال صلتها بمجلس الدوما. وعلى الرغم من أنها استوعبت عدداً متزايداً من الاشتراكيين من مختلف الأنواع في الشهور الستة التالية، ومثلت بذلك الحركة اليسارية المنحنى الذي وجدناه في كل المجتمعات الأربعة، فقد بقيت معتدلة وواعية تماماً شرعيتها.

ومن الجانب الآخر تمكن البلاشفة وبعض المجموعات الراديكالية المتحالفة معهم بحلول أواخر الصيف من السيطرة على شبكة مجالس السوفيات التي كانت جزئياً تراثاً من ثورة 1905 الفاشلة وبمثابة حكومة غير شرعية تواجه حكومة شرعية. لم يعد مصطلح "سوفيات" يعني سوى "مجلس" ولم يكن للكلمة في الروسية أصلاً أي معان أخرى سوى ما يعنيه لنا مرادفها الإنكليزي. كانت السوفياتات مجالس محلية تضم النقابيين العماليين، الجنود، البحارة، الفلاحين، والمثقفين المناسبين. ظهروا على نحو طبيعي كاف مع حل السلطة القيصرية عام 1917 لاسيما أن ذكريات انتفاضة 1905 التي لعب فيها سوفيات سنت بيترسبورغ دوراً بارزاً، كانت ما تزال حية في ذاكرة الجميع. واستطاع البلاشفة، الذين ركزوا على نحو حكيم في السوفياتات بينما ازداد اهتمام التوفيقيين على نحو متزايد بالمشاركة في الحكومة المحلية، انتزاع السلطة من السوفياتات الرئيسية في بيتروغراد ومدن صناعية مهمة من التوفيقيين. ثمة نظير مفصل لافت مع الثورة الفرنسية. تحقق انتصار البلاشفة التمردي النهائي بدون سيطرة كاملة على الشبكة العامة للسوفياتات، كما حدث عندما انتصر الجبليون بدون السيطرة على الشبكة الكاملة من أندية اليعاقبة. وفي كل حالة كانت السيطرة على الوحدات الأهم من الحكومة غير الشرعية كافية.

4. ضعف المعتدلين

في هذه المرحلة من الثورة إذا واجه المعتدلون المسيطرون على الجهاز الحكومي الرسمي المتطرفين أو إن شئت الأعداء الراديكاليين والمصممين المسيطرين على الأجهزة المعدة للدعاية، عمل مجموعات الضغط وحتى التمرد إلا أنها أصبحت تستخدم على نحو متزايد كجهاز حكومي. وتنتهي هذه المرحلة بانتصار المتطرفين واندماج السيادة الثنائية في سيادة واحدة. ويجب الآن الاستقصاء عن أسباب إخفاقات المعتدلين في هذه الثورات في الإمساك بالسلطة.

هنالك أولاً المفارقة التي أشرنا إليها آنفاً وهي أنه في المرحلة المبكرة من الثورة تكون السيطرة على الجهاز الحكومي بحد ذاته مصدر ضعف لمن يمسكون بتلك السلطة. ويجد المعتدلون أنفسهم شيئاً فشيئاً يفقدون الرصيد الذي كانوا قد حصلوا عليه كمعارضين للنظام القديم ويقابلون بالشك المتزايد الذي يربطه أصحاب الآمال على نحو بريء بوضع من يرث العهد القديم. ونظراً لاضطرارهم إلى اتخاذ موقف المدافع فإنهم يرتكبون الأخطاء تلو الأخطاء ويعود السبب جزئياً إلى أنهم يفتقرون إلى الخبرة في اتخاذ مواقف الدفاع. إنهم في وضع لا يمكن لغير حكمة فوق البشرية تخليصهم منه. والمعتدلون هم بين الأكثر اتساماً بالإنسانية بين الثوريين.

للمعتدلين في مواجهة معارضة المجموعات الأكثر راديكالية المنظمة في الشبكة التي دعوناها الحكومة غير الشرعية ثلاثة اختيارات: يمكنهم محاولة قمع الحكومة غير الشرعية، أو محاولة السيطرة عليها بأنفسهم، أو تركها وشأنها. وفي الواقع أن سياستهم تدور حول هذه السياسات الثلاث ويجمعون الواحدة مع الأخرى. وفي تلك الظروف يكون صافي التأثير إنتاج سياسة رابعة تصل إلى التشجيع الإيجابي لأعدائهم في الحكومة غير الشرعية.

في الثورات التي ندرسها هنا أعيقت جهود المعتدلين في قمع هذه التنظيمات المعادية. كانت الثورات كافة باسم الحرية وكانت كلها - حتى ثورة

شباط/فبراير الروسية - مرتبطة بما يدعوه الماركسيون عقيدة فردانية برجوازية. وجد المعتدلون أنفسهم مضطرين إلى مراعاة "حقوق" معينة لأعدائهم - لاسيما حرية التعبير وحرية الصحافة وحرية الاجتماع. والأكثر من ذلك فإن الكثير إن لم يكن معظم المعتدلين آمنوا صادقين بتلك الحقوق واعتقدوا أن الحقيقة عظيمة وسائدة. ألم تكن سائدة ضد طغيان العهد القديم؟ وحتى عندما يشرع المعتدل تحت الضغط بقمع صحيفة متطرفة وحظر اجتماع متطرف وسجن بعض الزعماء المتطرفين فإن ضميره يبدأ بإثارة قلقه. والأهم من ذلك أن أي متطرفين لا يتعرضون للقمع قد يثيرون ضجة كبيرة زاعمين أن المعتدلين يخونون الثورة، وأنهم يستخدمون الوسائل نفسها التي اتبعها الطغاة الأشرار في العهد القديم.

الثورة الروسية مثال ممتاز. لم يتمكن الكاديتس والتوفيقيون من قمع البلاشفة ولا أي شكل من النشاط السياسي البلشفي بين فبراير/شباط وتشرين الأول/أكتوبر. وعندما حاولوا أن يفعلوا ذلك بعد انتفاضة بلشفية متسرعة تمثلت في اضطرابات شوارع في بتروغراد أطلق عليها اسم "أيام تموز/يوليو" قوبلت بالاحتجاج من كل فئات الشعب بما فيها البلاشفة: إنها استبداد ونزعة قيصرية من أسوأ الأنواع؟ ألم تحقق ثورة شباط/فبراير لروسيا الحرية السياسية وحرية الصحافة وحرية تشكيل الجمعيات؟ يجب ألا يستغل كيرنسكي ذلك النوع من الأسلحة التي استخدمها القياصرة. غير أن ستالين استطاع لاحقاً استخدام الوسائل الجديرة ببطرس الأكبر(*) أو إيفان الرهيب(**)، وانتهت المرحلة المعتدلة "الليبرالية" في الثورة الروسية بلا ريب عندما تولى ستالين السلطة. غير أنه حتى لو كان كيرنسكي عام 1917 ذلك النوع الذي ينظم بنجاح إجراءات

(*) بطرس الأكبر أو الكبير (1672- 1725) قيصر روسيا من عام 1682 وحتى وفاته وقد عده بعض المؤرخين أعظم القياصرة الروس وقد أنشأ أسطولاً بحرياً وأقام مئات المصانع ورفع شأن روسيا في أوروبا.

(**) إيفان الرهيب أو إيفان الرابع (1530- 1584) أول القياصرة الروس حكم عشر سنوات اتسمت بالإرهاب من 1574.

قمعية - وكان واضحاً أنه لم يكن ذلك النوع- فإن ما ندعوه الرأي العام لم يكن في تلك الأيام يسمح بتنفيذ إجراءات كهذه. كان الوضع مشابهاً في فرنسا حيث منح اليعاقبة حرية التعبير وحرية الاجتماع وأصروا بحزم وعلناً على حقوقهم بوصفهم أحراراً في الاستعداد للدكتاتورية لقمع "أعداء الوطن" - وهم من بقي من الملكيين والقساوسة الذين لم يحلفوا اليمين والمحافظين النشيطين.

ولم يكن المعتدلون أنجح في محاولاتهم للسيطرة - أو الاحتفاظ بالسيطرة - على الجهاز الذي أقاموه مع المتطرفين سوية كوسيلة للتطويح بالعهد القديم. ويبدو أنه لا يوجد لذلك سبب غالب واحد. إن المعتدلين، طبعاً، مشغولون بقدر كبير من العمل في الحكم الفعلي ولديهم وقت أقل للجان العسكرية أو أندية اليعاقبة أو اجتماعات السوفياتات. وهم يشعرون أنهم ربما أرفع منزلة من نشاط مثل هذا. وهم غير مناسبين من حيث المزاج للعمل الأقسى والأقذر لسياسات العمل المباشر. إن لديهم وساوس أخلاقية وهم ليسوا تلك الأرواح النبيلة كما تزعم الأسطورة الجيروندية غن المعتدلين في الثورة الفرنسية. والواقع أن الكثير منهم، من مثل بريسوت وكيرنسكي، يتمتعون بالقدر الكبير من مواهب المناور السياسي. غير أنهم في السلطة، ويبدو أنهم انطلقوا على نحو طبيعي، يتعهدون بالعناية بفضائلهم الوقورة التي ترافق السلطة. غير أن تلك الفضائل تجعلهم زعماء غير مناسبين لمجتمعات ثورية عسكرية.

مهما يكن التفسير فإن حقيقة الاتساق واضحة. هذا الفشل الخاص للمعتدلين يلحظ جيداً في الثورة الفرنسية. لم تكد شبكة اليعاقبة من جمعيات "أصدقاء الدستور" في بدايتها تكون إلى اليسار من لافاييت وأصدقائه. إلا أنه عندما بدأت تتحرك أكثر نحو اليسار بذل أنصار لافاييت جهوداً قليلة للاحتفاظ بالسلطة ثم رحلوا وأسسوا الجمعية الفويلانية. غير أن الفويلانيين لم ينتشروا على نحو ناجح أبعد من الطبقة العليا الضيقة وأوساط المثقفين الباريسيين الضيقة. ثم أسست مجموعات هنا وهناك في أنحاء البلاد باسم "أصدقاء الملكية" أو "أصدقاء السلام"، حاولت التنافس مع اليعاقبة ولكن بلا جدوى. إذا أعطوا الخبز إلى الفقراء راح اليعاقبة يصرخون أنهم يحاولون رشوتهم. وإذا

لم يفعلوا شيئاً شكا اليعاقبة أنهم يفتقرون إلى الضمير الاجتماعي. أخيراً وضع اليعاقبة إجراء نظامياً تماماً. كانوا يستأجرون بعض أفراد العصابات - أحياناً لم يكن ضرورياً استئجارهم - لمهاجمة اجتماع لجمعية أصدقاء السلم المنافسة ثم يرسلون وفداً إلى السلطات البلدية للمطالبة بإغلاق الجمعية لأنها مصدر إزعاج عام. كانت السلطات إما من اليعاقبة أو تخشى اليعاقبة أكثر مما تخشى أصدقاء السلم بحيث تجد المسألة حلاً ثورياً مناسباً.

كذلك وجد المشيخيون أنفسهم عاجزين عن السيطرة على مذهب المستقلين ليس في الجيش فحسب بل كذلك في الأبرشيات المحلية. وفي روسيا وجد التوفيقيون أن البلاشفة مرعبون في كل مجالس السوفيات المهمة. وتظهر دراسة مفصلة لمجلس سوفيات بتروغراد من شباط/فبراير إلى تشرين الأول/أكتوبر مدى براعة حزب لينين في استغلال كل خطأ ارتكبه خصومه وكيف نجح كثيراً في البحث من الداخل ونشر سيطرته من سوفياتات المصانع حتى الاستيلاء على مجلس سوفيات المدينة. كما تظهر تلك الدراسة أن مركز التوفيقيين تقهقر تدريجياً على الرغم من المواهب الخطابية العظيمة لزعماء من مثل تسيرتيلي وتشخيدز وكيرنسكي.

هنالك في الواقع ضعف أساسي في مركز المعتدلين. إنهم بين مجموعتين، المحافظين الساخطين ولو أنهم لم يسكتوا وبين المتطرفين الواثقين الهجوميين. كانت لا تزال حرية الكلام والحقوق السياسية الأخرى بل حتى للمحافظين مجرد صوت. ويبدو أن المعتدلين في كل هذه الثورات يتبعون شعاراً استخدم على نحو واضح لسياسات اتحاد اليساريين عام 1924 وهو شعار ما يزال يثير مشاكل لليسار غير الشيوعي في أرجاء العالم الغربي اليوم: "لا أعداء في اليسار". إنهم يرتابون بالمحافظين الذين ثاروا ضدهم حديثاً وهم مترددون في الاعتراف أن المتطرفين، الذين وقفوا متحدين معهم حديثاً، يمكن أن يكونوا أعداءهم فعلياً. وتمنح كل قوة الأفكار والمشاعر التي دخل بها المعتدلون الثورة نوعاً من الانعطاف نحو اليسار. وهم لا يستطيعون وجدانياً تحمل التفكير في أنفسهم بأنهم متخلفون في العملية الثورية. وعلاوة على ذلك، يأمل الكثير منهم

المزايدة على المتطرفين لنيل الدعم الشعبي والتغلب عليهم في لعبته. غير أنه في الأوقات الطبيعية يمكن الثقة بالشعار السياسي اللطيف في سياسات من مثل "اهزمهم في لعبتهم". ويفشل المعتدلون بسياسة "لا أعداء في اليسار" في استرضاء أعدائهم في اليسار، وهم يجعلون من المستحيل الحصول على الدعم من المحافظين غير القليلين. وبعد أن يدب الخوف في نفوس المعتدلين يتحولون إلى طلب المساعدة من المحافظين فلا يجدون أحداً مستعداً لذلك فقد هاجروا أو اعتزلوا في الريف يائسين قانطين. ولا شك أن المحافظ الذي يستشهد لا يعد محافظاً بل روحاً أخرى سيئة التوافق. إلا أن هذا التحول الأخير نحو المحافظين ينهي المعتدلين حيث أنهم يصبحون وحيدين بلا دعم في السيطرة على حكومة لم تعد إطلاقاً تسيطر على الموظفين، المدنيين أو العسكريين، وتستسلم بسهولة للتمرد. ومن الملاحظ أن عملية برايد التطهيرية وأزمة حزيران/ يونيو 1793 الفرنسية وثورة أكتوبر في بتروغراد كلها ليست سوى انقلابات.

يمكن في الثورات الإنكليزية والفرنسية والروسية تمييز الإجراء الحاسم الذي تدور حوله كل هذه التيارات، الإجراء الذي تبناه المعتدلون ويعزلهم عن الدعم في اليمين ويمكن الراديكاليين من استخدام هذا الإجراء بالذات ضد واضعيه. كان هذا حال قانون الجذر والغصن في الثورة الإنكليزية والدستور المدني لرجال الدين في الثورة الفرنسية والأمر رقم واحد في الثورة الروسية .

كان أصل قانون الجذر والغصن طلباً حمل 15 ألف توقيع قدم إلى مجلس العموم عام 1640 لإلغاء مجلس الأساقفة "بكل جذوره وأغصانه". وكان طبيعياً أن يعارض الأسقفيون المعتدلون من مثل هايد وفولكلاند وديغبي إجراء يدمر كنيستهم. وكان طبيعياً كذلك أن يميل المشيخيون إلى تأييد الفانون. وكان متوقعاً أن يجبر المعتدلون سياسياً من مثل بيم على ترك القانون وحده إلا أن رفض الأساقفة التخلي عن مقاعدهم في مجلس اللوردات جعل بيم يقرر تأييد القانون كما يبدو. وقد جعل هذا التأييد كل أسقفي يصبح نوعاً من مؤيدي الملكية، وعندما نشبت الحرب الأهلية عام 1642 دُفع المشيخيون إلى أقصى يمين التجمعات الحزبية ضمن المنطقة التي يسيطر عليها البرلمانيون. لم يجدوا

حلفاء ممكنين عدا اليسار. وأصبح في وسع المستقلين - وكان كرومويل قد قدم فعلاً لائحة قانون الجذر والغصن أولا في مجلس العموم - القول إن المشيخيين ليسوا أفضل من الأساقفة وإن أسباب إلغاء مجموعة هي بلا ريب أسباب إلغاء الأخرى كذلك. وفي وقت لاحق عندما أثبت المعتدلون عجزهم عن وضع نهاية ظافرة للحرب كان لابد من قبول إجراءات من مثل طقس إنكار الذات وتأسيس الجيش الجديد من أكثرية لم تكن بتاتاً أكثرية قوية والتي لم تترك لنفسها أية إمكانية للحصول على دعم الأعضاء المحافظين.

طرح الدستور المدني لرجال الدين بعد أشهر من المناقشة في الجمعية الوطنية كميثاق للمسيحية المجددة في فرنسا. ويبدو غالباً أن المعتدلين الذين مرروا القانون كانوا رجالاً مخلصين، كاثوليكيين سيئين على نحو ما ربما، ولكن لأنهم استوعبوا بعض الروح الدنيوية العملية للعصر وليس لمعاداتهم صراحة للراديكاليين أو "المفكرين الأحرار". غير أن إجراءهم نفرّ الكاثوليك الجيدين وشجع المفكرين الأحرار العنيفين على محاولة استبعاد "الخرافات الفاسدة" للمسيحية تماماً. نص الدستور المدني بكل براءة على انتخاب الهيئات الانتخابية المحلية نفسها قساوسة الأبرشيات التي اختارت الموظفين العاديين للمراكز الحكومية الجديدة وانتخاب الهيئة الإقليمية نفسها التي انتخبت المندوبين إلى الجمعية التشريعية. وألغت الجمعية التشريعية كل الأسقفيات التاريخية في فرنسا القديمة وأحلت محلها أسقفيات موحدة ومتماثلة تقريباً مع المحافظات التي قسمت إليها فرنسا. غير أنها وافقت على "إبلاغ" البابا بتلك الانتخابات.

ولما كانت ممتلكات الكنيسة قد استولي عليها كضمان للعملة الورقية الجديدة للثورة فقد تقرر أن تتحمل الدولة نفقات رجال الدين بموجب الدستور الجديد. وكان انتخاب هيئات القساوسة والأساقفة من هيئات يحق للبروتستانت واليهود والملحدين الذين يجهرون بإلحادهم مؤهلين للاشتراك فيها انتهاكاً تاماً للقانون الكنسي بحيث لا يمكن للبابا أياً كان بحث القبول به. وعلى الرغم من التأخير الدبلوماسي المألوف فإن الصدع بين البابا والحكومة الثورية محتم واضطرت بذلك مجموعة قوية ومحافظة من الكاثوليك إلى الانضمام إلى صفوف

المعارضة على نحو لا يقبل المصالحة. ولم تكد الكنيسة الدستورية الجديدة تكون مقبولة للراديكاليين الحقيقيين أكثر من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومع اقتراب الأيام الحاسمة لعهد الإرهاب وجد المعتدلون أنفسهم يتحملون عبء حماية كنيسة لم تقدم لهم دعماً مهماً.

لم ينشأ البيان رقم واحد من أية مناظرة طويلة كالتي جرت بشأن قانون الجذر والغصن والدستور المدني لرجال الدين. وفي الواقع ليس من الإنصاف تماماً ذكر البيان بوصفه إجراءً محدداً رعاه المعتدلون، على الرغم من أن الزعيم السوفياتي الأبرز في المجموعة التي أعدت البيان كان المعتدل ن. د. سوكولوف كما أيد التوفيقيون التشريع بقوة. ظهر البيان في الأيام الأخيرة من ثورة شباط/ فبراير من مقر سوفيات بتروغراد. وكان موجهاً إلى الجيش، وعلاوة على الإجراءات الثورية المألوفة نحو جيش دائم للعهد السابق - إلغاء التحية العسكرية والمساواة الاجتماعية والسياسية بين الجنود وبين الضباط وغير ذلك - تضمن الأمر انتخاب لجان السرايا والكتائب لتولي المسؤولية الكاملة عن الجيوش ولاسيما الضباط. وتضمن وجوب إطاعة كل وحدة عسكرية مجالس السوفيات في المسائل العسكرية. وتطاع اللجنة العسكرية في الدوما في المسائل العسكرية بشرط عدم اعتراض المجلس في حالة معينة. صيغ الأمر بحيث أخذ حامية بتروغراد بالاعتبار، غير أن أحكامه الرئيسية لقيت التأييد سريعاً في الجبهة. وأقنع هذا الأمر المحافظين فوراً أنه لم يكن هنالك ما يؤمل من الثورة وجعل حتى الضباط الأكثر لبرالية في حالة ذهنية جعلتهم يرحبون لاحقاً بمحاولات القيام بانقلاب محافظ. وقد زاد الأمر المهمة اللاحقة للمعتدلين بإعادة روسيا إلى الكفاءة العسكرية في الحرب مع ألمانيا أصعب من السابق. ولم يخدم بتاتاً قبول الجنود أنفسهم استمرار الحرب. نسب معظم الفضل في شعبية الأمر رقم واحد في نهاية الأمر إلى البلاشفة. ونسب معظم عدم شعبية الأمر إلى التوفيقيين. هذا هو المصير المألوف للمعتدلين في هذه الثورات.

مرة أخرى واجهت المعتدلين في كل المجتمعات الأربعة إن عاجلاً أو آجلاً مهمة خوض الحرب. أثبتوا أنهم قادة حرب رديئون. في إنكلترا نشبت

الحرب عام 1642 وقبل أن تنتهي الحرب الأهلية الأولى جعل كروموبل والمستقلون أنفسهم لا غنى عنهم وكانوا على وشك تولي السلطة. ونشبت الحرب الأجنبية في فرنسا في ربيع عام 1792 وبعد بضعة أشهر سقط النظام الملكي. واستمرت الحرب تسير على نحو سيئ في ربيع 1793 وفي حزيران/يونيو طرد الجبليون الجيرونديين المعتدلين، الذين كانوا أكثر المتحمسين للحرب. وولدت الثورة الروسية في وسط حرب كارثية ولم تسنح للمعتدلين الروس فرصة تولي الإدارة السلمية. كانت الحقيقة جلية. يبدو أن المعتدلين لا يمكنهم النجاح. أما الأسباب فهي أقل وضوحاً. ولا ريب أن التزام المعتدلين بحماية حريات الفرد كان عاملاً. لا يمكن تنظيم جيش إذا كنت تقيم وزناً للحرية والمساواة والإخاء.

يبدو أن الحروب الحديثة تحمل معها ضرورة تنظيم الحكم المدني وفق الأصول العسكرية لأن ممارسة السلطة الحكومية المركزية القوية التي تكون فيها حرية الفرد أبعد ما تكون مسألة اهتمام أول، ولا تشهد سوى نقاش قليل للغاية، والقليل جداً من الحكم بالمناقشة وهو ما يثمنه المعتدلون كثيراً، القليل جداً من التوصل إلى التفاهم عن طريق التسوية ومن الاعتدال. قال ماديسن(*) إن الحرب هي أم التفخيم التنفيذي، وقد أيدت حروبنا هنا في أميركا رأيه. إلا أنه في وسط ثورة ما ليس التنفيذي المعتدل هو من يحصل على التفخيم. ويمكن تفسير عهدي الإرهاب في فرنسا وروسيا على نحو جزئي حيث أن تركيز السلطة في حكومة الدفاع حتمته حقيقة الحرب. وهذا ليس بتاتاً تفسيراً كاملاً لعهدي الإرهاب. إلا أن ضرورة وجود حكومة مركزية قوية تدير الحرب من أسباب فشل المعتدلين. لم يتمكنوا من تأمين الانضباط، الحماسة، الولاء الذي لا يمكن إمعان التفكير فيه والضروري لخوض الحرب، فخرجوا.

(*) جيمس ماديسن (1751- 1836) الرئيس الأمريكي الرابع وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة و"أبو الدستور" إذ إنه المؤلف الرئيسي للوثيقة.

5. الخلاصة

بالنسبة للطيبين، الذين كتبوا معظم التاريخ الذي نحصل منه على أفكارنا عن الثورات الحديثة، كان فشل المعتدلين هذا مأساة كبرى. يبدو المعتدلون رجالاً صالحين هزمتهم الظروف والخصوم المجردون من المبادئ الأخلاقية، ويبدون مثاليين سحقهم عالم قاس إلا أنهم واثقون بالبعث الذي يمنح التاريخ للعادلين. إن فولكلاند المعتدل وكوندورسيه الواسع الاطلاع - كان الثاني غير معتدل في آرائه السياسية والأخلاقية - يبتسمان من مكانهما الحالي في السماء. صحيح أنه حتى المؤرخون الأجانب لم يصنعوا سماء لمليوكوف أو كيرنسكي. إن فشلهما ما يزال قوياً، من ناحية، ومن الناحية الأخرى، ما يزال المعتدلون الروس بدون تبجيل في بلادهم.

لعل معظم المعتدلين أفضل من الناحية الأخلاقية أو على الأقل رجال عاديون أكثر من خصومهم. إلا أنهم زعماء ويشكلون معاً مجموعة متنوعة ولو أنه لا يمكن لماركس أو لعالم نفس تصنيفهم بسهولة بتاتاً. إن الفكرة التقليدية القائلة إنهم مثاليون وإنهم فشلوا لأنه في إجراء التنازلات المتبادلة على نحو خشن لابد أن يفضل المثالي دائماً فكرة مضللة بخاصة. والأدق هو طرح التناقض الظاهري: لقد فشلوا لأنهم كانوا في نواح كثيرة من يدعون بالمثاليين، أي أن بعضهم كان متكيفاً على نحو جيد مع عالم الإدراك السليم.

وما يزال بيم وميرابو، اللذان توفيا بسلام قبل أن تصبح هزيمة المعتدلين جلية، يتمتعان بسمعة جيدة كسياسيين ماهرين ومعتدلين راجحي العقل. أما بالنسبة إلى الآخرين فهنالك ذلك النوع من السمعة المؤكدة والواضحة فيما يخص كيرنسكي. ويبدو لنا أن قائد التوفيقيين البليغ رجل كلمات وخطيب يستطيع تحريك الجماهير لا أن يقودهم، شخص غير عملي وغير كفء في مجال العمل. ويبدو الجيرونديون شبيهين به كثيراً وكذلك الزعماء المشيخيون الأقل شأناً. ويبدو من المفارقة على نحو فارغ ذكر هؤلاء الأشخاص بوصفهم واقعيين. غير أنهم كانوا واقعيين من نوع ما. استخدموا كلمات وعبارات فخمة

على نحو مهيب كسلوان ومتعة للسامعين ولأنفسهم. غير أنهم يؤمنون بها كما فعل الراديكاليون. لم ينووا محاولة إقناعهم بمتابعتها إلى خواتيمها المنطقية في العمل. كانوا باختصار يستخدمون تلك الكلمات بالطريقة نفسها التي يستعملها معظم الناس في المجتمعات العادية، بمن فيهم السياسيون الواقعيون من مثل غلادستن. لن يبدوا واقعيين لتاجر خيول عنيد. إلا أنه ضمن القيود التي حددتها التقاليد والطقوس لعمل هؤلاء الناس كانوا -منهم القسيس والإداري والممثل والمدرّس - ممارسين طيبين هادئين.

إلا أن الأمور انقلبت رأساً على عقب ومع اقتراب أزمة الثورة لم يكن ممكناً تولي القيادة لغير رجل ذي لمسة - أو أكثر - من المثالية المتعصبة فيه، أو على الأقل ذي القدرة على أداء دور شخص متعصب. وانقلبت الأدوار الاجتماعية العادية للواقعية والمثالية في المراحل الخطيرة للثورة. وسنعود إلى هذا الموضوع في الفصل التالي. ولا نحتاج هنا إلى غير ملاحظة أن الأدلة الخارجية لنهج هذا النوع من الأزمة تبدو شكلاً أقوى من العداء الطبقي. المعتدلون وفقاً للتعريف ليسوا شديدي البغض ولا يتسمون بالعمى الفعلي الذي يبقي رجالاً من مثل روبسبير ولينين غير قلقين في صعودهم إلى السلطة. وفي الأزمنة الحالية الأشخاص العاديون غير قادرين على الإحساس نحو الأشخاص الآخرين بالكراهية الشديدة والمستمرة وغير المريحة مثل تلك التي يدعو إليها المتطرفون في الثورة. إن تلك الكراهية شعور بطولي والمشاعر البطولية مضنية. وقد يبغض الفقراء الأثرياء، ويكره البروتستانت الكاثوليك، ويمقت البرجوازيون النبلاء ويكره الجنوبيون أبناء الولايات الأميركية الشمالية. غير أن هذه البغضاء لدى البشر هي بغضاء روتينية مواسية، جزء من الحياة، مثل الغذاء والحب، مدمجة في وجود غريب عن الثورة مثل نوع من الخضراوات.

المعتدلون، إذاً، لا يؤمنون حقاً بالكلمات الكبيرة التي يجب أن يستخدموها. وهم لا يؤمنون حقاً بكمال سماوي يهبط فجأة على الناس في الأرض. إنهم جميعاً يدعون إلى الحلول الوسط، الإدراك السليم، الاعتدال، والعون. وهذه الرغبات في المجتمع العادي جزء من قوتهم وتمنحهم السيطرة

على الآخرين الذين يشاطرون على الأقل رغبتهم في العون. غير أنه في هذه الثورات الثلاث دفع الكثير من الناس مؤقتاً بالرغبة والعاطفة إلى نقطة بدوا عندها يحتقرون حتى العون. لا يمكن للمعتدلين التعامل سياسياً مع أولئك الناس. لو يستطيعون اتخاذ الخطوات الأولى الضرورية ليمكن فهم أمثال هؤلاء الناس. عزل المعتدلون عن غير المعتدلين بفجوة لا يمكن لا للفلسفة ولا للإدراك السليم ملؤها. وثمة قول مأثور هو أن الأعور في بلاد العميان ملك. لقد كشف اتش جي ويلز في إحدى قصصه وهي بعنوان مملكة العميان(*) ضعف هذه الحكمة. في ذروة الثورة العنيفة يكون ضعفها أوضح من الوادي في جبال الأنديز في قصة ويلز. إن كل المعتدلين الذين تناولناهم بشر للغاية وغير معصومين. غير أنه حتى لو كانوا حكماء مثل أبطال بلوتارك(**)، وحكماء مثل واشنطن، لبدا أنهم قد فشلوا، لأننا هنا في بلاد تفوق الوصف إلا أنها حقيقية حيث حكمة المعتدل وإدراكه السليم ليس حكمة وإدراكاً سليماً بل حماقة.

(*) نشرت القصة عام 1904 وأعيد نشرها في مجموعة قصصية لويلز عام 1911 ووسعها ونشرت عام 1939 وهي من أشهر قصصه القصيرة. وثمة رواية لمايكل فلين بعنوان في بلاد العميان ورواية أخرى بعنوان بلاد العميان لكريستوفر بروكميار.

(**) بلوتارك (46- 120) مؤرخ وكاتب سير إغريقي.

الفصل السادس

تبوؤ المتطرفين

1. الانقلاب

شهد الصراع بين المعتدلين وبين المتطرفين، الذي بدأ حالما نفذ التطويح المفاجئ بالنظام القديم، سلسلة من الأحداث المثيرة: قتال شوارع هنا واستيلاء على ممتلكات بالقوة هناك ومناظرات حادة ومحاولات قمع وسيل متواصل من الدعاية العنيفة في كل مكان تقريباً. الأمزجة متوترة عند نقطة الانفجار بسبب أمور قادرة في مجتمع مستقر على إيجاد حل يكاد يكون تلقائياً. ثمة حالة شاملة تقريباً من التوتر. الحمى تتصاعد لتصبح أزمة. وكما هو شأن أنواع كثيرة من الحمى فإن حالتها التفصيلية متقلبة مع حدوث تحسن واضح ثم طفرة مفاجئة نحو الأمام. غير أن التأثير التراكمي جلي. ومع التطويح النهائي بالمعتدلين يمكن القول إن الثورة دخلت مرحلة أزمتها.

قبل أن نحاول وصف سلوك الناس في المجتمعات في مثل تلك الأزمة يتعين علينا تدقيق عملية تولي المتطرفين السلطة. وسيوضح هذا التحليل في اتجاه عكسي ما قلناه آنفا عن المعتدلين: أسباب نجاح المتطرفين هي الجانب الآخر من أسباب فشل المعتدلين. وحيث كان المعتدلون ضعفاء كان المتطرفون أقوياء. إلا أن الخطوات الفعلية التي يصعد فيها المتطرفون إلى السلطة أهم من

أن تترك مع هذا القول. ولا بد من مقارنة تحليلنا لجوانب ضعف المعتدلين مع تحليل جوانب قوة المتطرفين.

يربح المتطرفون لأنهم يضمنون السيطرة على الحكومة غير الشرعية وتحويلها إلى انقلاب حاسم ضد الحكومة الشرعية. وتحل مشكلة السيادة الثنائية بالأعمال الثورية التي استولى بها المستقلون واليعاقبة والبلاشفة على السلطة. غير أن المعتدلين كانوا قد شاطروا معهم السيطرة على المنظمات التي حولوها ضد الحكومة. ويكمن مفتاح نجاح المتطرفين في احتكارهم السيطرة على هذه المنظمات - الجيش الجديد وكنائس المستقلين وأندية اليعاقبة والسوفياتات .

إنهم ينالون هذا الاحتكار بطرد الخصوم النشيطين والفعالين كافة من هذه المنظمات في سلسلة من الصراعات. يتم أولاً تطوير الانضباط والتصميم ومركزية السلطة التي يتسم بها حكم المتطرفين الظافرين وتوصل إلى الكمال في المجموعات الثورية في الحكومة غير الشرعية. وتبقى السمات التي شكلت في نمو الحكومة غير الشرعية سمات الراديكاليين نفسها بعد أن تصبح الحكومة غير الشرعية الحكومة الشرعية. لقد صيغ الكثير من هذه السمات المفيدة حقاً في زمن النظام القديم عندما كان المتطرفون مجموعات مركزة صغيرة للغاية خاضعة لـ "طغيان " الحكومة التام.

حصل المستقلون على الانضباط والتكريس من سلسلة طويلة من التدابير الوقائية التي بدأت في ظل حكم اليزابيث الأولى، التي لم يمتد حبها الشهير للتسامح إلى الكاثوليك أو البراونيين(*). لم يعامل الراديكاليون الفرنسيون معاملة سيئة للغاية في ظل النظام القديم كما يود أحفادهم والمؤرخون الاعتقاد إلا أن الرقابة والباستيل والرسائل المختومة letters de cachet(**) كانت حقيقية على نحو كاف، حتى وإن لم تكن من نصيب المتنورين العاديين. واتخذ المتطرفون

(*) Brownists هم أتباع روبرت براون الذي ولد في إنكلترا عام 1550 وتزعم حركة دينية عام 1580 وحاول تأسيس كنيسة أبرشية مستقلة فاعتقل وأرغم مع أتباعه على الرحيل إلى هولندا.

(**) رسائل كان يوقعها ملك فرنسا وأحد وزرائه وتختم بالختم الملكي واحتوت على أوامر من الملك مباشرة لفرض إجراءات إلزامية لا يمكن استئنافها وبالنسبة للهيئات صدرت الرسائل المختومة لغرض منع تجمع أعضائها مثلاً.

في روسيا قالب تقاليد القمع الأكثر إثارة ودعمهم حوالي قرن من سرية التنظيم والتآمر وأداء اليمين والاستشهاد. وسنجد لاحقاً أن الثورة الروسية الكبرى قد انتهت حقاً، إلا أن الكثير من السمات الاستبدادية للعهد المتطرف بقيت في روسيا الحالية. ومن أسباب البقاء القوة الهائلة للانضباط الاستبدادي الشيوعي الذي أدمج في سنوات من التآمر السري والسيطرة من فوق ومن الداخل.

2. تنظيم المتطرفين

الشيء الأول الذي يلفت انتباه مراقب المتطرفين الناجحين في الثورات الإنكليزية والفرنسية والروسية وليس تماماً الوطنيين الراديكاليين الذين نفذوا الثورة الأمريكية هو قلة عددهم. لم يزد عدد أعضاء المنظمات التي تولت مهمة ضرب المعتدلين أبداً أكثر من أقلية صغيرة من مجموع السكان. وكان الأعضاء النشيطون بالطبع أقل دائماً من عدد الأعضاء المسجلين. وليس سهلاً الحصول على أرقام دقيقة عن عدد الأعضاء أو عدد السكان إلا أن الأرقام التالية ليست خاطئة لدرجة تجعلها مضللة. ضم الجيش الجديد 22 ألف رجل ولم يزد عدد أفراده عن 40 ألفاً في أكثر أيامه جموحاً، بينما بلغ عدد سكان إنكلترا بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين نسمة. ولم يزد عدد اليعاقبة وفقاً لأكثر تقدير عن نحو 500 ألف في صراعهم مع المعتدلين. والأرجح أن عدد سكان فرنسا بلغ أكثر وليس أقل من عشرين مليون نسمة. وقد تباهى الحزب الشيوعي في روسيا دائماً بصغر عدد أعضائه. إنه ليس حزباً برجوازياً مملوءاً غروراً وحافلاً بالأعضاء غير المبالين الذين يدلون بأصوات كسولة أو لا يصوتون إطلاقاً. الأرقام مرة أخرى غير مؤكدة غير أنه يبدو مرجحاً أن عدد أعضاء الحزب الشيوعي لم يزد في أي وقت أثناء الثورة لحد استيلاء ستالين النهائي على السلطة بطرد "المعارضة اليمينية" عام 1929 عن 1 في المائة من عدد السكان الذي زاد عن المائة مليون نسمة. وفي أميركا ثمة صعوبة في تحديد الرقم لأن الوطنيين لم يكونوا منظمين في هيئة واحدة. وجلي أنه ليس من الإنصاف اعتبار عدد أفراد الجيوش القارية الصغيرة نسبياً موازياً لقوة المجموعة الوطنية - أو

الأميركيين المؤيدين للثورة -. غير أن أفضل الخبراء يتفقون على أنه باستبعاد الموالين المخلصين والكثيرين غير المبالين أو المحايدين المشغولين بحدائقهم طوال الحرب لم تكن المجموعة التي هندست الثورة الأميركية ودعمتها وخاضتها سوى أقلية الأرجح أنها لم تزد عن 10 في المائة من عدد السكان .

ليس سهلاً القول إنه على الرغم من أن الحقائق تظهر بجلاء أن هذه المجموعات الثورية أقليات صغيرة للغاية حقاً، وأن المجموعات النشيطة سياسياً كافة أقليات وأن الراديكاليين في هذه الثورات "مثلوا" أو "نفذوا" ما كانت تطالب به روح أممهم وإرادتها وعبقريتها. وقد يكون ذلك على نحو مألوف للميتافيزيقيين غير أن العلاقة المتضمنة هي علاقة لا يمكننا في الوقت الحاضر التظاهر بأننا نستطيع دراستها بالوسائل التي حددناها في هذا الكتاب. ولعل اليعاقبة كانوا وكلاء الإرادة العامة للشعب الفرنسي إلا أن الإرادة العامة مفهوم ميتافيزيقي لا يمكن قياس علاقته بيعاقبة حقيقيين هنا.

تناول تروتسكي في واحد من أمزجته الأقل واقعية قلة عدد البلاشفة عام 1917 مع اتساع مساحة روسيا ومع وجود المجموعات المختلفة المعادية للبلاشفة على نحو واضح. كتب يقول في توقع جيد لرواية جورج أورويل 1984: "اعتبر البلاشفة الناس كما خلقهم التاريخ السابق وكما طلب منهم تنفيذ الثورة. واعتبر البلاشفة أن رسالتهم هي تولي قيادة هذا الشعب وأن الجميع ضد الثورة عدا البلاشفة. إلا أن البلاشفة كانوا الشعب". لم يكن تروتسكي ميافيزيقياً تماماً - أو عالم نفس - بدرجة كافية للإصرار على أن البلاشفة كانوا يرغمون الشعب الروسي على أن يكون حراً.

في الحقيقة لم يجرؤ الثوريون لا في اليمين ولا في اليسار في القرن العشرين على تبني موقف نيتشوي(*) متسم بالثبات في مسألة العلاقة بين القليلين

(*) نسبة إلى فريدريك نيتشه (1844- 1900) الفيلسوف الألماني المعروف والعالم في علم اللغة المقارن الذي ألف نصوصا في الدين والأخلاق والثقافة المعاصرة والفلسفة والعلوم بأسلوب ألماني متميز ودعا إلى ضرورة انصراف الإنسان إلى الارتفاع بذاته حتى يبلغ مرتبة "الإنسان الأسمى" أو "السوبرمان".

المنتخبين منهم وبين جماهيرهم، أي لم تكن لديهم الجرأة ليقولوا إن المنتخبين يجب أن يكونوا سادة في المعنى الكامل للمصطلح ويجب أن يكون الباقون أرقاء في المعنى الكامل لذلك المصطلح. أما لينين فيبدو غالباً على حافة هذا الموقف النيتشوي ويلجأ إليه هتلر أحياناً في كتابه كفاحي. إلا أن الموقف الرسمي للحزب الشيوعي والحزب النازي والحزب الفاشستي هو أن الحزب، المنتخبين والأقلية في السلطة هو قيم وراع للشعب ويحكم من أجل تحسين مصير الشعب. وما تزال الشيوعية إلى الوقت الحاضر تتمسك بالوعد بأنه في نهاية المطاف - بعد دحر الرأسمالية العالمية - سيختفي الفرق بين القادة ومن يتولون قيادتهم، بين الحزب والشعب، بين العاملين بعقولهم والعاملين اليدويين في المجتمع الخالي من الطبقات.

كان هؤلاء الراديكاليون في كل المجتمعات الأربعة في غاية الوعي وفخورين بأعدادهم القليلة. كانوا يشعرون حتماً أنهم بارزون بين مواطنيهم وأنهم مكرسون لخدمة قضية لا يتمتعون حقاً بالكفاءة اللازمة لتوليها على نحو واع ونشيط. وربما أقنع بعض الراديكاليين أنفسهم بأنهم يمثلون حقاً أفضل مواطنيهم، وأنهم الواقع بينما الآخرون هم الاحتمالية. إلا أنهم كانوا أحياناً واثقين تماماً بتفوقهم على الكثيرين الخاملين والمترهلين. لم يبذل القديسون الإنكليز في القرن السابع عشر، المنتخبين من إلهٍ أعلى من أي ملك دنيوي، أية محاولة لإخفاء احتقارهم للجماهير - وكان حملة لقب دوق وشريف طبعاً جماهير بالنسبة لهؤلاء المتطهرين المصممين. وورث اليعاقبة عن حركة التنوير اعتقاداً بالطيبة الطبيعية أو الحصافة الطبيعية للرجل العادي ووضع هذا الاعتقاد حداً لاحتقارهم العلني لرفاقهم. غير أن الاحتقار موجود وكان اليعقوبي مكرساً على نحو متغطرس مثلما كان المستقل (في إنكلترا). ونشأ البلاشفة على الاعتقاد أن المادية الديالكتيكية تعمل من خلال نخبة من الطبقات العاملة بمساعدة المثقفين وأن الفلاحين بخاصة غير قادرين على تحقيق خلاصهم. لذا تقبل البلاشفة قلة عددهم على نحو طبيعي وكذلك تفوقهم.

ثمة قدر كبير أيضاً من الأدلة على أنه مع استمرار الثورة ينسحب عدد كبير من الناس من الحياة السياسية النشيطة ولا يبذلون محاولة لتسجيل أصواتهم. وقد يكون معظم هؤلاء متعاطفين في صميم قلوبهم مع الراديكاليين النشيطين، إلا أنه يبدو عموماً وكأن معظمهم محافظون أو معتدلون مروعون/ رجالاً ونساءً غير راغبين في الاستشهاد غير أنهم غير قادرين على تحمل الضغط الذهني والأخلاقي والبدني ليصبحوا متطرفين مكرسين في أزمة ثورة ما. ولدينا أمثلة واضحة على خروج الرجل العادي في اثنتين من الثورات الأربع ويمكننا الافتراض على نحو معقول أن ذلك من حالات التماثل التي نبحث عنها.

منحت ثورة شباط/فبراير في روسيا حق التصويت العام كمسألة طبيعية. ولحقت روسيا بالغرب على الأقل. واغتنم الجميع تقريباً، رجالاً ونساء، الفرصة في الانتخابات الأولى للاقتراع في انتخابات محلية مختلفة. غير أنه سرعان ما انخفض مجموع الأصوات على نحو ملحوظ. وفي انتخابات مجالس منطقة موسكو في حزيران/يونيو 1917 حصلت المجموعات الاجتماعية-الثورية على 58 في المائة وحصل البلاشفة على 52 في المائة. هل كانت النتائج فوزاً واضحاً للبلاشفة بالوسائل الديمقراطية؟ كلا إطلاقاً. حصل الاجتماعيون-الثوريون في حزيران/يونيو على 375 ألف صوت من مجموع 647 ألف صوت، وفي أيلول/سبتمبر حصل البلاشفة على 198 ألف صوت من مجموع 381 ألف صوت. أي أن نصف الناخبين امتنعوا عن التصويت في غضون ثلاثة أشهر. لتروتسكي نفسه تفسير بسيط لذلك: "الكثير من سكان المدن الصغيرة الذين كانوا قد انضموا منخدعين إلى التوفيقيين انسحبوا إلى عدم الوجود السياسي". وتتكرر القصة نفسها في الانتخابات البلدية والعامة الفرنسية بين الأيام الوردية عام 1789، بعد أيام من منح حق التصويت العام، وبين عام 1793، عندما لم يصوت فعلياً سوى أقل من عشر من يحق لهم الاقتراع. لم يصوت الشعب للبلاشفة أو اليعاقبة ويبدو على الأرجح أنه لو استطاع الإنكليز كافة الاقتراع عام 1648 لما صوتوا للمستقلين أو المساواتيين أو الحفارين أو

رجال الملكية الخامسة أو الألفيين(*). ويبدو مرجحاً أيضاً توقع نتائج متقاربة لو كان قد أجري استفتاء كامل على إعلان الاستقلال الأميركي. إن معظم الناخبين المؤهلين لا يقترعون، إذ لا وجود لهم سياسياً في رأي تروتسكي.

لا يتحقق عدم وجود الناخبين السياسي بدون قدر كبير من المساعدة من المتطرفين. يفترض أن الانتخابات حرة وبلا حواجز إلا أن المتطرفين لا تعيقهم أي عقائد في الحرية ربما عبروا عنها في أوقات أخرى. وسرعان ما يتخذون خطوات مألوفة في هذا البلد (أميركا) من خلال تاريخ مجموعات من مثل كو كلوكس كلان(**) وتاماني هول(***). إنهم يهزمون أرستقراطيين مشهورين وما أشبه من الأعداء الطبقيين، ويثيرون أعمال الشغب عند مراكز الاقتراع أو الجمعيات الانتخابية، ويحطمون النوافذ ويشرعون في معارك الشوارع ويهتفون بسقوط المرشحين المعتدلين ويمارسون الضغط على الصحفيين الجيدين الماهرين في التشهير والتلميح الجارح ويجعلون، في مائة وسيلة يمكن لأي باحث واقعي في السياسة الكشف عنها في دراسة قصيرة، من الصعب جداً على الرجال والنساء العاديين المسالمين المملين التوجه إلى الانتخابات والتصويت للمعتدلين الذين ينجذب إليهم الرجال والنساء العاديون المسالمون المملون. ليس الإرهاب

(*) هذه كلها مجموعات سياسية دينية ظهرت في تلك الفترة وهدفت إلى الإصلاح في إنكلترا. وقد أسس جيرار وينستانلي مجموعة الحفارين الإنكليزية عام 1649 وعرف الأعضاء بالحفارين لنشاطهم وقد آمنوا بالمساواة الاقتصادية. وكان رجال الملكية الخامسة أعضاء حركة سياسية دينية ظهرت في 1649- 1661 وكانت تأمل إصلاح البرلمان والحكومة.

(**) كوكلوكس كلان: جمعية سرية إرهابية أسست في الولايات الجنوبية حوالي سنة 1866 عقب انتهاء الحرب الأهلية الأميركية بهدف ترسيخ سيادة البيض على السود بوسائل إرهابية. كما أنشئت جمعية سرية إرهابية تحمل الاسم نفسه عام 1915 في الولايات المتحدة وناصبت الزنوج واليهود والكاثوليك والأجانب العداء.

(***) تاماني هول الجهاز السياسي للحزب الديمقراطي الذي كان له دور مهم في السيطرة على الحياة السياسية في مدينة نيويورك وساعد اللاجئين خصوصاً الايرلنديين على الصعود في الحياة السياسية الأميركية من العقد الأخير للقرن الثامن عشر حتى العقد السابع من القرن العشرين.

وحده ما يفزع الإنسان العادي بل إن الكسل والعجز عن منح الاهتمام المتواصل الذي تتطلب الثورات توجيهه إلى الشؤون السياسية مفيدان كذلك في منع الإنسان العادي من التعبير عن رأيه. إنه يشعر بالسأم من الاجتماعات المتواصلة والانتدابات والأوراق وانتخاب مطاردي الكلاب والمفتشين العامين والرؤساء واللجان والطقوس والعمل المتواصل للحكم الذاتي على أساس أكثر من قاعدة أثينية. وعلى أية حال فإنه يبتعد ويفسح في المجال لهم.

إن قلة عدد المتطرفين هي حقاً من أكبر مصادر قوتهم. وتصعب إدارة الأعداد الكبيرة في السياسة كما هو الحال في ميدان القتال. وفي الحياة السياسية للثورة المهم القدرة على التحرك سريعاً لاتخاذ قرارات واضحة ونهائية والسعي لتحقيق هدف ما بدون اكتراث للترتيبات البشرية المتضررة. ولهذا الغرض يجب أن تكون المجموعة السياسية النشيطة صغيرة. ولا يمكن خلافاً لذلك الحصول على التصميم والتكريس، الطاقة والانضباط، الضروري لهزم المعتدلين. ولا يمكن مواصلة حمى التطرف في عدد كبير من الناس فترة طويلة على نحو كاف لضمان النصر النهائي. الجماهير لا تصنع الثورات، يمكن إشراكها في بعض المواكب المؤثرة حالما تنتصر القلة النشيطة في الثورة. لقد حققت ثورات القرن العشرين في اليمين واليسار معجزات قصيرة للغاية في المشاركة الجماهيرية. غير أن المظاهرات المثيرة للإعجاب التي سجلتها الكاميرا في ألمانيا وإيطاليا وروسيا والصين يجب ألا تخدع باحث السياسة الحذر. ولم يتحقق الانتصار الشيوعي أو النازي أو الفاشستي على المعتدلين بمشاركة الكثيرين بل أنجزتها كلها هيئات متطرفة صغيرة منضبطة ذات مبادئ.

كما لا يجرؤ الراديكاليون المنتصرون في هذه المرحلة من الثورة على اللجوء إلى استفتاء. إنهم لا يستطيعون المخاطرة بإجراء الانتخابات الحرة. ولاحقاً عندما تعقب النقاهة الأزمة وبالعودة إلى الوسائل العادية تصل مرحلة الاستفتاء، إن وصلت. وقد لا تكون هذه الفترة طويلة جداً والتعميم صحيح حتماً في حالة الثورات اليمينية: الاستفتاء النزيه غائب عن الصراع بين

المتطرفين وبين المعتدلين ولا يستخدمه المتطرفون حتى بعد توليهم الشرطة. ويصدق هذا كذلك على روسيا وفي الدول التابعة لها.

المتطرفون ليسوا قليلين فحسب بل هم متمسكون بقضيتهم على نحو متعصب. ويبدو إدراكهم قلة عددهم مرتبطاً على نحو متبادل بشدة تطرفهم حيث يتغذى أحدهما على الآخر ويقويه. وسنعنى لاحقاً بأهدافهم ومحتوى أحلامهم في عالم أفضل. ولأولئك الذين يعتقدون أنه لا يمكن إثارة المشاعر المحددة على نحو مناسب بأنها "متطرفة" إلا في خدمة رب شخصي، قد يبدو تطبيق الكلمة على اليعاقبة والبلاشفة غير مشروع. إلا أن هذا حتماً تضييق غير مناسب لكلمة واضحة ومفيدة. كان البلاشفة واليعاقبة مقتنعين قناعة أي من المؤمنين بمبادئ كالفين أنهم وحدهم المصيبون وأن ما اقترحوه هو المسار الممكن الوحيد. وقد أظهر كل الراديكاليين في الثورات الأربع استعداداً للعمل الجاد والتضحية بسلمهم وأمنهم في المجموعة. كانوا جميعاً واعين للصعوبات الروحية بالبقاء "دائماً في قمة الظروف الثورية" كما تعود اليعاقبة التعبير عنها. إلا أنهم ذللوا إلى حد مدهش تلك الصعوبات وواصلوا في هذه الأرض روح الجماعة، اتحاد معنوي أخلاقي مفعم بالحيوية يتجاوز السلطات التي يمكن للناس العاديين في الظروف العادية نيلها والمحافظة عليها.

كما أنهم منضبطون والسبب جزئي، كما شرحنا، أن هذا ميراث من ماضي القمع الذي تعرضوا له. وهو يرتبط مع قلة عددهم وقوتهم المتطرفة. الجيش الجديد نموذج ممتاز فقد دحر التجمعات العشوائية التي عارضتها وسائل تجنيد الأنصار العادية للملكيين. لقد دحرت صفوة القوى المعارضة، الفرسان المجندين من نبلاء الريف وأتباعهم. جند الجيش الجديد من متطهرين متحمسين يكفلهم رجال يعرفونهم وأخضعوا إلى دورة تدريبية قصيرة فعالة وأكثر صرامة من أية دورة تدريبية طبقت في التاريخ العسكري الإنكليزي. وكانت النتيجة جيشاً جيداً وهيئة محكمة من الثوريين المتمرسين الذين كان في وسعهم إحباط أفضل نيات المعتدلين وخطابهم. لم يكن انضباط اليعاقبة عسكرياً بل كان صارماً ويشبه حقاً ذلك النوع من الانضباط الذي تفرضه هيئة دينية متشددة على أعضائها.

وكان اليعاقبة يدققون دائماً في الأعضاء ويحيلونهم إلى محنة التطهير والتصفية. وقد يوجه تحذير أو عقوبة الطرد بسبب أدنى انحراف عن النظام الراسخ في حينه. ومعظمنا على اطلاع على الوسائل الاسبارطية للحزب الشيوعي الروسي في الأيام الأولى للدولة السوفياتية. إنها مسألة يتفق عليها كل الصحفيين المتعاطفين وغير المتعاطفين.

استخدم المتطرفون مهارتهم المنضبطة في تحقيق الأهداف الثورية. لقد وضع في المائة سنة الماضية أسلوب متقن في العمل الثوري يشكل الشيوعيون الروس والصينيون والكوبيون أحدث ورثته. وقد نشر الكثير عن هذا الأسلوب الذي هو ببساطة مجرد أسلوب أية مجموعة ضغط ناجحة: الدعاية، حشد الناخبين، السعي إلى التأثير في المشرعين، قتال الشوارع، حرب الأنصار، المقاومة غير العنيفة بأسلوب غاندي، تشكيل الوفود، ممارسة الضغط على القضاة، أعمال الإرهاب المتفرقة من نوع استعمال القار والريش أو زيت الخروع والأساليب الأخرى في تشكيلات متنوعة. أجاد اليعاقبة والشيوعيون وأبناء الحرية هذه الأساليب. إلا أن من المدهش ملاحظة وجود الكثير من هذه الأساليب في إنكلترا وخصوصاً في لندن منذ القرن السابع عشر. إن الثورة الإنكليزية، في هذا الصدد كما في ثورات كثيرة أخرى، نوع حديث. أصل الحادث التالي ربما من الثورة الفرنسية : أثناء مناقشة نظام المليشيا "دخلت جمهرة من المتدربين مجلس العموم وأبقوا الباب مفتوحاً وقبعاتهم على رؤوسهم... وراحوا يهتفون واقفين: "صوتوا، صوتوا" واستمروا واقفين حتى تم التصويت". يعتقد المرء أن هؤلاء المتدربين لم يقوموا بمسيرتهم تلقائياً. هذا نوع من الأمور يتطلب تنظيماً.

أخيراً يتبع المتطرفون زعماءهم بإخلاص شديد وإجماع لا يتوافر بين المعتدلين. ولا يشكل منظرو المساواة الديمقراطية، الذين يظهرون في بداية كل من الثورات الأربع، أية عقبة أمام تطور شيء بين المتطرفين يشبه كثيراً مبدأ "الفوهرر" الذي نقرنه بالحركات الفاشستية. هنا يمضي المعتدلون حياتهم وفقاً لنظرياتهم، وليس غير شائع في المراحل المبكرة من الثورة وجود شكاوى أن

فلاناً يدعي لنفسه بغير حق سلطات وزعامة شخصية لن يرغب إنسان جيد امتلاكها. لقد اتهم المعتدلون والمتطرفون على السواء ميرابو وكيرنسكي كنموذجين واضحين بأنهما هدفا إلى فرض دكتاتورية شخصية. إلا أن روبسبير ولينين سارا على منوالهما حرفياً تقريباً ولم يسمعا سوى الهتافات لهما - على الأقل في الوطن. إن تضخيم مبدأ الزعامة في صميم التنظيم من المرؤوسين إلى الأبطال القوميين العظام - كرومويل، روبسبير، لينين.

هذه الزعامة فعالة عموماً وخصوصاً عند القمة. وإذا عدوا بشراً كاملين ثمة فروق بلا شك بين من يشكلون القيادات العامة للمتطرفين. ولا يستطيع عالم النفس والروائي وكذلك المؤرخ الجمع بينها معاً بدون تمييز. غير أن جانباً مشتركاً يجمع بينهم له أهمية كبيرة لعالم الاجتماع. إنهم يجمعون بدرجات مختلفة مثلاً عالية للغاية واحتقاراً كاملاً للموانع والمبادئ التي يعدها معظم الآخرين مثلاً عليا. وهم يطرحون شكلاً مختلفاً غريباً لنظام أفلاطون الممتع: إنهم ليسوا فلاسفة-ملوكاً بل فلاسفة- قتلة، ويمتلكون اللمسة الواقعية العملية التي لم يمتلكها سوى القليل من الزعماء المعتدلين ومع ذلك لديهم أيضاً ما يكفي من نار النبي لمسك الأتباع الذين يتوقعون أورشليم الجديدة(*) قريباً جداً. إنهم أشخاص عمليون غير مقيدين بالفكر السليم، ماكيافليون في خدمة الجميلين والطيبين.

وتوضح حكاية من حياة لينين هذه المسألة. في اجتماع سري للجنة المركزية للحزب البلشفي قبل ثورة تشرين الأول/أكتوبر بقليل كان لينين يحرض على تمرد الأكثر رقة بين رفاقه الذين اعتقدوا أن البلاشفة يجب أن يحترموا إرادة أغلبية الروس المعادية لهم على نحو واضح. قال لينين: "نحن نميل إلى بحث الإعداد المنظم لانتفاضة بوصفها في طبيعة الخطيئة السياسية. إن انتظار المجلس التأسيسي، الذي من الواضح أنه لن يكون معنا، لا معنى له". هذا

(*) أورشليم الجديدة هي مستقر الأرواح الأخير بعد الخلاص وهي فكرة مهمة في اليهودية والمسيحية والبهائية ولها منزلة كبيرة في اللاهوت المسيحي وأثرت في الفلسفة المسيحية.

هو لينين العملي غير القلق بشأن عقيدة ديمقراطية تقف في طريقه. وبعد ثورة أكتوبر كتب في صحيفة برافدا عن "الأزمة التي نشأت نتيجة الافتقار إلى التطابق بين انتخابات المجلس التأسيسي وإرادة الشعب ومصلحة الطبقات الكادحة والخاضعة للاستغلال". هنا إرادة الشعب هي تحت إرادة حزب الأقلية من البلاشفة. لقد عدنا إلى وسط العقيدة الديمقراطية. ويمكن أن نورد حالات موازية من روبسبير وكرومويل بل وحتى من جيفرسن.

هل هذا نفاق؟ الأعمال من هذا القبيل تبدو دائماً متسمة بالنفاق في نظر ذوي الخيال القليل أو الخبرة القليلة بالعالم. أما على نطاق بطولي أقل فهي في الواقع جزء من الفعل البشري العادي بحيث لا تستحق تسمية تثير الازدراء كهذه. روبسبير، الذي كان وهو شاب متنور يعتقد أن عقوبة الإعدام خطأ، لم يرسل أعداءه إلى المقصلة على نحو متسم بالنفاق. لقد أقنع نفسه أن أعداءه كادوا يكونون ليس رجالاً إطلاقاً بل آثمين، أرواحاً فاسدة، عملاء لمن هو أسوأ من الشيطان وأن إزالتهم من هذا العالم ليست عقوبة إعدام حقاً في المعنى التقليدي إطلاقاً. ويمكن مع ذلك التعامل مع المجرمين العاديين وفقاً لأكثر مبادئ القانون إنسانية. إن معظمنا يتوصلون إلى هذا النوع من التفاهم مع أنفسهم على نحو متكرر في الحياة اليومية. إلا أن اليسر والملاءمة والعادة وحتى الإدراك السليم تقرر حدود التفاهم. أما بالنسبة للمتطرف الثوري فلا وجود لهذه الحدود. وفي الاهتياج والأزمة ثمة قلب غير عادي للأدوار التي يؤديها الواقعي والمثالي في الأزمنة العادية. هنا باختصار أخيراً الأعمى - أو العراف - هو ملء، الإبصار الدنيوي البسيط، النوع الذي يهم طبيب العيون بلا جدوى. لدى العرافين ما يكفي منه للمحافظة على مراكزهم القيادية. كان لدى كرومويل حقاً قدر كبير من الشعور الإنكليزي بما هو ممكن ولم يكن لينين حتماً مثالياً أكاديمياً وكان روبسبير في بعض النواحي العراف الأكثر غير الزائف على النحو الأكبر.

غير أنهم جميعاً، بمن فيهم حتى روبسبير، كانوا كما يصفهم العالم رجال عمل. كان في وسعهم تنفيذ الأمور وكانوا إداريين وتنفيذيين وتولوا إدارة

منظمات ليس في وسع التقاليد والروتين بعد بناء الكثير مما يعمل تلقائياً. وإذا خلفوا وراءهم سمعة القسوة غير العادية فربما كان ذلك جزئياً انعكاساً للإرهاب السيئ السمعة لمعظمنا. واستخدمت القسوة، في الخدمة المناسبة للمثل العليا، بينما كانوا أحياء في صنع زعامتهم. كسب كرومويل اعتراف مجموعة القدّيسين Saints بالفضل له بسبب مذابحه في إيرلندا. وأطلقت تسمية "المقصلة المقدسة" عدة أشهر على المقصلة في فرنسا. وأمر تروتسكي في تحريضه المبكر الشهير للجنود البلاشفة في الحرب الأهلية على إطلاق النار على القائد والمفوض وجندي واحد من كل عشرة في فوج من عمال بتروغراد هرب أمام العدو ولشدة فزع الزملاء الأرق منه لم يظهر تردداً بشأن مواصلة سياسة الضبط من خلال سفك الدماء. وأصبح تروتسكي منقذاً وبطلاً فترة قصيرة. لقد مضى زمن طويل على صدور الأمر رقم واحد.

يرى معظم الناس وجود هوة بين أعمالهم وبين مهنهم، بين ما هم عليه وبين ما يودون أن يكونوا عليه. غير أنهم ينجحون عادة في الإبقاء على الهوة ضيقة على نحو كاف أو يحولون اهتمامهم بعيداً عن جانب منها أو الجانب الآخر لكي لا ينزعجوا بها. يرى زعماء المتطرفين في زمن الثورة أن الهوة تبدو للمراقب الخارجي هائلة وأكبر مما هي في الأوقات العادية. ويبدو أن رجالاً قليلين، من مثل فوشيه، كانوا إرهابيين من أجل إنقاذ أنفسهم. غير أن المتطرف المخلص وحده في الثورة هو وحده الذي يستطيع قتل الناس لأنه يحب الإنسان وينال السلم من خلال العنف ويحصل على الأحرار من خلال استعبادهم. إن تناقضات من هذا القبيل تشل زعيماً عملياً على نحو تقليدي غير أن المتطرف يبدو غير مكترث لذلك. وبينما يقلق الإنسان العادي بالشخصية المصابة بالانفصام مثلاً وإذ ينزعج ضميره أو إحساسه بالواقع أو كليهما، يمضي المتطرف إلى الأمام على نحو جريء. وعلى الرغم من أن الفجوة واسعة بين الواقعي والمثالي في فترة الأزمة فإنه يستطيع اجتيازها كما يشاء. إنه يمتلك مؤقتاً أفضل ما في العالمين. ويستطيع أن يؤثر بمهارة متساوية البشر الأقوياء والمعقدون في اللجان والوفود والمكاتب والوزارات وكل المشاكل المزعجة في

الإدارة ومع ذلك يستخدم برشاقة وإقناع الكلمات المجردة التي لا يمكن الاستغناء عنها والكثيرة التردد التي لها في الثورات قوة سحرية على المجموعات الكبيرة.

يبدو أن هذه الموهبة الأخيرة تتجاوز تماماً قدرة المنافق الأكثر طموحاً. زعماء الإرهاب البارزون مؤهلون لمهمتهم بشعور حقيقي بأنهم مدعوون للقيام بمهمة، نداء باطني يستبعدهم من السلطة السياسية في الأوقات العادية. إن إيمانهم بالمطلق ليس زائفاً وهو حقيقي مثل قدرتهم على معالجة غير المتوقع. المطلق سياسة عملية هذه المرة الواحدة فقط. كتب ف. دبليو. ميتلاند(*) مقطعاً أوحى به كولرج(**) يتناول هذه المسألة بوضوح:

> علق كولرج كيف أنه في أوقات الحماسة السياسية تصبح المصطلحات التي تعبر عن النظريات السياسية مجردة وغير عملية. وفي الأوقات من هذا القبيل يكسو الإنسان النظريات بمصطلحات شاملة... إن الروح المطلقة شائعة. ويبدو ما هو طيب نسبياً أو جزئياً مثالاً سيئاً. إننا لا نتحدث عن هؤلاء أو أولئك الناس بل عن هذه الأمة أو ذلك العصر، نتحدث عن الإنسان.

3. أهلية المتطرفين

لا يرى المتطرفون أن الانتقال من المعارضة إلى السلطة أمر مفاجئ. وفي الواقع أن السيادة الثنائية ليست صراعاً بين الحكومة والمعارضة أو بين التفاصيل بل بين حكومتين داخل الدولة نفسها، وليست حرباً أهلية غير نظامية. وفي ظل العهد القديم ربما لا تستولي تدريجياً سوى مجموعة ضغط واحدة هي منظمة الثوريين في الاضطراب الذي تشهده المراحل الأولى من الثورة الفعلية على السلطات الحكومية التي لا تخضع بعدها تماماً إلى الحكومة المركزية، الوريث

(*) فريدريك ويليم ميتلاند (1860–1906) قانوني أكاديمي ومؤرخ إنكليزي

(**) صامويل تيلر كولرج (1772– 1834) شاعر رومانسي إنكليزي بارز.

القانوني تقريباً للنظام القديم. وهذه العملية واضحة خصوصاً في روسيا على الرغم من أنها متماثلة كثيراً في كل الثورات الأربع.

غير أن كل مجالس السوفياتات، حتى في بلدات الأسواق، تولت العمل الإداري من البداية. ويورد تروتسكي، بوصفه مؤرخاً، بعض الأمثلة الواضحة:

> اضطر مجلس السوفيات في ستراتوف إلى التدخل في النزاعات الاقتصادية واعتقال أصحاب المصانع ومصادرة الترامواي العائد للبلجيكيين وتطبيق سيطرة العمال وتنظيم الإنتاج في المصانع المهجورة.... وفي الأورال شكلت مجالس السوفيات الميلشيا الخاصة بها في عدة مصانع ودفع تكاليف معداتها من أموال المصنع ونظمت عملية تفتيش للعمال جمعت المواد الخام والوقود للمصانع وأشرفت على بيع السلع ووضعت سلماً للرواتب.

ومن الواضح، أن شعار "كل السلطة للسوفياتات" في أجزاء من روسيا أصبح غير ضروري حتى قبل ثورة أكتوبر.

وفي فرنسا لم تكن "جمعيات أصدقاء الدستور" لدى تشكيلها عام 1789 أكثر من مجرد مجموعات ضغط أو ربما أنواع فرنسية من المؤتمرات الحزبية اليانكية وبحلول 2 حزيران/يونيو 1793 تولت الكثير من المهام التي تتولاها عادة الهيئات الحكومية. وعندما فشلت "السلطات المعينة"، كما سمى اليعاقبة المجالس الحاكمة والمجالس التشريعية على نحو متسم بالاحترام، في تنفيذ ما أراد اليعاقبة تأديته، تقدم اليعاقبة وتولوا التنفيذ بأنفسهم. وتوقعت أندية اليعاقبة في الأقاليم بخاصة التشريع القمعي كله ضد رجال الدين الكاثوليك. نظمت الأندية كهيئات برلمانية مع قواعد محكمة للمناظرة مع لجان ومسؤولين ومحاضر وكل جهاز مجلس تشريعي. وكان أحد الأندية أحياناً يرغم أو يقنع موظفي البلدية أو المحافظة بقبول سياسة أقرها اليعاقبة وعندما يفشل النادي في تحقيق ذلك يقرون القوانين والمراسيم بدون ضوابط تقريباً. وإذا احتج أعضاء على هذا التدخل المثير للاشمئزاز في عمل سلطات اختيرت بالانتخاب الشعبي - وقد احتج الكثير فعلاً لهذه الأسباب - يعدون معتدلين وهم محظوظون إذا نجوا من المقصلة لاحقاً.

كانت حقيقة أن من صنعوا الثورة الأميركية لم يمارسوا فن الحكم الفعلي ملاحظة مألوفة طويلاً للكتاب الأنكلوسكسونيين على جانبي المحيط الأطلسي كليهما. إن ما لا بد ذكره هنا هو أن الاستعدادات لم تكن تماماً من النوع القانوني التقليدي. درب الراديكاليون الأميركيون على تولي الحكم من وكلاء التاج ليس في اجتماعات المدن والمجالس التشريعية للمستعمرات فحسب بل كذلك في المؤتمرات الحزبية واللجان والمؤتمرات التي تشبه مجالس السوفيات وأندية اليعاقبة. وسنرى في الفصل التالي أنهم لم يترددوا في استخدام الوسائل الإرهابية نفسها للاستحواذ على السلطة وللمحافظة عليها كذلك.

الوضع معقد في إنكلترا بسبب حقيقة أنه على الرغم من المنظمة غير الشرعية المشكلة باسم الجيش الجديد كانت أبرشيات المستقلين المتنوعة وكيلة للمتطرفين في سعيهم للاستحواذ على السلطة. وبدأ الجيش نفسه طبعاً بعد معركة نيسبي(*) بفترة قليلة بالتدخل في السياسة على نحو لا يفعله جيش تقليدي. وأطلق الطرد الأول للمشيخيين من البرلمان عبر قرارات ولجان عسكرية. غير أن المستقلين، وخصوصاً رجال الدين المستقلين، كانوا قد تدخلوا في مسائل دنيوية حقاً. وكما ذكر البروفسور غريرسن: "لم يكن ما فعله لاود هو ما شكا منه باكستر [كاهن متطهر] بقدر ما لم يكن ليسمح لقساوسة الأبرشيات القيام به، أي ممارسة نظام أخلاقي ممتد مع الأبرشية". وقصد المتطهر بالنظام الأخلاقي شيئاً ممتداً طوال الحياة البشرية.

المتطرفون إذاً غير أبرياء أو غير مجربين سياسياً. لهم خبرة طويلة في الاضطهاد والتدريب الأقصر والمكثف للغاية في الحكم الفعلي قبل تولي السلطة الكاملة. ووصف الزعماء أو الأعضاء العاديين بأنهم "مجرد منظرين" و"ميتافيزيقيين" كما استمرت العادة طويلاً خصوصاً بين الكتاب السياسيين بالإنكليزية هو أمر مضلل. لم تكن لا أهدافهم وأساليبهم هي تلك التي يقرها أو

(*) معركة نيسبي (14 حزيران/يونيو 1645) من المعارك المهمة في الحرب الأهلية الإنكليزية دمر فيها جيش البرلمانيين الجديد بقيادة فيرفاكس وكرومويل الجيش الرئيسي للملك تشارلز الأول.

يتعاطف معها الفكتوريون الجيدون من مثل باغوت(*) أو مين(**). إنهم حتماً مثاليون متطرفون ويحتقرون الحلول الوسط. إي أنهم ليسوا المنظرين الأكاديميين غير المتكيفين تماماً للعمل. على العكس من ذلك، إنهم متكيفون على نحو مثير للإعجاب. التطويح الفعلي بالمعتدلين عمل متقن عادة ومثال ممتاز على مهارة الزعماء الثوريين وتكيف المنظمات الثورية الوثيق لوظائفها. إنها ليست على الإطلاق انتفاضة شعبية كبرى. الجماهير، التي يجعل تجوالها المتسم بالارتباك مستحيلاً على المؤرخ تقديم وصف دقيق للاستيلاء على الباستيل أو ثورة شباط/فبراير في بتروغراد لا تتدخل في سرعة الإنجاز المهني لحملة التطهير التي نفذها برايد وتطهير الجيرونديين وثورة أكتوبر. وصل المتطرفون إلى السلطة في فرنسا في اثنين من هذه الانقلابات. الانقلاب الأول هو التطويح بالملكية في 10 آب/أغسطس 1792 الذي نفذ من خلال تعاون متقن ولو أنه لم يكن مشوشاً من خلال أجهزة متنوعة في الحكومة غير الشرعية - أندية اليعاقبة والأندية السياسية الأخرى والاتحادات والمليشيا المحلية من كل أنحاء فرنسا المجتمعة في باريس للاحتفال بسقوط الباستيل والمنظمات التي صنع منها الكومون الثوري الباريسي. واندمجت العناصر نفسها بعد عشرة أشهر للقيام بالمهمة الأسهل للضغط على المؤتمر الوطني(***) لإبعاد الجيرونديين. وشكل دانتون ومارا وربما روبسبير وعدد من الزعماء الثانويين الأقل شهرة وإن كانوا ماهرين للغاية هيئة عامة حضّرت لكلا الانقلابين.

(*) ويليم باغوت (1826- 1877) محلل اقتصادي وسياسي وصحفي إنكليزي.

(**) سير هنري مين (1822- 1888) مؤرخ وصحفي ومن علماء الإنسان البريطانيين .

(***) افتتح المؤتمر الوطني الذي اشترك في انتخابه كل الذكور البالغين في فرنسا تقريباً وأعلنت فرنسا جمهورية في 21 أيلول/سبتمبر 1792 وحوكم لويس السادس عشر وأعدم واتجهت الثورة نحو المزيد من التطرف وتزعم الجبليين روبسبير ودانتون ومارا وانتصر الجبليون في الصراع على السلطة وطرد قادة الجيرونديين من المؤتمر واعتقلوا فثار مؤيدوهم ضد المؤتمر وقتلت شارلوت كورديه مارا وهزم الجيرونديون وأنشأ جيش جديد لقمع التمرد ومحاربة دول أوروبية أخرى. وبدأ عهد الإرهاب الذي انتهى بإعدام روبسبير في 28 تموز/يوليو 1794 وأبعد اليعاقبة عن السلطة.

أعد لثورة أكتوبر إعداداً محكماً ووصفها تروتسكي على نحو واضح في كتابه تاريخ الثورة الروسية. ولسنا في حاجة هنا إلى الخوض في تفاصيل هذا الإعداد. غير أن اقتباساً من تروتسكي سيبين التفاصيل التي عني بها:

> لفت عمال الطباعة من خلال نقابتهم انتباه اللجنة [لجنة الثورة العسكرية في بيترغراد، هيئة القيادة العامة لثورة أكتوبر] إلى زيادة في المنشورات والكراريس الرجعية. وتقرر قدوم أعضاء نقابة الطباعة في كل الحالات المثيرة للشك إلى اللجنة العسكرية الثورية لتلقي التعليمات. وكانت تلك الجهود الأكثر فعالية بين كل أشكال السيطرة على التحريض من خلال مطبوعات الثورة المضادة.

من الطبيعي أن التحريض من خلال المطبوعات يحتاج إلى عمال طباعة علاوة على الحرية القانونية للصحافة. وقد استخدم الرئيس الأرجنتيني بيرون أسلوباً مشابهاً للتخلص من الصحيفة المستقلة لا برينسا. كان المعتدلون مقيدين في الأيام القليلة الأخيرة قبل التمرد البلشفي. لم يكن هنالك كلام فارغ عن إضراب عام بل سلسلة منسقة من عمليات الاستيلاء على مواقع الجيش ومراكز الشرطة والصحافة والبريد واللاسلكي والمصارف والوزارات.

لعل تولي كورنيت جويس عملية القبض المثيرة على الملك تشارلز الأول في هولمبي هاو في3 حزيران/يونيو 1647 هو تولي الجيش الجديد السلطة السيادية أول مرة. وعندما سأل تشارلز جويس من أين استمد التخويل باعتقاله يقال إن جويس رد مشيراً إلى جنوده المصطفين في الساحة: "ها هنا تفويضي". هذا الجواب موجود في الثورات الأربع كافة. حالما يتولى المتطرفون السلطة لا يعود هنالك احترام صعب الإرضاء لحريات الفرد أو لأشكال الشرعية. وبعد المطالبة الصاخبة بالحرية والتسامح الديني أثناء فترة المعارضة يتحولون إلى استبداديين عندما يتولون السلطة. ولا توجد حاجة إلى التحسر على ذلك أو السخط أو الحديث عن النفاق. نحن نحاول استنتاج حالات التماثل في سلوك البشر أثناء ثورات معينة في نظم اجتماعية محددة وتبدو هذه واحدة من حالات التماثل.

> لم تكد تمر ستة أشهر، كما يقول غاردينر(*) على سماح زعيمي المستقلين [كرومويل وفين(**)] باستبعاد مئات المكابدين من جامعة أوكسفورد حتى شرعا بالسعي لوضع أسس نظام واسع للتسامح الديني في رؤوس الاقتراحات(***). بل حتى أخذا بنظر الاعتبار خطة لتوسيع ذلك التسامح ليشمل القساوسة الكاثوليك أنفسهم.

وفرضت لاحقاً في فترة برلمان رمب(****) رقابة صارمة على الصحافة وفرضت السياسة الحكومية مبادئ وميول النزعة التطهرية قدر الإمكان. كما أن الحكومة الجديدة في فرنسا وروسيا مارست الضغط فوراً على أعدائهما وشرعت في بناء جهاز الإرهاب القادم. وعزز الانضباط بقدر كبير من الحزم في فرنسا وروسيا حيث فقد الجيش الانضباط بتأثير المحاولات النشيطة لتطبيق شعارات الحرية والمساواة والأخوة. ويصف السيد تشيمبرلين(*****) الحالة الروسية" :

> شرعت السلطات العسكرية البلشفية في التحدث عن التأثير الضار الذي يحدث الفوضى الواسعة للجان العسكرية كما تحدث كورنيلوف ودينيكين وضباط الجيش القديم عام 1917. وأصبحت تدريجياً الإطاعة الصارمة لأوامر الضباط راسخة في الجيش الأحمر.

كان مشروعا رؤوس الاقتراحات و اتفاقية الشعب الراديكاليان اللذان تبناهما الجيش بتأثير المساواتيين قد اقترحا شيئاً قريباً لما أصبح ديمقراطية

(*) صامويل روسن غاردينر (1829– 1902) مؤرخ إنكليزي وأستاذ للتاريخ الحديث في جامعة لندن.

(**) سير هاري فين (1613– 1662) سياسي وعضو في البرلمان وأيده في الحرب الأهلية وحوكم بعد عودة الملكية بتهمة الخيانة العظمى وأعدم.

(***) مجموعة اقتراحات هدفها تكوين قاعدة لتسوية دستورية بعد دحر الملك تشارلز الأول في الحرب الأهلية الإنكليزية الأولى.

(****) رمب Rump هو اسم البرلمان الإنكليزي بعد أن طهر العقيد برايد البرلمان الطويل من الأعضاء المعادين لترايا كبار الضباط في الجيش الجديد محاكمة الملك تشارلز الأول بتهمة الخيانة العظمى.

(*****) وليم تشيمبرلين (1897– 1969) مؤرخ وصحفي أميركي وضع عدة كتب عن الحرب الباردة أشهرها الثورة الروسية.

تقليدية في القرن التاسع عشر - المناطق الانتخابية المتساوية، البرلمانات المتكررة، القيود المعنية على السلطة التنفيذية، وحتى الاقتراع الشامل لكل البالغين.

ويبدو أن كروموبل لم يكن في أي معنى ثائراً عقائدياً والأرجح أنه كان يحس بالكثير من المشاعر عن السلطة والتقاليد التي يتوقعها المرء من نبيل من الأرياف. وإذا كان قد كابد في ذهنه بسبب الوضع فالأرجح لأنه لم يكن ممكناً المحافظة على المؤسسات البرلمانية القديمة الجيدة. وكان حتماً الشيء الأخير الذي يمكن فعله إجراء انتخابات مفتوحة وحرة وفقاً لأي حق انتخابي. ولم يكن ما يسمى برلمان القديسين الذي اجتمع عام 1653 عقب حل برلمان الرمب سوى مجلس مشكل من مجموعات المستقلين الموثوق بهم واختيروا عن طريق المؤتمرات المغلقة.

في فرنسا كذلك لم يجرؤ المنتصرون في 2 حزيران/يونيو(*) على اللجوء إلى الشعب. وتولوا كمبادرة تشريع ما يدعى دستور 1793 المستند إلى حق الاقتراع العام وحقوق الإنسان وبقية لوازم الديمقراطية، غير أنهم حرصوا على عدم المضي أبعد من طبع الدستور الذي لم يوضع موضع التنفيذ.

هاجم البلاشفة طوال عدة شهور الحكومة المؤقتة لعدم الدعوة إلى عقد مجلس تأسيسي. وقد اختير هذا المجلس في نهاية الأمر بالاقتراع العام قبل الانقلاب البلشفي. وكان هذا المجلس أقلية. وحل لينين المجلس التأسيسي في

(*) سيطر الزعيمان الثوريان جاك رو وجاك ايبرت في هذا اليوم بتشجيع من "الحانقين" على المؤتمر الوطني ووجها دعوة إلى عمليات تطهير سياسية وتحديد سعر ثابت منخفض للخبز وتقييد حق الانتخاب وأقنعا المؤتمر باعتقال 31 من زعماءالجيرونديين منهم جاك بيير بريسو. وسيطر اليعاقبة بعد هذه الاعتقالات على لجنة السلامة العامة وأقاموا الدكتاتورية الثورية في 10 حزيران/يونيو وفي الثالث عشر من تموز/يوليو اغتالت شارلوت كورديه مارا، أحد زعماء اليعاقبة المعروف بخطابه المتعطش للدماء وزاد نفوذ اليعاقبة السياسي وأزيح دانتون وأصبح روبسبير عضو اللجنة التي اتجهت إلى اتخاذ إجراءات متطرفة ضد أعداء الثورة في الداخل والخارج.

كانون الثاني/يناير 1918 بدون قلق غير أن الكثير من أتباعه أحسوا، على الرغم من تدربهم الماركسي، بالأذى بسبب هذا التحدي للمشاعر والتقاليد الديمقراطية. كما شعر الكثير من اليعاقبة بالقلق بسبب حقيقة قيام الدكتاتورية الجديدة.

أصبحت النظرية تؤمن علاجاً للضمائر الجريحة - وهذا ليس مهمة عادية أو غير مهمة في أي مجتمع. إن نظرية الدكتاتورية الثورية متماثلة تقريباً في ثلاث من الثورات الأربع. الحرية للجميع والحرية الكاملة والعادلة هي الهدف المطلق طبعاً. إلا أن هذه الحرية تعني حالياً أنه يمكن لمن تفسدهم الوسائل القديمة السيئة تحقيق خططهم الشريرة واستعادة المؤسسات القديمة السيئة وإحباط الطيبين. ولدى التأمل من الواضح أنه يجب التمييز بين الحرية لمن يستحقونها والحرية لمن لا يستحقونها أي الحرية المزيفة، الانحراف أو الفوضى. لقد منح الرب الحرية إلى القديسين - الحرية الحقيقية التي هي طاعة الرب - غير أنه لم يمنح الحرية إلى الخاطئين. إنك لا تقمع الكاثوليك كما تقمع الشياطين. وبدا القول إن هؤلاء الخاطئين يجب أن يتركوا وشأنهم سخيفاً في نظر المتطهرين الإنكليز في القرن السابع عشر مثل القول إنه يجب ترك البعوض الناقل للحمى الصفراء وشأنه. عبر روبسبير عن نفسه على نحو تقليدي عندما أعلن أن الحكومة الثورية هي استبداد الحرية ضد الطغيان. ورأى ماركس أن البروليتاريا مرحلة انتقالية ضرورية تزال فيها الآثار الأخيرة للوسائل الرأسمالية والعقلية الرأسمالية وأن الاستخدام القاسي للقوة ضروري في هذه الفترة - غير محدودة الأمد للأسف. ويبدو أن الرأسمالي يبقى رأسمالياً أبداً. غير أنه عندما يكون البشر إخوة في نهاية المطاف فإن حرية المجتمع غير الطبقي تبدأ أخيراً.

بفضل معرفة المتطرفين أنهم يخدمون الحرية - في معنى الكلمة السامي والحقيقي - بتطبيق صارم لما يبدو لغير المؤتمنين أنه طغيان فإنهم يمضون في تعزيز سلطتهم من خلال المؤسسات. وقبل طرح وصف موجز وعام لهذه المؤسسات يمكن ملاحظة تماثل آخر. مع انتصار المتطرفين كما تولينا تعريفهم، تتوقف عملية نقل السلطة من اليمين إلى اليسار. لا يمكن حقاً استثناء المتطرفين

من الصعوبة التي واجهتها المجموعات المنتصرة الأخرى منذ بداية العملية الثورية. إنهم يطورون صراعات داخلية ويميلون إلى الانقسام إلى مجموعات متعادية جداً فيما بينها بحيث لا يمكنها التعاون. ولا يمكن ترتيب هذه المجموعات ترتيباً دقيقاً من اليمين إلى اليسار. وينتهي شقاقها سريعاً حتى بدون الاضطراب والارتباك الشديد الذي يحدثه الانقلاب. أصبحت الخلافات مذهبية على نحو غامض وبعيدة للغاية عن جماهير الشعب بحيث لا يمكن أن تتركز على بضعة زعماء. وتسوى الخلافات بالنفي أو "الاغتيال القضائي" - كما يبدو للأنصار المدحورين - لبعض هؤلاء الزعماء. وما بدأ بانتفاضات واسعة النطاق وصل الآن إلى الكشف المثير في قاعة المحكمة.

فرنسا هنا هي الحالة الأوضح. انقسم الجبليون المنتصرون في الثاني من حزيران/يونيو ثلاث فئات وقف روبسبير ودانتون وايبرت(*) على رأسها. وهنالك طبعاً الفئات الفرعية، أجهزة داخل أجهزة، ولولا اغتيال مارا في صيف 1793 لحدثت تعقيدات أخرى. وبعد انتصار روبسبير في نهاية المطاف تولي ترشيد الوضع كصراع بين الثوريين الحقيقيين، من ناحية، وبين الثوريين المتطرفين (هيبرت) والثوريين من مثل دانتون، من الناحية الأخرى. كان روبسبير، في نظر نفسه، الوسط الذهبي العفيف بين الرذيلة البروليتارية وبين الفساد البرجوازي. ويكاد الوضع الفعلي يكون معقداً على نحو لا يصدق، ويمتلك المؤرخ السردي وحده المجال الأوسع لإزالة التشويش. وقد سعى المؤرخون الفرنسيون المعاصرون، الشيوعيون أو على الأقل الملهمون بالماركسية، طويلاً للوصول إلى الجوهر الصحيح والمكرس للثوريين الحقيقيين، الشيوعيين الأصليين. هذا ما كان موجوداً في أنصار ايبرت، الساخطين، ذوي السواعد العارية، أو المناضلين من فقراء سكان باريس أو معظم هذه المجموعات إلا أن أفضل كلمة

(*) جاك هيبرت (1757- 1794) صحفي من زعماء الثورة الفرنسية ساهمت هجماته ضد الملكة ماري انطوانيت في إعدامها واصطدم بروبسبير وحاول إثارة حركة شعبية ضده فاعتقل وأعدم مع بعض أنصاره بالمقصلة.

لوصفها هي تلك الكلمة غير الماركسية القديمة "الزمر". أدين الدانتونيون والايبرتيون، "الخونة" و"الفوضويون"، أمام المحكمة الثورية في مجموعتين كبيرتين ومتنوعتين. وأحكمت "زمرة روبسبير" السيطرة على فرنسا في الأشهر القليلة التالية.

وجد المستقلون المنتصرون في إنكلترا عام 1649 أنفسهم أنهم يواجهون مجموعة متنوعة تنوعاً مثيراً للدهشة من الطوائف التي انخرطت في العمل العام الجيد من أجل قضية التسامح التام مع كل المنشقين (الذين رفضوا الانضواء تحت راية الكنيسة الأنجليكانية أي كنيسة إنكلترا الرسمية). وسنتحدث بعد قليل عن الجانب العقائدي لهذه المجموعات. وفي الوقت نفسه يمكن ملاحظة أن كرومويل لم يواصل الضغط على الكاثوليك والأسقفيين والمشيخيين فحسب بل تأكد هو وضباطه من عدم السماح لرجال الملكية الخامسة والحفارين والمساواتيين والألفيين والكويكرز والباقين بتطبيق خططهم الجامحة. ولم يعد في وسع الحفارين مواصلة الحفر في هذه الأرض. وتم التخلي عن التكتيكات القديمة المستندة إلى شعار "لا عدو إلا اليسار" الذي استمر منذ بداية الثورة. وكما كتب ج. م. تريفليان(*): "يصبح كل الثوريين نوعاً من المحافظين حالما يتولون المسؤوليات الفعلية. أعدم روبسبير الفوضويين بالمقصلة. وكان العمل الإداري الأول لقتلة الملك [الإنكليزي] هو إسكات المساواتيين". هنالك إذاً أولئك الأكثر تطرفاً من المجموعة التي وصفناها بالمتطرفة. إلا أن هؤلاء هم أفراد المجموعة الطائشة. إنهم الأفراد غير العمليين الذين يعتبرهم بعض المحافظين ثوريين نموذجيين. وهم حتماً لا ينجحون في تولي السلطة.

ما تزال الحالة الروسية غامضة نوعاً ما فيما يتعلق بمعارضة البلشفية الرسمية بعد أكتوبر 1917. ويبدو هذا الغموض في بعض النواحي حالياً أشد من أي وقت مضى. وعلى الرغم من ذلك من الواضح أنه عندما كان لينين على

(*) ج.م. تريفليان (1876- 1962) مؤرخ إنكليزي من أسرة عريقة ناصر أفرادها دائماً حزب الأحرار.

قيد الحياة وخصوصاً في السنة التي أعقبت ثورة أكتوبر كان هنالك قدر كبير من الضغوط والتوترات داخل الحزب البلشفي. وقمع لينين وأنصاره المجموعات المعارضة حتى عندما زعموا أنها أكثر ثورية من اللينيين. ولم يكن هنالك أي أعداء إلى اليسار. وبفضل الضبط الفائق في الحزب البلشفي والطبيعة الملحة بخاصة ضد البيض(*) والحلفاء لم تكن تلك النزاعات علنية مثلما كانت في إنكلترا وفرنسا. غير أنه بعد موت لينين ظهرت تلك الصراعات إلى العلن - أو كادت تفعل ذلك في روسيا قدر الإمكان. وسقط تروتسكي "المتطرف" وبوخارين(**) أمام ستالين التقليدي مثلما سقط دانتون وايبرت أمام روبسبير التقليدي. ويبدو أن المحاكمات والاعترافات في روسيا في أواخر عقد الثلاثينيات من القرن العشرين وإرهاب فترة يزوف(***) المرافقة لها تنتمي إلى مرحلة مختلفة من الثورة أو بالأحرى هي صعوبات داخلية لمجتمع محدد مر خلال دورة واحدة من الثورة. وعلى الرغم من المقارنات السطحية فإنها لا تبدو جزءاً من التماثل الذي نناقشه. وسنعود إليها لاحقاً.

إن زمر المعارضة الصغيرة هذه متشابكة على نحو معقد للغاية مع المجموعات الغريبة الأطوار التي لم تهدأ تماماً حتى في ذروة الإرهاب. إنها تمثل، كما رأينا، الجماعات المتطرفة في أية حضارة متقدمة تكون بخاصة نشيطة وذات صوت عال في المراحل المبكرة للثورات الأربع وأثناء الصراع بين المعتدلين والمتطرفين. إنها أقل أهمية في المسار الفعلي لهذه الثورات مما يود

(*) تشكلت الجيوش البيضاء في روسيا عقب معاهدة بريست ليتوفسك بين ألمانيا وروسيا الشيوعية التي أدت إلى معارضة واسعة للحكومة البلشفية وهددت الجيوش البيضاء في الحرب الأهلية النظام البلشفي وكان السبب الرئيسي لاندحار البيض فشلهم في نيل دعم الجماهير لقضيتهم.

(**) نيقولاي بوخارين (1858-1938) سياسي وكاتب سوفياتي ومنظر رئيسي في الحركة الشيوعية أثناء الفترة الثورية في روسيا وطوال عقد العشرينيات.

(***) نيقولاي يزوف (1895- 1940) زعيم بلشفي ثوري روسي ولد عام 1888 وشارك في ثورة 1917. كان قريباً من لينين على الرغم من خلافاته المهمة معه. تحالف مع ستالين ضد تروتسكي وتولى منصباً كبيراً في الشرطة السرية أثناء فترة التطهير الكبرى.

المؤرخون المحافظون والمحافظون عموماً إثباته. إلا أنها مغايرات مثيرة للاهتمام في الاستقامة الثورية وتضيء في نواح كثيرة التاريخ العام للهرطقة والهرطقيين.

كتب ليتون ستريتشي(*): "لم يحقق العقل البشري مثل هذه الذروة الرائعة من إثبات الذات كما في إنكلترا عام 1650". إن ما نعرفه الآن على نحو مؤكد بأنه يكاد يكون حباً بريطانياً عرقي الأساس لمنتصف الطريق غير واضح في تلك السنوات. ومن المفارقة أن ستريتشي يورد احتمال التجول إلى اعتناق مبادئ بيهمان(**). وأصدر جون هير نشرة عام 1647 انتقد فيها مبدأ الممتلكات الخاصة بدون أن يوضح ما يمكن أن تحل محلها. وحث تشيمبرلين في محامي الفقير على تأميم كل ممتلكات التاج والكنيسة واستعادة كل الأراضي العامة التي حصرها وإطلاق اسم المخزون الوطني عليها وإدارتها لمنفعة الفقراء.

بالمقارنة مع ثروة الخيال التي يضعها الإنكليز في جهود جلب الجنة إلى الأرض تبدو الثورتان المتطرفتان الفرنسية والروسية معدمتين. وربما كان الاعتقاد أن الفرنسيين يفتقرون إلى عمق التصور إلا أنه لا يمكن حتماً إطلاق هذا الوصف على الروس. الجواب هو أنه لا حركة التنوير لفلاسفة القرن الثامن عشر ولا مادية الماركسي الجدلي يمكنهما حمل شمعة لنسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس. غير أن فرنسا لم تكن بتاتاً غير منتجة في جانب المجموعة الغريبة الأطوار. وقد وصف مثيرو الهياج، أصحاب الأذرع العارية، أتباع بوبوف، كما لاحظنا، بأنهم ماركسيون أصليون. كانوا مؤمنين بالمساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واقتصاديين وسياسيين على نحو حازم حتماً.

(*) ليتون ستريتشي (1880- 1932) كاتب سير إنكليزي.

(**) جاكوب بيهمان (1575-1624) زاهد ألماني كان له أتباع كثيرون في ألمانيا وهولندا وإنكلترا. كما يذكر المؤلف إمكانية مبادئ آخرين من الصعب جداً الحصول على معلومات عنهم من المراجع المختلفة من مثل (a Bidellian, A Coppinist, a Salmonist, a Dipper, a Transkite, Tyronist, a Philadephian, Christadelphian, or Seventh Day Bapstist وهذا الأخير هو معمداني اليوم السابع أي المسيحي الذي يواصل الاحتفال بيوم السبت ويبلغ عدد أعضاء هذه الطائفة أكثر من 50 ألفاً في 22 دولة.

ثم هنالك الدائرة الصغيرة التي لا تصدق حول كاترين تيو(*) (أم الله) - مع تسمية روبسبير على الأقل بوصفه أحد مظاهر الرب. ويبدو مرجحاً حقاً أن الأساتذة الأكاديميين الجمهوريين في فرنسا على صواب وأن الكثير من هذا قد أثار أعداء روبسبير لجعله يبدو مثيراً للسخرية، إذ حتى في فترة الأزمة في الثورات يحتفظ البعض بروحهم المرحة. إلا أن الحقيقة تبقى أن كاترين تيو وحلقتها كانت موجودة.

الأرجح في روسيا أن اكتمال وسرعة الانتصار البلشفي يفسر الافتقار النسبي إلى المثاليين المنافسين. وصحيح أنه من عام 1918 حتى عام 1921 أرغم البلاشفة على قتال الروس البيض والحلفاء في اثنتي عشرة جبهة وأنه في إقليم أوكرانيا، على سبيل المثال، يمكن أن تجد كل شيء من الحكام القياصرة إلى النارودنيكيين المعتدلين والأنصار أو حكام الأنصار إلى الثوار الحمر الأنقياء. إلا أنه توجد وحشية شديدة في الثورة الفرنسية يبدو أنها تستبعد أوهام ايفرارد(**) أو كاترين تيو.

4- جهاز الدكتاتورية

يتجسد طغيان المتطرفين في الأشكال الحكومية بوصفها مركزية عنيفة. وتتباين هذه الأشكال في التفاصيل في المجتمعات الأربعة غير أن الكومونويلث في إنكلترا والحكومة الثورية في فرنسا والدكتاتورية البلشفية أثناء فترة "شيوعية الحرب" في روسيا تظهر جميعاً تماثلاً من النوع الذي لا يتردد عالم التصنيف في علم الأحياء أو علم الحيوان في تصنيفه كتماثل. إن اتخاذ القرارات النهائية بصفة خاصة في مجموعة واسعة من المسائل يتم بعيداً عن السلطات المحلية

(*) كاترين تيو (1716-1794) فرنسية كثيرة الرؤى وضحية الهلوسة منذ شبابها ولذا وضعت القيود عليها. تصورت نفسها أم المسيح واعتقلت بعد اكتشاف رسالة إلى روبسبير في بيتها وتوفيت في السجن.

(**) سير ايفرارد ديبغي (1578-1606) أحد المشاركين في مؤامرة البارود لاغتيال ملك إنكلترا جيمس الأول وأعضاء البرلمان.

والثانوية لاسيما إذا كانت تلك السلطات منتخبة "ديمقراطياً" وتتركز في أشخاص قليلين في العاصمة الوطنية. وعلى الرغم من أن أسماء من مثل كرومويل وروبسبير ولينين تبرز كحكام وعلى الرغم من أن هؤلاء قد مارسوا سلطة لا تقبل المنازعة في نواح كثيرة فإن اللجنة هي طبيعة الشكل المميز لهذه السلطة العليا وحكومة الإرهاب. تعتمد هذه السلطة المركزية - المجلس العسكري أو مجلس الدولة، لجنة السلامة العامة، اللجنة التنفيذية لعموم روسيا -على هيئة تشريعية ثرثارة وفاترة الهمة - برلمان رمب، المؤتمر، برلمان سوفياتات عموم روسيا - وتتولى تنفيذ أوامرها بيروقراطية مرتحلة يعين أفرادها عموماً من أعضاء الحزب ومن مجموعة الضغط المستندة إلى النادي - الطائفة التي شاهدنا بوصفها هيئة المجموعة المتطرفة. ولا يمكن للمحاكم العمل، على الأقل في أسلوبها التقليدي. لذا أضيفت إليها محاكم استثنائية ومحاكم ثورية أو حولت تماماً بتعيينات جديدة وبسلطة قضائية خاصة. وأخيراً ظهر نوع جديد من الشرطة الثورية. التشيكا الروسية مألوفة لكل من لديه أدنى معرفة بالتاريخ الحديث. واستمرارها تحت تسميات مختلفة دليل ليس على أن روسيا في ثورة متواصلة بل إن روسيا السوفياتية تبقى في نواح كثيرة مثل روسيا القيصرية التي كانت لها شرطة سرية. وفي فرنسا تولت لجنة الأمن العام واللجان الثورية مهام الشرطة هذه. ونفذ رجال الدين المستقلون في الثورة الإنكليزية وساعدهم على نحو فعال اللجان الخاصة المختلفة في الجيش. إلا أن نسيج المركزية الحكومية كان بدائياً وبسيطاً - دكتاتورية كرومويل غير السوية، أي مجلس الدولة الجديد المنتخب سنوياً من برلمان رمب، وفيه اجتمعت السلطات التشريعية والإدارية والقضائية على نحو شامل في غرفة النجمة في عهد آل تيودور وآل ستيوارت وتجربة الجنرالات المثيرة(*) في العامين 1655-1656. إلا أن حقيقة المركزية في إنكلترا ليست موضع شك. وحتى المهام المقدسة لقاضي السلام، للحارس

(*) استمر حكم الجنرالات 15 شهراً وكان حكماً عسكرياً مباشراً نجح في فرض القانون وكبح الأخطار على النظام الحاكم في عهد كرومويل إلا أن الجنرالات عدوه أسوأ المستبدين في تاريخ إنكلترا.

الأكثر قداسة للحريات المحلية الإنكليزية، تعرضت للانتقاد أثناء هيمنة المتطرفين.

واجهت هذه الدكتاتوريات المرتجلة ليس مشاكل الحكم العادية فحسب بل كذلك الحرب الأهلية والأجنبية مع عدد مؤكد في الأقل من إجراءات الإصلاح الفعلية التي كان عليها تنفيذها. وكان على الحكومة في الثورتين الفرنسية والروسية بخاصة تجنب النزاعات بشأن معنى الاشتراكية إدارة ما يمكن تسميتها إجراءات التخطيط الاقتصادي - الأسعار والأجور الثابتة والعملة المنظمة وتقنين الغذاء وغير ذلك. ولا حاجة هنا إلى القلق بشأن مشكلة إن كانت هذه في فرنسا مجرد إجراءات أم لا. النقطة المهمة هي أن الحكومة وجدت نفسها مرغمة على محاولة إدارتها. وفي روسيا بذلت جهود واعية لتجسيد الاشتراكية الماركسية في المؤسسات العاملة. غير أن هذه كلها أشكال جاهزة وغير متقنة للطغيان. كانت حكومة عهد الإرهاب عموماً أقل كفاءة ومستبدة أقل فعلياً من الكثير من حكومات زمن السلم ولا تقترب من سمعتها بوصفها مستبدة وسفاكة للدماء. الحكومة الروسية الحالية مركزية على نحو أكفأ من حكومة لينين، وحكومة نابليون أكفأ من حكومة روبسبير. وفي الواقع، من أسباب أن حكومات عهد الإرهاب تبدو مستبدة ويصعب تحملها، حتى من خلال استعراض الماضي، هو بالضبط أنها لم تكن كفوءة. لقد نفذت مهامها الكبرى - أنقذت إنكلترا وفرنسا وروسيا من التفكك أو الهزيمة، إلا أنها نفذت تلك المهام على نحو مضطرب وبالتفصيل على نحو سيء. كان الإداريون الحقيقيون عادة يفتقرون إلى الخبرة ومتعصبين غالباً ومتبجحين برزوا في سياسات الجيش الجديد في الأندية أو الحزب. وكانوا تحت ضغط شديد من رؤسائهم لتحقيق النتائج. وغالباً ما كانوا مسؤولين عن عمليات قريبة من قلب الثورة كحركة اقتصادية - مصادرة ضياع الملكيين والقساوسة في إنكلترا، التصرف بالأراضي المصادرة العائدة إلى رجال الدين والمهاجرين في فرنسا وتأميم الأراضي والمصانع في روسيا - التي منحتهم فرصاً كبرى للكسب غير المشروع. وكان عليهم العمل مع شعب الكثير من أفراده إن لم يكن معظمهم تساورهم الشكوك أو عدائيون. لا عجب إذاً أن

عهود الإرهاب هذه قد شهدت أعمال العنف غير النظامية وأن تاريخها الكامل يتسم بالتعقيد الذي يكاد لا يصدق. ولا يوجد شيء أكثر تنويراً في دراسة هذه الثورات من دراسة التاريخ المحلي. نجد هنا الإرهاب كما هو فعلاً، لا حكم مستمر وكفء من الأعلى، كما في الجيش أو في إسبارطة، بل حالة ارتياب وخوف، تفكك حالات التماثل البسيطة الرزينة في حياة الأقاليم. ويعتمد الكثير على الصفات الشخصية - مالك إقطاعي حصيف، ثائر محلي حديث وبارع أو اثنان، ويمكن لبلدة أو قرية أن تشهد ثورة هادئة. وفي بلدات وقرى أخرى قد يتحكم الإرهاب على نحو مرير كما في العاصمة.

وتبرز عدم كفاءة حكومات فترة الأزمة على نحو واضح في محاولاتها تنظيم الحياة الاقتصادية للدولة والسيطرة عليها. والأرجح أن لهذه المسألة كلها صلة بالمشكلة العامة لما يعرف حالياً بـ"التخطيط الاقتصادي". يجب أن نعيد التأكيد على أننا لا نعنى إلا بتشريح ثورات معينة. ويكفي القول إنه في فرنسا في 1793-1794 وفي روسيا في 1918-1921 كانت الجيوش تطعم وتزود بالذخائر وبقي بعض المدنيين على قيد الحياة، على أية حال، في ظل سيطرة الدولة المطلقة على النشاط الاقتصادي. وكان مصطلح الحد الأقصى يعني طبعاً تثبيت الأسعار والأجور وكانت الشيوعية في زمن الحرب شكلاً أكمل من التخطيط المركزي. غير أن انتهاك الحد الأقصى في فرنسا قد تكرر شأنه شأن صنع الخمور وبيعها على نحو غير شرعي في أميركا ويزود التاريخ المفصل للحد الأقصى بوصفه جزءاً من التاريخ المحلي حتماً بعض المعلومات المسلية. كانت سنوات الاتجار غير المشروع بالخمور في روسيا في سنوات الحرب تشبه عملية صنع الخمور وبيعها في أميركا. وتعرض سوق سوخاريفكا الشهير في موسكو للإغارة بين الحين والآخر إلا أن حكومة لينين تغاضت عنه عموماً. وكان سكان المدن جميعاً يقومون برحلات إلى الريف، إن استطاعوا ذلك، للمساومة مع الفلاحين للحصول على تجهيزات غذائية محظورة. وهنا أيضاً التفاصيل الدقيقة للحياة اليومية آسرة وتتطلب المواهب الكاملة للمؤرخ الاجتماعي.

يبدو أن هنالك اعترافاً جماعياً من المؤرخين، حتى عندما يكونون معادين للثورات عموماً، بندرة جرائم العنف العادية أثناء فترة الأزمة. وربما هنالك الكثير من القسوة والفساد بين الإداريين والقضاة الجدد وقد يكون النظام الجديد غير قادر على ضمان السلم والنظام إلا أن اللصوص والقتلة والخاطفين التقليديين وما أشبه ليسوا نشيطين. وللمحافظ الغبي الطيب تفسير ذلك: لديهم سائر الوظائف الحكومية إلا أننا لا نكاد نستطيع قبول ذلك بوصفه تفسيراً شاملاً ويبدو الأرجح أن المجرمين العاديين حالياً يتعرضون للترويع في الحملة العامة ضد الرذيلة والجريمة العادية التي هي جزء من فترة الأزمة التي سنتناولها قريباً. وجرى التعامل على عجل مع اللصوص الصغار وفي عدة حالات حتى مع العاهرات بأساليب تعادل قانون الإعدام بلا محاكمة أثناء الثورة الفرنسية، وثمة حالات مشابهة في إنكلترا وروسيا. ولا يحتاج المرء إلى قبول إمكانية ترويع المجرمين بالإعدام بلا محاكمة دائماً. هنا، كما في الكتاب كله، ندرس مجموعة معينة من الأحداث ونبحث عن مجموعة عامة من حالات التماثل العامة ولا نحاول التوصل إلى استنتاجات عامة في حقل من مثل علم الإجرام. وربما في التوتر العام والتوسع غير العادي لمشاغل الجمهور حتى تصبح الخصوصية مستحيلة تقريباً يكون الشيء الخاص من مثل الجريمة العادية صعباً. ويخشى المجرم ليس الإعدام بدون محاكمة فحسب بل الخوف العام الذي لا يمكن تحديده ويشاطره مع المواطنين العاديين. الخوف لا يحتاج إلى هدف لاسيما في عهد الإرهاب. ويجب تذكر أن فترة الأزمة هذه قصيرة - بضعة أشهر، بضع سنوات كحد أقصى. ويبرز على كل حال تماثل بسيط مرة أخرى: يلاحظ انخفاض كبير في عدد الجرائم العادية أثناء فترة الأزمة. ويكتب تشيمبرلين أن موسكو في 1918-1919 كانت تنعم بالأمان - إذا استطاع المرء الحصول على ما يكفي من الطعام والشعور بالدفء.

ثمة فترة قصيرة عادة بين التطويح بالمعتدلين والتأثير الكامل للإرهاب. وعلى الرغم من تجميع آلة الإرهاب على عجل لا يمكن جمعها بين يوم وليلة. وعلى الرغم من وجود حصة من العنف للتاريخ السابق للثورة هنالك فترة فاصلة

من السلم الظاهري أحياناً أثناء الصراع بين المعتدلين وبين المتطرفين. إن ضغط الأعداء الأجانب وحلفائهم المهاجرين ليس الأقوى مباشرة. غير أنه مع مضي الأسابيع تعمل القوى التي تعزز الإرهاب على نحو كامل.

لقد وصفنا في هذا الفصل بإيجاز صعود المتطرفين وحاولنا تحليل أسباب انتصارهم. وتناولناهم إلى النقطة التي تخلصوا عندها من كل المجموعات المتصارعة المهمة وعززوا موقفهم بتأسيس نظام حكم مركزي. ويبقى المتطرفون عدة أشهر أو سنة أو بعض السنة متطرفين كما يشاءون لا يجرؤ أحد على تحديهم. ووصلنا إلى تلك الأزمة في حمى الثورة التي تدعى عادة حكم الإرهاب. يجب تناول هذا الموضوع المهم للغاية في فصل مستقل.

الفصل السابع

عهود الإرهاب والقوة

1. انتشار الإرهاب

"8 آب/أغسطس 1775. قبضت مجموعة من حملة البنادق على رجل في نيو ميلفورد بمستعمرة كونيكتكت. كان من مؤيدي الملكية الفاسدين للغاية سماهم متمردين، إلخ وأرغموه على المشي أمامهم إلى ليتشفيلد على بعد عشرين ميلاً حاملاً إحدى إوزاته في يده طوال الطريق. وعندما وصلوا إلى هناك لوثوه بالقار وجعلوه ينتف ريش الإوزة ثم نثروا الريش عليه وطردوه خارج السرية وأرغموه على الركوع وشكرهم على تساهلهم معه". وفي 3 تشرين الأول/أكتوبر 1775 صوت أعضاء أبناء الحرية في نيويورك على توجيه الشكر "إلى الحلاق السيد جيكوب فيردينبورغ، لسلوكه الحازم والجريء والوطني برفضه إكمال عملية حلاقة وجه الضابط جون كروسر، قائد... إحدى سفن النقل التابعة لجلالته... ويؤمل أن يحذو كل الحلاقين حذو هذا النموذج الحكيم والحصيف والمثير للاهتمام". استشهدنا بهذين المثالين عمداً من الولايات المتحدة، إذ رغم صحة أن النصر النهائي للمتطرفين في هذه البلاد (أميركا) لم يتبع تماماً النمط الذي سارت عليه الثورات الثلاث الأخرى، ثمة أكثر من لمسة

لعهد الإرهاب والقوة لوجود أكثر من مجرد لمسة للثورة الاجتماعية في الثورة الأمريكية.

إن التفاصيل البسيطة غير اللائقة بالكرامة مهمة لأنها تساعد على فهمنا انحراف عهد الإرهاب. هنالك ليس ميلودراما قطعة الخشب التي يوضع عليها عنق المحكوم عليه بالموت لكي تقطع، المقصلة، وزمرة الإعدام فحسب، وهنالك ليس الصراع المتصاعد على السلطة بين عظماء النظام الجديد فحسب، وهنالك ليس جهد الحرب الأجنبية والأهلية فحسب، بل هنالك كذلك الملهاة المفجعة لآلاف أرواح الناس العاديين التي تغزوها المشاغل البطولية التي عادة لا تنتمي إليها إطلاقاً. يؤثر الإرهاب في العظماء وغير العظماء بالقوة المفرطة. إنه يسيطر على الرجال مثلما يسيطر القليل من المصلحة العامة عليهم، ما لم يكونوا مكرسين مهنياً لدراسة السياسة أو ممارستها. لقد أصبحت السياسة أثناء عهد الإرهاب حقيقية وملحة ولا يمكن تجنبها كالطعام والشراب، الزوجة أو العشيقة، العمل والطقس. وتصبح اللامبالاة السياسية، عماد الدولة الحديثة، مستحيلة حتى للأكثر أنانية والأكثر زهداً.

تعني هذه المشاركة في الأمور المألوفة، في دراما الدولة الثورية، أمراً مختلفاً لمن ندعوهم لا منتمين ولمن ندعوهم مطلعين على بواطن الأمور. التضاد مسألة ملاءمة ولا شك أنه يوجد تدرج طفيف من المتطرف الثوري المتحمس - مثل شخصية إيفاريست غاملين في رواية أناتول فرانس \الآلهة ظمأى(*)، مثلاً - إلى من يقف في الوسط محايداً وبلا لون وإلى المعادي

(*) نشرت رواية الآلهة ظمأى للروائي الفرنسي أناتول فرانس عام 1912 وتروي قصة الرسام إيفاريست غاملين، الذي تطور إلى عضو من اليعاقبة متطرف أثناء الثورة الفرنسية في بداية العقد الأخير من القرن الثامن عشر. كان مفعماً بمشاعر الإنصاف والعدل وهو شاب إلا أنه سرعان ما أصبح قاضياً متعطشاً للدماء وأرسل المئات ومنهم الكثير من الأبرياء وحتى أصدقاء مقربون إلى المقصلة وأصبح هو نفسه ضحية التطورات التاريخية. فاز أناتول فرانس (1844- 1924)، أحد أعظم المؤلفين الفرنسيين، بجائزة نوبل للأدب عام 1921.

للثورة المتهرب والمتعرض للقمع. إلا أن الفرق يستحق الذكر في خطوط عريضة بين الكثيرين غير المنتمين للعقيدة الثورية وبين المجموعة الصغيرة النشيطة من المؤمنين بالنظام الجديد. لنتناول أولاً الإرهاب كما يؤثر في حياة اللامنتمي.

2. الإرهاب واللامنتمي

ليس هذا اللامنتمي العادي الشخص المعادي بنشاط، المهاجر أو كما يصفه الفرنسيون مهاجر الروح بأنه المهاجر الذي رحل روحياً إن لم يكن بجسمه. إنه ليس المعتدل الساخط بل هو ذلك الرجل البسيط الذي يشكل أمثاله معظم المجتمعات، الرجل الذي يقبل عموماً ما يفعله الآخرون في السياسة والذي سرعان ما يلتحق بالركب. إن الثورة خصوصاً في فترة أزمتها قاسية على نحو رهيب إزاء هذا اللامنتمي. وقد تزوده بعدد معين من المشاهد في شكل احتفالات متنوعة بالعقائد الثورية الجديدة - مسيرات، أشجار من الحرية، مهرجانات من التفسيرات وما أشبه. لم تكد تتوافر هذه المشاهد حتى في إنكلترا المتزمتة في زمن المتطهرين. غير أن ثمة مؤشرات كثيرة حتماً في الثورة الفرنسية على سأم اللامنتمين من ذلك وأنهم وجدوا في المدى الطويل الطقوس الكاثوليكية القديمة أحب إليهم. ومن الناحية الأخرى، ليس هنالك شك في أن الثوريين الحديثين مديرو مسارح أفضل كثيراً من سابقيهم، وأنماط ثوراتنا طبعاً ليست متماثلة تماماً. وفي روسيا بخاصة بقي شيء من جو الإرهاب في الأنظمة المعتدلة نسبياً التي تلت حكم ستالين.

يبدو أن الهوس الثوري بتغيير التسميات يميل كذلك إلى إرباك اللامنتمي وإغضابه. اقتصرت جهود الإنكليز عموماً على أسماء الأشخاص حيث حققوا بعض النتائج الاستثنائية. ونحن نعرف اسمي بريز غود بيربون(*) Praise God

(*) Praise God Barebone بائع جلود وواعظ إنكليزي (1598- 1679) اشتهر بإطلاق اسمه على برلمان بيربون للكومونويلث الإنكليزي عام 1653. عارض بقوة عودة الملكية وسجن عدة أشهر عام 1661.

Put-Thy-Trust-in-Christ-and Flee Fornication Williams. وكذلك Barebone إن وليمز أصبح أكثر من أسطورة بلا ريب. واستشهد المتطهرون كثيراً بالإنجيل وبالأفكار البروتستانتية - الإيمان، التعقل، الإحسان، وغيرها.

استمد الفرنسيون من الأيام الفاضلة للنزعة الجمهورية الرومانية ومن الأفكار التجريدية لعهد التنوير ومن زعمائهم وشهدائهم. وغير فرانسوا- نويل بابوف(*)، رائد الاشتراكية، اسمه إلى غراشوس بابوف، واحتفظ كلود هنري، الكونت دو سان سيمون(**)، بأسمائه المسيحية غير أنه حذف الصلة بقديس وأصبح كلود هنري بونوم. ووجد حملة اسم الملوك (Leroys) تعيسو الحظ أن الأفضل تغيير أسمائهم إلى لالوي (Laloys) أي القوانين أو اسم وطني على نحو مساو. وعمد أحد اليعاقبة ابنه باسم ليبر كونستيتسيون لوتورك. غير أن الفرنسيين لم يتوقفوا عند الأسماء بل غيروا أسماء الشوارع الفاسدة وأصبحت ساحة لويس الخامس عشر ساحة الثورة وأصبح شارع التاج شارع الأمة وتعرضت أسماء الأماكن إلى تغييرات بالجملة وغير مناسبة. واستبعدت معظم أسماء القديسين. وأصبحت مدينة ليون، التي ارتكبت خطيئة ضد الثورة بتأييد الاتحاديين تدعى كومون أفرانشي (المدينة المحررة) عندما استولى عليها جنود المؤتمر. وغير اسم لوهافر إلى هافر- مارا. واستبدلت كلمة monsieur (سيد) لدى التحية إلى citoyen (مواطن). وأصبحت كلمة "روا" (ملك) محظورة بعض الوقت وحذفت من مؤلفات كتاب كلاسيكيين من مثل راسين(***). وجرت محاولة، ربما جدية

(*) فرانسوا- نويل بابوف (1760- 1797) محرض وصحفي سياسي فرنسي في عهد الثورة. وعلى الرغم من جهود أصدقائه اليعاقبة لإنقاذه فقد اعتقل وحوكم وأدين إلا أنه طعن نفسه قبل إعدامه بالمقصلة. وصفت أفكاره بأنها فوضوية واشتراكية وشيوعية.

(**) الكونت دو سان سيمون (1760- 1825) فيلسوف اشتراكي خيالي فرنسي دعا إلى إقامة دولة يحكمها العلماء والتقنيون وقال إن المجتمع يجب أن يعتبر مصنعاً ضخماً تزول فيه فروق النسب والمحتد وتقدم فيه المكافآت إلى الأفراد وفقاً لأهليتهم الإنتاجية.

(***) جان بابتيست راسين (1639- 1699) شاعر مسرحي كلاسيكي فرنسي بارز.

وربما صحفية، لتغيير "reine abeille" (النحلة الملك) إلى "abeille pondeuse" (النحلة البياضة).

قرر الثوريون الفرنسيون في تصميمهم على اجتثاث كل شيء من الماضي الملوث تغيير التقويم. وهكذا فقد ابتكروا اثني عشر شهراً جديداً وأطلقوا عليها بالفرنسية الشعرية أسماء أعمال الطبيعة - مثلاً germinal (شهر البراعم) و fructidor (شهر النضج) وbrumiaire (شهر الضباب). وعلى الرغم من أن الفرنسيين تباهوا بعالمية أهداف ثورتهم ومبادئها فإنهم لم ينزعجوا كما يبدو لاقتصار تقويمهم على الظروف المناخية الفرنسية. وهذا التقويم بالطبع غير مناسب بتاتاً لأستراليا.

وعلاوة على ولع الروس بالأسماء المستعارة فقد اهتموا بخاصة بتغيير أسماء الأماكن ويواصلون تغييرها خلافاً للفرنسيين. نجحت كاثرين العظمى(*) بخاصة في وضع اسمها على الخريطة مثلما فعل الإسكندر الكبير، إلا أنها اختفت تماماً من روسيا السوفياتية. وأصبحت إيكاتيرنودار كراسنودار وإيكاترينبورغ سفيرلوفسك وايكاترينوسلاف دينبروبيتروفسك. أما ستالين، الذي خلد في أوج حكمه على نحو فعال في أسماء الأماكن أكثر من كاثرين، فقد اختفى من الخريطة حالياً. وأصبحت ستالينغراد، التي كانت تزاريتسين فولغوغراد، وأصبحت قمة ستالين، أعلى نقطة في الاتحاد السوفياتي، جبل كوميونيزم (الشيوعية)(**) وبفضل التقليد الاشتراكي الطويل حلت كلمة "comrade" (رفيق) المكان الذي احتلته كلمة "مواطن" في الثورة الفرنسية. كما أعطي الأطفال أسماء مناسبة لذلك العصر مثلما كان اسم بريز غود وليبر

(*) كاثرين الثانية أو كاثرين العظمى (1684- 1727) إمبراطورة روسيا وزوجة بطرس الأكبر وخليفته.

(**) تقع هذه القمة الجبلية (7495 متراً) في جبال بامير بالقرب من الحدود الصينية في شمال شرقي طاجكستان.

كونستيتسيون. أما الاسم فلاديلين الذي يجمع بين فلاديمير ولينين فإنه من أغرب الأسماء غير التقليدية للروسي القديم.

من الجلي أن عملية تغيير الأسماء هذه من حالات التماثل التي نلاحظها في كل الثورات الأربع. وحتى الثورة الأميركية المعتدلة مارست هذه العملية. وشهدت مدينة بوسطن تغيير شارع الملك وشارع الملكة إلى أسماء من مثل "اتحادي" المناسب تماماً للنظام الجديد، إلا أنه لسبب أو لآخر بقي اسم شارع هانوفر(*). إن الاسم الأميركي لذبابة مضرة معينة هو ذبابة هسيان(**)، الذي أطلق عليها في زمن الثورة. وما تزال فصيلة من هذه الذبابة تعرف في أجزاء من الجنوب الأميركي باسم حشرة ايب لنكولن مما يذكر بحقيقة أن ما ندعوها الحرب الأهلية كانت أساساً ثورة فاشلة.

لا توجد هنالك حاجة للقلق بسبب تفسير هذا النطاق من تغيير الأسماء. غير الاسم وتغير بذلك الشيء. الأمر بسيط للغاية. غير أننا نعنى هنا بتأثير كل عملية تغيير الأسماء هذه في اللامنتمي ويمكننا أن نثق على نحو معقول أنه مثال على نوع الشيء الذي يستمر معه. إن الثورة في الأسماء أمر تافه. غير أن حياة جون جونز (المواطن العادي) تراكم للمسائل التافهة وجون لم يبن لدعم مجموعة كاملة من التغيرات في التفاصيل التافهة التي تتشكل منها العادات. خذ مثلاً ريب فان وينكل(***).

(*) هانوفر هو اسم الأسرة الملكية البريطانية الحاكمة من تأسيسها عام 1714 إلى عام 1901 عندما غير الاسم إلى أسرة ساكس كوربورغ-غوتا وعام 1917 عندما غير الاسم إلى أسرة وندسور.

(**) يقال كذلك إن الجنود المرتزقة الألمان العاملين في القوات البريطانية خلال الثورة الأميركية هم الذين نقلوا الذبابة أثناء الثورة الأميركية!

(***) عنوان قصة قصيرة للكاتب الأميركي واشنطن ارفينغ نشرت عام 1819 وهو اسم الشخصية الرئيسية لزوج كسول تهيمن عليه زوجته ويهرب منها ثم يعود بعد 20 عاماً ليجدها قد ماتت وتبدأ متاعبه عندما يعلن أنه من أتباع ملك بريطانيا جورج الثالث غير مدرك حدوث الثورة الأميركية إلا أن ابنته وجاراً له يتعرفان عليه ويستأنف عادة الكسل!

هنالك طبعاً ضغط العيش في ظل حكومة وصفناها في الفصل الأخير بحكومة الإرهاب. وحتى أكثر شخص تواضعاً وأكثر شخص لامبالاة بالسياسة لا يعرف متى يصعقه البرق هو أو أسرته ومتى يساق إلى المحكمة كعدو طبقي أو مناهض للثورة.لا يمكننا أن ندرس تفصيلياً هذا التهديد المتواصل، كلية وجود الحكومة هذا. ويبدو أوضح ما يكون في انفجار الإرهاب في روسيا في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، أي فترة المحاكمات والتطهير. إلا أننا سنتناول بإيجاز مرحلتين تؤثران في اللامنتمي بخاصة.

أولاً، كما سنرى بعد قليل من وجهة نظر المنتمي، لكل هذه الثورات في أزماتها على نحو جلي سمة النقاء أو الزهد أو إذا استعملنا مفردة شاع استعمالها هي المثالية. ثمة محاولة جادة لمن يتولون السلطة لإلغاء الرذائل الصغرى علاوة على ما قد يميل البعض إلى وصفه بالمتع الكبرى. إن معظم الأميركيين مطلعون على ما حاول القديسون القيام به في إنكلترا في القرن السابع عشر، ولو من خلال الآثار غير المباشرة في مستعمرة نيو إنكلاند. إلا أن الأميركيين، الذين بالغوا دائماً في قدرة الفرنسيين المتعلقة بمتع الحواس لا يدركون جيداً حقيقة أن حدثت في عامي 1793 و 1794 محاولة جدية لتطهير باريس بإقفال بيوت الدعارة ودور القمار وحظر معاقرة الخمور. كانت الفضيلة هي السائدة يومها. ولم يكن يسمح حتى بالكسل وإلا يرفع بعض اليعاقبة تقارير عنك إلى ناديهم مع اقتراح بأن الجيش أفضل مكان للعلاج مع الكسل المعادي للجمهورية. وتتسم النزعة التطهرية لدى البلاشفة بمفارقة أكبر غير أنها كانت موجودة وسنعود إلى تناولها قريباً.

لاشك أنه في العالم الأفضل الذي نطمح إليه جميعنا ليس هنالك وجود لتعاطي الخمر والدعارة والقمار والكسل والتبجح وكل الأمور التي ندينها جميعاً. غير أنه لا يمكن إنكار أن عدداً كبيراً من البشر هنا وهناك في هذا العالم، ولعدة أجيال سابقة، كانوا ويبقون مدمنين على الانهماك في واحد أو أكثر من هذه الأمور ويعدونها - ليس عن وعي دائماً مع الفطنة - تعويضات

ضرورية عن الملل أو نواقص أخرى في حياتهم اليومية. ويجب أن نذكر أنفسنا مرة أخرى أننا لا نتعامل مع مسائل أخلاقية، لا نمدح أو ندين، بل نحاول ترتيب الحقائق على نحو مفيد. ويبدو أن الاتساق التالي واضح: محاولة المتطرفين فرض حياة بدون الرذائل العادية في فترة قصيرة نسبياً تضع ضغطاً على اللامنتمي أشد من أن يتحمله.

لا يحرم اللامنتمي فحسب من الوصول إلى ما يحتمل أن يعده تسلية مشروعة. ولن تدعه السلطات الجديدة وشأنه. إن الثورات قاسية للغاية مع الخصوصية. وكتب غوركي(*) مرة: "كان لينين رجلاً منع الناس من أن يعيشوا حياتهم المعتادة كما لم يتمكن أحد قبله أن يفعل ذلك". ولما كان للناس خمول معين في اتجاه عيش "حياتهم المعتادة" ربما يمكننا أن نفهم على نحو أفضل لماذا أثبت ستالين وليس تروتسكي أنه خليفة لينين - وبرهن خروتشيف أنه خليفة ستالين. وفي فترة الأزمة تطارد الثورة المواطن العادي في كل ما يفعله. وفي الثورة يزداد الاغتياب والقيل والقال والضغائن في الحياة الاجتماعية على نحو يفوق التحمل. وكان اليعاقبة، خصوصاً في الأقاليم، متحمسين لالتقاط أي اغتياب يظهر الحاجة إلى إصلاح. على المواطن فلان إبقاء كلبه مقيداً وعلى المواطن فلان أن يتزوج الفتاة ويجب لوم المواطن الثري فلان بسبب نوبات غضبه وعلى المواطن فلان منح موافقته على زواج ابنته من شاب يعقوبي فقير لكنه صادق وحاصل على مرتبة جيدة في نادي اليعاقبة. يتوقع المرء هذا النوع من الأمور من أسرته وأصدقائه ولكن ليس حتى من الحكومة في دولة استبدادية. للألمان قول مأثور: "لا يتناول الحساء ساخناً لأنه يطبخ". إلا أنه في فترة الأزمة في الثورات ثمة جهد لإرغام المواطن العادي على تناوله. إنه لا يتحمل ذلك في المدى البعيد ويتعلم الطباخون الدرس ويتركون الحساء يبرد قليلاً. غير أنه عندما يحدث ذلك تكون أزمة الثورة قد انتهت.

(*) مكسيم غوركي (1868- 1936) روائي وكاتب مسرحي سوفياتي عني بتصوير حياة الكادحين.

يحرم المواطن العادي، أو حتى إيفان إيفانوفيتش، من متعه ورذائله العادية ويرغم على الكفاح، أو على الأقل الهتاف طويلاً وعالياً وعلى نحو واضح للدولة الثورية في صراعها مع الأعداء الخارجيين والمدنيين، ويتعرض إلى الحرمان والمعاناة من الندرة التي ترافق الحرب والعيوب المحتمة في الحكومة الجديدة، ويحث على الاستجابة إلى "ذروة الظروف الثورية" في الصحافة والمسرح ومنبر وعظ ومظاهرة جماهيرية، ويورط على نحو لا مفر منه في الاهتياج العصبي والمرهق والشائع الذي تتسم به فترة الأزمة فيجد إن عاجلاً أو آجلا أن هذه الضغوط لا تحتمل ويستعد للترحيب بكل من يستطيع وضع حد لها.

ربما لا يكون أي واحد من هذه الضغوط بحد ذاته غير محتمل إلا أنه يبدو مرجحاً أن ثمة نوعاً من نقطة الإشباع في الدعاية السياسية المفرطة والواسعة النطاق وبعدها تعطي حقاً عكس النتائج المرجوة. ويمكن أن نأمل تعلم المزيد في هذا الصدد من تجربة النظم الدكتاتورية المعاصرة. وقد يمل الناس من ماو وحتى من كاسترو.

3. الإرهاب والمنتمي: النظير الديني

تبدو الثورة للمنتمي، للمؤمن الحقيقي، أنها شيء مختلف للغاية في فترة الأزمة هذه ولو أن المرء قد يخمن أنه بالنسبة لبعض المشاركين الأقل تحمساً يصدق الكثير مما قيل عن اللامنتمين، بعد فترة. وتبدأ الثورة تستنزف الكثير منه ويشرع بالإعراب عن التردد والشكوك ويبدأ الشعوز بالملل من المراسم التي لا تنتهي والتفويضات واللجان والمسابقات والمحاكمات والمسابقات الاستاخانوفية(*) وعمل المليشيات والنشاطات الأخرى الضرورية لتحقيق سيادة

(*) بدأت الحركة الاستاخانوفية في خطة الخمس سنوات الثانية عام 1935 كمرحلة جديدة في التنافس الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي وأطلق اسم ألكسي استاخانوف عليها وهو عامل استخرج 102 طن من الفحم في أقل من 6 ساعات أي 14 ضعفاً من حصته

الفضيلة في العالم. إنه يصبح هو أيضاً لامنتمياً. غير أن المخلصين حقاً يبقون إلى النهاية، إلى قطعة الخشب التي يوضع عليها رأس المحكوم بالإعدام، المقصلة، فرقة الإعدام، أو المنفى.

يبدو أن هذا المنتمي يجد في خدمته المخلصة للثورة معظم الرضا النفسي الذي يزوده به ما ندعوه الدين. لقد استخدم هذا التشبيه مراراً. وطبق ليس فقط على الثورة الإنكليزية حيث لا خلاف بشأن ذلك بل كذلك على الثورتين الفرنسية والروسية. ولما كان كل من اليعاقبة والبلاشفة معادين بعنف للمسيحية وتفاخروا بأنهم ملحدون أو على الأقل بأنهم يؤمنون بالله وحده دون الوحي والشرائع فإن هذا التشبيه أثار قدراً كبيراً من الاستياء لدى كل من المسيحيين وأعدائهم. ويرى الماركسي بخاصة أن القول بوجود جوانب تشبه سلوك الخاضعين للتأثير المعترف به للدين يثير سخطه كثيراً. وهذا السخط ليس غير مبرر تماماً إذ يطلق مراراً محافظون يتسمون بالضحالة العبارة التالية "الشيوعيون مجرد طائفة متعصبة أخرى" للتأنيب والرفض. وفي الواقع استناداً إلى التجارب السابقة يبدو أنه يمكن إرغام الكثير من الناس على أداء أعمال معينة من النوع الذي يريد الشيوعيون تنفيذه فقط تحت تأثير ما نسميه الدين، أي نمط من المشاعر المتشابهة تقريباً والقوية حتماً، الطموحات الأخلاقية، العقائد الكونية والممارسات المتمسكة بالشعائر على نحو مغالى فيه.لقد حققت الماركسية بوصفها عقيدة القدر الكثير، أما الماركسية بوصفها "نظرية علمية" فلم تذهب أبعد من كتاب رأس المال والمجلات العلمية.

غير أن النزاع الموصوف أعلاه لا نهائي ولسنا بدون قدر كاف من التروي لكي نفترض أننا نستطيع حسمه. ويبدو لنا أن من يستخدمون مصطلح "الدين" في هذا الصدد يحاولون وصف ظاهرة عالم الوعي- التجربة التي يجب دمجها مع الظواهر الأخرى للثورات. إلا أنه صحيح حتماً أن هذا الاستخدام يثير في الكثيرين فيما يبدو مشاعر غير محبذة للدراسة الموضوعية المستمرة للمسألة. وكل من يقترح مصطلحاً محايداً يشير على نحو فعال إلى الظاهرة نفسها مثل

مصطلح "الدين" يقدم خدمة كبيرة إلى علم الاجتماع. ولعدم وجود هذا المصطلح خالياً يجب علينا مواصلة استخدام مصطلح "الدين". ولا بد من الإصرار على أن هذه الكلمة لا تشير بالضرورة وعلى نحو حصري إلى إحدى عقائد التأليه كالمسيحية. وقبل كل شيء لا تتضمن بالضرورة إيماناً بما هو "خارق للطبيعة". نفترض أنه في التحليل الحالي المهم بشأن العقيدة الدينية يعمل البشر تحت تأثيره بجد وحماسة على نحو مشترك ليحققوا هنا أو في مكان ما مثلاً أعلى، نمط حياة لم يتحقق على نحو شامل أو حتى إلى حد كبير. ويحاول الدين أن يغلق لمصلحة الآمال البشرية الفجوة بين ما هم عليه الناس وبين ما يودون أن يكونوا. وفي المرحلة الفتية والجديدة والنشيطة لن يقر الدين لحظة واحدة أن فجوة من هذا القبيل يمكن أن تدوم طويلاً.

إن تمييز عنصر العقيدة والطموح الديني في سلوك المتطرف المتحمس لا يعني إنكار الدوافع الاقتصادية. وفي الواقع تلاحظ في هذا الطور بعض المراحل الأكثر حدة في الصراع بين الطبقات وبروز واحدة من حالات التماثل التي نعدها راسخة على نحو جلي. ومهما كان مكان صراعات الطبقات الاقتصادية في الأيام التي تسبق الثورة - وفي الثورات الأربع تتخذ الطبقة أشكالاً مختلفة من مثل "النبلاء الإقطاعيين"، "الطبقة الوسطى"، و"البروليتاريا" - ما أن تبدأ الثورة حتى يصبح لهذه الصراعات الطبقية مرحلة مشتركة واحدة على الأقل في كل المجتمعات الأربعة. تصادر أملاك الكثير، إن لم يكن معظم، من يشخصون علناً وبعناد بأنهم ينتمون إلى الأحزاب المهزومة، لمصلحة الأحزاب المنتصرة، التي تعد بأنها "الشعب". كما أنه إذ تهزم المجموعات المعتدلة المختلفة تصادر أملاكها كذلك عادة بالطريقة نفسها.

فقد الملكيون في الثورة الإنكليزية جزءاً كبيراً من أملاكهم، خصوصاً في الأراضي. وعلى الرغم من أن المشيخيين العاديين لم يخضعوا عموماً لمصادرة أملاكهم ما لم يكونوا مؤيدين نشيطين للجانب الخطأ في السياسة، كان هنالك قدر كبير من حرمان المشيخيين والكهنة من موارد عيشهم. و"سلبت" من رجل

الدين جون اوف فيرجينيا وهو جد مباشر للملك جورج موارد معيشته لأنه اعتبر أنه قال إن الجيش البرلماني كان يضم بابويين أكثر منهم حول الملك. ولا حاجة إلى تذكيرنا أن أملاك مؤيدي الملكية قد صودرت أثناء الثورة الأميركة. واستنتج ج. ف. جيمسن(*) أن الثورة الأميركية حققت على نحو هادئ - هادئ على الأقل بالنسبة للثورات - في مسارها كله عملية ديمقراطية معقولة للغاية بنشر حيازة الممتلكات في وحدات صغيرة في هذه البلاد. وشهدت الثورة في كل من فرنسا وروسيا لاسيما مصادرة الأرض وفي فرنسا حتى الأموال إلى حد ما وإعادة توزيعها. ولسنا في حاجة إلى الدخول في التفاصيل هنا بشأن هذه المشاكل المتعلقة بتوزيع الأراضي. ويكفي القول إنه كان للكثير ممن وصلوا إلى القمة في فترة الأزمة، قادة وأتباعاً، سبب وجيه للأمل أن تولي قمة الوضع الاقتصادي سيجعلهم باستمرار أفضل مما كانوا. وهذا صحيح بصرف النظر عن النظريات والمثل العليا، سياسة عدم التدخل أو الاشتراكية، التي لجأ إليها لتوجيه التوزيع الجديد.

غير أنه على الرغم من وجوب الاعتراف بالعامل الاقتصادي، كما نعترف بدافع اللجوء إلى المركزية السياسية والعسكرية لصد الهجمات من الداخل والخارج، فإن الصورة غير كاملة حتى نبحث تلك العناصر التي تدعى دينية على نحو لا يمكن تجنبه. إننا نؤكد هذه العوامل هنا جزئياً لأن العناصر الاقتصادية والسياسية في معناها التقليدي مألوفة لدى معظم الناس في الوقت الحاضر، وجزئيا لأن هذه العوامل الدينية - أو على كل حال النفسية - تبدو بين أهم المتغيرات في الحالة. إنها تبدو من بين أهم المتغيرات لأن وجودها في شكل حاد يمنح طابعاً مختلفاً ومتفشياً إلى عناصر الصراع السياسية والاقتصادية، التي

(*) ج. ف. جيمسن (1859– 1937) مؤرخ أكاديمي أميركي نال الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز ثم تولى التدريس فيها وفي جامعة براون وجامعة شيكاغو وترأس الجمعية التاريخية الأميركية. من أبرز كتبه الثورة الأمريكية كحركة اجتماعية الذي صدر عن جامعة برنستن عام 1925.

تنشأ لوحدها كثيراً في شكل مشابه للغاية وحتى في حدة مشابهة في حالات لا نصفها عادة بأنها ثورية. صحيح أنه في نمو الميثودية(*) والويزليانية في إنكلترا في منتصف القرن الثامن عشر، كان هنالك مثلاً، في أزمنة لا توصف بأنها ثورية سلوك ديني نشيط بين أعداد كبيرة من الناس، سلوك يشبه من نواح كثيرة السلوك الذي سنحلله في المشارك الثوري في الثورات التي نبحثها. غير أن النزعة الويزليانية كانت محافظة سياسياً على وجه العموم وغير موجهة ضد نظام اجتماعي أو سياسي معين. وفي الواقع أن كل النقطة التي نوشك على تحليلها هي أن الحماسة الدينية والتنظيم والطقوس والأفكار تظهر مرتبطة على نحو معقد مع الأهداف الاقتصادية والسياسية ومع برنامج لتغيير الأشياء والمؤسسات والقوانين وليس تحويل الناس فحسب.

يبدو أن المشاركين في الثورات الثلاث الكاملة كلها، وإلى حد ما في الثورة الأميركية، رغبوا أن يضعوا في هذا العالم بعض النظام والانضباط واحتقار الرذائل السهلة وهي فضائل سعى الكالفينيون إلى وضعها هناك. وفي الواقع تدعى الثورة الإنكليزية عموماً الثورة الكالفينية أو ثورة المتطهرين. هنا قد نتوقع احتجاجاً من الشيوعيين وادعاء ساخطاً بأن ماركس وضع جوانب الضعف المسيحية من مثل الرغبة في إخضاع الجسد وراءه وأن أتباعه يدعون إلى وفرة الغذاء والشراب والأشياء الجيدة الأخرى للجميع. وسنعود إلى تلك المسألة بعد قليل.

وفي الوقت نفسه يمكن ملاحظة ميل متسم بالزهد المستتر في الشيوعية إذا تأملنا في مدى سخط الشيوعيين الجيدين بسبب شعار "الخمر والنساء والغناء للجميع".

يمكننا أن نضع افتراضاً معقولاً أن المتطهرين قد اتسموا بالنقاء، على

(*) الميثودية أو المنهجية حركة بروتستانتية إصلاحية أسسها في أكسفورد عام 1729 جون ويزلي وأخوه تشارلز لغرض إحياء كنيسة إنكلترا.

الرغم من الميل المعاصر إلى الشعور بالقلق بسبب دلالات الألفاظ. ولا يستطيع غير كاشفي حقيقة الادعاء الأميركيين المعاصرين إقناعنا بأن المتطهرين كانوا أشخاصاً فاسقين. أما اليعاقبة فإن تشريعاتهم وقبل كل شيء إدارتهم غير النظامية نوعاً ما في 1793-1794 تشبه كثيراً ما حاول المتطهرون الإنكليز التعبير عنه بوضوح. كان اليعاقبة من حيث المبدأ ضد المقامرة ومعاقرة الخمور والممارسات الجنسية السيئة من كل الأنواع والعرض المتباهي للفقر والخمول والسرقة وطبعاً كل أنواع الجرائم. وكانوا عملياً أحراراً في فرض الامتناع عن هذه الرذائل والإصرار بحزم على تنفيذ الأعمال الإيجابية للفضيلة - من مثل بيع السلع بالأسعار القانونية الثابتة وحتى إذا صنع أو نقل أو بيع القليل من الخمر وحضور احتفالات تمجيداً لله والتعبير عن الرأي أن وليم بيت كان وغداً فاسداً وأن الأمة الإنكليزية تتكون من عبيد مثيرين للشفقة. لقد سعوا إلى فرض نظام أعمال بالقوة بجعل كل فرد مخبر نفسه والجاسوس الخاص للرب مثلما قيل إنه حدث في جنيف مدينة كالفين.

كان من تولوا الاستطلاع بفضول أعضاء الأندية المحلية من الزعماء المحليين. وكما هو الحال بالنسبة للمتطهرين كان قساوسة الأبرشيات، بمساعدة الأعضاء النشيطين الأكبر سناً في الكنيسة، هم من حرصوا على العناية بالرعية على نحو مناسب. وربما كانت الأمور غير اللائقة ، الأكثر تفاهة فيما يبدو كذلك، قد تنهي أبرشية أو مجموعة سكانية. ويقال لنا إن الانشقاق الأول في الكنيسة الانفصالية الإنكليزية في أمستردام نشأ ليس بسبب مسألة عقائدية أو أحد الطقوس بل بسبب تطريز محزم على كم السيدة فرانسز جونسن. ويمكن للمرء إيجاد عشرات المقارنات لهذا في سلوك اليعاقبة. ونشأت مقارنات مفعمة بالحيوية في ناد صغير في نورمندي حول مسألة إن كان الطبيب المحلي يجعل زياراته المهنية للارستقراطيين أطول مما ينبغي وزياراته للمواطنين أقصر مما ينبغي.وهنالك المشادة في بورغوان عندما أعلن السكرتير أنه لن يرتدي قبعة الحرية الحمراء لأنها لا تناسبه.هذا العرض المتسم بالغرور والمثير للاستنكار

ضد النزعة الوطنية الذي قهر الروح الوطنية وأطلق كل غضب الجمهوريين الشرفاء في بورغان وكان السكرتير محظوظاً إذ نجا بحياته.

يثير الولع بشؤون الدنيا لدى الثوريين مشكلة ظاهرية أكثر منها مهمة أو حتى حقيقية. صحيح تماماً أن الشيوعية الحديثة "فلسفياً" مستندة إلى النزعة المادية وأنها تصر على وجوب أن كون الناس سعداء على الأرض ويتمتعون بالأشياء الجيدة في هذا العالم. غير أنه مهم للغاية إذا رغبت في فهم مشاكل الناس في المجتمع ما يفعلون وكيف يتصرفون وكذلك ما يقولون على الورق أو ما يفعلون أو يريدون أن يفعلوا ويجب أن يفعلوا على منبر الوعظ. وصحيح كذلك أن الشيوعيين ومن يناصرهم واليساريين في هذه البلاد يميلون إلى الشعور بالسخط الشديد لدى تحليل سلوكهم كما نقترح تحليله. هنا السخط غالباً هو ليس دحضاً.

إن كون معظم الزعماء البلاشفة القدماء زاهدين تفاهة بديهية. كان لينين بخاصة متقشفاً ويحتقر وسائل الراحة العادية، وكان سكنه في ذروة سلطته في الكرملين يشبه ثكنة في بساطتها. وتبدو بعض أقوال لينين مثل أقوال الكالفينيين البرجوازيين كما يحللهم ماكس ويبر(*): "نفذوا حساباً دقيقاً وأميناً للمال وتولوا إدارة الاقتصاد ولا تبددوا الوقت في التسكع ولا تسرقوا وحافظوا على أكثر النظم انضباطاً في العمل". وفي الواقع كان الاتجاه العام لدى القيادة العليا للبلاشفة في تلك السنوات اتجاه مجموعة متفانية وزاهدة تقريباً. وفي روسيا حيث الناس يموتون جوعاً لم يكن مناسباً للحكام الظهور بمظهر النعومة وحسن التغذية على نحو أكثر مما ينبغي. إلا أنه مثلما ضغط الحرب ليس تفسيراً كاملاً للإرهاب لا الضرورة ولا السياسة تفسير لزهد البلاشفة. لقد أحسوا، شأنهم

(*) ماكس ويبر (1864- 1920) عالم اقتصاد سياسي وعالم اجتماع ألماني من مؤسسي علم الاجتماع الحديث. تولى التدريس في جامعات برلين وفرايبورغ وهايلبورغ وميونيخ.

شأن المتطهرين، أن رذائل وجوانب ضعف البشر العاديين قد زالت. حظر البلاشفة في وقت مبكر تعاطي الخمور والفودكا واتخذت كل مجالس السوفيات الأولى تقريباً خطوات لمنع الدعارة والمقامرة والحياة الليلية وما إلى ذلك. آمن البلاشفة نظرياً بحرية المرأة، مثلاً من القيود المثيرة للاستنكار التي فرضتها القوانين البرجوازية عليهن ولذا منحن حرية واسعة في ذروة الثورة في روسيا فيما يتعلق بالزواج والطلاق والإجهاض والمراحل الأخرى من العلاقات السرية والجنسية. إلا أن البلاشفة لم يقصدوا بذلك أن تتصرف النساء بحرية مثلما كانوا واثقين بتصرفاتهن سراً - أو أردن التصرف - في المجتمع البرجوازي المتحلل القديم. على النقيض من ذلك توقعوا من نسائهن التصرف كما يتصرفن في المجتمع اللاطبقي - وهذا قانون صارم.

حتى في ثلاثينيات القرن العشرين، عندما مرت مرحلة الأزمة في روسيا كما يبدو، بقي هنالك قدر كبير من الزهد لدى أعضاء الحزب الشيوعي الحقيقيين من فترة الأزمة. وقد أعلن سدني وبياتريس ويب في كتابهما الساذج عن روسيا السوفياتية عدم وجود زهد في روسيا طبعاً ومضيا إلى تفسير كيف شجع الشباب الشيوعيون على التعهد - ليس لأسباب خاصة بتعاليم المسيح أو السماء بل لأن تناول أي مشروب مسكر "انتهاك لقاعدة اشتراط المحافظة على الصحة العامة". كما لم يشجع على المراهنات بوصفها ممارسة غير جديرة بالشباب الشيوعي لاسيما عندما يحدث ذلك علانية". "ولا يسمح بكل ما يثير الغرائز الجنسية في الأدب أو في أي شكل فني. ثمة إثارة جنسية علنية في روسيا أقل منها في أي بلد غربي". ومنذ كتب سدني وبياتريس ويب ذلك يبدو أن الروس قد خففوا قيودهم العلنية بعض الشيء، على الأقل في الترفيه الرسمي عن الأجانب. إلا أنه ما يزال صحيحاً عدم وجود معادل في الصحافة الروسية للصور الفوتغرافية التي تبرز مفاتن المرأة في صحفنا الشعبية. وفي رأي الورثة الروحيين لسدني وبياتريس ويب ما تزال روسيا اليوم متمسكة بتعزيز الفضائل البسيطة.

اتصفت روسيا بالافتقار إلى النظافة في الأماكن العامة - مثل الأميركيين تقريباً - غير أن النظام الجديد أكد على الالتزام بعدم ترك الفضلات والأوراق وما أشبه من النفايات في الحدائق العامة والشوارع والمحطات. وفي الواقع أن نيل عضوية الحزب الشيوعي ، التي تضم دائماً أقلية منتقاة ومنضبطة، كان وما يزال يتطلب إلى حد كبير، ممارسة الكثير من الضبط الذاتي والاستعداد للعيش على نحو متسم بالبساطة والعمل بجد والالتزام بمعايير عالية من مبادئ الأخلاق الشخصية. وكالعادة في الظروف من هذا القبيل، وكما لاحظنا بالنسبة للمتطهرين واليعاقبة، يبدو أن الضبط الذاتي غير كاف ونشأت في روسيا كل أنواع الوسائل الرسمية وغير الرسمية للتجسس واستطلاع تصرفات الأفراد على نحو متسم بالفضول والتدقيق والتحكم فيها بتطبيق أساليب الإرهاب. وحلت الشرطة السرية محل التشيكا أو الشرطة السرية لخدمة البعث الستاليني للإرهاب في 1936-1939 على نحو مخلص كأن هذا الإرهاب هو إرهاب فترة الأزمة الجديد، المستوحى دينياً. وأخيراً كان الفرق الشاسع في الشخصية بين خروتشيف الدنيوي والمادي وبين لينين المتفاني والمتزمت والمتقشف رمزاً لانتهاء عهد الفضيلة في روسيا. لم يقدم النظام الحالي أية إشارة إلى الرغبة في العودة إلى المرحلة السابقة الأكثر زهداً.

وجدت فترات طويلة نسبياً مجموعات منضبطة تماماً تعيش حياة التقشف على نحو غير عادي مثل تلك التي سعى المتطهرون واليعاقبة والبلاشفة إلى فرضها. نجح الإسبارطيون عدة قرون في دعم شيوعية تكاد تكون بطولية. غير أن هذا الانضباط بطيء النمو ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بنوع سلوك البشر ويتغير مع البطء الجيولوجي. لا يمكن لثورة ما إنتاج هذا النوع من الانضباط بين عشية وضحاها - وهنا يقصد به العنف الروحي وليس مجرد سفك الدماء - في عهد الإرهاب يكاد يكون تعويضاً مفرطاً عن عجز المتطرفين عن إقناع مواطنيهم باللحاق بهم. الإرهاب تجاوز للهدف. ومرة أخرى الأرجح أن وجود قدر معين

في الأفراد إلى التدخل في شؤون جيرانهم أمر نافع يزيد تماسك المجتمعات. إلا أنه هنالك كذلك يبالغ الثوريون الملتهبون حماسة في الاستهداف وجعل حياة جيرانهم لا تطاق.

ثمة بقايا من هذا النوع من التقشف المنظم، هذه الحملة ضد الرذائل التقليدية، حتى في الثورة الأميركية حيث لم تكن مرحلة الأزمة أبداً حادة للغاية كما هي في الثورات الثلاث الأخرى. اتخذت إجراءات تقييد كثيرة بررت بوصفها ضرورية من أجل مواصلة الحرب ضد الملك جورج الثالث على نحو فعال. وثمة إجراءات أخرى فرضتها بوضوح تقاليد الأخلاقيات البروتستانتية للطبقة الوسطى التي رسخت طويلاً في مستعمرات الوسط الأميركية وإنكلترا الجديدة. غير أنه يوجد هنا وهناك الصعود الحقيقي للمثالية الثورية:

> الألقاب وليدة الحكومات الملكية والاستبدادية... لنتنازل عن ألقاب التفوق والشرف إلى الأعوان المهجورين لملك مستبد... بينما نكتفي برؤية شيوخنا وحكامنا وقادتنا العسكريين متصفين بالتفوق والشرف الحقيقيين.

مرة أخرى نجد مثالاً سطره قلم وطني من مستعمرة كونيكتكت في يوليو/ تموز 1775:

> مساء الأربعاء الماضي اجتمع عدد من السيدات والسادة في مكان يدعى ايست فارمز في كونيكتكت حيث تمتعوا بترفيه غير ضروري وأفرطوا في المرح بعد تناول الكثير من النبيذ. يمكن تبرير الترفيه والانحرافات من هذا القبيل في أية مناسبة. إلا أنه في يوم كهذا عندما يحيط الخطر بكل شيء حولنا يجب عدم تشجيعهم ويجب أن يستخدم كل إنسان طيب نفوذه لكبح اندفاعهم.

المتطرفون التقليديون والناجحون إذاً مناضلون ومتعصبون وزاهدون وساعون إلى جلب الجنة إلى الأرض. لاشك أن الكثير منهم منافقون وساعون لنيل المناصب يتظاهرون أنهم مؤمنون ولا ريب أن الكثير منهم يعرفون من أين تؤكل الكتف لدوافع أنانية. إلا أن من غير الواقعي إطلاقاً الاعتقاد بعدم السماح

للأفراد بالتوفيق بين مصالحهم وبين أفكارهم. وثمة الكثير من مثل أتباع روبسبير المتحمسين والموالين والكثير من الباحثين عن الحقيقة الكالفينية يشعرون بأفضل راحة ضمير من شراء أراض مصادرة من المعادين للجمهورية أو غير الورعين. كما أن المتطرفين في الثورات الأربع، كما يجب أن تقنعنا التفاصيل الدقيقة لحياتهم اليومية، هم أشخاص عاديون تماماً في الغالب يحملون مشاعر الحب والكراهية، الطموحات والشكوك، الآمال والمخاوف مثل الأشخاص العاديين. وحالما تنتهي فترة الأزمة فإنهم، ما عدا من يولدون شهداء، لا يعودون مناضلين ومتعصبين وزاهدين. وتتحول معتقداتهم الثورية إلى طقوس مريحة وتصبح سلوانا عادة وليس تذكيراً بالمثل الأعلى. أما حالياً، في فترة الأزمة، فإنهم في ما يمكن وصفه بالفترة الفعالة من دين ما. لنتناول بإيجاز بعض الخصائص اللافتة لهذه الفترة في المجتمعات الثلاثة.

الكالفينية واليعقوبية والماركسية كلها نزعات تتسم بالصرامة تؤمن بأن ما يحدث هنا على الأرض مقدر من قبل ولابد أن يتبع مساراً لا يمكن لأي إنسان تحويله ولاسيما من يعارضون الكالفينية أو اليعقوبية أو الماركسية. وفي الحقيقة كلما كانت عاصفة وحنق القساوسة والكهنة أقوى كان انتصار الكالفينيين مؤكداً أكثر. ولا يمكن لأعمال الأرستقراطيين والخونة وأمثال ويليم بيت و كوبيرج سوى جعل ظفر الجمهورية الفرنسية أعظم. وكلما عمل آل روكفلر وآل مورغان بجد أكثر زاد سلوكهم اتصافاً بالرأسمالية وكلما عجل المحتم في الحدوث كان نشوب الانتفاضة البروليتارية المحتمة والمجيدة والنهائية أقرب حلاً. الرب لدى الكالفيني والطبيعة والعقل لدى اليعقوبي والمادية الديالكتيكية أو العلمية لدى الماركسي مصدر الضمان المطمئن الذي يجب أن يحرزه المؤمن. ومن الواضح أن اعتقادك أنك لا يمكن أن تخسر سوف يجعلك في معظم، إن لم يكن كل، الحالات مناضلاً أفضل.

إن من يختارهم الرب أو الطبيعة أو العلم على أتم الاستعداد لإعلان

حقيقة هذا الاختيار وإظهار تناقض ذاتي غير منطقي وليس كل المشاعر ويبدون في ذلك حريصين للغاية على المساعدة في وقوع ما هو محتم. كما أن الحتميين المتشددين عادة مهتدون يلتهبون حماسة لأنهم أدوات المحتم والوسيلة التي يتحقق من خلالها. إلا أنهم لا يتصرفون كما يبدو وكأنهم ينسبون تلك المقاومة إلى حداثة اهتدائهم ورفض غير المؤمنين قبول رسالتهم وكانوا كذلك مصممين وحتميين ويمكن غفرانهم.

مهما يكن من أمر فقد سعى كل الثوريين في الحالات الأربع إلى نشر رسالة ثورتهم. وما ندعوها حالياً "النزعة القومية" حاضرة تماماً كعنصر في هذه الثورات كافة. غير أنه في السنوات المبكرة على الأقل وأثناء أزمة الثورة لا تسود أفكار أولية عن التوسع القومي. ويتمنى المحظوظون الذين أوحيت لهم رسالة الثورة نشرها على نحو صحيح في الخارج. ولا تطفو على السطح النزعة العدوانية أثناء الحماسة الخاصة بالأمل في مجيء المسيح. وتساعد النزعة القومية بلا ريب على دفع الثوريين وتظهر للعيان في فترة رد الفعل ولا تكاد تكون متخفية بوصفها "قدر" شعب مختار وزعيمه. أعلن اليعاقبة أنهم يحملون بركات الحرية إلى كل شعوب الأرض وقوة التخيل شديدة بحيث أن بعض الناس ما يزالون يعدون نابليون وكيل الحرية الجديدة. وما يزال البلاشفة حاضرين في نظر جيلنا بوصفهم رسلاً عظاماً لثورة عالمية النطاق. أما حالياً، على النقيض من عام 1918، فقد أصبح شائعاً حتى بين المحافظين الغربيين الادعاء أن ما كان ستالين يبحث عنه هو نشر الاستعمار الروسي في الخارج وليس الشيوعية العالمية. وما يزال الشيوعيون التقليديون يؤمنون أن الشيوعية هي موجة المستقبل.

كان الكالفينيون، كمسيحيين طبعاً، مهتدين متحمسين. إلا أن المستقلين الإنكليز المنتصرين استطاعوا كذلك مزج دعايتهم الدينية مع دعايتهم السياسية وحرصوا على كسب العالم إلى شكل مجتمعهم الأكثر تفوقاً. واعتاد الأدميرال

بليك(*)، شريك كرومويل الشهير، نشر الدعوة في البلدان الأجنبية. وبفضل مثال إنكلترا قال بليك: " ستمحق كل الممالك الطغيان وتتحول إلى جمهوريات". لقد فعلت إنكلترا ذلك فعلاً وكانت فرنسا تحذو حذوها، ولما كانت جاذبية الإسبان الطبيعية أبطأ نوعاً ما توقع بليك أن يفعلوا ذلك في غضون عشرة أعوام. وتوقع أن تصبح كل أوروبا جمهورية - كان ذلك في العقد السادس من القرن السابع عشر!

ومن يتباهون أو يتحسرون حالياً أن العالم الغربي سيصبح قريباً كله شيوعياً أو ديمقراطيات تتبنى المشروعات الحرة قد يمعنون التفكير في ملاحظات بليك هذه.

لقد استخدم قدر كبير من المداد والخطابة في جهد المتطرفين هذا لنشر معتقداتهم بين الدول. ويشعر المحافظون في دول أخرى بالارتياب الشديد ويرون أنه لا بد أن موسكو بطبيعة الحال وراء كل حركة حرة أو راديكالية، وأن ثمة مؤامرة دولية منظمة لتأسيس الحكم العالمي لليعقوبية الإلحادية وتدمير المسيحية. والأرجح في معظم الحالات أن هذه المخاوف والشكوك مبالغ فيها كثيراً. إن الثوريين في فترة الأزمة عادة أكثر فقراً وانشغالاً في بلادهم من أن يكرسوا سوى جزء صغير من طاقاتهم لهذه المهام في الخارج. كما أن ثمة سكاناً محليين ساخطين على نحو كاف لتشكيل نواة متينة من أجل العمل الثوري. واستعارة هذه البلدان تعبيرات وتقاليد ثورية إنكليزية أو فرنسية أو روسية هي الأمر الأكثر طبيعية في العالم. هنا مرة أخرى المتطرفون المؤمنون بالمؤامرة أو التلقائية مجرد تحليلات مزيفة والحقيقة هي مزيج محير من الاثنين.

ليس هنالك، على أية حال، شك في حقيقة التماثل. وحتى في القرن السابع عشر عندما كان العالم أوسع كثيراً واجتيازه أبطأ كثيراً نشرت الثورة

(*) الأدميرال روبرت بليك (1599- 1657) أحد أهم القادة العسكريين في كومونويلث إنكلترا ومن أشهر الأميرالات الإنكليز في القرن السابع عشر.

الإنكليزية نفسها في الخارج. واقترح أدوارد سكسبي(*) في مدينة بوردو على المتطرفين الفرنسيين دستوراً جمهورياً بعنوان "اتفاق الشعب" - تحوير لاتفاقية الشعب الإنكليزية - واضطر إثر ذلك إلى الهرب من المدينة. وفي هولندا "شرع الناس في التحيز لهذا الطرف أو ذلك بحماسة أدت بهم إلى اللجوء إلى العنف في حالات كثيرة " لدى تلقي أنباء الاضطرابات في إنكلترا". ويبدو ذلك كثيراً مثل سلوك الاتحاديين(**) والجمهوريين في الولايات المتحدة في العقد الأخير من القرن الثامن عشر عندما قدمت الثورة الفرنسية معظم المواد المثيرة للسياسة في أميركا. غير أنه لا حاجة إلى بذل جهد كبير في تناول هذه النقطة. وستحدث للجميع أمثلة مشابهة من الثورة الروسية.

يمكن دفع الموازي الديني أكثر بعض الشيء. الثوريون الذين ندرسهم مقتنعون أنهم المصطفون المقدر لهم تنفيذ إرادة الرب أو الطبيعة أو العلم. وساد هذا الشعور بقوة لاسيما بين الشيوعيين الروس حيث يجب في المنطق المحض أن يكون أقل قوة بين الكالفينيين، المؤمنين برب شخصي. إن خصوم هؤلاء الثوريين ليسوا مجرد معنيين بالأمور السياسية، ليسوا مجرد أشخاص مخطئين أو مبتزين أو ممارسي مقايضة الأصوات أو حمقى إلى الحد الأقصى. إنهم خاطئون ويجب ليس دحرهم فحسب بل إبادتهم إبادة تامة. ومن هنا تبرير استخدام المقصلة وفرقة الإعدام لأن هؤلاء الثوريين يكشفون أن عدم التسامح الشديد بعقب، في منطق العقل، الاقتناع التام بالصواب المطلق والأبدي والاحتكاري. وإذا كانت هنالك حقيقة واحدة وتمتلك تلك الحقيقة تماماً فإن تحمل

(*) أدوارد سكسبي (1616- 1658) عسكري إنكليزي متطهر ومن المساواتيين في جيش كرومويل إلا أنه انقلب عليه لاحقاً واشترك في مؤامرة لاغتياله.

(**) الحزب الاتحادي حزب سياسي في الفترة 1792- 1816 وسيطر على الحكومة الاتحادية حتى عام 1801. شكله الكساندر هاملتن، الذي أسس أثناء رئاسة واشنطن الأولى، شبكة من المؤيدين خصوصاً في المدن لدعم سياساته المالية. أراد هذا الحزب حكومة مالية سليمة وقومية قوية وعارضه الديمقراطيون والجمهوريون.

الاختلافات يعني التحريض على ارتكاب الخطأ والجريمة والشر والخطيئة. وفي الواقع أن التسامح في هذا المعنى مضر بمن يتسامح معهم علاوة على كونه مرهقاً للغاية لمن يتسامحون. وكما قال بيلارمين(*) إن قتل المهرطقين ذو فائدة إيجابية لهم لأنهم لن يعيشوا المزيد من اللعن الذي يثقلون به أنفسهم.

هذه المعتقدات الثورية مثيرة للاهتمام في دراسات الموت والبعث والحساب وكل ما يتعلق بشؤون الآخرة، أفكار النهايات الأخيرة كالجنة والنار. وقد هيمنت على الثورة الإنكليزية بعض هذه الدراسات المسيحية الأكثر تطرفاً إضافة إلى الدراسات التقليدية من هذا القبيل. وتوقع الألفيون السنة القادمة الواحدة بعد الأخرى. وانتصر الاعتقاد أن حكم القديسين(**) وشيك. أما اليعاقبة فكانت لديهم فكرة أقل متانة عن الجنة وأن تلك الجنة ستكون حتماً على هذه الأرض - جمهورية الفضيلة التي شهدنا أنها المثل الأعلى لروبسبير. وبعد دكتاتورية الحكم الثوري تظهر هذه الجمهورية الكاملة وتصبح الحرية والمساواة والإخاء أكثر من مجرد شعار. لا يرى الأميركيون الراسخون هذه جنة على الإطلاق إلا أننا يجب أن نؤمن أنها كانت مختلفة للغاية في نظر اليعقوبي المتحمس عام 1794. وكانت الجنة الروسية مجتمعاً يتم نيله بعد أن تضع دكتاتورية التطهير التي تتولاها البروليتاريا نهاية لأنواع بؤس الصراع الطبقي. ويصف معظم الشيوعيين المحتوى النوعي للحياة في المجتمع اللاطبقي على نحو غامض نوعاً ما. ويستنتج المرء أنه سيكون ثمة تنافس لأن ماركس بدأ من قاعدة هيغلية ولكن بلا صراع على السلع الاقتصادية وسيكون التنافس على مستوى عال كما يحدث بين الفنانين أو طلبة المدارس الثانوية الأهلية الإنكليزية

(*) روبرت بيلارمين (1542- 1621) يسوعي إيطالي وكاردينال في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية طُوّب قديساً عام 1930.

(**) Saints مجموعة دينية أثناء الثورة الإنكليزية آمن أعضاؤها بعودة المسيح ليحكم مع القديسين ألف عام.

أثناء اللعب. وعلى أية حال كما في جنة أكثر متانة، فالهار الألمانية القديمة(*)، سيتقاتل الأبطال طوال النهار إلا أن جروحهم ستشفى ليلاً.

أدمجت كل هذه المعتقدات في المجموعات الاجتماعية ومن هنا أصبحت لديها طقوس. وقد وصف المؤلف في مكان آخر في هذا الكتاب بشيء من التفصيل الطقوس اليعقوبية التي هي مزيج غريب من العناصر الكاثوليكية والبروتستانتية، التقليدية وعناصر غيرها/ مع معتقدات جمهورية وطقوس تعميد وصلوات جمهورية وحتى مع علامة ثورة للصليب باسم مارا، الحرية أو الموت. أما الطقوس الشيوعية فإنها أقل اتصافاً بالتقليد الفج وربما الأقل تنوعاً. إلا أنها واضحة مثلما تجد عندما تتحدث إلى شيوعي جديد. كان للثوريين الفرنسيين قديسوهم وشهداؤهم لاسيما مارا الذي اغتيل عمداً. وأصبح تمجيد لينين، الذي بدأ بوضوح في حياته، عقيدة تركز على ضريحه في موسكو. ولعل لينين، شأنه شأن جيريمي بنثام(**)، الذي يحتفظ بجثمانه في يونيفرستي كوليج في لندن، قديس علماني صرف إلا أنه قديس. وينشأ أعضاء مجموعات أصغر من مثل الشبيبة الشيوعية في جو من الطقوس هي من هذه الناحية أكثر شبهاً ببعض النشاطات الاجتماعية في الكنائس البروتستانتية (الأميركية) من المجموعات

العلمانية نسبياً من مثل أعضاء جمعية الكشافة. تتماشى الرمزية الدينية مع هذه الطقوس وقد تطورت خصوصاً في فرنسا. كان المرء أثناء عهد الإرهاب يصادف رموزاً في كل مكان: عين المراقبة التي تبحث عن أعداء الجمهورية/ مثلث الحرية والإخاء والمساواة، قبعة الحرية الفريجية(***)، القبعة الحمراء،

(*) الفالهار في الأساطير الألمانية والإسكندينافية قاعة كبرى حيث ينتظر الأبطال الذين سقطوا في معركة أو مغامرة كبرى انتخاب من أظهروا شجاعة أو مهارة بارزة.

(**) جيريمي بنثام (1748- 1832) حقوقي وفيلسوف ومصلح قانوني واجتماعي إنكليزي.

(***) نسبة إلى فريجيا في وسط آسيا الصغرى التي اشتهر شعبها بصنع الأدوات المعدنية وحفر الخشب.

مسواة النجار التي ترمز إلى المساواة، وأي نوع من المرتفع هورمز لحزب الجبل الذي أوصل الثورة إلى نهايتها المنطقية. يوجد معظم هذه الرموز وكثير غيرها في الموكب المتقن في باريس عندما أشرف روبسبير شخصياً على مهرجان الكائن الأسمى(*). واستخدم الروس بمساعدة أسلوب الملصقات الحديث الرموز على نحو مشابه ولو أنه أقل براعة من رموز جعل الناس يتماسكون في مجتمع شيوعي.

لعل التماثل الأهم في الثورات الأربع هو أنها كرسائل وأشكال للدين كلها عالمية في الإلهام وقومية وشاملة في الحقيقة المطلقة. إنها تنتهي برب يحمله شعب مختار للبشرية كافة حقاً ولو أنها ليست راغبة تماماً. ويستطيع الأميركيون رؤية ذلك بوضوح في المعاصرين، الشيوعيين الروس. إلا أنه بالنسبة للكثير من اللامنتمين، لاسيما إذا تقبلوا جدياً عبارة "القرن الأميركي". الأميركيون كذلك قوميون ينشرون رسالة ولدت من ثورة في القرن الثامن عشر. إن مفهوم المصير الواضح(**) ليس أبداً أضعف الآلهة.

مع ذلك ثمة تماثل أعمق وأبعد كثيراً من هذا التماثل يساعد في تفسير التماثل الأكثر وضوحاً ومفارقة للعقيدة الشمولية القومية وليدة الثورة. إن الثورات الأربع تظهر عداء متزايداً على نحو تدريجي للمسيحية المنظمة لاسيما الأشكال المسكونية للمسيحية المنظمة. وثمة لمسة علمانية حتى في الثورة الإنكليزية في

(*) نظم الاحتفال في ٠ حزيران/يونيو 1794، أي قبل بضعة أسابيع من اغتيال روبسبير في 28 تموز/يوليو، لتكريس مفهوم الكائن الأسمى المستند إلى أفكار لخصها روسو في العقد الاجتماعي وقد سار روبسبير على رأس المسيرة وخاطب الجمهور من منصة مرتفعة أمام قصر التويلري.

(**) Manifest Destiny مفهوم بأن قدر الولايات المتحدة التوسع من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي. وقد استخدم هذا المفهوم لدعم وتبرير عمليات ضم الأراضي واعتقد أنصار هذا المفهوم أن ذلك ليس جيداً فحسب بل إنه مصير واضح ثم أصبح تاريخياً قياساً استخدم مراراً مرادفاً لتوسع الولايات المتحدة عبر قارة أميركا الشمالية.

القرن السابع عشر ورجحان غامر للتأكيد على ضمير الفرد إزاء الكنيسة وتقاليدها. والثورتان الفرنسية والأميركية مليئتان في مد علمانية القرن الثامن عشر. أما الثورة الروسية فإنها مادية على نحو متسم بالغطرسة.

لم يوح أشرار وفاسدون يريدون استبعاد الأمور الأفضل من الحياة البشرية بهذا التنصل التدريجي من المسيحية التقليدية، كما قد يميل المسيحي التقليدي إلى الاعتقاد. كان الكثير من هؤلاء الثوريين يتصفون حقاً بالغطرسة وخطايا كثيرة أخرى. إلا أن جنتهم كانت قريبة للغاية من الجنة المسيحية ومبادئهم الأخلاقية المسيحية ومبادئ كل الأديان السامية. أما "المادية" الماركسية فإنها تجريدية حقاً بل حتى عالية: إنها ليست واضحة ولا أقرب في الإدراك السليم من مادية علم الفيزياء.

إن ما يفصل هؤلاء الثوريين عن المسيحية التقليدية هو بوضوح إصرارهم على وجود جنتهم هنا على الأرض ونيتهم المتسمة بنفاد الصبر في دحر الشر على نحو حاسم. لم تتخل المسيحية في أشكالها التقليدية منذ زمن طويل عن الكفاح الأخلاقي إلا أنها تخلت عن آمالها الألفية(*)، الآمال التي امتلكتها عندما كانت فتية وثورية، آمال الظهور الثاني المباشر للمسيح. وبالتمييز بين هذا العالم والعالم التالي، الطبيعي وفوق الطبيعي أو الإلهي، يمكن للمسيحية سد الفجوة بين البشر وبين ما يريدون نيله. إن الثوري يدرك هذه الفجوة جيداً. إى أنه يقترح عدم سدها بل ملأها أو القفز فوقها. وغالباً ما ينتهي حيث يبدأ الزاهد بإقناع نفسه بعدم وجود الفجوة.

حتى إذا افترضنا، كما يفترض المؤمن بالفلسفة الوضعية، المادي، أن الإنسان حيوان وليس أكثر من ذلك. وجزء من الطبيعة - وأن الطبيعة موجودة هناك - يبدو واضحاً على نحو معقول أن الإنسان فريد في الطبيعة وبين الحيوانات لأنه قادر على تصور المستقبل. وعلى أية حال يبدو أنه لا يوجد

(*) نسبة إلى العقيدة الألفية أي الإيمان بالعصر الألفي الذي يملك فيه المسيح على الأرض.

حيوان آخر قادر على التخطيط والتفكير. ويمكن أن يتملك الإحباط حيوانات ولكن ليس، كما يبدو، بسبب فشل أفكارهم وخططهم المبينة. ويمكن للكثير من الفلاسفة الوضعيين حقاً وليس الجماهير الواسعة تعزية أنفسهم بهذا العالم كما يرونه. هنا تبرز ملاحظة فولتير غير المرتبطة بموضوع البحث والمتسمة بالرعاية: "لو لم يكن الرب موجوداً لكان اختراعه ضرورياً".

هذا ما فعله الثوار في الثورات الأربع. غير أنه كان علينا اختراع آلهة تجريديين، آلهة قبليين، آلهة يتسمون بالغيرة. لا تمتلك عقائدهم نضج القدماء ولا شموليتهم، على الرغم من طموحاتهم. وهم لا يمتلكون القوة المخففة للقدماء بالنسبة للمرهقين وخائبي الأمل. ولم

ينالوا بعد سلطة التوفيق الناجح، حكمة العصور. إنها ما تزال، باختصار، معتقدات ثورية، أكثر فعالية كمهاميز وليس كمهدئات. وهذا ينطبق بخاصة على أحدثها، الشيوعية الماركسية. ربما تواجه الزعامة الروسية صعوبة بالغة في إزالة الحافز الثوري من العقيدة الأقل إيماناً بجنة جديدة على الأرض.

4- تفسيرات الإرهاب

يمكننا أن نميز في فترات الأزمة في كل الثورات الأربع المجموعة نفسها من المتغيرات على نحو مختلف والممتزجة مع كل أنواع العوامل المحتملة لإنتاج الحالات المحددة التي يميل المؤرخ السردي لهذه الثورات إلى اعتبارها فريدة. ولا شك في وجود عدد

كبير للغاية من هذه المتغيرات غير أنه لأغراض إجراء مقاربة أولية يمكننا هنا تمييز سبعة متغيرات. وتبدو هذه غير متعلقة الواحد بالآخر في أية علاقة سببية أحادية مهمة. تبدو عموماً مثل متغيرات الرياضي المستقلة، ولو أن كونها مستقلة تماماً غير مفهوم. إن إغراء إبراز واحد منها بوصفه "سبب" الإرهاب يماثل الإغراء بإيجاد بطل أو وغد في أية حالة من المقاومة. ولكل واحد من

المتغيرات تاريخ يعود على الأقل إلى الجيل الأخير أو الجيلين الأخيرين من العهد القديم.

إن كل المتغيرات متشابكة في نمط معقد من الواقع ولكن بدونها جميعاً - وهذه هي النقطة المهمة - لا يكون ثمة عهد إرهاب ولن تكون هنالك أزمة كاملة في الثورة. ولا حاجة إلى أن تثير مشكلة استقلالها الممكن قلقنا. درجة الحرارة والضغط متغيران مستقلان في الصياغة الرياضية لقوانين الديناميكية الحرارية - غير أنه لا يمكن أين يكون الجليد في درجة حرارة الصفر المئوي إلا إذا كان الضغط قليلاً. لقد أكدنا هذه النقطة سابقاً ربما أبعد من حدود الكتابة الجيدة. إلا أن الفكرة القديمة للسببية الخطية البسيطة الأحادية الاتجاه متأصلة للغاية في عادات تفكيرنا وهي مفيدة لنا كثيراً في حياتنا اليومية بحيث أننا نكاد نطالب غريزياً بتفسير حالة معقدة من مثل الإرهاب تمكننا من عزل وغد- سبب - أو بطل- سبب.

أولاً، هنالك ما يمكن وصفه بعادات العنف، الحالة المتسمة بالمفارقة لناس تكيفوا على توقع ما هو غير متوقع. إن فترات هذه الثورات الأكثر عنفاً وإرهاباً لا تحدث إلا بعد أن تمهد سلسلة من المتاعب السبيل. ولم ينفذ المستقلون في إنكلترا إلا بعد عدة سنوات من الحرب الأهلية إجراءاتهم الصارمة ضد أساليب :إنكلترا المرحة" المألوفة. لا يبدأ الإرهاب في فرنسا في معنى رسمي حتى أواخر عام 1793. ويساعد نشوب أحداث من مثل الخوف الكبير عام 1789 ومجازر أيلول/سبتمبر 1792 في ترسيخ المزاج اللازم للإرهاب. وحتى في روسيا حيث تداخلت الأحداث في فترة أقصر من أي من الثورات الأخرى لا يظهر العنف المنظم برعاية الحكومة حتى خريف 1918 أي بعد عام ونصف العام من نشوب الثورة ضد القيصر. ويورد تشيمبرلين برقية وجهها بيتروفسكي إلى كل مجالس السوفيات يرى فيها مؤشراً على الإرهاب المنظم: "أخيراً يجب تطهير خلفية جيوشنا نهائياً من الحرس الأبيض وكل

المتآمرين الأوغاد ضد قوة الطبقة العاملة والفلاحين الأكثر فقراً وعدم السماح لأي تردد أو عدم حزم في تطبيق الإرهاب الجماهيري".

ثانياً، تطرح هذه البرقية متغيراً مهماً للغاية - ضغط حرب أجنبية أو أهلية. إن متطلبات الحرب تساعد على تفسير التحول السريع إلى مركزية حكومة عهد الإرهاب، العداء ضد المعارضين ضمن المجموعة - يبدون منشقين الآن - الحماسة واسعة النطاق التي يعرفها جيلنا على نحو كاف بوصفها "ذهان العصاب". وهنالك في فرنسا وفي روسيا ارتباط عام بين الوضع العسكري للجيوش الثورية - وعنف الإرهاب. ومع تنامي خطر الهزيمة يزداد كذلك عدد ضحايا المحاكم الثورية. إلا أن هنالك فترة فاصلة ويستمر الإرهاب بعد انتهاء أسوأ الخطر العسكري. ويمكن أن نشير هنا مرة أخرى إلى أنه في إنكلترا تولى الايرلنديون والاسكتلنديون مهام العدو الخارجي ولو أن بريطانيا بقيت حرة نسبياً عن القارة الأوروبية أثناء كل فترة ثورة المتطهرين فيها. وفي أميركا وإنكلترا رافقت فترة الأزمة حرب نظامية أو حرب أهلية عموماً. ولا يرغب شخص عاقل في إنكار أهمية الحروب في الحالة الكلية التي سميناها فترة الأزمة.

ثالثاً، هنالك حداثة جهاز هذه الحكومة المركزية. إن المتطرفين ليسوا حتماً - سبق لنا تأكيد هذه النقطة - بدون خبرة تماماً في التعامل مع الناس ولو أنهم تعاملوا مع ثوريين وليس مع كل الناس. كان تدريبهم الطويل في قضية الثورة تدريباً أساسياً من نوع ما. وتتمكن شبكتهم الجديدة من المؤسسات في وسائل كثيرة من استخدام بعض القنوات الروتينية التي كانت تطبقها الحكومة القديمة. غير أنه صحيح حتماً أن مؤسسات الإرهاب جديدة في معنى ما وأنها لا تعمل على نحو سلس وأن من يتكفلون بإدارتها، حتى إن لم يكونوا بدون خبرة سياسية، هم بلا خبرة إدارية. ويعمل جهاز الإرهاب على نحو مشوش للغاية، تنشأ صراعات بين الإداريين وتسوى بالعنف وليس على نحو غير روتيني. ويزعج كل إخفاق في الجهاز الحكومي من يحاول إدارته ويرغمهم على اتخاذ قرار

جديد ومفاجئ بارتكاب عمل عنيف آخر. ويؤدي هذا بدوره إلى تعطيل الجهاز. إنها الدائرة المغلقة.

رابعاً، هذا كذلك وقت أزمة اقتصادية حادة - ليس مجرد ما ندعوه حالياً كساداً بل إدراك مؤكد لضرورات الحياة. مرة أخرى يجب إدراك أن الإرهاب لا يحدث فجأة في بداية الثورة بل تسبقه فترة من المشاكل التي تحل على نحو واسع بأمن عمليات الإنتاج العادية. وينتاب الخوف رأس المال ويشرع بمغادرة البلاد. ويتردد رجال الأعمال في تنفيذ مشاريع جديدة ومواصلة العمل في تنفيذ المشاريع القديمة على الأساس نفسه. وتقلل صعوبات الفلاحين الإنتاج الزراعي. ثم تنشب الحرب التي تتطلب الرجال والذخيرة. إن الدكتاتورية اللاحقة للمتطرفين المنتصرين هي جزئياً دكتاتورية اقتصادية ـ، إشراف على الحياة الاقتصادية للبلاد، سيطرة على العملة، تثبيت الأسعار، تقنين توزيع الغذاء، نوع من اشتراكية الحقيقة قبل ماركس بزمن طويل. كما تختبر صعوبة توزيع التجهيزات الناقصة مزاج الإدارة وتضيف إلى فرص المستنكرين والجواسيس وتؤدي إلى استمرار وزيادة حدة الحماسة الخاصة وتوتر الإرهاب. إنها تزيد حدة الصراعات الطبقية التي سبق لنا تشخيصها في دراسة الأنظمة القديمة.

يظهر المتغير الخامس، في شكل أو آخر، بوضوح الصراعات الطبقية في أزمة الثورات الأربع كافة. كانت كراهية المتطهرين لأنصار ملك إنكلترا تشارلز الأول، ومقت اليعاقبة الارستقراطيين والاتحاديين والأعداء الآخرين لجمهورية الفضيلة، وكره البلاشفة للبيض والكاديتس والتوفيقيين، وكراهية الليبراليين الأميركيين للمحافظين، بحد ذاته مركباً معقداً. ويتعلق أحد العناصر في هذا المركب على الأرجح بما يعنيه الماركسي عندما يتحدث عن الصراع الطبقي. وعلى أية حال، بحلول زمن الإرهاب انقسمت المجموعات المتعادية المختلفة إلى الثوريين التقليديين في السلطة والكتلة المختلطة نوعاً ما التي تضم أعداءهم. وبالنظر لتصاعد هذه الخصومات الطبقية، شأنها شأن كل التوترات والصراعات الأخرى، بسبب مسار الثورة فإن هذه الخصومات الطبقية تتصف حالياً بحدة غير

موجودة عادة إلا في كتابات وخطب المثقفين ومثيري الهياج. وتستولي الروح الحزبية، التي تمثل على الأرجح عنصراً واحداً وشكلاً واحداً من الخصومة بين الطبقات، على الرموز الأبسط لجعل الناس واعين لخلافاتهم المتضاربة، هكذا تبنى اليعاقبة مصطلح "بلا بنطلونات" كصرخة حشد لتأكيد الصراع الطبقي. كانت البنطلونات قصيرة تصل إلى الركبة يضعها السادة الذين يرتدون الجوارب الحريرية في النظام القديم أما من لا يرتدون هذه البنطلونات فيفترض فيهم ارتداء سراويل الرجل العادي، العامل. وقد حفلت الثورة الفرنسية بشعارات الصراع الطبقي في المعنى الماركسي الضيق. وعلى الرغم من وجود صراعات طبقية أكثر في الثورات الأربع وعلى الرغم من أن هذه الصراعات غير محددة ببساطة كما يفهم الكثيرون من المؤمنين بالتفسير الاقتصادي للتاريخ أحياناً، من الحماقة المفرطة إنكار أهمية أحد المتغيرات في الإرهاب - تلك الخصومات بين المجموعات أو "الطبقات" التي تجمعها معاً عموماً مصالح اقتصادية وتراث اجتماعي وثقافي مشترك، نمط حياة مشترك، يعرفه جيلنا باسم الصراع الطبقي.

المتغير السادس تجريد على نحو أوضح من المتغيرات الأخرى، طريقة من المفترض أن تفيدنا في جمع عدد كبير من الحقائق الراسخة. إنه ليس منطقياً على مستوى دقيق مع المتغيرات الأخرى ولن تتناسب مع سلسلة متقنة من الفئات الفلسفية. إنه متغير مستند إلى ملاحظة سلوك مجموعة صغيرة من زعماء انتظموا أثناء الثورة ويسيطرون على حكومة الإرهاب. ويتأثر الكثير من سلوكهم، مثل سلوك أتباعهم ومواطنيهم، بالمتغيرات الأخرى في قائمتنا. غير أن بعض العناصر المهمة للغاية في سلوكهم يعتمد على حقيقة أنهم زعماء وأنهم حصلوا على تدريب معين في الأساليب الثورية وأنهم اختيروا في معنى دارويني تقريباً بالنظر لقدرتهم في استثمار مجموعة ثورية متطرفة. ولا يعني هذا أنهم بالضرورة أو حتى عادة "عير عمليين"، "منظرون"، "ميتافيزيقيون" : أو أي أسماء ابتكرها لهم نقاد يسيطرون من مثل تين. إنها تعني أنهم لا ينتظمون من أجل التوافق، بسبب كل الذرائع المملة للسياسات في مجتمعات غير متحمسة

ومستقرة نسبياً. إنها تعني حتماً أنهم ينتظمون من أجل التطرف واستخدام نفوذهم الخاص لتصعيد توتر الحياة في المجتمع. ومثل كل السياسيين تعلموا المهارات الضرورية للنجاح في مهنتهم. لقد أصبحوا يشعرون أن مهنتهم تشبه لعبة كما هي فعلاً. إلا أنهم لاعبون متهورون يميلون إلى اللعب للجمهور ويحاولون دائماً إبادة الطرف المعارض. كما أنهم على الأقل يحسدون بعضهم بعضاً شأنهم شأن الممثلين ويجب أن يحاول كل واحد احتلال مركز المسرح. وما كان في الأزمنة العادية صراعاً تقليدياً على السلطة بين السياسيين تصاعد في فترة أزمة الثورات ليصل إلى درجة قاتلة من الحدة.

أخيراً هنالك المتغير الذي تناولناه بالتفصيل في جزء آخر من هذا الفصل. إن هذا عنصر من العقيدة الدينية يتقاسمه المستقلون واليعاقبة والبلاشفة. ولا حاجة هنا إلى تكرار ما قلناه عن الجانب الديني لعهود الإرهاب. إلا أن هذا عنصر يجعل عناصر الإرهاب كذلك عهود الفضيلة ومحاولات بطولية لتسد إلى الأبد كل الفجوة بين الطبيعة البشرية وبين الطموحات البشرية. هذا مجرد واحد من المتغيرات إلا أنه متغير مهم. إن الأهداف والمشاعر الدينية تساعد على التمييز بين أزمات الثورات الأربع والأزمات العسكرية أو الاقتصادية العادية وتمنح عهود الإرهاب والفضيلة مزيجهما غير العادي مكان الغضب الروحي، التفاخر، التكريس والتضحية الذاتية، القسوة، الجنون والاحتيال عالي الدرجة.

إن كل هذه العناصر حالياً في تفاعل مستمر الواحد مع الآخر، التغير في أحدها يؤدي إلى تغييرات مقابلة معقدة في كل العناصر الأخرى وبالتالي في الحالة برمتها. يجب ألا نفكر فيها بأنها تشبه حالة العربة والحصان أو الدجاجة والبيضة أو كرة بليارد ترتطم بأخرى. بدلاً من ذلك هي مطاردة معقدة وجنونية مثلما نتصور صراع الجزيئات في نظام فيزيائي- كيميائي. وهكذا تسهل ضغوط المراحل المبكرة من الثورات دفع البلاد نحو الحرب - لنأخذ مثلاً الجيرونديين مثيري الحرب في فرنسا. وتزيد الحرب نفسها الضغوط وتعود الناس على العنف والقلق. تؤدي الحرب إلى الندرة الاقتصادية وهذه تزيد بدورها حدة الصراع

الطبقي وهكذا تحدث دورة مستمرة.كل هذه الآثار حتى نهاية فترة الأزمة تراكمية. كل عادة قديمة وكل انسلاخ عن الماضي يقود إلى المزيد ويزيد التوتر على الجميع، الجميع تقريباً، في النظام الاجتماعي.

ثمة حقيقة يمكن ملاحظتها في السلوك البشري هي أنه لا يمكن تحمل أعداد كبيرة من الناس التدخل في المواظبات الروتينية وطقوس وجودهم اليومي. كما يبدو أن معظم الناس لا يستطيعون أن يتحملوا طويلاً الجهد الطويل للعيش وفقاً للمثل العليا للغاية. يدفع اللامنتمي في فترة الأزمة إلى أقصى تحمله بالتدخل في بعض أنماطه الروتينية المفضلة والحميمة، ويضطر المنتمي إلى تحمل جهد وحماسة روحية تفوق قدرات التحمل. ويبدو لكلا النوعين حد لعملهما الاجتماعي حقيقي مثل الحد الذي يجده الكيميائي في تفاعل كيميائي. ولا يتمكن البشر من المضي إلا بقدر وفترة على نحو متناسب في ظل حافز مثل أعلى. ولا يمكن للنظم الاجتماعية المؤلفة من البشر أن تتحمل أكثر من فترة محدودة المحاولة المنسقة لجلب الجنة إلى الأرض التي نسميها حكم الإرهاب والفضيلة. ويحل ثيرميدور على نحو طبيعي في المجتمعات التي تعيش ثورة مثل تيار منحسر، هدوء بعد العاصفة، نقاهة بعد الحمى ـ قصم رباط مرن ممتد. تبدو الصور المجازية من هذا القبيل المأخوذة من حالات تماثل راسخة في العالم المادي أنها تفرض نفسها. وربما على الرغم من جهود الفلاسفة وعلماء اللاهوت وعلماء الأخلاق والمنظرين السياسيين والعلماء الاجتماعيين ومنظرين آخرين كثيرين في الألفي سنة الماضية ما تزال النظم الاجتماعية في نواح كثيرة غير متأثرة على نحو مؤاتٍ بالنيات الثورية الجيدة مثل تيارات المد والجزر أو أربطة مطاطية.

الفصل الثامن

ثرميدور

1- شمولية رد الفعل الثرميدوري

كما لاحظنا في محاولات أسبق لجعل الثورات تناسب مخطط المفاهيم الذي وضعناه، لا يمكن تنفيذ ذلك بالدقة الصعبة الإرضاء. ومن المستحيل تماماً القول إن أزمة ثورة ما قد انتهت مثلاً في الساعة الرابعة والدقيقة الثالثة بعد الظهر في السادس من آب/أغسطس من تلك السنة. وتزودنا فرنسا حقاً بحالة تكاد تكون دقيقة كهذه. يمكن تحديد تاريخ نهاية الأزمة في فرنسا بسقوط روبسبير في 27 تموز/يوليو 1794 أو في التاسع من شهر ثرميدور من السنة الثانية من التقويم الفرنسي الجديد. أطلق المؤرخون الفرنسيون مصطلح رد الفعل الثرميدوري على العودة الناتجة والبطيئة وغير المتساوية إلى أزمنة أهدأ وأقل بطولية. وطبق الماركسيون، أو بالأحرى التروتسكيون والهراطقة المعادون لستالين المصطلح في أحوال كثيرة على الثورة الروسية بحيث يمكن تبنيه مثلما جرى تبني مصطلح "العهد القديم" بوصفه مصطلحاً يلقى القبول العام. لقد شهد كل من الثورات الأربع الثرميدور الخاص بها، ولو لم يوجد تماثل في أي ثورتين بين سلسلة الأحداث والجداول الزمنية وتقلبات الحياة اليومية.

وفيما يتعلق بمخطط المفاهيم لابد أن نصف ثيرميدور بأنه نقاهة من حمى الثورة على الرغم من أن "النقاهة" تعني شيئاً لطيفاً، ويبدو ذلك وسيلة لإطراء رد الفعل الثرميدوري. ويمكننا تكرار الادعاءات السابقة أنه لا يقصد هنا أي معنى تقريظي. ونواصل السعي إلى اكتشاف المقاربات الأولى لحالات التماثل في ظواهر لا ننوي إطراءها ولا لومها، لا نعتز بها ولا نذمها.

لا تحدد النقاهة بداية الثورة الثرميدورية في إنكلترا على أي نحو دقيق. وتمثل السنة أو ما نحوها عقب إعدام الملك تشارلز الأول ذروة الأزمة في إنكلترا. وطالما بقي برلمان رمب هنالك طعماً قوياً للثورة. وربما أفضل تاريخ للثرميدور الإنكليزي هو حل كرومويل برلمان رمب في 20 نيسان/ أبريل 1653 عندما أبدى الجنرال الكبير بعض الملاحظات الشهيرة عن التشابه بين الصولجان الإنكليزي وعصا المهرج. ومع تنصيب كرومويل حامياً للكومونويلث بموجب "مستند الحكومة" عام 1653 - اتخذ الإنكليز لأنفسهم دستوراً مدوناً مرة واحدة - يمكن القول إن ثرميدور قد حل. أصبح كرومويل السيد الحامي عام 1657، نصف ملك على الأقل، ومع استعادة أسرة ستيوارت العرش عام 1660 يمكن القول إن الثورة الإنكليزية الكبرى قد انتهت.

تحقق سقوط روبسبير في فرنسا عموماً في مؤامرة نفذها من بدوا نواب اليعاقبة التقليديين في المؤتمر حيث كان الكثير منهم متورطين في الانتفاع من الحرب والفساد البرلماني والمضاربة ونشاطات أخرى غير جديرة بجمهورية الفضيلة. ويبدو أن الخشية من روبسبير "غير القابل للفساد" كانت أحد الأسباب الرئيسية لعملهم. لقد نجحوا وساعدهم في ذلك افتقار روبسبير إلى الحكمة السياسية. ويبدو أن الثرميدوريين أنفسهم لم يقصدوا إنهاء الإرهاب. كان إعدام روبسبير بالمقصلة مجرد عملية إعدام أخرى في سلسلة طويلة من عمليات الإعدام الثورية التي اعتادوا تنفيذها. إلا أن الرأي العام تحرك مرة أخرى وأوضح الفرنسيون أنهم سئموا "النمور المتعطشة للدماء". واستمر رد الفعل بمعدل مضطرد تماماً بضعة أعوام في ظل المؤتمر المنحدر وحكومة الإدارة الجديدة. حدثت انتكاسات مؤكدة كما هو متوقع أثناء النقاهة. وظهر خصوصاً

في صيف عام ، 1799 بعد الهزائم الفرنسية في الخارج، إحياء لافت لنزعة اليعاقبة. أعيد فتح الأندية وترددت الشعارات القديمة مرة أخرى في القاعات العامة والمقاهي وزوايا الشوارع. وبعد بضعة أشهر قام نابليون بانقلاب 18 برومير وأوشكت النقاهة الفرنسية على الانتهاء. ولا تكاد دعوة آل بوربون الفعلية عام 1914 تمثل جزءاً من مسار الثورة في فرنسا. الأحرى أن ذلك كان حادثاً أو نتيجة عوامل شخصية صرف من مثل إصرار نابليون المهووس بالعظمة على محاربة كل أوروبا حتى النهاية المرة في 1813-1814، براعة تاليران في الدعوة إلى التغيير، الصعوبات في وجه خلافة ماري لويس بعد ابن نابليون، ونوايا قيصر روسيا الإسكندر الأول الجديدة والجديرة بالثناء. كان ثرميدور روسيا معقداً ومطولاً. ويمكننا اعتبار فترة شيوعية الحرب، 1917- 1921، الأزمة الرئيسية الأولى في الثورة الروسية. مع السياسة الاقتصادية الجديدة عام 1921 بدأ ثرميدور روسيا. وقاد موت لينين والتنافس التالي بين ستالين وتروتسكي إلى أزمة ثانية أو بالأحرى انتكاسة أثناء النقاهة يمكن تحديد تاريخها بالفترات الحادة في فرض خطة السنوات الخمس الأولى المتسمة بالعنف. غير أنه كما لاحظ مراقبون كثيرون افتقرت هذه الأزمة الثانية إلى الواقعية المتفائلة للخطة الخماسية الأولى كما افتقرت إلى الارتجال والمغامرات وغاب أعداؤها الخارجيون والحرس الأبيض، وتبدو حتى من منظورنا التاريخي الموجز أعمالاً مميزة للطغاة الذين تولوا السلطة أثناء فترات ثرميدور أخرى - استيلاء كرومويل على ايرلندا، مثلاً، أو فرض نابليون النظام القاري. إلا أن مسألة عودة روسيا في منتصف القرن العشرين إلى روسيا العادية تتطلب لوحدها قسماً مستقلاً.

2. العفو القمع

التماثل اللافت سياسياً والملاحظ في فترة النقاهة هو التنصيب النهائي لطاغية في المعنى الإغريقي القديم للكلمة، أي حاكم غير دستوري أوصلته الثورة إلى السلطة. وقد لوحظ هذا التماثل مراراً: كرومويل، بونابرت، ستالين جميعاً يؤكدون ذلك. وفي الواقع كان هنالك أنصار لجيفرسن في الولايات

المتحدة غير ممتنين بدرجة كافية تجعلهم يعلنون أن واشنطن نموذج جيد تماماً للطاغية الذي أنجبته الثورة. ليس هنالك شيء محير للغاية بشأن الأزمة. وبعد مرور ثورة ما في أزمة والتركيز المصاحب لمركزية السلطة لابد من إمساك زعيم قوي بتلك السلطة المركزية عندما تحرق الطاقة الدينية الجنونية لفترة الأزمة نفسها. إن الدكتاتوريات والثورات مترابطة ترابطاً وثيقاً حتماً لأن الثورات إلى حد ما تحطم أو على الأقل تضعف القوانين والتقاليد والعادات والمعتقدات التي تربط الناس معاً في المجتمع. وحتى عندما تربط القوانين والتقاليد والعادات والمعتقدات الناس معاً على نحو غير كاف لا بد من استخدام القوة لمعالجة عدم الكفاية تلك. إن القوة العسكرية لفترات قصيرة هي النوع الأكثر كفاءة من القوة المتوافرة للاستخدامات الاجتماعية والسياسية، وتتطلب القوة العسكرية تدرج الطاعة برئاسة قائد عام للقوات المسلحة. وكما بين فيريرو(*)، عندما تتمزق "الخيوط الحريرية" للعادة والتقليد والشرعية يجب جعل الناس يتماسكون في المجتمع بالسلاسل الحديدية للدكتاتورية. إلا أن كل ذلك أمر شائع في زمننا.

لا يقوم حكم الرجل الواحد فوراً مع رد الفعل الثرميدوري. وحتى كرومويل، النموذج الأقدم للثلاثة، لم يصبح الحاكم غير المنازع بحل برلمان رمب. رد الفعل نحو الأزمة بطيء وغير مؤكد في البداية. ويتبقى من الأزمة ميل إلى اتخاذ خطوات مثيرة وإجراءات شاملة. وحتى للوقورين والمسالمين لحظات من النكسات إزاء هياج الإرهاب. وإذا نظر إلى عمليات التطهير في موسكو والمحاكمات في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين بهذا المنظار فإنها ليست مؤشراً على أن الثورة الروسية قد عاشت عمراً طويلاً على نحو غير مألوف وأنها لا تتناسب مع نمطنا. هذه العروض المثيرة ليست أكثر من العواقب المتوقعة للثورة في بلد وبين شعوب متأخرة نسبياً في الهيكل الاقتصادي

(*) غوليلمو فيريرو (1871- 1942) مؤرخ وصحفي وروائي إيطالي مؤلف كتاب عظمة وانحطاط روما في 6 مجلدات. كرس مؤلفاته إلى النزعة الليبرالية.

والسياسي. ومع مرور الزمن تخف ضغوط الإرهاب التي تصيب الناس العاديين: تحل المحاكم النظامية محل المحاكم الخاصة وتستوعب الشرطة الثورية في الشرطة النظامية - وهي ليست بالضرورة معادلة لرجال الشرطة في لندن. ربما هم وكلاء مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في عهد ستالين - ويحتفظ بخشبة الإعدام والمقصلة وفرقة الإعدام بإطلاق الرصاص للمجرمين الأكثر إثارة. لا تتصف الحياة السياسية طبعاً بالاستقرار البسيط الذي يود بعض معاصرينا إطلاقه على حكم القانون والذي يشك المرء أنه لم يكن لطيفاً كما يبدو في كتبهم - ليس حتى في إنكلترا الرصينة في القرن الثالث عشر حين عاش القديس توماس أكويناس حياة ممتعة. تبقى نكهة وعادات العنف السياسي في الانقلاب، في عمليات التطهير، في المحاكمات الجيدة الإعداد. غير أن المواطن العادي، جون جونز، جاك دوبون، إيفان إفانوفيتش، رجل الشارع، لم يعد ضمن المشاركين - ترك ليؤدي دوره العادي بوصفه متفرجاً أو كومبارس.

يعفى كذلك تدريجياً عن المحظورين سياسياً ويعودون. ويُقبض عليهم أحياناً في تزاحم التنافس السياسي، ويصبحون أحياناً جزءاً من العاملين في الحياة الحديثة، البيروقراطية، ليعيشوا أحياء بهدوء كمواطنين. العملية هي طبعاً عكس العملية التي استبعد منها هؤلاء الرجال والنساء. يتحولون من اليمين إلى اليسار ويعودون من اليسار إلى اليمين - أولاً الراديكاليون الصرف تقريباً ثم المعتدلون فالمحافظون المعتدلون حتى تعيد عملية الاستعادة بقايا العصابة القديمة. كانت هذه على الأقل العملية في فرنسا التي نفذها الأسقفيون الحديثون والملكيون حتى عاد آل ستيوارت وأفراد حاشيتهم عام 1660. وفي فرنسا كانت الوراثة دقيقة وصدقت بقوانين العفو النظامية: في البداية عاد الجيرونديون - من بقي منهم - بينما ذرفت الدموع على الضحايا الأبرياء لروبسبير النمر المتعطش لسفك الدماء وأقيمت لهم الأنصاب التذكارية. ثم عاد الفويلانيون أنصار لافاييت ولاميت ثم أنصار الملكية والمهاجرون الذين تمكن نابليون من السيطرة المحكمة عليهم وأخيراً آل بوربون أنفسهم عام 1814.

لم يعد آل رومانوف إلى روسيا حتى الآن ولا يكاد يوجد أحد حالياً يتوقع

جدياً عودتهم. يجب ألا نطالب الثورات الأربع برسم صورة محكمة للغاية. غير أن من الواضح ما عدا عودة الملكيين النهائية فقد استمرت العملية التي تولينا اختصارها أعلاه على نحو غير منتظم وأقل إحكاماً في روسيا السوفياتية منها في فرنسا. وحتى الأرستقراطيون القدماء يمكنهم العودة إذا قدموا فروض الطاعة وحصلوا على الدعاية المناسبة - وهو ما انطبق على فرنسا النابليونية. وحتى غوركي الذي أحيط بهالة القدسية كان ما يطلق عليه في فرنسا وصف الرجل الذي يلتحق بركب الحزب الشيوعي بعد انتهاء أسوأ ما في مرحلة الإرهاب الأولية. ومن الناحية الأخرى استؤصل معظم البلاشفة القدماء، الرجال الذين حكموا روسيا في فترة الأزمة. ومن الشائع في افتتاحيات الصحف الغربية الإشارة إلى ستالين وخروتشيف بأنهما وريثا القياصرة.

الأرجح أن العاملين في الحكومة في الفترة الترميدورية في النظام الجديد-القديم الذي يبرز أخيراً من الثورة هم متنوعو الأصل. خدم نابليون أرستقراطيون قدماء وبيروقراطيون تدربوا في ظل النظام القديم وأنصار لافاييت وجيرونديون وحتى بعض اليعاقبة الذين مارسوا العنف في وقت ما. لقد ورد في المؤلفات رجال من مثل ألبيمار وشافتسبري وداوننغ، الذين تولوا مناصب رفيعة في حكومة الملك تشارلز بعد عودته إلى العرش: "كانوا من مدرسة بليك وفين نفسها ومثلوا المكاسب السياسية الأكثر صلابة لحزب كرومويل". إن سيرة داوننغ مثال جيد لاستطاعة رجال ذوي قدرة ومرونة أخلاقية مؤكدة الانتقال عبر الثورات. تخرج في جامعة هارفرد عام 1642 وتوجه إلى إنكلترا في الفترة السعيدة لتفوق المتطهرين. وسرعان ما تقدم في صفوف أنصار كرومويل مكرساً مواهبه إلى الدبلوماسية بخاصة. أفلح في تغيير ردائه في الوقت المناسب ودخل في خدمة الملك الجديد. وأطلق اسم خريج جامعة هارفرد غير القياسي نوعاً ما على شارع داوننغ في لندن. وحتى في روسيا وعلى الرغم من إزاحة معظم البلاشفة القدماء من المجلس الأعلى بقي الكثير من في البيروقراطية الجديدة بعد إضعاف شوكتهم. غير أن روسيا ما تزال بيروقراطية بدون حقوق ملكية

وراثية معترف بها تماماً وهو سبب آخر على الأرجح لعودة عهد الإرهاب في 1936-1939. لقد اتسمت النقاهة الروسية بالاضطراب.

الطبقات الحاكمة الجديدة في كل المجتمعات الأربعة إذاً مجموعة كثيرة التنوع لا يجمع بينها سوى القليل فيما يتعلق بالأصول الاجتماعية والتعليم والانتماءات الحزبية السابقة وتجمع بينها قدرة معينة على التكيف. لقد ظلت موجودة في اختيار صارم وقسري نوعاً ما. وهي تبدو، بعد أبطال عهد الإرهاب، مروضة وغير مستعدة للمبادرة في نواح كثيرة. إلا أنها تؤدي عملاً جيداً في تحرك المؤسسات والقوانين والأعمال الروتينية وكل الوسائل القياسية الضرورية للعمل.

إلى جانب العفو عن المعتدلين السابقين ثمة عملية معكوسة لقمع ومقاضاة الثوريين غير النادمين من كل الأنواع. وكلما تحرك رد الفعل أكثر نحو اليمين توسع تحديد الثوريين الذين يجب تقييدهم كرد فعل مناسب ضد أهوال حكم الإرهاب. ولم يكن الثرميدوريون أنفسهم بأية وسيلة غير مستعدين لتطبيق الأساليب الإرهابية في الاتجاه المناسب. كان الإرهاب الأبيض حقيقياً شأنه شأن الإرهاب الأحمر. وحتى في إنكلترا يتوافق قانون(*) كلارندن الشهير توافقاً وثيقاً مع النمط العام للقمع الذي نفذ لاحقاً في فرنسا وروسيا. ويكاد المتطرف الذكي وغير المنضبط يكون قادراً دائماً تقريباً على الثبات في وجه الإرهاب الأبيض - الدليل فوشيه مرة أخرى. إن المتطرفين المقتنعين والمصرين وحدهم هم من يعانون.

أما قادة عهد الإرهاب الأصلي الأكثر نشاطاً وعنفاً فقد استؤصلوا طبعاً إما بالنفي أو بالموت. وأصبحوا يوصفون بأنهم متعصبون وأوغاد وطغاة متعطشون لسفك الدماء وأنذال. وأصبحوا أكباش فداء مناسبين للغاية وتفسيرات للصعوبات التي يواجهها النظام الجديد في تسوية الأمور. وإذا كان هنالك كبش فداء مثير للغاية وهو ميت فذلك أفضل. نبشت جثة كرومويل بعد عودة آل

(*) سن بعد عودة الملك تشارلز الثاني إلى العرش لدعم كنيسة إنكلترا.

ستيوارت وشنق في تيبورن بجانب أيرتن(*) وبرادشو(**). لقد أصبح طاغية، غولاً، وكافراً بالله، وبقي كذلك عموماً حتى بدأ كارلايل في القرن التاسع عشر رد الاعتبار إليه وجعله بطلاً. وما عدا طائفة صغيرة بقيادة ألبرت ماثيز(***) لم يسترجع روبسبير وضع البطل أبداً. جعل الترميدوريون روبسبير كبش فداء رئيسياً وزعيم عصابة إرهابيين وطاغية مغروراً وذا نزوات ووغداً دموياً.وتوفي لينين طبعاً قديساً غير أنه لحسن حظ ستالين أصبح تروتسكي كبش فداء كبيراً.

اختفى رفع مكانة المثل الأعلى حالياً ولو أن العبارات الفخمة ما تزال متجمدة في الطقوس. وتستقر الطبقة الحاكمة الجديدة لأداء عمل جيد قدر الإمكان. إلا أنها تنوي على نحو واضح كذلك التمتع بالحياة والحصول على المزايا والثروة التي حصلت عليها الطبقة الحاكمة دائماً. لا تحاول هذه الطبقة الحاكمة الجديدة تجربة تحقيق الحرية والمساواة والإخاء للجميع في المجتمع. إنها راضية تماماً بتكوين الطبقات أثناء الثورة وتسوي صراعاتها الداخلية بقدر الإمكان بالطريقة التقليدية التي تتبعها الطبقات الحاكمة. وليس هنالك أي من النداءات المباشرة الخطرة الموجهة إلى الشعب ولا مخاطر حدوث انتفاضات شعبية كبرى. وقد لاحظنا كيف أنه مع اقتراب فترة الأزمة تقل مشاركة الناس تدريجياً في العمل السياسي النشيط وكيف يصل المتطرفون إلى السلطة من خلال انقلاب. وتستمر هذه العملية لدى الترميدوريين حتى تصبح التغيرات السياسية، تحويلات السلطة أثناء هذه الفترة - وهي كثيرة وليست منتظمة ومنظمة - لا تكاد

(*) توماس أيرتن (1611-1651) محامٍ ودبلوماسي إنكليزي ومن قواد جيش البرلمان الإنكليزي وزوج ابنة كروموبل.

(**) جون برادشو (1602-1659) قاض إقليمي إنكليزي ترأس اللجنة البرلمانية التي حاكمت الملك تشارلز الأول بعد رفض محامين بارزين تولي المهمة. ترأس مجلس الدولة واعتزل بعد حل كروموبل المجلس وأصبح من خصوم النظام.

(***) ألبرت ماثيز (1874- 1932) مؤرخ فرنسي أبرز مؤلفاته الثورة الفرنسية في ثلاثة أجزاء وقد وضعه بوصفه اشتراكياً وبتفسير مؤيد لروبسبير. شغل كرسي السوربون لدراسات الثورة الفرنسية وأسس جمعية دراسات روبسبير التي أسست مجلة الحوليات التاريخية للثورة الفرنسية.

تكون أكثر من ثورات القصر. وعندما تهدأ الأمور وتنتظم يخاطر المنتصرون بإجراء استفتاء. لابد من المحافظة على المظاهر ويجب ترسيخ عدد معين من القوالب النمطية لإرادة الشعب في ذهن المواطن العادي. ومن هنا كانت "ديمقراطية" دستور ستالين عام 1936.

قد يشعر المواطن العادي بالسأم من الاضطراب السياسي. غير أنه لا يكون في الفترة الثرميدورية في حالة مزدهرة عموماً. ومن أكثر حالات التماثل المثيرة للانتباه التي يمكننا تمييزها في هذه الثورة أنه، خصوصاً في فرنسا وروسيا ولكن إلى حد معين في إنكلترا كذلك في العقد السادس من القرن السابع عشر وفي أميركا في ظل مواد الاتحاد، ثمة معاناة اقتصادية أكثر انتشاراً بين الطبقات الأكثر فقراً منها أثناء عهد الإرهاب أو أثناء السنوات الأخيرة من النظام القديم. وعندما تخلى الثرميدوريون في فرنسا عن تثبيت الأسعار وتقنين الغذاء ارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلاً وواصلت النقود الورقية انخفاضها التقليدي وأصبح الفقراء في وضع بائس. ويبدو أن ثمة اتفاقاً عاماً على حدوث معاناة فعلية في فرنسا في شتاء 1795 وشتاء 1796 أكثر من أي وقت آخر في الحقبة الثورية. إلا أنه باستثناء بعض أعمال الشغب المتعلقة بالخبز في باريس وبعض المدن الكبرى قمعت الحكومة أعمال الشغب بيسر. وفي روسيا كذلك يبدو من المحتم أن تصفية الكولاك (المزارعين الأغنياء) والمجاعة الكبرى أثناء خطة السنوات الخمس الأولى قد سببتا موت عدد أكبر وتعاسة أشد حتى من فترة شيوعية الحرب. وربما تفسير فشل هذه المعاناة في إحداث انتفاضة أن المعاناة ليست بحد ذاتها حافزاً على الثورة الفعالة. ربما تستطيع الطبقة الحاكمة الجديدة في ثرميدور استخدام القوة وتفعل ذلك بقوة لم تتمكن الطبقة الحاكمة القديمة من ممارستها. وبحلول ثرميدور ربما شعرت جماهير الشعب غير الغنية وغير الفقيرة وليست على كل حال على هامش الوجود بالإرهاق والإنهاك والسأم من تجارب حملة جمهورية الفضيلة. وعلى كل حال إن عدم حدوث أية انتفاضة فعالة لمن يعانون أكثر من الآخرين أثناء حالات الثرميدور تحد خطير لمن

يعتقدون أن تلك المعاناة والحرمان بين الكثيرين نوع من السبب الرئيسي للثورة في عالمنا.

كما أن رفع منزلة المثال الأعلى قد اختفى من الحروب التي يشنها الثوريون لنشر مبادئهم. صحيح حتماً أن تلك الحروب لم تكرس تماماً نشر هذه المبادئ وقد استمر استخدام الشعارات حتماً زمناً طويلاً بعد الفترة البطولية للأزمة. غير أن النزعة القومية العدائية تحل تدريجياً محل الروح التبشيرية وتصبح حملة متسمة بالمثالية وبروح نضالية عالية حرب فتوحات على نحو واضح. لقد حول كرومويل الطاقات الإنكليزية إلى إعادة الاستيلاء على ايرلندا ثم ترسيخ سمعة إنكلترا في الخارج. وكان الاستيلاء على جامايكا أمراً بسيطاً بالمقارنة مع فتوحات نابليون، إلا أنه من النمط السوسيولوجي نفسه. واتخذت النزعة الوطنية لدى سكسبي وبليك في السنوات السابقة شكل الرغبة في جعل كل أوروبا جمهورية. وبحلول منتصف عقد الخمسينيات من القرن السابع عشر عادت النزعة الوطنية الإنكليزية إلى قنوات عادية أكثر. لا بد أن يكون واضحاً حتى لمن يؤلهون نابليون أنه في ظل حكومة الإدارة ونابليون انسجمت النزعة القومية الفرنسية مع النمط الذي وضعنا مخططه آنفاً.

نبذت فعلياً النزعة القومية في المعنى العدواني وفقاً لمبادئ ماركس في الأيام الأولى للثورة في روسيا. أما في المعنى الثقافي الصرف فقد أصبحت النزعة القومية القاعدة الثمينة للنزعة الاتحادية السوفياتية. ويرى معجبون كثيرون أنه ليس واضحاً إطلاقاً انسجام روسيا كذلك مع نمطنا وهي تتفق مع التماثل الذي يصبح معه التحول الثوري المتسم بالمثالية والروح النضالية العالية في دول أخرى النزعة القومية العدوانية المألوفة لدينا. ليس في وسع المرتاب سوى الرد أن المساواة الاتحادية المتباهية للجماعات الوطنية داخل الاتحاد السوفياتي لم تثبت عدم توافقها مع الهيمنة الفعلية للروس على الرغم من أن الحكومة السوفياتية كانت بلا شك "ليبرالية" في معظم النواحي نحو الجماعات الوطنية الأخرى أكثر مما كانت روسيا القيصرية وأنجح في دمجها في وحدة أكبر متجسدة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. غير أنه حتى ضمن

الاتحاد السوفياتي القديم وجد من الضروري قمع ألمان الفولغا وجماعات معينة مستقلة ذاتياً في القوقاز بعد إخراج الجيوش الألمانية في 1943-1944.

الأمر الأهم لأغراضنا هو عودة ظهور النزعة القومية العادية على نحو واضح في روسيا في عهد ستالين. وقد يفسر مراقب مؤيد لروسيا في أواخر عقد الثلاثينيات من القرن العشرين العلامات الواضحة لإحياء النزعة القومية - إعادة اعتبار الأبطال القيصريين التاريخيين القدماء والعودة إلى سياسات موازنة القوى التقليدية وما أشبه - بوصفها إجراءات دفاعية صرف في وجه تهديد هتلر. غير أنه منذ عام 1939 لا يشك سوى متحجر الفؤاد أن روسيا الماركسية هي على الأقل قومية على نحو متسم بالحماسة والبساطة والهجومية مثلما كانت روسيا القيصرية. إن استمتاع الصحفيين المحافظين على نحو غبي في الغرب بترديد ذلك لا يغير، للأسف، حقيقة هذا القول.

3. عودة الكنيسة

إن مركز الأديان المعترف بها في الأنظمة القديمة من أفضل مؤشرات طبيعة ومدى ردود الفعل الثرميدوري هذه. وقد شهدنا في الفصل الأخير أن المتطرفين قد طوروا ما كان علينا وصفه بدين خاص بهم، عقيدة نشيطة ومناضلة وغير متسامحة أرسلت معتنقيها لاجتياح الجنة على الأرض. ومن الطبيعي أثناء تفوق المتطرفين اضطهاد العقيدتين الراسختين، الكاثوليكية والبروتستانتية على حد سواء. لقد اضطهد المستقلون الإنكليز الكاثوليك والأسقفيين والمشيخيين بحماسة متناقصة حسب هذا الترتيب. وفي فرنسا كانت الكنيسة الكاثوليكية زمناً طويلاً هدف الفلاسفة. ولم يكن اليعاقبة المنتصرون موحدين بشأن التعامل مع الكنيسة الكاثوليكية أو أي نوع من البديل قد يكون مرغوباً. إن لعقائد العقل والوطن والذات العليا كلها مؤيديها. وقد يتفق معظمها على حظر أولئك الكاثوليك الذين يرفضون أداء القسم الموالين للبابا. وكان أعنف القائمين باجتثاث المسيحية في ذروة عهد الإرهاب مسيطرين في بعض المناطق وقاموا بتدمير الكنائس أو تشويهها وأعدموا القساوسة بالمقصلة أو طردوهم ونظموا

استعراضات تسخر من الشعائر الكاثوليكية. وأمر فوشيه بنقش العبارة التالية المتسمة بالتأكيد الواثق على بوابة مقبرة في بلدة نيفر (في وسط فرنسا): "الموت نوم أبدي".

نشأ البلاشفة على كراهية الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية على الأقل على نحو عنيف مشابه لمشاعر اليعاقبة نحو الروم الكاثوليك. كان اعتقادهم الراسخ الذي غذي بالكثير من التكرار هو أن الدين "أفيون الشعب". عدوا أنفسهم رجال علم ومن ثم فإنهم ملحدون. وشرع البلاشفة بعد تولي السلطة في حملة نشيطة ضد الكنائس وكان لهم خصوصاً في الأيام الأولى من شيوعية الحرب أمور أخرى يقومون بها وتركوا رجال الدين يصارعون بمفردهم. ثمة أحداث عنف عادية ضد رجال الدين وبنايات الكنائس وإغلاق الأديرة وما أشبه. وصنف القساوسة طبعاً في الفئة غير المنتجة وعانوا أكثر من غيرهم من الافتقار إلى الغذاء أثناء النقص الشديد في الغذاء. إلا أن المرء يحصل على الانطباع أن الإرهاب الصرف ضد المسيحية المنظمة في روسيا لم يكن شديداً مثلماً كان في فرنسا. وكان للبلاشفة إيمان شديد بقوة التعليم المناسب وخططوا من البداية لاحتكار الدولة التي يجب أن تضمن حماية صغار السن من التعرض إلى خطر الإصابة بعدوى الأفكار المسيحية. واعتمدت الحكومة بالنسبة للبالغين على الدعاية المعادية للدين والانتشار العام لحركة التنوير والرغبة في الأمور الجيدة في هذا العالم. ودعمت الحكومة تشكيل "رابطة المناضلين غير المؤمنين بالله" ونشط الفنانون والمطابع في إعداد الملصقات وتابعت الصحف بحماسة هذه المساعي الآمنة. ولكن ربما ذكر مراقبون أجانب على نحو غير معقول في فترة في عقد العشرينيات من القرن العشرين أن المسيحية بدت في طريقها إلى الانقراض في روسيا.

من الصعب حقاً الحصول على معلومات عن الوضع الحالي للمسيحية المنظمة في روسيا. ومن الصعب اختراق الستار الحديدي حول هذا الموضوع، وحتى معظم المواضيع. إلا أنه يبدو محتماً بعد خمسين عاماً من الهيمنة البلشفية لم تمح المسيحية في روسيا وهي غير مقتصرة على المسنين الذين ترعرعوا قبل

الثورة. وبدا واضحاً أثناء الحرب العالمية الثانية استعداد الحكومة الروسية التام لإسناد المحافظة على المعنويات من خلال ما بقي من المسيحية التقليدية. وكانت هنالك علامات حتى في عقد الثلاثينيات على مصالحة الحكومة مع الشيوعية. وواضح حالياً وجود قساوسة أرثوذكس شيوعيين مقبولين، إن لم يكونوا أعضاء حزبيين. ويبقى صحيحاً أن الشيوعية، شأنها شأن نزعة اليعاقبة قبلها، تقيم وزناً كبيراً لرسالتها المناهضة للمسيحية. وربما سيقضى تماماً على المسيحية في روسيا بعد جيل أو اثنين ولكن لا يكاد أحد يعتقد بحدوث ذلك في الكثير من الدول السائرة في فلك روسيا حالياً من مثل بولندا والمجر. والأرجح أن المسيحية و"النزعة المادية" المتشددة المناهضة للمسيحية في روسيا، كما في فرنسا، ستبقى جنباً إلى جنب في تسامح متبادل غير سهل. وفي الوقت نفسه واضح أن سياسة "الجذر والغصن" لم تنجح بعد في روسيا. وما يزال ممكناً حضور القداس في الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في بلاد الثورة الماركسية الناجحة ولكن قد لا يحضر القداس أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي. مثلما لم يحضر القداس رسمياً معظم مسؤولي حكومة الجمهورية الفرنسية الثالثة. وقد تكون الشيوعية الرسمية مادية وتؤمن بالمذهب الوضعي ومعاداة رجال الدين شأنها شأن الاشتراكية الراديكالية الفرنسية الرسمية في زماننا ومستعدة لتحمل المسيحيين الذين كفت عن محاولة التخلص منهم تماماً. إلا أنه بدا في ذلك الوقت كأن أفضل ما تأمل الكنيسة الروسية فعله هو البقاء بوصفها عقيدة أقلية. ويبدو أن البلاشفة نجحوا في قمع الدين القديم على نحو أكمل من اليعاقبة قبلهم. ولا بد من تأكيد أن حالات التماثل في الثورات الأربع ليست حالات تطابق.

مضى التصالح في فرنسا بين الثرميدوريين وبين الكنيسة القديمة سريعاً جداً حتى أنه في غضون أقل من عقد واحد من حركة "اجتثاث المسيحية" في عهد الإرهاب وقع نابليون اتفاقاً مع البابا أعاد تأسيس الرومانية الكاثوليكية بوصفها الكنيسة الرسمية في فرنسا. أثناء أسوأ عهد الإرهاب اضطر الكاثوليك إلى إقامة شعائرهم الدينية سراً على الرغم من حقيقة منح القانون حرية العبادة. ولكن مع

سقوط روبسبير شرع الكاثوليك في المجازفة بإقامة الشعائر الدينية علناً في المباني التي بقيت في حوزته. ومع العفو عن المزيد من المعتدلين اتسم موقف الحكومة بود أكثر وشهدت فرنسا في السنوات الأربع الأخيرة من القرن الثامن عشر الحرية الدينية التامة والفصل الكامل تقريباً بين الكنيسة وبين الدولة. شعر نابليون والكثير من أفراد الطبقة الحاكمة الجديدة بالحاجة إلى كسب الكاثوليك تماماً إلى صفهم وجرى التفاوض على الاتفاقية الجديدة مع البابا لتنظيم الشؤون الكنسية. غير أن الكنيسة الكاثوليكية التي أعيد تأسيسها لم تكن في الوضع القانوني نفسه تماماً كما في النظام القديم حين كانت العقيدة الوحيدة المعترف بها. وقد منح البروتستانت واليهود بموجب القوانين الجديدة وضعاً مساوياً للكاثوليك.

لا تدخل المسيحية المنظمة بالطريقة نفسها في الثورة الأميركية. إلا أنه كان هنالك في إنكلترا تشابه لافت مع الخطوط العريضة للتطور في فرنسا وروسيا. كانت كنيسة إنكلترا هي العقيدة الراسخة للنظام القديم من ناحية الطقوس الدينية واللاهوت والحكومة ليست بعيدة عن التقليد الكاثوليكي في نواح كثيرة. وكانت العقيدة الثورية الجديدة هي النزعة الكالفينية بأشكالها المتنوعة التي انتصر فيها المستقلون في نهاية المطاف. وفي ظل حكم المستقلين قمعت العبادة الإنجليكانية وحتى الأشكال المنافسة من العبادة الكالفينية. كان هذا الاضطهاد الديني على الورق، على الأقل، أكثر عنفاً منه في فرنسا وروسيا. وكان الخصوم في حرب المنشورات بين الطوائف علماء يمتلكون مفردات وافرة وقناعات راسخة. ومن الناحية الأخرى، باستثناء ايرلندا، حدثت أعمال عنف وسفك دماء في النزاعات الدينية أثناء الثورة الإنكليزية أقل نوعاً ما بالمقارنة مع فرنسا وروسيا. ومع قمع الطوائف الأكثر راديكالية، خصوصاً الكويكرز، بدأ التحول العكسي في إنكلترا. وقد أثبت المشيخيون وحتى الأنجليكانيون في السنوات الأخيرة من حكم كرومويل وجودهم في الحياة العامة وواصلوا ممارسة شعائرهم الدينية بحرية فعلية. وعندما استعاد تشارلز الثاني عرشه أعيد تقريباً ترسيخ سمعة كنيسة إنكلترا وامتيازاتها القديمة، واتخذت الدورة شكلها المألوف باضطهاد

الطوائف التي صنعت الثورة. إلا أن الاضطهاد كان فاتراً وبقي البروتستانتيون الإنكليز المختلفون مع الكنيسة الإنجليكانية ليصبحوا منشقين عن كنيسة إنكلترا وأصبحوا الآن أعضاء أحراراً في الكنيسة - وهو تدرج مهم من مصطلح ازدرائي إلى مصطلح إطراء.

4- البحث عن المتعة

يحتفظ المؤرخ الاجتماعي بالنكهة الكاملة لرد الفعل الثرميدوري. ويتمثل بوضوح في الملابس ووسائل التسلية والتفاصيل البسيطة للحياة اليومية للرجال والنساء العاديين، المدى الكامل للتخلي الشعبي عن جمهورية الفضيلة. هذا الانغماس في اللهو واضح كثيراً يحس به حتى المؤرخ، ولا يكاد يخفي المؤرخون الليبراليون في القرن التاسع عشر اشمئزازهم وخيبة أملهم عندما تولوا تدوين المتع المستقلة في عهد عودة الملكية أو حكومة الإدارة في فرنسا. وبدت مظاهر البساطة الشديدة للحياة الجديدة وفقاً لكالفين وروبسبير مقياساً نبيلاً، هدفاً ربما يكافح الناس من أجله ببطولة تزين عمل التاريخ. وكانت أعمال مجتمع فيه أمثال نيل غوين(*) أو تيريزيادي كاباروس(**) الفاعلين الأهم لا تبعث على التقوى لدى أي شخص ولا يمكن أن تكون مفيدة سوى بإضافة الإسهاب المناسب في الوعظ. وقد استمتع كتاب الفضائح والسير الرومانتيكيون والمروجون الآخرون لذوق عام فاسد بالأنباء السارة عن الثرميدوريين غير أن من يحملون مشاعر سامية ويكتبون التاريخ الجاد قد مروا بهذه الفترات وهم

(*) نيل غوين (1650- 1687) من الممثلات الإنكليزيات الأُوَل. لقيت التقدير العالي وأصبحت عشيقة الملك تشارلز الثاني وعدت بطلة شعبية!

(**) تيريزيا كاباروس (1773-1836) حسناء وشخصية اجتماعية اشتهرت أثناء الثورة. طلقت إثر هرب زوجها الأول الماركيز دو فونتين سجنت وأنقذها قوميسار المؤتمر الوطني تالين من المقصلة واتخذها عشيقة ثم زوجة له وكانت لها علاقة عابرة مع نابليون ثم طلقت وتزوجت أكير شيماي وأنجبت 10 أبناء من زيجاتها المتعددة.

يضعون أيديهم على أنوفهم. إلا أننا، من مصدر أو آخر، نستطيع إيجاد ما نحتاج إلى معرفته عن التاريخ الاجتماعي للمجتمعات الأربعة في هذه المرحلة بالذات من الثورة. وسنحاول تجنب الإصابة بصدمة أو الدغدغة ورؤية كيف يتناسب التحلل الأخلاقي لردود الفعل الترميدورية مع حالات التماثل التي نتولى وضعها. ولكن أولاً فيما يلي عرض موجز للحقائق.

بعد أيام قلائل من إعدام روبسبير وأتباعه البارزين بالمقصلة شرع الباريسيون بالممارسة العلنية باندفاع لسلسلة كاملة من المتع التي حرموا منها أثناء التوتر في عهد الإرهاب. وربما ظن السياسيون أن الإرهاب سيبقى متفشياً حتى يهلك آخر "أعداء الجمهورية"، إلا أن الرجال والنساء فرضوا هذه المرة على السياسيين مباشرة رغباتهم وحاجاتهم الواضحة. ويتكون الانطباع لدى المرء أن المظاهر القليلة في مسار الثورة الفرنسية "شعبية" و"تلقائية" حقاً أكثر من النفور من قيود عهد الإرهاب. لقد عد سكان باريس موت روبسبير شاهداً على رفع الغطاء.

فتحت قاعات الرقص في كل أنحاء باريس وشرعت العاهرات بالعمل "باجترائهن السابق" على حد وصف تقرير للشرطة، وراح شبان أثرياء يرتدون ملابس أنيقة وهم سكارى على نحو غير لائق بالجمهورية يتجولون ويضربون جمهوريين أفاضل عبوسين على الرأس. كان هؤلاء الشباب الذهبيون المشهورون بدون أوهام بشأن جمهورية الفضيلة هم من يوصفون حالياً بالفاشستيين حتماً. ومالت ملابس الرجال والنساء في فترة الأزمة إلى الرصانة وارتدت النساء أردية رومانية الطراز واتصفن بأكثر من الفضيلة الرومانية. تغير كل شيء وأصبحت ملابس الرجال مسرفة في الأناقة مع سراويل ضيقة وسترات متقنة ولفاع يرفع فوق الذقن. وبقي من يتولون خياطة ملابس النساء يستلهمون الأزياء الكلاسيكية ولكن مع الاهتمام بإبراز المفاتن وكشف الثديين ببراعة. زيّ عهد الإدارة رمز ممتاز لتلك الفترة.

مع التخلي عن تثبيت الأسعار وبسبب التضخم اللاحق ظهرت طبقة من المضاربين الأثرياء الجدد والمنتفعين من الحرب والسياسيين الأذكياء، وظهرت

الفضائح البرلمانية حقا في الفترات المتبكرة في الثورات حتى في فترات الأزمة. ويمكن إثبات ممارسة أعضاء معينين في البرلمان الطويل الإنكليزي والمؤتمر الفرنسي الفساد حتى في أيام بروزهم. إلا أن الانفضاح في تلك الفترات المبكرة تلاه عقاب سريع أما في فترة ثرميدور فلم يكترث أحد كثيراً ولم يُفعل شيء. ثمة أقاويل وفي بعض الأوساط سخط. إلا أننا نقيس متفائلين الاستخدام المعتاد لبصيرتهم بنشاطات المسؤولين الشيوعيين الذين عهدت إليهم مهام توجيه الأجانب أقل من قناعتهم الدينية القوية أن الأمور ستكون على ما يرام في الجنة الماركسية. إلا أنه حتى إطلاق خطة السنوات الخمس كانت عودة الرذائل البرجوازية واضحة خصوصاً في منتصف عقد العشرينات في القرن العشرين بحيث لاحظ ذلك حتى الشيوعيون الأجانب.

إن عودة ستالين الظاهرية إلى الشيوعية في 1928-1929 ليست أكثر من تبرؤ نابليون الظاهري من الفساد والتحلل الأخلاقي في عهد الإدارة حالما تولى السلطة في انقلاب 18 برومير(*). ويبدو أن في المجتمعات الأربعة كافة قدراً معيناً من رد الفعل تجاه رد الفعل الثرميدوري، لاسيما في مسألة سعي الناس وراء المتعة. ولم يعد في إمكان الكثيرين تكريس أنفسهم على نحو بطولي ودائم ارتكاب الخطايا وليس التقوى. لم يكن في الإمكان استمرار

العمل الرابح للألف مرقص التي يقال إنها فتحت في باريس بعد عهد الإرهاب مباشرة إلا إذا أراد معظم سكان باريس الرقص معظم الوقت. وعلى الرغم من الأفكار الأنكلو- سكسونية المناقضة ليس الباريسيون كذلك حقاً.

ما حدث في السنوات التي أعقبت أزمة عهد الإرهاب مباشرة نوع من التأرجح بين التحكم الأخلاقي وبين التحلل الأخلاقي وتم التوصل في نهايتها إلى نوع من التوازن يتصرف وفقاً له معظم الرجال والنساء فيما يخص مسائل من مثل المقامرة ومعاقرة الخمر وممارسة الجنس وتزيين أنفسهم واستخدام وقت

(*) 18 برومير: الانقلاب الذي طوح فيه نابليون بونابرت بحكومة الإدارة وأقام القنصلية بدلاً منها في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1799 (18 برومير من السنة الثامنة في التقويم الجمهوري الفرنسي).

الفراغ وسلوك أجدادهم وجداتهم. وإذا ألقينا نظرة على روسيا في عهد ستالين قبل الحرب ونسأل أنفسنا عن مدى وجود فرصة لظهور آدم القديم وحواء القديمة في حياة الروس سنحصل على قدر من حقيقة ثرميدور في روسيا أكثر دقة مما نستطيع نيله من أي قدر من التنظير الماركسي أو المناهض للماركسية.

يروي لنا اوجين ليونز(*) بمتعة ماكرة قصة حيرة وسخط مراسل الصحيفة الشيوعية فرايهايت عندما استبعد من حفل استقبال رسمي في روسيا في العقد الثالث من القرن العشرين لأنه لم يكن يرتدي سترة من النوع الذي يُرتدى أثناء حفلات الاستقبال. وتلك السترات هي جزء من دكتاتورية البروليتاريا ! ليس هنالك شيء أسخف وأكثر لا منطقية على نحو كامل. ترضي السترة عدداً من الحاجات البشرية - يمكن لعالم الإنسان تحليل معظمها - ويبدو أنه لا توجد أدلة أن لأي من الثورات الأربع تأثيراً بعيد المدى في هذه الحاجات. كان القوميسار في حاجة إلى ارتداء سترة تناول الطعام على الأقل بقدر حاجة عضو الكونغرس أو المحاضر الجامعي.

يمكن طرح التفاصيل إثر التفاصيل لإظهار أن دكتاتورية البروليتاريا في روسيا قبل الحرب (العالمية الثانية) لم تكن أبداً دكتاتورية الفضيلة التي سادت في فترات أزمات الثورات الأربع. حظرت موسيقى الجاز، مثلاً، طويلاً في روسيا. وواضح أن موسيقى الجاز كانت نتاج حضارة برجوازية منحطة وطريقة غير محتشمة لتحفيز ما لا يريده أي ماركسي جيد أو يحتاج إلى تحفيزه. إنها أحد الأشكال السريعة التلون لـ "أفيون الشعب" في الدول الرأسمالية. ولا ريب أن الشيوعيين يرقصون طرباً على إيقاع الموسيقى الربيعية البريئة. إلا أن رقصات الفوكس تروت وما شابهها شرعت في أواخر عقد العشرينيات من القرن العشرين بالتسلل إلى روسيا الشيوعية وحتى أثارت الأزمة الراهنة عداء متجدداً

(*) أوجين ليونز (1898- 1985) صحفي وكاتب يهودي أميركي ولد في بيلاروسيا ونشأ في نيويورك وأصبح من أنصار الشيوعية ثم أصبح شديد الانتقاد للاتحاد السوفياتي بعد أن عاش هناك بضع سنوات.

وعززت العداء ضد الغرب بقيت الموسيقى الراقصة الأميركية تعزف على نحو متكرر وسيء في روسيا كما في بقية أرجاء أوروبا.

لا يمكن استخدام أي حدث كسقوط روبسبير لتحديد تاريخ ثرميدور في روسيا. إلا أن سلسلة كاملة من المسائل البسيطة في الحياة اليومية تجتمع لتحدث حالة مثيرة للإعجاب لواقع رد الفعل الروسي. على سبيل المثال، زعيم شبابي برباط عنق في خطوة لا بد أنها أثارت الاستنكار مثلما يحدث في أميركا ظهور متحدث في حفل توزيع الشهادات الجامعية مرتدياً الرداء العمالي. ونظم عرض أزياء في موسكو وتهادت عارضات الأزياء مبتسمات بلا تهتك وكأنهن كاسبات أجور فقيرات في باريس أو نيويورك. وبدأ أحمر الشفاه ومواد التجميل الأخرى تعرض حتى في المتاجر التي ترتادها العاملات. كما بدأت قصص الجرائم والقصص المثيرة في الظهور على صفحات الصحف التي امتنعت حتى ذلك الحين عن نشر تلك القصص التي تجتذب الرأسماليين بعد أن كانت تلك الصحف مكرسة للشؤون السياسية المهمة. وصنعت أفلام يشاهد فيها بشر يمكن تمييزهم وغير مهمين ومضحكون وأغبياء وحسودون وحتى روس بدلاً من الأفلام الجامدة التي تمثل الرأسمالية والإقطاعي والشيوعية والبروليتاريا والثائر.

كان البلاشفة أقوى فيما يخص الأسرة التي كانت من مؤسسات النظام القديم متشابكة مع كل أنواع العناصر الدينية وحتماً محافظة في العمل الاجتماعي. كانت الأسرة عشاً صغيراً بأفق تفكير ضيق تولد الأنانية والغيرة وحب التملك واللامبالاة نحو حاجات المجتمع الكبرى. أبقت الأسرة على تثقيف الشباب بسخافات القدماء. وأراد البلاشفة تحطيم الأسرة وتشجيع الطلاق وتثقيف الصغار على الأثرة الحقيقية للشيوعية وتعويدهم على المشاريع المشتركة والحياة الاجتماعية المشتركة والتخلص من نفوذ الكنيسة في العلاقات الأسرية. وشرع ستالين في عملية مستمرة لإعادة الفضائل الأسرية القديمة. وأكدت الأفلام والمسرحيات احترام الأبوين والعلاقات الأسرية والفضائل البرجوازية والأذواق البرجوازية. وجعل الطلاق، الذي كان في وقت ما سهلاً وغير مكلف قدر الإمكان، أكثر تكلفة وأصعب. الأهم من ذلك أن الحكومة حثت على انتشار

المشاعر بأن الزواج مسألة جادة ودائمة وبعقد في السماء كما أصبحت السماء تفهم في روسيا. وحظر الإجهاض، الذي جعله البلاشفة متباهين قانونياً ومتكرراً وسهلاً، مثل عملية استئصال الزائدة الدودية في أميركا، بقوة القانون ماعدا الحالات التي يتطلبها إنقاذ حياة المرأة. انطوت هذه الإجراءات المختلفة، والأكثر أهمية كمؤشر على ما كان يجري في روسيا من أي إجراء، على الجو الذي لا بد أن ندعوه فكتورياً تقريباً. ويبدو أن حكام روسيا في الماضي القريب والحكام الحاليين يحاولون عمداً تنمية نوع من المشاعر التي تتسم بها المجتمعات المستقرة - العواطف الأسرية والوطنية البسيطة وحب العمل وطاعة الحكام ومقت غرابة أطوار الأفراد أو باختصار ما دعاه باريتو "التجمعات الملحة؟" واضح أن خروتشيف كان ما يزال معادياً للفن "الحديث" بوصفه شيئاً في الحضيض خلافاً لما يريده حقاً الكثيرون أو ما هو جيد لهم.

لتحقيق هذه الأهداف أصدر ستالين مرسوماً بالتوقف عن فضح التاريخ الروسي وأمر الروس بالعودة إلى تعلم أمجاد الماضي الروسي. ولم يعد المبشرون البيزنطيون الذين حملوا المسيحية إلى روسيا يصورون كحمقى وأوغاد وأعوان ما كان وضاحاً تصويره بالاستعمار الرأسمالي وكأشخاص حقيرين مثل المبشرين المعاصرين الذين يحملون الإنجيل وشراب الروم ومرض الزهري إلى البحار الجنوبية. على العكس من ذلك أصبحت المسيحية في روسيا تعد خطوة جوهرية في إعداد السلافيين البرابرة لأمور أسمى. ولم يعد القيصر بطرس الأكبر وكاثرين مستبدين قاسيين بل مهندسين عظيمين لمصير روسيا ولولاهما ما كان ملايين السلافيين والآسيويين الآن يتمتعون بنعم الشيوعية.

مثال نوعي لطيف على عودة روسيا إلى الوسائل المؤسفة للرأسمالية هو نمو رعب الاقتصاد الفردي التنافسي والدعاية. استخدمت الحكومة السوفياتية دائماً طبعاً سيطرتها التامة على وسائل الإعلام الجماهيري لأغراض الدعاية. أما حالياً حتى في ظل الاشتراكية فقد بدأ يظهر الشكل الخاص للدعاية الذي يدعى الإعلان. يعلن عن السلع الاستهلاكية على لوحات الإعلانات وفي الإذاعة والتلفزيون وحتى على علب أعواد الثقاب - ليس حتى الآن بإلحاح وعلى نحو

مبتذل كما في الولايات المتحدة، إلا أن هذه السلع ما تزال تعلن على نحو يصعق بلشفياً قديماً لو أنه على قيد الحياة.

5. روسيا: ثورة دائمة؟

ما يزال الكثير منا يجد صعوبة في اعتبار الثورة الروسية منتهية مثلما انتهت الثورات الأخرى في فترة مقارنة من الزمن عقب نشوبها. كانت في روسيا، كما لاحظنا، بعد عام 1921 علامات على رد الفعل الثرميدوري. غير أنه لم تكن هنالك عودة رسمية للنظام القديم. تلك الحقيقة بحد ذاتها ليست مهمة حقاً لأن أياً من حالات العودة الأخرى لم تعد حقاً النظم القديمة إلى ما كانت عليه قبل الثورة. العودة التامة هي ثورة، كما تقول الحكمة الفرنسية.

لتبسيط المسألة، ينظر إلى أمر خارجي كما لو أن في روسيا شيئاً أصبح متكرر الحدوث مثل حكم الإرهاب والفضيلة، لاسيما في معنى الضغط المستمر على الفرد للمساهمة في الأمر المشترك، ليكون دائماً "في قمة الظروف الثورية. أهوال فرض التعاونيات في الريف في عقد الثلاثينيات، المحاكمات، الاعترافات وحملات التطهير في الأعوام 1936-1939، التي أطلقتها الاغتيالات التي نفذها كيروف، والتقشف أثناء الحرب والمراحل اللاحقة من حكم ستالين الشخصي واستمرار العودة إلى الوضع الطبيعي في عهد خروتشيف والانشقاق الثقافي الكبير بين روسيا والغرب - كل ذلك يضيف إلى شيء يبدو حقاً مثل "ثورة دائمة".

أولاً، لقد كررنا مراراً تحذيراً في سياق هذه الدراسة. يجب عدم توقع كون هذه الثورات متطابقة تماماً. حالات التماثل التي نسعى إلى إيجادها في هذه الثورات يجب ألا تظهر تطابقاً وإلا يشك في أننا نضلل تقاليد الأسلوب العلمي. التحذير الثاني الذي أطلقناه مراراً هو عدم ارتكاب خطأ افتراض سببية أحادية. إذا لم يكن تشريح الثورة الروسية متماثلاً مع الثورات الأخرى يجب ألا نفترض وجود متغير واحد في الحالة الروسية - متغير البطل أو الوغد - لتفسير كل شيء. هنا كما هو الحال دائماً في حالات اجتماعية معقدة، ثمة متغيرات

كثيرة عاملة. ويسعى بيك وغودين في كتابهما المعنون حملة التطهير الروسية وانتزاع الاعتراف إلى تفسير تكرار إرهاب 1936-1939 الذي يطلقان عليه تسمية "فترة يزهوف"، على اسم رئيس الشرطة السرية في حينه. ويوردان ما لا يقل عن خمس عشرة "نظرية" لتفسير تكرار الإرهاب في روسيا الذي سقط ضحيته، على الأرجح، ضحايا أكثر من ضحايا إرهاب 1918-1921. ويجدان في كل النظريات على الأقل ذرة من الحقيقة.

إحدى نظرياتهما قد تمنحنا بداية في تفسير لماذا لا يبدو أن الثورة قد انتهت في روسيا. إنهما يطلقان عليها "نظرية آسيا". وتعني في أبسط أشكالها أن روسيا دولة آسيوية لا يمكن حتى لثورة "شعبية" في التقليد الغربي العظيم للثورات الثلاث الأخرى أن تنتهي في نوع المجتمع الديمقراطي الغربي الذي نعرفه في إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة. وإذا قبلنا أن الثورات تنتهي بالعودة ليس إلى الوضع السابق بل إلى توازن، إلى "الحالة العادية" المتعلقة على نحو يمكن تمييزه بحالة النظام القديم فإن نهاية الثورة الروسية يجب أن تكون طبعاً أكثر شبهاً على نحو كبير بروسيا القيصرية، الشرطة السرية، العنف المدني، الطغيان من فوق، وحتى الفقر الواسع والجهل من إنكلترا في زمن الأوامر القضائية بمثول المتهم أمام المحكمة، أميركا في ظل دستور 1787 أو فرنسا في عهد الميثاق والملك- المواطن لويس- فيليب. كان "المشيخي الجديد مجرد قس عجوز أكبر وأوضح". "كلما ازداد تغيراً أصبح الشيء نفسه أكبر". هاتان الحكمتان الكئيبتان من ثورات أخرى تعنيان أننا في روسيا نعود إلى الحالة المعتادة عام 1965 -الحالة المعتادة بالنسبة لروسيا.

نظرية آسيا بوصفها التفسير الوحيد لن تفيد بل من المتغيرات التي تعد تفسيراً عملياً يجب قبوله حتى من الليبراليين الذين حسب المزاج والتدريب مترددون في قبوله. السيدان بيك وغودين - اسمان مستعاران لعالم ألماني ومؤرخ روسي اعتقلا أثناء فترة يزهوف وكانا محظوظين على نحو كاف للفرار من روسيا - واضح أنهما لا يحبان معنى التفوق الغربي الذي تنطوي عليه نظرية آسيا إلا أنهما لا يرفضانه تماماً. لم تكن روسيا عام 1917 على نحو أساسي

مجتمعاً في طبقة وسطى قوية متمرساً بالعادات الغربية المتعلقة بالحقوق المدنية السياسية وغيرها، ومن الاستثنائي حقاً أن ثورة قادها لينين وستالين قد أنتجت مجتمعاً كهذا في روسيا.

كما ينبغي ملاحظة تماثل تاريخي واضح في الثورات الثلاث الأخرى. مخطط المفاهيم المتعلق بالحمى غير ملائم إذا اعتبر بمعنى انتهاء العملية برمتها بعلاج بسيط. وبدلاً من ذلك هنالك في كل هذه الثورات حالات مرضية تعقب حالات مرضية أخرى، سلسلة من ثورات أقل تدربت فيها القوى المساهمة في الثورة الأولى. بعد عام 1640 في إنكلترا حدثت "الثورة المجيدة" عام 1688 والصراعات الطويلة في القرن الثامن عشر وقوانين الإصلاح الزراعي في القرن التاسع عشر. ونشب بعد الثورة الأميركية تمرد شيز(*)، وتمرد الويسكي، التقلبات التي لم تكد تكون هادئة وأوصلت جيفرسن وجاكسن إلى السلطة، والمحنة الطويلة للحرب الأهلية الأميركية. وبعد الثورة الفرنسية، كما نعرف جيداً، حدثت سلسلة من التقلبات في فرنسا في القرن التاسع عشر وفي كل أوروبا الغربية والوسطى التي تأثرت على نحو قوي بالنموذج الفرنسي. وقد لاحظنا أن السلسلة الزمنية للثورة الروسية الأصلية تمثل نوعاً من تسريع عملية الثورة بالمقارنة مع الثورات التي سبقتها. ويبدو مرجحاً للمؤرخ في المستقبل أن المشاكل الروسية في السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة ستبدو في الحقيقة نوعاً من الحالات المرضية التي تعقب حالات مرضية أخرى، أي المشاكل التي لم تخل تماماً في الشوط الأول من الثورة كما هي السنوات 1820 و 1830 و 1848 في التاريخ الأوروبي.

تبقى مشكلة تفسير الشكل المحدد لنوبة الحمى الثورية الروسية الطويلة.

(*) Shays' Rebellion نشبت هذه الانتفاضة في وسط وغربي ماساشوستس في عامي 1786 و1787 بقيادة دانيال شيز وعرف المتمردون باسم الشيسيين (المنظمين) وكان معظمهم فلاحين فقراء ساخطين بسبب الديون والضرائب التي كان عدم دفعها يؤدي في أحيان كثيرة إلى حبسهم أو استيلاء الدولة على ممتلكاتهم.

ليسلم القارئ، كما سلمنا، أن المجتمع الروسي المستقر الذي ينبغي ظهوره في النهاية لن يكون مجتمعاً مثل المجتمع الأميركي، إلا أنه لا يبدو من الأرجح تعرض مجتمع مستقر كهذا إلى اضطراب أساسي ومشاطرة مفرطة للرجل العادي في السياسة كما في روسيا في عهد ستالين. نحن نقترب هنا من الحقل غير العلمي تماماً ألا وهو القدرة على التكهن بالغيب. وربما روسيا النزعة الليسنكوية(*) وترى إمكانية وراثة خصائص مكتسبة بيئياً، روسيا الستار الحديدي، روسيا التي أفزعت أورويل أو كويستلر أكثر مما أخافت المحافظين الأميركيين الجيدين - ربما ستمضي روسيا هذه على نحو غير محدود في عالم كامل فقدت فيه مصطلحات "الاستقرار" و"التوازن" و"السلام" و"النظام" معناها. إلا أننا يجب حالياً افتراض أن روسيا وعالماً لم يعودا في وسط كابوس دائم.

الموضوع هائل ولا يمكن تغطيته على نحو تام في هذه الدراسة المؤقتة للثورات الأربع. إلا أنه يمكن الإشارة إلى أن مفاتيح الأزمات المستوية في روسيا هي جزئياً داخلية تقتصر على روسيا ومرتبطة جزئياً بالوضع الدولي برمته.

الأسباب الداخلية متعددة ويمكن للمرء المجازفة بتخمين وجود مفتاح مهم للغاية في الوعود القوية للعقيدة الماركسية. وقد لاحظنا في كل الثورات الأربع بذل محاولة لسد الفجوة في هذا العالم بين المثالي والواقعي. الشكل الدقيق للمثالي مهم. وفي كل الثورات الأخرى وعلى الرغم من نكهتها التنبؤية أثناء فترة الأزمة، على الرغم من المجموعات الطائشة التي تطالب بالجنة على الأرض فوراً، لم يمنح الرجل العادي على وجه التحديد المساواة الاقتصادية الموعودة، المجتمع اللاطبقي، المعادلة الماركسية "الكل بحسب قدراته ولكل وفقاً لحاجاته" . وعد الروس بذلك بالضبط. لقد كانت الماركسية أكثر وضوحاً بكثير في وعودها إيفان إيفانوفيتش (الرجل العادي في روسيا) مما وعدت النزعة

(*) Lyksenkoism عقيدة بيولوجية طورها العالم الروسي تروفيم ليسنكو (1898- 1976) ترى إمكانية وراثة خصائص مكتسبة بيئياً.

التطهرية جون جونز (الرجل العادي)، أو ما وعدت به اليعقوبية جاك دوبون.

كان على الثورات الأربع جميعاً تقديم التنازلات فيما يخص مثلها وتحويل الكلمات المنمقة إلى طقوس. وانتهى شعار "الحرية والمساواة والإخاء" في نهاية الأمر إلى كتابات منقوشة على البنايات العامة وبدون حاجة إلى التهكم في قلوب الجمهوريين الفرنسيين الطيبين. لم يكن ممكناً تنفيذها حرفياً وعلى نحو متين لنقل في صفوف المدارس الفرنسية في المناطق العمالية التي نقشت عليها وإلا أصبحت المدارس الفرنسية مستشفيات مجانين أكثر تساهلاً من واقع أكثر جموحاً للمدرسة الخاصة الأميركية الأكثر تقدمية. لم يتقبل الأميركيون أبداً الحقيقة البديهية بأن كل البشر يولدون متساوين فيما يتعلق بحقوقهم وأن كل البشر يولدون، ويجب أن يولدوا، قادرين على تصدر الدوري في الجري.

غير أن الثورة الروسية وعدت ليس بالمساواة السياسية أو الروحية فحسب وليس المهنة المفتوحة للمواهب فحسب بل بمجتمع من المتساوين الاقتصاديين. لدى الروس حالياً، كما يعرف المسافرون، مجتمع فيه عدم التساوي في توزيع السلع الاستهلاكية - توزيع "الدخل" الفردي - كبير على نحو واضح. إن لكل من السياسي الروسي المهم، مدير الصناعة الروسي، الكاتب المسرحي الروسي المحبوب أو راقصة الباليه المحبوبة أو العالم الروسي الناجح ثروة مادية كبيرة تجعل المجتمع الروسي جوهرياً مجتمع عدم تكافؤ اقتصادي في الدخل الفعلي للاستخدام مثل أي مجتمع رأسمالي في الوقت الحاضر.

من الممكن حقاً لحكام روسيا إبلاغ شعبهم أن حالات عدم التكافؤ تمثل مجرد مرحلة انتقالية تتطلبها ضرورة معارضة العالم الخارجي الرأسمالي الشرير. وكان لا بد من تمديد دكتاتورية البروليتاريا، التمهيد الأساسي للمجتمع اللاطبقي قليلاً. وفي يوم ما بعد قهر الثورة الشيوعية العالم سيكون كناس الشوارع حقاً مساوياً اقتصادياً لعضو المكتب السياسي للحزب ولكن ليس الآن. هذه حجة ضعيفة وثمة علامات على بذل جهود في روسيا للدعوة كمثل أعلى إلى شيء استثنائي قريب لما يعده محررو مجلة فورتشن الأميركية الفعلي، أي خط أساس متين ذي وفرة مادية يشاطرها الجميع مع مكافآت مادية خاصة

لأولئك القادة القادرين في كل الميادين الذين ترفع مهاراتهم باستمرار مستوى خط الأساس للجميع - أو على الأقل تعزز معنوية الجميع.

في الوقت نفسه، خط الأساس منخفض ولو أن البناء سريع منذ عام 1953. ولا يستطيع أشد الغربيين تعاطفاً مع ما يعدون أن الهدف الأساسي للثورة الروسية تحسين مستوى معيشة المواطن العادي الادعاء أن ذلك المستوى قد وصل إليه مواطنو معظم الدول الغربية. هذا في واقع الحال يماثل ما يدعوه ماركس "التراكم البدائي" البرجوازي التاريخي لرأس المال، أي الذي أنتج وسائل تحقيق المزيد من الإنتاج بالتغيب عن الإنتاج الفوري للاستهلاك، وكان لابد من تنفيذه بتوجيه الحكومة في روسيا. وعلاوة على الحرب ضد هتلر والإعداد لحرب ممكنة ضدنا، وجه الإنتاج الروسي إلى غير السلع الاستهلاكية. هذه الحقائق يمكن أن تفسر على نحو اقتصادي صارم لماذا لم تتحقق الحياة الوافرة للإنسان الروسي العادي. غير أنه تبقى حقيقة عدم تأمين تلك الحياة وأنه وعد بها. لا يحتاج المرء إلى المضي إلى آخر الطريق مع الأعداء المحافظين اللدودين للتجربة الروسية ليقر أنه يمكن تفسير بعض الكراهية المثارة ضد الغرب، بعض التوترات المستمرة في مجتمع ما يزال يعي أنه في حالة ثورة، كجهود لتحويل اهتمام الشخص العادي عن افتقاره إلى الوفرة المادية. هنا مرة أخرى في ظل النظام الحالي، تبدو الوفرة من هذا القبيل قادمة في الطريق في عقد الستينيات من القرن العشرين. إلا أن الهوة القائمة بين كناس الشوارع وراقصة الباليه تثير حتماً سخط ماركس - وربما سخط لينين.

في إمكان قادة روسيا الحاليين تحويل العقائد الماركسية، الأرجح الممتزجة مع النزعة القومية الروسية، نوعاً جديداً من "أفيون الشعب". ويبدو كأنهم يحاولون عن وعي فعل ذلك بالضبط. وقد يتمكنون من مواصلة رفع خط الأساس للسلع المادية، "مستوى المعيشة"، ببطء. ربما ما هو أهم في استمرار عدم الاستقرار الداخلي مشكلة من هم فوق خط الأساس، مشكلة الطبقة الحاكمة الروسية الجديدة. تلك الطبقة هي طبقة إدارية أساساً تكافأ جيداً من حيث الدخل والمكانة الاجتماعية والسلطة السياسية، أي أنها ما تزال حتى

الوقت الحاضر بلا حقوق ملكية وميراث، وعلى نحو عام هي مركب الوصفة التي مكنت في الغرب حتى الآن طبقة حاكمة جديدة - أو بالأحرى جديدة جزئياً - من تعزيز مركزها.

منذ عصر النهضة بخاصة، هنالك حتى بدون ثورة فعلية قدر كبير من فرص العمل لأصحاب المواهب في الغرب. وقد صمدت جيداً في ثقافتنا الغربية مساواة عامة في الفرص قبل زمن طويل من أن تصبح من المواد الكبرى في العقيدة الاجتماعية في الولايات المتحدة. غير أن من ثاروا على نحو ناجح في العالم نجحوا سريعاً في تعزيز مركزهم بضمان الحصول على الممتلكات وتأسيس أسرة وأصبحوا جزءاً من طبقة حاكمة مقبولة كما هي بدون معارضة ومقت أشد مما ينبغي من جانب الطبقات التي استبعدت على نحو واضح من قمة الهرم الاجتماعي. كان ذلك صحيحاً حتى في الولايات المتحدة حيث القاعدة في الحقيقة ليست بتاتاً "ثلاثة أجيال من أصحاب أكمام القمصان إلى أكمام القمصان". كل مشكلة العلاقة بين الحركية الاجتماعية والاستقرار الاجتماعي في المجموعة معقدة حقاً وهي غير مفهومة بتاتاً. لم تحل المشكلة في الغرب غير أننا توصلنا إلى تفاهم معها بشكل أو بآخر مثلما شعر مراقبو الحياة الأميركية غير المبالين بخاصة بميل إلى القول، بالتظاهر أنها غير موجودة، إنها غير موجودة وأن مجتمعنا حقاً هو "المجتمع غير الطبقي".

لا بد أن الاختبار المطلق لمدى اقتراب الثورة الروسية من تحقيق مجتمع اشتراكي لا طبقي هو في المستقبل البعيد نسبياً. وإذا استطاعت النخبة ذات الامتيازات حالياً على نحو ما المضي من خلال الأحفاد للإبقاء على وضعها الحالي فإن مجرد حقيقة عدم وجود "ملكية خاصة" و"مشروع حر" و"رأسمالية" معترف بها نظامياً حتى الوقت الحاضر لا تعني سوى القليل. لن تتحقق الاشتراكية التي فكر فيها الكثيرون وناضلوا وفقدوا حياتهم من أجلها إلا أنك تحصل على دولة "اشتراكية".

يبدو أن وضع الطبقة الحاكمة الجديدة في روسيا المعاصرة ما يزال غير متين إطلاقاً. أولاً، يبقى الشعور بوخز الضمير يساور الكثير من أفرادها بسبب

امتيازاتهم الجديدة والفجوة بين حقائق الحياة الروسية الحديثة وبين المثل العليا للشيوعية المبكرة. والأمر الأهم من ذلك أنهم غير واثقين بالاستمرار وعلى وعي بالضغط الشديد من جانب الطموحين الأصغر سناً منهم. وفي الواقع، من هذه المسافة يبدو تجدد إرهاب فترة يزهوف أقل فأقل شبهاً بالإرهاب التقليدي في فترة الأزمة الحقيقية، الإرهاب الذي يطرد فيه الأشخاص مع المثل الأعلى للمجتمع الكامل الجديد، وأكثر فأكثر مثل متاعب الترميدور الأصلي في فرنسا، عندما كان الزعماء الجدد ما يزالون يناورون في ما بينهم للاستحواذ على منصب عال ويتآمرون لتدبير انقلابات جديدة وغير قادرين على تسوية الخصومات بدون اللجوء إلى القوة غير المناسبة والأساليب غير السوية. صحيح أن عملية التطهير في روسيا في أواخر عقد الثلاثينيات كانت على نطاق كلي لا مثيل له في الثورات الثلاث الأخرى في مرحلة مماثلة، هذا جزئياً لأن كل شيء في روسيا على مساحة أكبر وعدد من السكان أكبر من أي وقت مضى وجزئياً لأن الخطر من الخارج، لاسيما من ألمانيا، قد زاد ولم يقل كما حدث في الثورات الأخرى التي تولينا دراستها، وجزئياً - كما يجب التمسك بطريقة المتغيرات المتعددة التي وضعناها - لأن روسيا ما قبل الثورة نفسها لم تكن بلد حرية تتوسع ببطء من سابقة إلى أخرى.

حتى من يعتقدون منا أن المسؤولية الرئيسية في التوتر الحالي في العلاقات السياسية بالعالم تقع على عاتق روسيا يجب أن يقبلوا في الواقع أن هذا التوتر جزء من تفسير الفترة الترميدورية المستمرة طويلاً في روسيا. وثمة أسباب خارجية وداخلية لاستمرار عدم الاستقرار الروسي. في تلخيصنا لأسباب عهد الإرهاب في كل الثورات الأربع لاحظنا كتماثل واضح وجود ما أصبح رائجاً حالياً تسميته ذهان الحرب. كانت حكومات عهد الإرهاب جزئياً حكومات الدفاع الوطني ضد الحرب أو خطر الحرب، ضد تهديد من عدو. وقد يكون صحيحاً أن الثورة ربما هي المسؤولة عموماً عن إثارة نقمة ذلك العدو إلا أن ذلك لا يغير حقيقة الضغط الذي يولده الخطر الذي يمثله العدو. لقد تمكنت إنكلترا وأميركا وفرنسا الثورية - فرنسا بعد خمسة وعشرين عاماً - من إعادة

الاندماج كدول أعضاء محترمة أو شبه محترمة في منظومة دول ذلك العصر. كان يجب ألا تخشى أسوأ من الأخطار المألوفة التي تواجه دولة في ميزان سياسات توازن القوة. غير أن الحالة لا تنطبق على روسيا. وحتى في أوائل عقد الثلاثينيات وفي السنوات 1942-1944 عندما تحالفت روسيا مع الدول الغربية لم تكن في ذلك النادي حقاً. ربما كان ذلك خطأ روسيا أو على الأقل خطأ ستالين وزملائه. وتبقى مع ذلك حقيقة أن روسيا الشيوعية خارج النظام الغربي القديم.

صحيح على نحو كاف أن روسيا حالياً هي مركز منظومة عالمية جديدة. وصحيح أن سياستها الخارجية قد حققت نجاحات حقيقية. وربما صحيح كذلك أن جاذبيتها للآسيويين والأفارقة أكبر "على نحو طبيعي" من جاذبيتنا. إلا أنها منيت بإخفاقات - في أزمة حصار برلين وفي مغامرة الصواريخ في كوبا وإخفاقات كثيرة أخرى. لقد شهدت ظهور منافس كبير هو الصين ضمن نظامها الشيوعي. باختصار، مهما يتردد بعض الأميركيين في قبول الحقيقة فإن الروس - الروس المهمين في القمة - يجدون صعوبة على الأقل مثل الأميركيين في الشعور أنهم يربحون حقاً الحرب الباردة. إنهم ما يزالون يحسون بالمحاصرة والتهديد.

ما يزال ثرميدور في روسيا إذاً سائداً لدرجة ما في منتصف القرن العشرين. وتعتمد نهايته على عوامل أكثر من قدرة المرء على تحديدها. غير أنه صحيح كذلك أن الثورة في روسيا قد قطعت شوطاً جوهرياً وانتهت الأزمة. انتهت الأزمة، حكم الإرهاب والفضيلة. واستنفد الفيروس الماركسي قوته - لنتذكر مرة أخرى أننا نحاول استخدام هذا المصطلح على نحو وصفي محض. لقد تولت الحمى تحويل روسيا جزئياً، إلا أن الفيروس كذلك قد تغير. لقد ضعف الفيروس على الأقل في ذلك الجسم بالذات. صحيح أنه ربما يعمل الفيروس في مجتمعات من مثل الصين وجنوب شرقي آسيا وحتى في الشرق الأدنى ولم يكمل شوطه بعد. غير أن هذه الثورات خارج نطاق مبحثنا المركزي. إنها في حاجة إلى اهتمام كبير من لدن أفضل خبرائنا وهم الذين يقترحون كلمة نهائية:

الأفكار ، وعود الماركسية التقليدية كما هي مجسدة حالياً في روسيا قد تبرهن في السنوات القليلة المقبلة على أنها مربكة في السياسات الداخلية الروسية مثلما هي مفيدة في السياسات الخارجية الروسية. وسيكون الفردوس الماركسي على الأرض مجرد وعد في إندونيسيا أو مصر بعض الوقت، أما في موسكو فقد يصبح سريعاً مرئياً جزئياً - أو يجب أن تمر العقيدة كلها بتحول لا يمكن التنبؤ به.

مع ذلك ما لم نكن في روسيا فعلاً في مواجهة شيء جديد تماماً ولم يسبق له أي مثيل، باختصار شيء ينقض أي نوع من العلوم الاجتماعية، ليست الخطوط العريضة على الأقل لذلك التحول غير متوقعة تماماً. وإذا انتهت فترة أزمة الثورة الروسية، كما رأيناها، وإذا كانت روسيا في منتصف النتائج الثانوية المصاحبة للنوبة الرئيسية للحمى المصابة بها فلا بد أن تصل عاجلاً أو آجلاً إلى حالة التوازن، إلى حالة الصحة أو الوضع العادي، ليس حقاً مثل حالة فرنسا أو الولايات المتحدة بل لنقل مثل شيء أقرب إلى روسيا في القرن التاسع عشر، روسيا تورجنيف علاوة على دوستويفسكي(*) وبافلوف(**) وباكونين(***). باختصار مجموعة متنوعة ذات صلة وثيقة بالغرب المتعدد الجوانب والنظم على نحو معقول.

إن ما يبقي على روسيا منعزلة في مخاض الثورة الأخير هو عدم اكتمال المصالحة الاجتماعية الشعائرية الروسية للكلمة واللحم، المثالي والحقيقي،

(*) فيودور دوستويفسكي (1821- 1881) روائي روسي تناول أعماق القلب البشري. أبرز رواياته الجريمة والعقاب والإخوة كارامازوف.

(**) إيفان بافلوف (1849- 1936) طبيب روسي في علم وظائف الأعضاء منح جائزة نوبل لوصفه ظاهرة التكيف التقليدي.

(***) ميخائيل باكونين (1814-1876) ثوري روسي ومنظر فوضوي ولد في أسرة نبيلة وشارك في عدة ثورات أوروبية واختلف مع ماركس وأصبح له نفوذ كبير في صفوف الشباب الروسي. آمن أن الإنسان يستحق الحرية المطلقة وأيد التطويح بالدول والمؤسسات القائمة.

فردوس المجتمع اللاطبقي الماركسي مع هذه الأرض القاسية وإن لم تكن غير مثيرة للاهتمام. روسيا المتوسعة، التي تحاول انتزاع المزيد من العالم، التي يمكن لبقية العالم التعايش معها بدون المزيد من المتاعب - ولو أن تلك المتاعب شديدة - أكثر من التي تحملها بقية العالم من مثل إسبانيا أو النمسا أو فرنسا في التاريخ الحديث المبكر. إلا أن روسيا المتوسعة مثلما توسع الحرب باسم عقيدة عنيفة وغير متسامحة مسألة مختلفة للغاية. لا يوجد هنا تطرف أبدي أو، على أية حال، ليس هنالك تطرف أبدي. لم يفهم المسيحي والمسلم أحدهما الآخر غير أنهما امتنعا عن شن الحروب المقدسة الواحد ضد الآخر. الفرق هو أنه حتى مع لينين وستالين كنبيين للشيوعية ستثبت هذه أنها عقيدة أقل شراسة من الإسلام.

قد نكون مخطئين وربما وجد الروس طريقة لم يتوصل إليها المتطرفون أو اليعاقبة لإبقاء الرجل العادي منسجماً مع تركيز القوة والتناغم، المشاركة الدائمة في طقوس الدولة وإطلاق المحبة المقدسة، التجاوز المستمر لحالات الضعف الشائعة والإدراك السليم والجنون الذي سعينا إلى تحليله تحت مسمى "حكم الإرهاب والفضيلة". وقد تكون النزعة المستبدة في الحقيقة جديدة على الأرض كما يعتقد بعض المؤلفين البارعين للغاية في عصرنا. إلا أنه لا بد للمؤرخ من شكوكه ليس إزاء المدن الفاضلة بالمقلوب فحسب من مثل رواية 1984 لأورويل بل حتى إزاء تحليلات عميقة ومقنعة من مثل أصل الاستبداد للآنسة حنّة أرندت(*). المسألة واضحة: إذا اتبعت الثورة الروسية في سنواتها اللاحقة نمط ثورات كبرى أخرى على نحو واضح مثلما فعلت في بداياتها وسنواتها المبكرة لن يكون معظم الروس أكثر جنوناً منا، ويمكننا التواصل معهم في حالات سوء الفهم المتبادل - وومضات البصيرة. وإذا كان هنالك شيء جديد في روسيا، عنصر استبدادي يحول البشر حقاً، يمكننا التطلع نحو المزيد من

---

* حنّة أرندت (1906- 1975) منظرة سياسية ألمانية-يهودية رفضت وصفها بأنها من الفلاسفة.

مثل فترات يزهوف، المزيد من مثل ليسنكو والمزيد من مثل ستالين - "ثورة دائمة" حقاً.

5. الخلاصة

لا يعني ثرميدور إذاً شيئاً فريداً مقتصراً على الثورة الفرنسية التي استمد اسمه منها. لقد وجدنا في كل المجتمعات الثلاثة التي شهدت الدورة الكاملة للثورة خذلاناً أخلاقياً مشابهاً وعملية مماثلة لتركيز السلطة في يدي "طاغية" أو "دكتاتور"، تسرباً للمهاجرين ضد من تولوا تصفية عهد الإرهاب، عودة مشابهة إلى العادات القديمة في الحياة اليومية.

حتى في الولايات المتحدة، التي لم تشهد نوع الأزمة نفسه مثل البلدان الأخرى، والتي لم يكن فيها عهد إرهاب وفضيلة حقيقي، أظهر عقد الثمانينيات من القرن الثامن عشر بعض أعراض ثرميدور في أشكال ناقصة. حدث تخفيف للانضباط والتوتر بسبب الحرب وإقبال متجدد كبير على الثروة والمتعة والكثير من المضاربات المالية والمعاناة الصرف. ويذكر تمرد شاي، الحركة غير الفعالة بالمرة، بمحاولات الفرنسيين والروس الواهنة ضد الأثرياء الجدد في حالات ثرميدور فيهما. كانت هنالك حتى خيبة أمل معنوية في هذه البلاد. يقول جيمسن: "أعرب الأميركيون الواعون عن الأسف لروح المضاربات التي ولدتها الحرب والاضطرابات المصاحبة لها وعدم استقرار الشباب وعدم احترام التقاليد والسلطة وازدياد الجرائم وطيش المجتمع وتبذيره". إن كل هذا يبدو مثل ثرميدور الأصلي في فرنسا.

تبدو ظواهر رد الفعل وعودة الأمور إلى نصابها محتماً تقريباً جزءاً من عملية الثورة. وعلى كل حال يبدو صعباً على محب الثورة الأكثر تفاؤلاً إنكار أننا وجدنا ظاهرة كهذه في كل المجتمعات الأربعة التي اخترنا دراستها. وقد يواصل المخلصون للغاية تأكيد أن الثورة الكبرى في روسيا قد أثبتت شمولها برد الفعل هذا وأن أهداف الثوريين النبيلة في روسيا حققت واقعاً غير ملوث أو أنها في طريقها إلى تحقيق ذلك. ولا يمكننا التوفيق بين حقائق التاريخ الروسي

الحديث في أي تفسير من هذا القبيل. وعلى الرغم من ذلك لا تعني حقيقة ثرميدور، حتى حقيقة عودة الملكية رسمياً كما في عام 1660 أو 1814 لا تعني أن الثورة لم تغير شيئاً. وسنحاول في الفصل التالي الإجابة عن السؤال البالغ الصعوبة: ما هي على وجه الدقة التغييرات التي أحدثتها هذه الثورات؟

الفصل التاسع

خلاصة عمل الثورات

1. التغييرات في المؤسسات والأفكار

مع الميل إلى النزعة الاستبدادية التي يشاطرها الاستخدام الشائع من المزيد من الميتافيزيقية النظامية الأرجح أننا نفكر في نوع الثورة التي ندرسها بوصفها انفصالاً مفاجئاً عن الماضي. إن الثورة "تشهد حقبة جديدة" أو "تنهي إلى الأبد إساءات استخدام العهد القديم للسلطة" أو "تقيم خليجاً بين القديم والجديد". ومن الناحية الأخرى عندما ينقلب اللبراليون الخائبون ضد التقليد الثوري فإنهم يستنتجون على نحو كاسح أن القرارات لا تغير شيئاً مهماً - ماعدا ربما نحو الأسوأ - وأن الثورات بغيضة وربما فترات فاصلة لا يمكن تجنبها في تاريخ الأمة. ولابد الآن أن يكون واضحاً أن دراستنا الحالية للثورات الإنكليزية والأميركية والفرنسية والروسية لا تكاد تسمح بأي إجابات مطلقة عن الأسئلة التالية: ماذا غيرت هذه الثورات حقاً؟ من الواضح أن بعض المؤسسات، بعض القوانين، حتى بعض العادات البشرية قد تغيرت في نواح مهمة بينما تغيرت مؤسسات وقوانين وعادات أخرى في المدى الطويل تغيراً قليلاً أو لم تتغير. وربما كان ما غيرته بالنسبة لعالم الاجتماع أهم مما لم تغيره. غير أنه لا يمكن

البدء بحسم هذه المسألة الأخيرة حتى نحصل على التغييرات الفعلية على نحو مستقيم. إننا نبحث هنا، طبعاً، تلك التغيرات الواضحة في نهاية الحمى الثورية، تلك التغيرات التي من المرجح أن تصنفها كتب التاريخ بوصفها "دائمة". إننا غير معنيين هنا مباشرة حالياً بالتغيرات التي يعد بها المتطرفون إلا أنهم لا ينفذونها، كما في الكثير من التغييرات المثيرة الكثيرة في حياة الفاعلين الفرديين في الثورة.

ينبغي التأكيد على أن العلوم الاجتماعية، شأنها شأن العلوم الطبيعية، تقنع بإثبات حالات التماثل الإحصائية العاملة. وقد تكون التجربة الفردية عكس الاتساق من هذا القبيل. قد تكون التجربة أكثر إثارة من الاتساق. ومن المؤكد أنها حقيقة ومؤثرة في الفرد أكثر من أي إحصائيات. غير أن الإحصائيات موجودة ولا يمكن تجنبها. وهكذا أية طريقة، حتى الأكثر فجاجة، لمنع الحمل ستخفض معدل الولادة في أية مجموعة تمارس فيها الطريقة على نحو واسع. إلا أنه بالنسبة لأي أفراد يمارسونها قد تصبح وسيلة فجة لمنع الحمل في الأيدي المهملة.

كذلك الحال في الثورات. إن رجل الدين الأنجليكاني الذي حرم من وسيلة رزقه عام 1648 والماركيزة الفرنسية التي أعدم زوجها بالمقصلة بوصفه خائناً عام 1794 والأميركي الموالي لبريطانيا الذي يجلس على الأرض في الغابات الحدودية في نيو برونسويك بعد أن حرم من وسائل الراحة في بوسطن أو كيمبرج الأرستقراطي الروسي الأبيض الذي يعمل سائق سيارة أجرة في باريس عام 1919 كلهم يعدون القول إن الثورات لم تغير شيئاً إساءة بالغة. ولا بد أن مؤلفي سفر أيوب(*) يشعرون بالحيرة الشديدة لو سئلوا إن كانت تجارب أيوب نمطية إحصائياً - وإذا فهموا السؤال، يشعرون بالغضب.

(*) سفر أيوب هو السفر الثامن عشر في العهد القديم ويروي قصة النبي أيوب والمحن التي ابتلي بها وهو قصيدة نثر تعليمية قصيرة يتناول مشكلة الشر وينقسم الباحثون حول أصل السفر وهدفه ومعناه.

لحسن الحظ أو لسوء الحظ لا يستند الحس الخلقي والحس بالدراما إلى حالات الاتساق العلمية. وبقدر ما تندمج ذاكرة الثورة فعلاً في المشاعر البشرية قد تكون أهميتها الحقيقية والدائمة الشكل الزائف أو غير الحقيقي الذي تتخذه في المشاعر من هذا القبيل وفي تقديم الحافز الأخلاقي - أو السلوى. وربما تنتهي بطريقة أو بأخرى كل الثورات الكبرى في حراسة هيئات من مثل بنات الثورة الأميركية أو وسام الشرف(*) أو الماركسي التاريخي. الأسطورة هي الحقيقة، آمنة إلى الأبد من سذاجة فاضح التزييف.

تنهي الثورة سياسياً أسوأ الإساءات وأسوأ حالات الكفاءة في العهد القديم. وتسوي فترة مؤقتة على الأقل نوع الصراع الداخلي الذي تنشأ عنه "السيادة الثنائية". يعمل جهاز الحكومة على نحو أكثر سلاسة بالمقارنة مع الفترة قبل نشوب الثورة مباشرة. وفرنسا حالة نموذجية هنا. استبدلت بعمل الثورة الفرنسية كل الصلاحيات القضائية المتداخلة القديمة، الارتباكات وحالات التسوية الموروثة من صراع عمره ألف عام بين القوى الجاذبة نحو المركز والتابعة للتاج والقوى الطاردة التابعة للنبلاء الإقطاعيين، فوضى السوابق المتراكمة. إن بيروقراطية تعمل ضمن مناطق إدارية متدرجة في التبعية المنظمة ونظاماً قانونياً مقنناً على نحو كفء، جيشاً ممتازاً في عدد كاف من الضباط وجيد التجهيز كلها مكنت نابليون من فعل الكثير مما لم يتمكن آل بوربون من القيام به قبله. وقد أوضح توكفيل قبل زمن طويل أن الثورة الفرنسية حدثت لتكمل عمل خط طويل من الملوك الفرنسيين لجعل السلطة المركزية في فرنسا فعالة وكاملة.

ثمة تفصيل واحد بين تفاصيل كثيرة. لقد تنوعت الأوزان والمقاييس في فرنسا القديمة من منطقة إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة. وكان البوشل في تولوز أكثر من بوشل في مونتوبان المجاورة. والأسوأ من ذلك أن أسماء المقاييس قد تكون كلمات مختلفة تماماً. العملة، شأنها شأن العملة الإنكليزية الحالية، مقسمة جزئياً إلى اثني عشر جزءاً ويصعب التعامل معها بالقسمة

(*) وسام جوقة الشرف العسكري والمدني أسسه نابليون عام 1805 وهو مقسم إلى 5 درجات.

الطويلة. ويعرف كل تلميذ ما فعلته الثورة في هذا الشأن. لقد تبنت النظام الموحد للأوزان والمقاييس المعروف بالنظام المتري وهو النظام الذي انتشر بدون ثورة في معظم أرجاء العالم خارج الكومونويلث البريطاني والولايات المتحدة.

هذا الإنجاز للكفاءة الحكومية هو حقاً الاتساق الأكثر لفتاً للانتباه الذي نلاحظه في تقدير التغيرات السياسية التي حققتها هذه الثورات. ومع الأخذ بنظر الاعتبار الفروق المحلية والحوادث والبقية المحتمة لما هو عديم النظير مما يجب أن يتعامل بها علم الاجتماع خرجت إنكلترا وأميركا وروسيا من ثوراتها بحكومات أكثر كفاءة ومركزية. أما في إنكلترا فالصورة أقل وضوحاً، ويعود السبب جزئياً إلى حدوثها قبل النضج التام للقوى الاقتصادية والثقافية التي تميل إلى دعم أشكال الكفاءة من مثل النظام المتري أو قانون نابليون. غير أنه على الرغم من كل تعقيدات الحكومة الإنكليزية كانت مستعدة لتلبية حاجات أمة البقالين على نحو أفضل بكثير مما كانت عليه إنكلترا عام 1620مع وجود أجور الفرسان وضريبة السفن والتبرعات الإلزامية للملك المحكمة النجمية(*) والمحكمة الدينية العليا(**) والامتيازات الأخرى واستبداد آل ستيوارت غير الناضج. وأصبح البرلمان بعد عام 1660 سيد إنكلترا على نحو أكمل مما كان عليه ملكا آل ستيوارت الأول والثاني.

ماتزال روسيا في هذا الصدد كما في نواح كثيرة أخرى موضوع خلاف. وتذهب التكتيكات السوفياتية أحياناً بعيداً إلى حد الإصرار على أن البيروقراطيين الجدد كذلك غير أكفاء وطغاة على نحو تافه وأغبياء لأنهم كانوا خاضعين

(*) قاعة النجوم Star Chamber محكمة إنكليزية للتعامل مع النبلاء وسماع قضايا التشهير والخيانة العظمى وكانت تجتمع في قصر وستمنستر الملكي حتى عام 1641.

(**) أسس الملك المحكمة الدينية العليا أثناء الحركة الدينية الواسعة التي استهدفت إصلاح الكنيسة الكاثوليكية وأمر البرلمان البريطاني بحلها عام 1641 وكانت لها سلطة غير محدودة تقريباً على المسائل المدنية والكنسية.

لسلطة القياصرة. وتبدو بعض المشاعر المتضمنة في أقوال من هذا النوع شيئاً ثابتاً في الحياة الروسية وإلى حد معين في الحياة في ظل أية حكومة. وتتناول مسرحية غوغول المثيرة للإعجاب المفتش العام(*) المثيرة للإعجاب حتماً حالات الاتساق كما يفعل أي عالم. الأرجح أن كل المؤرخين في المستقبل سيعترفون أن النظام السوفياتي بوصفه قطعة من الجهاز السياسي عمل أفضل من القياصرة وأن البيروقراطية السوفياتية كانت عموماً أكثر قدرة من البيروقراطية في عهد القياصرة. وقد لا تحب خطة الخمس سنوات إلا أنه يجب الاعتراف أنه تحت عرض الإحصائيات يكمن إنجاز اقتصادي أكبر من أي شيء عرضه النظام القديم في فترة مماثلة. لقد نقل الشيوعيون، باختصار، الثورة الصناعية إلى روسيا. ربما كانت الثورة قادمة أثناء حكم ستوليبين(**) وربما نقلها الشيوعيون بقسوة ووحشية. غير أنهم نقلوها حقاً. وبعد إطلاق القمر الفضائي سبوتنيك لم يشك سوى القليل من الأميركيين في ذلك.

نفذت هذه الثورات كافة باسم الحرية ووجهت كلها ضد طغيان القلة ومن أجل حكم الكثرة. لقد انطوت هذه المرحلة كلها من الثورات بخاصة على وجود مشاعر مؤكدة في البشر تجعل من الصعب تطبيق وسائل العلم على دراسة البشر في المجتمع. وثمة تشابك فريد بين كل هذه المراحل من الثورات وبين وجود مشاعر معينة في البشر تجعل من الصعب للغاية تطبيق وسائل العلم على دراسة الإنسان في المجتمع. غير أن الأهمية التامة لمسائل من مثل الديمقراطية، حقوق الإنسان، الدساتير المدونة وكل جهاز الحكومة الشعبية تكمن ضمن الحقل الغامض والمهم الذي يحب الماركسيون تسميته الأيديولوجية وليس في حقل الوكالات السياسية الراسخة التي ندرسها الآن. ويدهش المرء حتماً إزاء حقيقة أن الثورات الأربع كافة قد دعمت كفاءة الحكومة وليس "حق" الفرد في

(*) نيقولاي غوغول (1809-1852) روائي وكاتب مسرحي و"أبو الواقعية الروسية الحديثة" اشتهر برواية "الأرواح الميتة" (1842) وألف مسرحية "المفتش العام" عام 1842.

(**) بيتور ستوليبين (1862- 1911) رئيس مجلس الوزراء في عهد القيصر.

حرية رومانتيكية في أن يكون كما هو. وحتى الجهاز التقليدي للحكومة الشعبية يمكن تحليله بوصفه أداة لتنفيذ الأشياء في حالات معينة مهما بدا غريباً ذلك التحليل لمعاصري موسوليني وهتلر وستالين ذوي التفكير التقليدي - كما ما يزال يبدو كذلك لبعض نقاد الديمقراطية المعادين. بيان الحقوق، القوانين، والدساتير هي في الواقع مواثيق الطبقات الحاكمة الجديدة. كانت الحرية بوصفها أحد المثل العليا شيئاً بينما الحرية في السياسة، من الناحية الأخرى، مسألة أخرى ممجدة.

شهدت هذه الثورات جميعاً الكثير من نقل الممتلكات بالمصادرة أو البيع القسري. وشهدت سقوط طبقة حاكمة وتولي طبقة حاكمة أخرى السلطة أعضاؤها، على نحو جزئي على الأقل، من أفراد كانوا قبل الثورة خارج الطبقة الحاكمة. ورافقت الثورات مطالبة قوية بإلغاء الفقر والمشاطرة المتساوية في الثروة. واصل الأشخاص الذين قادوا الثورة الروسية بعد فترة طويلة من فترة أزمتها إصرارهم على أنهم يدعون إلى المساواة الاقتصادية وأن روسيا لن تعترف بالملكية الخاصة للأرض ورأس المال. وما يزال الفكر الماركسي يقسم الثورات الأربع إلى قسمين مختلفين: الثورات الإنكليزية والفرنسية والأميركية هي كلها في النتائج النهائية ثورات "برجوازية"، انتصارات الأعمال والصناعة على الأرستقراطيين مالكي الأراضي، وأن الثورة الروسية في مرحلتها النهائية ثورة "بروليتارية" حقيقية. غير أننا قد نعجب أكثر بحقيقة أن القوة الاقتصادية في الثورات الأربع كافة قد انتقلت من يد إلى يد وأن "طبقة حاكمة" حديثة الامتزاج في روسيا الجديدة وفي فرنسا الجديدة قد أدارت الحياة الاقتصادية علاوة على الحياة السياسية في المجتمع.

وبمزيد من التفصيل استولت الثورة الإنكليزية على الأراضي من الفرسان الأكثر تديناً وعلى الملكيات الكنسية من أعضاء الكنيسة الأسقفية والكنيسة المشيخية ومنحتها إلى متطهرين ورجال أعمال ورجال دين على حد سواء. وعادت مصادر رزق الكنيسة بإعادة النظام الملكي عام 1660 إلى السيطرة الأنجليكانية وباستثناء عدد قليل من كبار اللوردات المقربين من تشارلز الثاني

بقيت أراضي الملكيين المصادرة تابعة لمالكيها الجدد. تصالح معظم هؤلاء المالكين مع حكومة آل ستيوارت ووضعوا بذلك الأساس للطبقة الحاكمة التي حصلت إنكلترا في ظلها على إمبراطورية في القرنين التاليين، طبقة حاكمة اختلطت فيها ثروة امتلاك الأراضي والثروة الصناعية على نحو لا ينفصم وأثبتت أنها طبقة حاكمة جيدة.

تتبع التغييرات الاقتصادية القوية في فرنسا نمطاً مشابهاً. حصل ثوريون على الأراضي المصادرة من رجال الدين والنبلاء المهاجرين وبقي معظمها في حوزة المشترين حتى بعد عودة الملكية عام 1814(*). ولا شك أن الكثير من هذه الأراضي قد انتهى به الأمر إلى مزارعين مستقلين صغار وساعدت في وضع اللمسات النهائيّة على تأسيس تلك الطبقة الفرنسية للغاية، التي كانت حتى الأمس قلب فرنسا الحديثة. إلا أن الطبقة الوسطى استفادت كذلك من الكثير من هذا الانتقال وتمثل الطبقة الحاكمة الفرنسية بعد الثورة حتماً مزيجاً لافتاً من الثروة الجديدة والقديمة، الأرض والتجارة، شأنها شأن الطبقة الحاكمة الإنكليزية.

لم تكن الفروق في روسيا واسعة للغاية كما كان ينبغي وفقاً للنظرية الماركسية. وحدث انتقال للسلطة الاقتصادية من مجموعة إلى أخرى وليس مشاطرة متساوية للسلطة الاقتصادية، توزيع متساو للسلع الاستهلاكية، نهاية للصراع على السلع أو السلطة الاقتصادية - غير أنك تستطيع وضع المعادلة الماركسية كما تشاء. البيروقراطية الروسية، كما رأينا، طبقة ذات الامتيازات تتمتع بالثروة في شكل سلع استهلاكية يبدو امتلاكها في الأشكال التي ندعوها تقليدياً "ملكية". إنها طبقة غير مستقرة بعد على نحو واضح وكأنها غير واثقة بنفسها. إلا أن أبناء صاحب الامتيازات شرعوا في إظهار علامات وراثة وضع الأب وليس من غير المتصور أن يعقب ذلك وراثة الملكية قريباً. و يبدو أنه حدث تطور لخطوط حركة التاريخ الاقتصادي الروسي. وكما وضعت الثورة

(*) المقصود هو عودة أسرة بوربون إلى الحكم إثر استقالة نابليون بونابرت.

الفرنسية اللمسات الأخيرة على وضع المزارعين ولو أنها لم تمنحهم الأراضي فجأة يبدو أن الوضع الحالي للزراعة والصناعة في روسيا هو تطور لمحبي الثقافة السلافية والعناصر الأخرى التي تفضل الزراعة الجماعية على المزارعين الأثرياء في القرن التاسع عشر وميول عالمية النطاق تقريباً التي تحبذ إدارة الصناعة على نحو بيروقراطي واسع النطاق وليس من خلال شركات متنافسة مستقلة صغيرة. وهنا كما في دول أخرى لا تطرح الثورة مؤسسات جاهزة لا من قبعة ساحر ولا من كتاب ولا حتى من كتاب مؤثر من مثل رأس المال.

لم تستبدل أية من الثورات الأربع طبقة حاكمة قديمة بطبقة جديدة تماماً، على الأقل ما لم يفكر المرء في "طبقة" بدون الاكتراث للبشر الذين يشكلون الطبقة، وهو إجراء مفصل لدى الماركسيين. وما يحدث أنه بحلول نهاية فترة النقاهة يبدأ نوع من الاندماج يرتبط فيه أفراد مغامرون قابلون للتكيف أو محظوظون من الطبقات القديمة صاحبة الامتيازات لأغراض عملية بأولئك الأفراد من الطبقات المهضومة القديمة الذين تمكنوا من الصعود، الأرجح من خلال المواهب نفسها. ليست حتى طبقة جيلاس(*). الجديدة جديدة تماماً. يلاحظ هذا الامتزاج بخاصة في الجيش والخدمة المدنية غير أنه ملحوظ بالقدر نفسه تقريباً في الأعمال والصناعة والحياة السياسية العليا. ويؤكد هذا التحليل دراسة مفصلة للأصول الاجتماعية لضباط بونابرت أو الضباط في الجيش الأحمر الحالي أو الرجال الذين أداروا فعلياً حكومة إنكلترا عام 1670 وفرنسا عام 1810 وروسيا حالياً ولو أن الأمر أقل وضوحاً في حالة روسيا لأن وقتاً أطول قد مضى. كما أن الرجال الجدد في الطبقات الحاكمة ما قبل الثورة توصلوا إلى توافق واضح مع الرجال الأكبر سناً منهم، مع ذلك العالم القديم

(*) ميلوفان جيلاس (1911- 1995) سياسي ومنظر ومؤلف شيوعي يوغسلافي. كان زعيماً مهماً في حركة الأنصار أثناء الحرب العالمية الثانية وفي حكومة ما بعد الحرب وأصبح أشهر منتقدي النظام اليوغسلافي.

الممقوت في فترة الأزمة في الثورة. لم يعد لأمثال داوننغ(*) وفوشيه(**) وخروتشيف يتمتعون بالحرية التي كان تروتسكي يتمتع بها. لم يعودوا ثوريين بل حكاماً ولذا فإنهم من بعض النواحي مضطرون إلى "التعلم" ممن سبقهم.

التغيرات الفعلية التي أحدثتها الثورات الأربع هي في الترتيبات الاجتماعية تؤثر على النحو الأشد والأكثر مباشرة في الشخص العادي. وتحاول المحاولات الكبرى للإصلاح أثناء فترة الأزمة تغيير علاقات الإنسان العادي مع زوجته وأطفاله ومنحه ديناً جديداً وعادات شخصية جديدة. يتخلى الثرميدوريون(***) عن معظم هذه المحاولة ويكون موقف الشخص في نهاية المطاف من مسائل معينة هو نفسه عندما بدأت الثورة. إن دراستنا للثورات يجب أن تؤكد أمراً عرفه العقلاء دائماً وأن المصلحين الغاضبين اعترفوا أحياناً، على الأقل لأنفسهم - أن سلوك الإنسان في نواح مهمة يتغير ببطء يكاد يشابه نوع التغيير الذي يدرسه عالم الجيولوجيا.

يمكننا عرض مثال للتوضيح للتماثل أعلاه محاولات بعض الثوريين أن يحولوا على نحو واسع وسريع مراحل قانون الأسرة. وقد أظهر لو بلاي(****) أن حالات التماثل في الأسرة هي بين أكثر الأمور استقراراً وإلحاحاً في حضارتنا الغربية. لذا مال الثوري اليساري المتحمس في القرون القليلة الماضية على نحو طبيعي إلى كراهية الأسرة المسيحية الأحادية الزوجة ويراها متراساً

(*) سير جورج داوننغ (1623- 1684) عسكري ودبلوماسي أنكلو- إيرلندي. انتقلت أسرته إلى أميركا ودرس في جامعة هارفرد وعاد إلى إنكلترا. أصبح من قواد كرومويل غير أنه تعاون مع النظام الملكي فيما بعد.

(**) جوزيف فوشيه (1763- 1820) سياسي فرنسي ووزير للشرطة في عهد نابليون.

(***) ثرميدور هو الشهر الحادي عشر في التقويم الثوري الفرنسي والشهر الثاني في فصل الصيف ويستخدم بالإشارة إلى ثورة 9 ثرميدور (27 تموز/يوليو 1794) التي أعدم فيها روبسبير بالمقصلة وانتهى عهد الإرهاب.

(****) غيلوم فريدريك لو بلاي (1806- 1882) عالم اجتماع وعالم اقتصاد فرنسي ويعد أول من طور واستخدم طريقة البحث الاجتماعية- المسحية.

للأنانية الفردية، التكبر على الأنداد، التعجرف الفكري المعرقل بالإجراءات الإدارية الرتيبة الخاصة بالوصية والمكرسة لأسطورة التفوق الذكري والذي يزداد صلابة بالعقوبات الدينية، مركز متقيح يجب تنظيفه قبل أن يتمكن الرجال والنساء أن يعيشوا مثلما أراد الرب أو الطبيعة أو العلم أن يعيشوا. لم تشهد الثورة الفرنسية محاولة واسعة لتدمير الأسرة ويحفل مسار الطبقة الوسطى فيها عموماً بإطراء تقي لفضائل الأسرة. غير أن ذوي النزعة الإنسانية مرروا من خلال بعض التشريعات بعيدة المدى في هذا المجال من مثل القوانين السخية للتبني وإجراءات أخرى التي تميل إلى تحطيم قانون الأسرة الصارم الذي يكاد يكون رومانياً في النظام القديم. وحاولوا بخاصة جعل الأطفال غير الشرعيين متساوين في كل جانب مع الأطفال الشرعيين. وعندما طبق هذا القانون قال أحد الخطباء:

"لم يعد هنالك أي أبناء غير شرعيين في فرنسا". لا نكاد نحتاج إلى القول إنه كان مخطئاً. وفي بحث للمؤلف عن التشريع الثوري الفرنسي بشأن اللاشرعية حاول المؤلف إظهار كيف أنه حتى البرجوازيون الطيبون الذين مرروا هذا القانون مشتبكون في المشاعر الأسرية التقليدية أكثر مما يمكنهم محاولة تطبيقه. قالوا إن الأطفال غير الشرعيين متساوون مع الأطفال الشرعيين، إلا أنهم لم يتمكنوا من إرغام أنفسهم على التصرف كأنهم اعتقدوا حقاً أو أرادوا أن يعتقدوا ذلك. خرجت الأسرة التقليدية في شكلها الفرنسي عموماً دون أن يمسّها سوء من الثورة.

شهدت روسيا هجوماً أشد تصميماً ضد الأسرة المسيحية أحادية الزوجة وجعلت التشريعات الطلاق أسهل حتى من ولاية نيفادا وأباحت الإجهاض وشجعت الترتيبات الأسرية المشتركة وأسست دور الحضانة ورياض الأطفال وتربية الأطفال خارج المنزل قدر الإمكان وغير ذلك. ينبغي ألا يكون هنالك شك أن المثاليين الروس الذين سعوا إلى القيام بذلك كله لم يكونوا ذوي تفكير مقيت يسعون إلى تسهيل الحياة للمنهمكين في الملذات الحسية. على النقيض من ذلك، كانت لهم، كما حاولنا التوضيح، نزعة متطهرة قوية. ويصعق الشاب

الشيوعي حتى اليوم لدى مشاهدة المجلات التي تعرض الصور العارية على أي رف مجلات أميركية. اعتقد هؤلاء المثاليون أن الأسرة البرجوازية فاسدة واتفقوا مع السيد جورج برنارد شو أن الزواج يجمع بين الحد الأقصى من الإغراء وبين الحد الأقصى من الفرصة. وقد استهدف تشريعهم تحقيق المثل العليا وراء أحادية الزوجة في المسيحية ولو مع تدمير ما عدوه المؤسسات الأسرية الفاسدة المحمية ضمنها. إن الشيوعيين الصينيين عام 1964 مشغولون بشجب التأكيد الغربي على حياة الفرد العاطفية ويحثون الصينيين على وضع جوانب الضعف البرجوازية من هذا القبيل وراءهم وعلى بناء الشيوعية.

هنا مرة أخرى لسنا في وضع المؤرخين الذي يستعينون بمصادر جيدة، غير أنه من خلال التقارير المضاربة التي تصلنا من روسيا يمكننا الاستنتاج أن المصلحين قد فشلوا وأن الأسرة المسيحية أحادية الزوجة قد بقيت بعد النظام البلشفي القديم في روسيا. ولم تكتف التشريعات بإخفاء عمليات الإجهاض المسموح بها بحيث تقتصر على الحالات الطبية الضرورية القصوى فحسب بل منح مكافآت للأسر الكبيرة. وزاد الطلاق صعوبة. وأصبحت طاعة الوالدين وكل الفضائل الأسرية البرجوازية تلقى التقدير العالي حالياً في الصحافة والأفلام والدولة والمدرسة.

لنأخذ مثالاً محدداً. كانت المثلية الجنسية لدى البلاشفة القدماء شذوذاً يمكن علاجه طبياً ولكنه ليس جريمة. لم يعدوه جريمة لمجرد أنه كان جريمة في العالم الشرير والغبي الذي كانوا سيغيرونه من القمة إلى القاعدة. ومن الطبيعي أنهم لم يكونوا يشعرون بالاشمئزاز البرجوازي الضيق لهذه الممارسة. إلا أن ممارسة الشذوذ الجنسي أصبحت في آذار/مارس 1934 جريمة يعاقب عليها بالسجن ثلاث - ثماني سنوات. ولا يمكننا الإحجام عن إضافة أن سيدني وبياتريس ويب(*) قد شرحا ذلك بلطفهما المعتاد: "مفهوم أن هذا العمل أعقب

(*) سيدني ويب (1859 - 1947) اشتراكي واقتصادي ومصلح بريطاني يشار إليه عادة مقترناً بزوجته بياتريس ويب (1858- 1943) في الاختصاصات نفسها غير أنها رفضت أن تدعى "ليدي" بعد منح زوجها لقب البارون باسفيلد.

اكتشاف مراكز إضعاف الروح المعنوية للفتيان بسبب تأثير أجانب معينين طردوا بسرعة". إلا أنه حتى بعد طرد الأجانب تحتفظ روسيا بالقانون. والحقيقة هي أن المشاعر الروسية نحو موضوع الشذوذ الجنسي ثابتة تقريباً. الأفكار الروسية وحدها إزاء الموضوع متغيرة وفي المدى البعيد يسود ما هو ثابت.

موضوع التغير كله في الأنماط الرتيبة للحياة اليومية للشخص العادي، في علاقاته الحميمة على نحو أكثر مع أصدقائه وبيئته، لم يستكشف جيداً. هنا مرة أخرى الإدراك السليم مع المقولة المتصلة بها "الطبيعة البشرية لا تتغير" مطلق على نحو مفرط. غير أنه لا يبدو أن للثورات الأربع سوى تأثير دائم في الأمور البسيطة المهمة في الحياة للمواطن العادي. إن لما يدعى على نحو سائب "الثورة الصناعية" تأثيراً أشد كثيراً أرغم الشخص العادي على تطبيق سلسلة من التكيف أصعب مما فعلت الثورات الأربع. ويبدو أن كلاً من المجتمعات الأربعة، حتى روسيا، شهد تغييرات كاملة مماثلة للتغيرات التي شهدها المجتمع التركي منذ الإجراءات الكلية الثورية حقاً التي اتخذت في عهد كمال أتاتورك أو الإجراءات اليابانية التي اتخذت أثناء ثورة الميجي(*) إن لم نقل شيئاً عن ثورة مكارثر(**). ومن المغري تسجيل المفارقة بأن المجتمع الغربي في بعض النواحي أكثر تعقيداً من أية مفارقة كهذه. ويتمكن المرء في أوروبا الغربية على الأقل المجادلة أن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية منذ عام 1945 (الأمركة إن شئت) تضيف مجموعة من التغيرات أهم من التغيرات التي حدثت في الثورة الفرنسية الكبرى في1789- 1815. ويبدو أن الأتراك واليابانيين حافظوا عبر التغيير الاجتماعي والاقتصادي على سلسلة متماسكة من النظم الوطنية. وفي مجتمعاتنا الغربية وفت النظم الأسرية والأخلاقية والدينية على نحو مشابه في

(*) أجرى ميجي إمبراطور اليابان (1852- 1912) إصلاحات مهمة جعلت اليابان إحدى الدول الكبرى في العالم الحديث.

(**) دوغلاس مكارثر (1880-1964) قائد قوات الحلفاء في جنوب شرقي المحيط الهادي وقائد قوات الاحتلال الأميركي حتى استسلام اليابان التي شهدت تبني دستور السلام ونزع السلاح والإصلاح الزراعي وإعادة مصانعها المدمرة واستخدام التقنية الجديدة في كل صناعة جديدة.

موازنة تغييرات اجتماعية واقتصادية مهمة للغاية والثورات التي ندرسها جزء منها.

لقد شهد المجتمع الغربي الحديث في القرون القليلة الماضية تغيرات مستمرة بحيث إذا تبنينا المفهوم المقبول ظاهرياً للتوازن الاجتماعي يجب توقع وجود قوى معينة تضغط في الاتجاه المضاد، في اتجاه الاستقرار. إن هذه القوى ليست واضحة دائماً ولا يبدو أنها تثير اهتمام المثقفين بقدر القوى التي تعمل من أجل التغيير. وربما هي غير رزينة وغير مثيرة. وبقدر ما تترجم إلى اللغة تبدو في مجموعة متنوعة من أقنعة منطقية صعبة الاختراق. إلا أنها موجودة وكما شاهدنا تضع حداً معيناً لما يمكن المصلح أو الثوري فعله. لا تكاد اللاشرعية تصمد ضد المنطق أو علم الحياة. غير أن اللاشرعية موجودة ليس بفضل المنطق أو علم الحياة بل بفضل المشاعر البشرية الراسخة البطيئة التغير. وقد يشعر الإنسان بالحزن الشديد على الأطفال الفقراء الموسومين من الولادة لسبب من الواضح أنه ليس ذنبهم. الثورات لم تتمكن حتى الآن من التغلب على تلك المشاعر الحقيرة على الرغم من كونها كامنة دائماً وراء التمييز "من صنع الإنسان" و "المصطنع" بين الأطفال المولدين بعد أداء طقس معين وبين المولودين بدون طقس من هذا القبيل. يبدو الطقس هشاً، قابلاً للتغيير، غير مهم - مجرد مسألة كلمات وإيماءات تافهة. وقد أثبت هذا الطقس في الواقع على أنه فعال ضد كلمات أروع وإيماءات أكثر لفتاً للانتباه وكذلك ضد سلسلة كاملة من المنطق. وسبب ذلك، إذا استعرنا مصطلحات باريتو، متصل بـ"المجموعات الدائمة"، أنماط المشاعر والسلوك التي تتغير ببطء شديد.

يعني ذلك القول إن الإنسان في مجتمعنا الغربي واصل التمسك بمشاعر معينة والالتزام بوسائل معينة في الأداء حتى بعد أن تغير ما يقال عن هذه المشاعر وهذه الأعمال. وتبدو الثورات الأربع في نواح كثيرة وقد غيرت عقول الإنسان على نحو أكمل من تغييرها عادات الإنسان. وهذا لا يعني إطلاقاً القول إنها لم تغير شيئاً بتاتاً وإن ما يفكر الإنسان فيه غير ذي أهمية. الأفكار ليست سحرة تماماً في هذا العالم وإلا لما سقط روبسبير ولربما كان تروتسكي

(المولود عام 1879)، ما يزال على قيد الحياة في موسكو وليس ميتا في المكسيك. ولا يمكن طرد الأفكار باعتبارها بدون أهمية في التغيير الاجتماعي. وفي الحقيقة أن ما يدعوه أصدقاؤنا الماركسيون تغييرات "أيديولوجية" أحدثتها الثورات الأربع تستحق تأملاً دقيقاً.

يمكن للمرء تمييز دورين متناقضين تؤديهما هذه الأفكار الناشئة في الثورة. أولاً، يبدو أن الثورات الأربع في نهاية المطاف قد أزالت الحدة من الأفكار والشعارات الراديكالية في أيامها المبكرة. وحققت المعجزة الضرورية بحمل الطموحين على قبول الإخفاق الواسع لطموحاتهم نحو السماء على الأرض. وحولت ما كانت أصلاً أدوات شفهية للثورة، وسائل تحريك الناس للعمل الاجتماعي ضد النظام القائم، إلى شيء لابد أن نكون متسمين بالحداثة وندعوه أساطير، مأثورات شعبية ـ رموزاً، قوالب نمطية، طقوساً لمجتمعاتها. وأصبحت حالياً شعارات "الحرية والإخاء والمساواة"، التي كانت في وقت ما صرخة مدوية لاجتياح السماء للأرض، في الجمهورية الفرنسية الأخيرة لا أكثر من قطعة من الطقوس الوطنية، تذكيراً متسماً بالمواساة بأن الفرنسيين ورثة محظوظون لماض بطولي. وثمة علامات في روسيا على أنه يمكن التوفيق بين ضمور الدولة وبين وجود دولة بوليسية مركزية قوية. وفي النهاية، كما أوضح الراديكاليون المفرطون أكثر من اللازم، الإنجيل نفسه حافل بالمبادئ الثورية. وما فعلته المسيحية المنظمة بالإنجيل يمكن للشيوعية المنظمة أن تفعله بمؤلفات ماركس وأنجلز.

الدور الثاني أكثر إيجابية. حتى في استخدام الأفكار بوصفها من الطقوس فإنها ليست سلبية تماماً ـ مجرد طقوس لا معنى لها. وقد رأينا أن فكرة المجتمع غير الطبقي تقلق الطبقة الحاكمة الجديدة في روسيا. ولا نتمكن هنا من بحث المسألة الأهم والأعقد وهي دور هذه الأساطير والرموز في مجتمع ما. إننا لابد أن نتجنب حتماً السؤال الغبي إن كانت تلك الرموز "تسبب" أي نوع من التحول الاجتماعي. هنا كما في أي مكان في العلوم الاجتماعية تقريباً معادلة العربة والحصان في التسبب عديمة الجدوى بل ومضللة حقاً. ويكفي أننا نجد

في المجتمعات الأربعة كافة ذاكرة الثورة الكبرى مستودعة في ممارسات تبدو جزءاً جوهرياً من الدولة الوطنية بوصفها هماً مستمراً. وبقدر ما يشجع الوعي بالعضوية في أمة الإنسان في إنكلترا وفرنسا وأميركا وروسيا حالياً، ربما ترشدهم وتساعدهم حتماً العقائد الأكثر نبلاً والأكثر تجريداً وتجعلهم أكثر وعياً بنوع من الأمن وبوضع بكل أنواع ممارسة الشعائر المرتبطة بالدولة أو بالكنيسة بوصفها من إدارات الدولة معززة بآمال ما تزال قائمة بالكلمات الرائعة لأمثال ملتن، جيفرسن، دانتون، لينين - بقدر ما يتأثر الإنسان بها قدمت الثورات التي تولينا دراستها بسخاء إلى محتوى عواطفهم. لقد أصبحت ذكرى إصاباتهم بالانكفاء عاملاً في استقرار المجتمع العالي. وما لم تفشل كل العلامات ستصل روسيا إلى حالة مشابهة إن عاجلاً أو آجلاً.

إلا أن الثورات الأربع قد خلفت كذلك تقليداً من التمرد الناجح. وما هو للأقوياء والقانعين والمواسين والتقليديين مجرد رضا شعائري يبقى للساخطين حافزاً على تنشيط سخطهم. إن تقليدنا الثوري الغربي تراكمي إلى حد معين وقد أوصل الروس وعيهم بالتاريخ الثوري إلى وسواس تقريباً. وعلى الرغم من أن تروتسكي لم يستخدم طبعاً أبداً مخطط المفاهيم للحمى كما استخدمناه فإنه يبدو في مؤلفاته يراقب سير الثورة الروسية علاجياً تقريباً ويبحث على نحو دائم عن أحداث تتخذ مسارات لوحظت سابقاً في فرنسا وإنكلترا أو أينما ثار الناس باسم الكثيرين ضد القلة.

مرة أخرى لا يمكن تقدير هذا التقدير بدقة، إلا أنه مضى بعيداً في صنع الديمقراطيات الغربية. وقد انتشر تقليد الثورة هذا من هذه الديمقراطيات ومن روسيا كذلك حول العالم. إن ذكر وجود هذا التقليد الثوري لا يعني بالضرورة إصدار أحكام تقديرية. ونحن نطرحه بوصفه حقيقة ملاحظة ولا ينكره على نحو فعال أنصار أية فصيلة.

ويبدو أن البحث في منتصف القرن العشرين عن العدل الاجتماعي، على الرغم من أن شعاراته ووسائله لم تعد تشبه كثيراً "المبادئ عام 1776 و 1789"، هو في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية في بعض النواحي نتيجة الثورات

التي ندرسها هنا وانتسابها إليها. هذه ليست علاقة سبب وتأثير في أي معنى لتلك العبارة في العلوم الطبيعية. إنها هكذا، على نحو لا مفر منه، في معنى إنساني. وفي الصين وغانا وكوبا يريدون ما يعتقدون أننا أردناه في الغرب عندما شرعنا بثورتنا، شيء تلخصه على أفضل نحو الشعارات الفرنسية الحرية والمساواة والإخاء ولا تلخصه حتماً تماماً أية معادلة اقتصادية قومية بسيطة. أو ربما يمكننا الاكتفاء بوصف هذه الحركات بأنها ثورات توقعات متصاعدة.

2. بعض حالات التماثل المؤقتة

عندما تقدم كل التنازلات الضرورية إلى من يصرون على أن الأحداث في التاريخ فريدة يبقى صحيحاً أن الثورات الأربع التي قمنا بدراستها تظهر بعض حالات التماثل اللافتة. ويمكن صياغة مخططنا للمفاهيم عن الحمى للتذكير الواضح بحالات التماثل هذه. وسنجد من المجدي، في محاولة تلخيص عمل هذه الثورات، أن نكرر بإيجاز النقاط الرئيسية للمقارنة التي تستند إليها حالات التماثل.

يجب أن نكون تجريبيين للغاية إزاء العلامات الأولى للثورة. وحتى على نحو استذكاري كان تشخيص المجتمعات الأربعة التي تولينا دراستها صعباً للغاية وثمة سبب بسيط للاعتقاد أن كل امرئ لديه حالياً المعرفة والمهارة الكافيتان لتطبيق وسائل تشخيص نظامية على مجتمع معاصر والقول في هذه الحالة إن الثورة ستحدث أو لن تحدث قريباً. غير أن بعض حالات التماثل تظهر في دراسة الأنظمة القديمة في إنكلترا وأميركا وفرنسا وروسيا.

أولاً، كانت هذه مجتمعات متقدمة اقتصاديا عموماً قبل نشوب الثورة، ويبدو أن أصل الحركات الثورية في سخط الناس غير ناجحين يشعرون بالتقييد والتشنج والانزعاج وليس القمع الشديد. لا يبدأ هذه الثورات حتماً المعدمون والجياع والبؤساء. هؤلاء الثوار ليسوا ديداناً تنقلب وليسوا أطفالاً يائسين. هذه الثورات تنشأ من الأمل وفلسفاتهم تتسم بالتفاؤل النظامي.

ثانياً، نجد في المجتمع الأميركي ما قبل الثورة عداوات طبقية شديدة

ومريرة للغاية ولو أن هذه العداوات تبدو أكثر تعقيداً مما يسمح الماركسيون الأكثر فجاجة. إنها ليست حالة نبلاء إقطاعيين ضد البرجوازية عام 1640 و1776 و1789 أو البرجوازية ضد البروليتاريا عام 1917. وتبدو أن المشاعر الأقوى تولدت في صدور الرجال - والنساء - الذين جمعوا الأموال أو على الأقل لديهم ما يكفي ليعيشوا عليه ومن يتأملون على نحو مرير نقائص طبقة أرستقراطية ذات امتيازات اجتماعية. وكما يقترح جيمس سي ديفيز(*) فإن المشاعر القوية تثور في من يجدون فجوة لا تحتمل بين ما أصبحوا يريدونه - "حاجاتهم" - وبين ما يحصلون عليهم فعلاً. وتبدو الثورات أكثر احتمالاً عندما تكون الطبقات الاجتماعية قريبة نوعاً ما معاً مما تكون عندما تكون متباعدة. ونادراً جداً ما يثور "المنبوذون" ضد طبقة أرستقراطية ممنوحة من الرب وهايتي من الأمثلة القليلة لثورات العبيد الناجحة. غير أن التجار الأثرياء الذين تتمكن بناتهم من الزواج من أرستقراطيين يحتمل أن يشعروا أن الرب معني بالتجار كما بالأرستقراطيين. ومن الصعب القول لماذا تبدو مرارة الشعور بين الطبقات المتعادلة تقريباً اجتماعياً أشد كثيراً في بعض المجتمعات من غيرها - لماذا، على سبيل المثال، تكون ماري انطوانيت بغيضة في فرنسا في القرن الثامن عشر أكثر من وريثة ثرية عاطلة محاطة بدعاية واسعة في أميركا المعاصرة. غير أنه يمكن ملاحظة وجود هذه المرارة في المجتمعات الأربعة قبل الثورة، وهو يكفي حالياً في اللغة الطبية.

ثالثاً، هنالك ما دعوناه تحول ولاء المثقفين. وهذا من بعض النواحي من أكثر الأغراض الموثوق بها التي يحتمل مواجهتها. مرة أخرى لا نحتاج هنا إلى محاولة تفسير كل الأساليب والأسباب ولا محاولة ربط تحول الولاء هذا مع

(*) جيمس تشاوننغ ديفيز عالم اجتماع وأكاديمي أميركي في العلوم السياسية ولد عام 1918 واشتهر بنظرية منحنى جي في الثورات السياسية التي تسعى لتفسير نشوء الحركات الثورية بسبب التوقعات الفردية الصاعدة وتراجع مستويات الرفاهية المتصورة.

سوسيولوجيا كبرى وكاملة للثورات. يجب أن نشير ببساطة إلى إمكان ملاحظة هذا التحول في المجتمعات الأربعة كافة.

رابعاً، الجهاز الحكومي غير كفء على نحو واضح، جزئياً بسبب الإهمال وجزئياً بسبب عدم إحداث تغييرات في المؤسسات القديمة وجزئياً بسبب الظروف الجديدة - في المجتمعات التي قمنا بدراستها، ظروف ملازمة بخاصة للتوسع الاقتصادي ونمو الطبقات الغنية الجديدة، وسائل نقل جديدة - مارست هذه الظروف الجديدة ضغطاً لا يحتمل على الجهاز الحكومي المتكيف مع ظروف أبسط وأكثر بدائية.

خامساً، الطبقة الحاكمة القديمة، أو بالأحرى أفراد كثيرون من الطبقة الحاكمة القديمة أصبحوا لا يثقون بأنفسهم أو فقدوا الثقة بتقاليد وعادات طبقتهم والنمو فكرياً وإنسانياً أو التوجه إلى المجموعات المهاجمة. ولعل عدداً منهم أكثر من المألوف يعيشون حياة يتعين علينا وصفها بأنها لا أخلاقية ومنغمسة في الملذات على الرغم من عدم ثقة المرء بأية وسيلة من ذلك كأحد الأعراض بقدر الثقة بشأن فقد عادات وتقاليد القيادة الفعالة بين طبقة حاكمة. وعلى كل حال تصبح الطبقة الحاكمة مفتقرة إلى الكفاءة السياسية.

الأحداث المثيرة التي شرعت بتحريك الأمور والتي تسببت بحمى الثورة هي مرتبطة بالإدارة المالية للدولة في ثلاث من الثورات الأربع. أما في الثورة الروسية فإن انهيار الإدارة كان مالياً في ظل أعباء حرب غير ناجحة مالياً على نحو جزئي. إلا أنه في كل المجتمعات الأربعة تظهر عدم الكفاءة وعدم الملاءمة على نحو واضح في المراحل الأولى من الثورة. هنالك وقت - الأسابيع أو الأشهر القليلة الأولى - حين يبدو كأن الاستخدام المتسم بالتصميم للقوة من جانب الحكومة قد يمنع الحماسة المتصاعدة من بلوغ الذروة في التطويح بالحكومة. جربت هذه الحكومات استخدام القوة في الحالات الأربع كافة وفشلت المحاولة في كل هذه الحالات. لقد أثبت هذا الفشل حقاً أنه نقطة تحول أثناء المراحل الأولى وعقب الثورات في السلطة.

إلا أن ما يثير الاهتمام في الحالات الأربع كافة هو عدم كفاءة استخدام

الحكومات القوة أكثر من مهارة خصومها في استخدام القوة.نتحدث هنا عن الحالة من وجهة نظر عسكرية وبوليسية. ربما أغلبية الناس ساخطون ويمقتون الحكومة القائمة ويتمنون التطويح بها. لا أحد يعرف الحقيقة. لا تجرى استفتاءات عادة قبل الثورات. وفي النزال الفعلي - حتى في يوم الباستيل أو كونكورد أو أيام شباط/فبراير في بتروغراد لا يشارك سوى أقلية من الناس على نحو نشيط. غير أن سيطرة الحكومة على جنودها ضعيفة ويحارب هؤلاء بهمة فاترة أو يهربون وقوادهم أغبياء ويحصل أعداؤها على نواة من الجنود الهاربين أو من أفراد ميليشيا سابقة ويحل الجديد محل القديم. غير أن هذه هي الطبيعة المحافظة والمولعة بالروتين في معظم البشر. عادات الطاعة قوية للغاية لدى معظمهم بحيث يكاد يكون من المأمون القول إنه ليس مرجحاً التطويح بأية حكومة من داخل أراضيها حتى تفقد قدرتها على الاستخدام المناسب لقوتها العسكرية والبوليسية. وقد يظهر فقد القدرة في انضمام الجنود ورجال الشرطة إلى الثوريين أو في غباء إدارة الحكومة لجنودها ورجال شرطتها أو كليهما.

لا تكشف الأحداث التي جمعناها تحت أسماء المراحل الأولى عن نفسها في الترتيب الزمني نفسه بالضبط، أو بالمحتوى نفسه بالضبط في كل الثورات الأربع. غير أننا أوردنا العناصر الرئيسية - وهي ضمن نمط من حالات التماثل - الانهيار المالي، تنظيم الساخطين على معالجة هذا الانهيار (أو احتمال الانهيار)، المطالب الثورية من جانب هؤلاء الساخطين المنظمين، المطالب التي إذا لبيت فستعني تنازل الحاكمين ومحاولة استخدام القوة من جانب الحكومة وفشلها وحصول الثوريين على السلطة. وأثبت هذا الفشل أنه نقطة تحول أثناء المراحل الأولى وجعل الثوريين يتولون السلطة.

عمل هؤلاء الثوريون حتى الآن بوصفهم مجموعة منظمة على نحو جماعي تقريباً إلا أنه مع الاستحواذ على السلطة يصبح واضحاً أنهم غير متحدين. نطلق تسمية المعتدلين على أعضاء تلك المجموعة التي تهيمن على هذه المراحل الأولى، ولو أنهم يبدون غير معتدلين للغاية في نظر مساندي النظام القديم المنفعلين. هذه المجموعة ليست دائماً ذات أغلبية عددية في هذه المرحلة - في

الواقع من الواضح إلى حد ما أنه إذا اقتصر المعتدلون على الكاديتس الروس فإنه لم يكونوا الأغلبية في روسيا في شباط/فبراير 1917. غير أنهم بدوا الورثة الطبيعيين للحكومة القديمة وكانت لهم فرصتهم. وفي ثلاث من الثورات الأربع يرغمون على التنحي عن السلطة إن عاجلاً أو آجلاً ليلقوا حتفهم أو إلى المنفى. كانت هنالك حتماً في إنكلترا وفرنسا وروسيا سلسلة من الأزمات انطوى بعضها على عنف وقتال في الشوارع وما أشبه وشهدت إبعاد مجموعة وتولي مجموعة أخرى أكثر راديكالية. تنتقل السلطة في هذه الثورات بوسائل عنيفة أو غير قانونية على الأقل من اليمين إلى اليسار حتى يتولى السلطة الراديكاليون المتطرفون، الثوريون الكاملون. وفي الحقيقة هنالك عادة منتصرون متطرفون أكثر جنونا إلا أنهم ليسوا كثيرين ولا أقوياء ويتولى الراديكاليون المسيطرون قمعهم أو كسر شوكتهم. لذا صحيح تقريباً القول إن السلطة تمر من اليمين إلى اليسار حتى تصل إلى الحد الذي لا يصل إلى الأكثر تطرفاً أو اليسار المجنون.

أطلقنا تسمية فترة الأزمة على حكم المتطرفين. لم تصل الثورة الأميركية إلى هذه الفترة، على الرغم من إمكان ملاحظة الكثير في أميركا من ظواهر الإرهاب كما في المجتمعات الثلاثة الأخرى في التعامل مع الموالين لبريطانيا وفي الضغط لدعم الجيش وفي بعض مراحل الحياة الاجتماعية. ولا يمكننا هنا محاولة تناول المسألة المعقدة لماذا لم تصل الثورة الأميركية إلى مرحلة الأزمة ولماذا لم يطوح أبداً بالمعتدلين في أميركا أو على الأقل طوح بهم عام 1800 فقط. ولا بد من تكرار أننا نكتفي بمحاولة تثبيت حالات تماثل معينة في الوصف ولا نحاول تقديم سوسيولوجيا كاملة للثورة.

يساعد المتطرفين بلا ريب وجود ضغط شديد نحو الحكومة المركزية الثورية وهو أمر لا يتمكن المعتدلون عموماً من تأمينه بينما المتطرفون قادرون ومستعدون لفرض المركزية بفضل انضباطهم واحتقارهم أنصاف الإجراءات واستعدادهم لاتخاذ قرارات حازمة وتحررهم من هواجس الريبة. وفي فرنسا وروسيا خصوصاً حيث هدد أعداء أقوياء أجانب وجود الأمة كان جهاز

الحكومة أثناء فترة الأزمة مبنياً جزئياً ليعمل بوصفه حكومة دفاع وطني. غير أنه على الرغم من أن الحروب الحديثة، كما نعرفها في أميركا، تتطلب مركزية السلطة، لا يبدو أن الحرب وحدها تفسر كل ما حدث في فترة الأزمة في تلك البلدان.

يمكن تلخيص ما حدث فعلاً بشيء من التبسيط كما يلي: مركزية السلطة الطارئة في إدارة ما، عادة في شكل مجلس أو لجنة، تحت هيمنة "رجل قوي" من مثل كرومويل، روبسبير، لينين، أو حكومة بدون أية حماية فعلية لحقوق الفرد المدنية العادية - أو إذا بدا ذلك غير واقعي، خصوصاً بالنسبة لروسيا، لنقل حياة الفرد الخاصة العادية، تشكيل محاكم استثنائية وشرطة ثورية خاصة لتنفيذ مراسيم الحكومة وقمع كل الأفراد المعارضين أو المجموعات المعارضة. أقيم كل هذا الجهاز في النهاية من مجموعة صغيرة نسبياً - المستقلين، اليعاقبة، البلاشفة - تمارس احتكار كل العمل الحكومي. أخيراً يصبح العمل الحكومي جزءاً أكبر كثيراً من النشاط البشري في تلك المجتمعات في حالتها العادية: يقام هذا الجهاز الحكومي ليعمل على نحو مختلف في جبال وتلال الحياة الإنسانية - يستخدم لتفحص وتدقيق الزوايا التي يحتفظ بها عادة للقس أو الطبيب أو لصديق ويستخدم لتنظيم وتخطيط إنتاج الثروة الاقتصادية وتوزيعها على نطاقٍ وطني.

يفسر تفشي عهد الإرهاب في فترة الأزمة جزئياً بوجود ضرورات ضغوط الحرب والصراعات الاقتصادية علاوة على متغيرات أخرى. غير أن من المرجح تفسيره كذلك جزئياً بوصفه مظهر جهد لتحقيق غايات أخلاقية ودينية قوية في العالم. تتصرف المجموعة الصغيرة من الثوريين المتسمين بالعنف الذين يشكلون نواة كل العمل أثناء عهد الإرهاب كما يتصرف الأفراد سابقاً تحت تأثير العقيدة الدينية النشيطة. سعى المستقلون واليعاقبة والبلاشفة جميعاً إلى جعل كل العمل البشري هنا في العالم متوافقاً مع نمط مثالي يبدو، مثل كل الأنماط كهذا، متأصلاً على نحو عميق في مشاعرهم. وثمة تماثل لافت في كل هذه الأنماط هو زهدهم، أو إن شئت إدانتهم لما قد يسمونها الرذائل الصغرى علاوة على

الرذائل الكبرى. غير أن هذه الأنماط جوهرياً متشابهة كثيراً وكلها تشبه على نحو وثيق ما يمكن تسميته أخلاقاً مسيحية تقليدية. بذل المستقلون واليعاقبة والبلاشفة، على الأقل أثناء فترة الأزمة، حقاً جهداً لفرض سلوك متماثل تماماً مع هذه القواعد أو الأنماط. إن جهداً من هذا القبيل يعني قمعاً شديداً للكثير مما اعتاد الكثيرون اعتباره عادياً. إنه يعني نوعاً من التوتر الشامل الذي لا يشعر به الفرد العادي أبداً أنه محمي بالأنماط الروتينية المتواضعة التي شكل منها: إنها تعني أن الشبكة المعقدة ما قبل الثورة للتفاعلات المعتادة بين الأفراد - شبكة ما تزال للقليلين المكرسين لدراستها الذكية لغزاً كاملاً تقريباً - هذه الشبكة ممزقة مؤقتاً. ويبقى رجل الشارع الرجل العادي يتخبط.

وصلنا تقريباً إلى النقطة التي نوشك عندها على الاعتقاد أن مخطط المفاهيم الذي وضعناه أكثر من مجرد شيء ملائم وأنه يصف "الواقع" على نحو ما. يبدو المريض المشترك لدى الأزمة عديم الحول يشق طريقه خلال هذيان. غير أنه لابد من محاولة تجنب النداء المجازي المهتاج ونركز على توضيح ما يبدو أنه قادر على أن يكون نقطة مهمة حقاً هنا. إن معظمنا على اطلاع حسن على الاستعارة المحافظة: يهدم الثوري العنيف الصرح النبيل الموجود في المجتمع أو يحرقه ثم يفشل في بناء صرح آخر ويترك الناس المساكين عراة للسماء. هذه ليست استعارة جيدة إلا ربما لأغراض الدعاية المحافظة. إلا أن استعارة البناء كلها سيئة. حتى في ذروة فترة أزمة ثورية يبقى من البناء القديم أكثر من القسم المدمر. ويمكننا بدلاً من ذلك أن نورد تشبيهاً من النظام العصبي البشري أو نفكر في شبكة معقدة للغاية من الاتصالات الكهربائية. يبدو المجتمع آنذاك نوعاً من شبكة تفاعلات بين الأفراد، تفاعلات مثبتة في أغلبها بالعادات وهي متصلبة وربما موقرة كشعار ومبجلة في المعنى والجمال بالأجزاء المجدولة بإتقان للتفاعل كالقانون واللاهوت والميتافيزيقيا وعقائد نبيلة مشابهة. يمكن أحياناً فصل الكثير من الأجزاء المجدولة للعقائد النبيلة وحتى بعض أجزاء العادات والتقاليد وإضافة غيرها. ويبدو أن عملية من هذا القبيل قد حدثت أثناء فترة الأزمة في الثورات الأربع. إلا أن الشبكة

الكاملة نفسها لم تتغير على نحو فجائي وواسع ويبدو أنه حتى المعتقدات النبيلة تتناسب مع الشبكة في الأماكن نفسها. إذا قتلت كل الناس الذين يعيشون ضمن الشبكة فإنك لا تغير الشبكة كثيراً طبعاً وأنت تدمرها. إن هذا النوع من التدمير ما يزال نادراً في التاريخ البشري. ولم يكن هنالك في أي من الثورات الأربع حتماً نهج قريب جداً منه.

ما حدث تحت وطأة ضغط الصراع الطبقي والحرب والمثالية الدينية والكثير غيره هو أن المسارات الخفية والغامضة التي يتبعها الكثير من التفاعلات في الشبكة قد كشفت فجأة وأصبح المرور خلالها صعباً في خضم الدعاية غير المألوفة والوعي الذاتي. سدت مسارات التفاعلات الأخرى واستمرت التفاعلات مع أشد الصعوبات بكل أنواع التحول عن الطريق المباشر. وأصبحت مسارات التفاعلات الأخرى مرتبكة وقصيرة الدوائر ومتشعبة في طرائق غريبة. أخيراً، تضمنت طموحات قادة الثورة المتطرفين محاولة خلق عدد كبير من التفاعلات الجديدة. وعلى الرغم من أن هذه التفاعلات الجديدة في الغالب أثرت بخاصة في ما أطلقنا عليها تسمية المعتقدات النبيلة - القانون، الفقه، الميتافيزيقيا، الميثولوجيا، المأثورات الشعبية (الفولكلور)، والأفكار التجريدية قوية التأثير عموماً - فقد تغلغل بعضها على المستوى التجريبي إلى الجزء الأكثر غموضاً والأقل تبجيلاً من شبكة التفاعلات بين البشر ومارست المزيد من الضغط عليها. لا عجب حتماً أنه في ظل هذه الظروف تصرف الرجال والنساء في فترة الأزمة كما لا يتصرفون عادة وفي فترة الأزمة يجب ألا يبدو شيء كما هو المعتاد ويبدو حقاً مقطع مشهور كتبه ثوسيديدز(*) كتب قبل ألفي سنة من الثورات الأربع تقريراً طبياً سريرياً:

> عندما بدأت الاضطرابات في المدن حمل من تبعوها الروح الثورية أبعد فأبعد وقرروا التغلب على كل من سبقوهم من خلال ابتكار

(*) ثوسيديدز (445 - 400 ق.م.) أبرز المؤرخين الإغريق وأول من ألف تاريخاً على النمط العلمي.

الأساليب وقسوة انتقامهم. ولم يعد لمعنى هذه الكلمات العلاقة نفسها بالأشياء وغيروها كما اعتبروه مناسباً. عد التهور شجاعة مخلصة، وكان التأخير الحذر عذر الجبان، وكان الاعتدال قناع الضعف غير اللائق بالرجل، وكانت معرفة كل شيء تعني عدم فعل أي شيء. وتعني الطاقة المسعورة الصفة الحقيقية للإنسان. كان المتآمر الذي يريد الأمان جباناً متخفياً ومحب العنف موثوقاً به دائماً وأعداؤه موضع شك. ومن نجح في مؤامرة عد عارفاً ومن كشف مؤامرة عد أعظم منه. ومن الناحية الأخرى من حرص من البداية على وجود صلة له بالمؤامرات هو محطم أحزاب ورعديد يخشى العدو. وباختصار من يبز غيره في عمل سيء يقابل بالإطراء وكذلك من يشجع على عمل الشر من لا فكرة لديه عنه. ... كانت رابطة الحزب أقوى من رابطة الدم لأن النصير أكثر استعداداً للعمل بدون السؤال عن السبب.

ونضيف هنا اقتباساً من مصدر أكثر تواضعاً، من زعيم تعاونية سيبيرية مغمور احتج على الإرهاب الأحمر والأبيض على حد سواء. نقل عنه السيد تشمبرلين ما يلي:

ونناشد المجتمع والمجموعات والأحزاب السياسية المتنافسة: متى تتخلص روسيا التي عانت كثيراً من الكابوس الذي يهددها ومتى تتوقف الوفيات بسبب العنف؟ ألا يتملككم الرعب إزاء مشهد استمرار تدفق الدم البشري؟ ألا تشعرون بالرعب إزاء الشعور بأن الأسس الأعمق والأكثر أساسية لوجود المجتمع البشري تتعرض للتدمير: الشعور بالإنسانية، الشعور بقيمة الحياة، الشعور بضرورة النظام القانوني في الدولة؟ ... اسمعوا صرختنا ويأسنا: نحن نعود إلى عصور ما قبل التاريخ، نحن على حافة موت الحضارة والثقافة، نحن ندمر القضية الكبرى للتقدم البشري التي كافحت من أجلها أجيال كثيرة من أجدادنا الشرفاء.

غير أن من المحتم أن أياً من الثورات الأربع لم تنته بموت الحضارة والثقافة. كانت الشبكة أكثر صلابة من القوى التي تحاول تدميرها أو تحويل مسارها، وفي كل المجتمعات الأربعة أعقبت فترة الأزمة النقاهة والعودة إلى معظم السبل الأبسط والأكثر أساسية التي اتخذتها التفاعلات في الشبكة القديمة.

وبشكل خاص تلاشت الرغبة الدينية الشديدة في الوصول إلى الكمال والحملة من أجل جمهورية الفضيلة ما عدا بين أقلية لم يعد ممكناً أن تقع أعمالها مباشرة في السياسة. وأصبحت العقيدة النشيطة الداعية إلى هداية الآخرين وغير المتسامحة والزاهدة والمؤمنة بالعصر الألفي الذي سيملك في المسيح على الأرض عقيدة غير فعالة وملتزمة ومتمسكة بالشعائر.

استعيد التوازن وانتهت الثورة. غير أن هذا لا يعني أنه لم يحدث تغيير. أسست بعض المسارات الجديدة والمفيدة في شبكة التفاعلات التي تصنع المجتمع، وأزيلت بعض المسارات القديمة وغير المناسبة وغير العادلة. ثمة شيء قاس في القول إن الأمر احتاج إلى الثورة الفرنسية لإنتاج النظام المتري وتدمير إتاوة السيد(*) والأمور الإقطاعية غير المناسبة الأخرى أو إن الأمر احتاج إلى الثورة الروسية لجعل روسيا تستخدم التقويم الحديث وإلغاء بضعة حروف عديمة الفائدة في الأبجدية الروسية. تبدو هذه النتائج الملموسة والمفيدة تافهة قياساً بأخوة البشر وتحقيق العدل في العالم. ولا يكاد دم الشهداء يبدو ضرورياً لتأسيس نظام العملة العشرية.

غير أنه لا حاجة لمن يشعرون أن الثورة بطولية أن يشعروا باليأس. التقليد الثوري بطولي والمعتقدات النبيلة التي تبدو ضرورية لكل المجتمعات هي في ديمقراطياتنا الغربية جزئياً نتاج الثورات التي ندرسها في هذا الكتاب. لقد شرع بها، حتى في روسيا، "حزب البشرية" على حد وصف بيتر غاي(**). لقد أحدثت الثورات الأربع إضافات هائلة وثمينة إلى فروع القانون واللاهوت والميتافيزيقيا وكذلك إلى علم الأخلاق، في المعنى المجرد. ولو لم تحدث تلك الثورات لكنا أنا وأنت ما زلنا نضرب زوجتينا أو نغش في لعب الورق أو نتجنب المشي تحت السلالم ولما كنا قادرين على الاستمتاع بامتلاكنا حقوقاً

(*) lods et ventes ضريبة كان يتقاضاها السيد عن بيع الإرث داخل ولايته في فرنسا.

(**) بيتر غاي مؤرخ أميركي يهودي للتاريخ الاجتماعي للأفكار ولد في برلين عام 1923 وهرب عام 1938 إلى كوبا وانتقل إلى أميركا عام 1941 ومنح الدكتوراه وتولى التدريس في جامعة ييل.

ثابتة معينة في الحياة والحرية والسعي لنيل السعادة أو الضمان المطمئن أن دفعة واحدة أخرى ستحقق المجتمع عديم الطبقات.

عندما يقارن المرء المسار الكلي لهذه الثورات تبرز حالات تماثل مؤقتة معينة. وإذا قورنت الثورة الروسية في نهاية السلسلة بالثورة الإنكليزية في بدايتها يبدو أن هنالك تطوراً في الأسلوب الثوري الواعي. وهذا واضح طبعاً خصوصاً منذ جعل ماركس تاريخ الحركات الثورية في الماضي إعداداً ضرورياً لثورات الزمن الحاضر. وتلقى لينين وأعوانه تدريباً في أسلوب التمرد الذي كان المستقلون واليعاقبة يفتقرون إليه. ويبدو روبسبير سياسياً ساذجاً عندما يقارن تدريبه الثوري بتدريب أي زعيم بلشفي جيد. ولابد من الاعتراف أن سام آدمز يبدو أقل سذاجة. والأرجح عموماً أن هذا الفرق في وضوح الإعداد الواعي للثورة، هذا النمو في الأدبيات الغزيرة للثورة، هذه الألفة المتزايدة مع الأفكار الثورية من أهم حالات التماثل التي من المحتم تسجيلها. إنها تماثل جلي إلا أنه ليس مهماً. ما تزال الثورات ليست شكلاً للعمل المنطقي. ولا يبدو أن البلاشفة قد وجهوا أعمالهم بالدراسة "العلمية" للثورات بدرجة يمكن تقديرها أكبر من المستقلين أو اليعاقبة. لقد تبنوا أسلوباً قديماً وفقاً لأيام التلغراف وقطارات السكة الحديد.

تشير الجملة الأخيرة إلى ميل واضح إلا أنه ليس مهماً للغاية في الثورات الأربع. لقد نشبت في مجتمعات متأثرة على نحو متزايد بالثورة الصناعية وكانت معرضة على نحو متزايد إلى تلك التغيرات في المقياس التي حملتها فتوحاتنا الحديثة في الزمن والفضاء إلى المجتمعات. وهكذا فقد أثرت الثورة الروسية تأثيراً مباشراً في ناس أكثر وفي أميال مربعة من الأرض أكثر من أي ثورات سبقتها. تضغط سلسلة أحداثها في أشهر قليلة ما استغرق حدوثه في إنكلترا عدة سنوات في القرن السابع عشر. وكان استخدامها آلة الطباعة والتلغراف والراديو والطائرات وبقية الأشياء كما يبدو مسألة منسقة، بالمقارنة مع الثورات الأخرى التي ندرسها هنا. غير أننا نشك مرة أخرى أن التغيرات من هذا الحجم بحد ذاتها عوامل مهمة. إن رغبات البشر هي نفسها، سواء يتجهون نحو إنجازها في

طائرات أو على ظهور الخيل. وربما الثورات أكبر هذه الأيام، إلا أنها ليست أحسن حتماً. وعلى الرغم من أن المتنبئين بالهلاك يرون خلافاً لذلك فإن مكبرات الصوت لا تغير الكلمات.

أخيراً، ولو على الرغم من مخاطرتنا بأن نكون مملين يجب العودة إلى بعض مشاكل الطرق المتبعة في العلوم الاجتماعية التي اقترحت في الفصل الأول. لا بد من الاعتراف أن النظريات وحالات التماثل، التي استطعنا طرحها على أساس مخطط المفاهيم الذي وضعناه، غامضة وغير مثيرة. ولو أنها ليست مثيرة للاهتمام إطلاقاً أو مفزعة مثل أفكار الثورة التي يعتنقها المرحوم جورج أورويل(*)، الذي اعتقد حقاً أن الزعماء المستبدين الثوريين قد تعلموا كيف يغيرون البشر إلى شكل مختلف تماماً عن آبائهم. على العكس من ذلك، حتى الروس الشيوعيون شرعوا باطراد يبدون مثل - الروس. لا يمكن التعبير عن حالات التماثل كمياً ولا يمكن استخدامها لأغراض التنبؤ أو السيطرة. غير أننا منذ البداية حذرنا القارئ من عدم توقع أكثر من اللازم. وحتى أن النظريات الغامضة من مثل انتقال ولاء المثقفين، ودور القوة في مراحل الثورة الأولى، والدور الذي تؤديه الحماسة "الدينية" في فترة الأزمة، والسعي وراء المتع أثناء ثرميدور، هي، كما يأمل المرء، ليست بلا قيمة في دراسة البشر في المجتمع. إنها بحد ذاتها غير مهمة إلا أنها تشير إلى إمكانيات معينة في المزيد من البحث.

إنها تشير في المقام الأول وبسبب نواقصها إلى ضرورة إجراء المزيد من المعالجة الصارمة للمشاكل التي تنطوي عليها والتي تتحدى من يجدونها ناقصة وغير مرضية لتولي القيام بعمل أفضل. وثانياً، إنها تخدم الغرض من كل المقاربات الأولى في العمل العلمي - إنها تشير إلى الحاجة إلى المزيد من دراسة الحقائق، خصوصاً في تلك المجالات حيث تكشف محاولة القيام

(*) جورج أورويل (1903- 1950) روائي إنكليزي عرف بعدائه للاستعمار والشيوعية معاً وبجزعه على الحرية من استبداد الطبقة الحاكمة. أشهر آثاره الساحرة مزرعة الحيوان (1945).

بالمقاربات الأولى عن تزويد غير كاف للحقائق الضرورية. هنا لاسيما الحقائق من أجل القيام بدراسة الخصومات ناقصة على نحو مثير للأسى. وينطبق الحال كذلك على الحقائق اللازمة لدراسة انتشار النخبة في مجتمعات ما قبل الثورات. إلا أن ثمة مائة فجوة من هذا القبيل ويمكن سد بعضها حتماً. وستقود مقارباتنا الأولى إلى الطريق للمقاربات الثانية. يجب ألا يوجه العالم المزيد من الأسئلة ولو أن الجمهور يفعل ذلك.

3- مفارقة الثورة

ستظهر حالات تماثل أوسع، إذا قدرنا اعتماداً على ماضي العلم، في يوم ما من دراسات أكثر اكتمالاً في علم اجتماع الثورات. أما هنا فلا نجرؤ على المخاطرة بالكثير مما لم نتوصل إليه في سياق تحليلنا لأربع ثورات معينة. وفي النهاية كل هذا مجرد أربع ثورات لما يبدو أنه النوع نفسه، ثورات في ما يمكن وصفه على نحو غير نقدي التقليد الديمقراطي. إن كلمة "ثورة" هي كلمة ثمينة للكثيرين في هذا التقليد، لاسيما للماركسيين، بحيث أنهم يرفضون غاضبين تطبيقها على حركات من مثل تولي موسوليني أو هتلر السلطة بدون إراقة دماء نسبياً ولو على نحو عنيف وغير مشروع. يقال لنا إن هذه الحركات لم تكن ثورات لأنها لم تتسلم السلطة من طبقة ولم تسلمها إلى طبقة أخرى. ومن الواضح أنه يمكن لعب كل أنواع الحيل بكلمة غير دقيقة في بعض النواحي مثل كلمة "ثورة". غير أنه في الدراسة العلمية للتغير الاجتماعي يبدو من الحكمة تطبيق كلمة الثورة على تطويح الفاشستيين بنظام حكم برلماني شرعي وراسخ. وإذا كان الأمر كذلك فإن الثورات الأربع من نوع واحد ويجب ألا نحاول جعلها تحمل ضغط التعميم المقصود تطبيقه على الثورات كافة.

إلا أننا لسنا في حاجة إلى إنهاء الكتاب بنبرة شديدة الارتياب العقيم. ويبدو من دراسة هذه الثورات أنه يمكن وضع ثلاثة استنتاجات: أولاً، على الرغم من الفروق المثيرة التي لا تنكر ثمة حالات تماثل بسيطة ومؤكدة من النوع الذي حاولنا ضمه معاً تحت مخطط المفاهيم الشبيه بالحمى. ثانياً، تشير

هذه الثورات بقوة إلى ضرورة دراسة أفعال الأفراد وكلماتهم بدون افتراض وجود صلة بسيطة ومنطقية دائماً بين الأفعال والكلمات لأنها في كل مساراتها، لاسيما أثناء الأزمات، كثيراً ما تعرض أفراداً يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر. ثالثاً، إنها تشير عموماً إلى أنه لا يمكن إطلاقاً تغيير الكثير من الأشياء التي يفعلها الرجال والكثير من العادات والمشاعر والنزعات البشرية على نحو سريع، وأن محاولة بعض المتطرفين تغييرها من خلال القانون والإرهاب والوعظ تفشل، وتعيدها النقاهة بدون تغيير كبير.

إلا أن تعميماً رئيسياً واحداً يربط معاً هذه الثورات الأربع يمكن وضعه هنا من توقعات كثيرة في الصفحات السابقة من هذا الكتاب. تبين هذه الثورات الأربع قدراً متزايداً من الوعود لـ "المواطن العادي" - وعود غامضة من مثل "السعادة" الكاملة" وقوية من مثل الإشباع التام لكل الحاجات المادية مع كل أنواع الانتقام العذب في الطريق. الشيوعية هي مجرد الحد الحالي لهذه المجموعة المتزايدة من الوعود. وليست مهمتنا هنا أن نشجب أو نحتج بل تولي التسجيل وحده. لم تنجز حتى الآن هذه الوعود في شكلها المتطرف. كان إطلاق الوعود أصلاً جرحاً لمشاعر المسيحي التقليدي، الإنساني، وربما حتى الإنسان ذي الإدراك السليم. غير أن الوعود تطلق، ربما على نحو أقوى حالياً في الصين وجنوب شرقي آسيا والشرق الأدنى حيثما الشيوعية ما تزال عقيدة فتية ومفعمة بالنشاط. ولا يكفي أن نكرر نحن معشر الأميركيين أن الوعود مستحيلة التحقيق ويجب ألا تطلق. ومن الحماقة أن يبلغ الأميركيون العالم أنهم يستطيعون تنفيذ هذه الوعود، لاسيما لأنهم لم ينفذوها في بلادهم. الثورة ليست حمى تستجيب لعلاجات بريئة وخادعة كهذه. يجب أن نقبلها فترة ما، على الأقل، بوصفها سرطاناً غير قابل للشفاء.

أما ما يخص الخبرة التي تمنحها ثورة ما إلى المجتمع الذي يمر بتلك الخبرة فإننا لا يمكن أن نضع هنا استنتاجات على نحو واسع بدون التجاوز على ميادين أوسع في التاريخ وعلم الاجتماع. غير أنه يبدو أن المريض يتعافى من الحمى وهو أقوى في بعض النواحي ومحصن بهذه الطريقة من إصابات قد

تكون أكثر خطورة. إنها لحقيقة ممكنة الملاحظة أنه هنالك عقب الثورات في المجتمعات الأربعة جميعاً ازدهار وذروة للمنجزات الاجتماعية المختلفة. وقد لا نؤول أخلاقياً أكثر مما ينبغي بشأن سخافات الثورات وقسوتها وقد لا نرفع أكفنا هلعين. وربما تظهر دراسة أوسع أن المجتمعات الضعيفة والمتدهورة لا تشهد ثورات وأن الثورات هي علامة قوة وفتوة في المجتمعات.

قد يخرج إنسان من مكتبه ليس غير متأثر حقاً بقدر كبير من الهلع والاشمئزاز، بل وهو يشعر كذلك بالإعجاب للقوة العميقة التي لا يمكن سبر غورها في البشر التي، بسبب الدلالات الأكثر رقة للكلمة، يتردد في تسميتها روحية. لقد شاهدها وشعر بها مونتين قبل زمن طويل(*):

> لا أرى عملاً واحداً أو اثنين أو مائة عمل بل حالة مقبولة عموماً من الأخلاقية غير الطبيعية للغاية، لاسيما ما يتعلق بالقسوة والخداع، وهما في رأيي أسوأ الخطايا حتى أنني لا أملك التفكير فيهما بدون الشعور بالهلع، وهي تجعلني أتساءل بقدر المقت الذي أحس به. تتسم ممارسة هذه النذالة الفظيعة بقوة ونشاط الروح شأنها شأن الخطأ والفوضى.

يروي بيركمان(**) الفوضوي الذي مقت الثورة الروسية قصة ربما تمثل تحيزه الشخصي إلا أنها قد تكون استنتاجاً رمزياً موجزاً لهذه الدراسة. يقول بيركمان إنه سأل بلشفياً جيداً من معارفه أثناء فترة محاولة إكمال إضفاء النزعة الشيوعية تحت حكم لينين لماذا لم يتم تأميم عمل سائقي سيارات الأجرة المشهورين في موسكو الذين واصلوا الحصول على مبالغ ضخمة بالروبلات

(*) ميشيل دو مونتين (1533- 1592) أحد أكثر كتاب عصر النهضة الفرنسيين تأثيراً. جعل المقالة في متناول مدارك الجمهور واشتهر بمؤلفه المقالات وأثر تأثيراً مباشراً في ديكارت وامرسن وزفايغ ونيتشه وروسو وربما شكسبير.

(**) الكساندر بيركمان (1870-1936) كاتب روسي- أميركي وزعيم حركة فوضوية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وكان عشيق وشريك ايما غولدمان الفوضوية الليثوانية المولد وسجن 14 عاماً لاتهامه بمحاولة اغتيال وتم ترحيله أثناء الحرب العالمية الأولى مع غولدمان وواصل التأليف والخطابة وتوفي في باريس.

الورقية لقاء خدماتهم شأنهم شأن كل شيء آخر. فأجاب البلشفي: "لقد وجدنا أننا إذا لم نطعم البشر فإنهم يبقون يحيون نوعاً ما. أما إذا لم نطعم الخيول فتموت هذه الحيوانات الغبية. لذا لم نؤمم عمل سائقي سيارات الأجرة". هذه ليست قصة تبعث على السرور تماماً وقد يأسف المرء في بعض النواحي للقدرة البشرية على العيش بدون طعام. إلا أنه واضح أننا إن كنا أغبياء - أو ذوي حس - كالخيول فيجب ألا تحدث ثورات.

الخاتمة: 1964

لم تقلل السنوات الثلاثون التي انقضت منذ اتخاذ هذا الكتاب شكله بوصفه محاضرات لويل أهمية موضوعه. نحن أبعد مما كنا في عقد الثلاثينيات عن الآمال المتجسدة في الشعار الفكتوري "تطور، لا ثورة". إن العبارات من مثل "الثورة العالمية النطاق" هي واقع بسيط حالياً وليس مجرد قوالب نمطية في الصحافة. وأكثر من نصف الدول الأعضاء التي يزيد عددها عن مائة دولة في منظمة الأمم المتحدة هي إما من خلق نوع ما من العمل الثوري أو أنها قامت لأن حكامها رأوا من المناسب التسليم بالمطالب التي ألهمتها ثورات ناجحة في أماكن أخرى. وقد تضخم هذا العدد إحصائياً بمنح الاستقلال بدون ثورة عنيفة إلى الكثير من المستعمرات السابقة للدول الغربية. إلا أن من الواضح أن العنف في الهند والشرق الأدنى والجزائر وكينيا وإندونيسيا وغيرها قد أطلق أفعال التحرير هذه. ووصلت إلى المكسيك وكوبا جارتي الولايات المتحدة الثورة الاقتصادية الحقيقية، التي هي ليست إطلاقاً "الثورة الاجتماعية-الأميركية اللاتينية"، القديمة الطراز التي كانت قريبة من ثورة القصر أو ثورة الحريم. وفي الحقيقة بدأت كل الثورات الأميركية اللاتينية تبدو جادة حالياً.

الولايات المتحدة في الوقت الحاضر من أقدم الحكومات المستقرة بعد نحو مائتي سنة على ثورتها الناجحة ومر أكثر من قرن على ثورتها الفاشلة. لقد خلفت تلك الثورة الفاشلة، كما نعرف الآن، بدون حل مشكلة ضخمة حقاً. غير أنه على الرغم من أن "الثورة" الزنجية الأميركية في العقد السادس من القرن العشرين تستحق الاسم في بعض المعاني، وعلى الرغم من أنها تكشف

بعض حالات التماثل التي توصلنا إليها في الثورات الأربع، فهي ليست حركة تهدف إلى التطويح بحكومتنا - "نظامنا القديم" - وإحلال نظام آخر محله. إن الولايات المتحدة، على الرغم من عنف الخلافات وعلى الرغم من مخاوف المحافظين بشأن المؤامرات الشيوعية وعلى الرغم من مشاعر القلق لدى المثقفين، تبدو مثل مجتمع مستقر غير مرجح نشوب ثورة حقيقية فيه. وحتى في عقد الثلاثينيات بوجود ستة عشر مليون عاطل عن العمل فإن أقرب عنف فعلي وصلنا إليه كان ما حدث في الغرب الأوسط والمسيرة الباعثة على الشفقة للمحاربين القدماء المتقاعدين إلى المخيم المؤقت في جزيرة أناكوستيا في واشنطن.

سبقت الإشارة كتماثل واضح في الثورات الأربع إلى أنه حالما تنجح الثورة ويثبت النظام الجديد أقدامه حتى تتغير ظلال معنى كلمة "ثورة" في ذلك المجتمع. وتصبح الثورة

الأصلية جزءاً من التاريخ - "التاريخ الخطابي" كما دعاه كرويي(*) - محترم وميت، غير أن الثورات الراهنة تصبح تهديدات وشائنة وأهداف إدانة. وينطبق هذا على نحو واضح على الثورتين الأميركية والفرنسية. أصبحت إنكلترا مستقرة للغاية وملتزمة بالقوانين في القرن التاسع عشر بحيث أنه حتى الثورة الإنكليزية في العقد الرابع من القرن السابع عشر لم يسبغ الاحترام عليها مثلما فعلت منظمة بنات الثورة الأميركية(**) وكان الإنكليز في العهد الفكتوري يشعرون بالخجل الشديد من إعدام الملك تشارلز حتى أنهم حاولوا، ولو أنهم لم ينجحوا تماماً، نسيان المسألة كلها.

ألفنا هذا التاريخ، كما يأمل المرء، بدون مرارة وفي الحقيقة بدون نية

(*) بنيديتو كروشي (1866- 1952) ناقد وفيلسوف وسياسي ومؤرخ إيطالي أثر تأثيراً عميقاً في الفكر الجمالي في النصف الأول من القرن العشرين وفرضيته الرئيسية أن الفن حدس.

(**) بنات الثورة الأميركية منظمة نسائية أميركية تكرس جهودها لصيانة الآثار ودعم النزعة الوطنية في الولايات الأميركية كافة ولها فروع في دول أخرى.

متصفة المفارقة. ويبدو صحيحاً أن الأميركيين التقليديين - معظمهم - يجدون حالياً أن المشاعر التي يثيرها مفهوم "الثورة" تثير النفور، ويرون أن الكلمة متسمة بالازدراء وليس المدح. المسألة ليست بسيطة للغاية ويحمل الأميركيون العاديون مشاعر متناقضة نحو الثورة الحالية في أرجاء العالم.

إنهم ضد الدول "الاستعمارية" القديمة ويؤيدون شعوب المستعمرات التي ثارت ضد سادتها. وهم يساندون عموماً المظلومين ما لم يشرع المظلومون بمهاجمتهم. الأميركيون "يؤمنون" حقاً بالديمقراطية ويعرفون على نحو طبيعي كاف الديمقراطية بطريقتهم الخاصة ويودون رؤية الناس في بقية العالم يفعلون الشيء نفسه كذلك.

لنر كيف تبدو المسألة إلى اللامنتمي. نشر آرنولد توينبي مؤخراً سلسلة محاضرات بعنوان أميركا والثورة العالمية وتفسر العناوين المنفصلة للمحاضرات فرضيته: "الطلقة النارية المسموعة حول العالم"، "عائق الوفرة"، "هل تستطيع أميركا إعادة الارتباط بثورتها؟" يرى توينبي أن الأميركيين شرعوا في لكسنغتن وكونكورد بثورة ديمقراطية لتحقيق العدالة الاجتماعية لكل الناس، وقد فقدنا كمجتمع ثري وناجح الصلة حاليا بالأعداد الكبيرة من الناس في بقية العالم الذي ما تزال تحركه أصداء تلك الطلقة الشهيرة، "بمبادئ 1776 و 1789". لابد أن نستعيد الاتصال بها وإلا نفقد تعاطف البشرية معنا ونضيع موجة المستقبل. ويقول توينبي في مجاز مميز - وحتماً مضلل نوعاً ما - إن على الأميركيين الآن الاختيار بين أداء دور مترنيخ وبين أداء دور ماتزيني(*).

إن توينبي يبسط الأمور طبعاً. إلا أن موقفه قريب من الرأي "الليبرالي" في الغرب وليس متطرفاً مثل موقف أعداء أميركا المتطرفين، الشيوعيين والمحايدين، الذين يرون أننا اخترنا القيام بدور المدافع عن الطبقات المالكة، الأنظمة القديمة، في أرجاء العالم. وفي العلاقات الدولية أكثر من العلاقات

(*) ماتزيني (1805- 1872) ثائر وبطل قومي إيطالي كافح من أجل توحيد إيطاليا ذات نظام جمهوري.

الشخصية فإن رغبة بيرنز(*) أن نتمكن من رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون بعيدة التحقيق. ويرى معظم الأميركيين أن دورهم في السياسات الدولية هو دور دعم المحرومين، ضحايا الاستعمار، من يريدون تحقيق الطريقة الديمقراطية الجيدة في الحياة. وقد اقتربوا من أداء هذا الدور أكثر مما يقر أمثال توينبي ورسل وسارتر. غير أن الحقيقة تبقى أننا نوصف في العالم الخارجي بأننا معادون للثورات، ليس الثورة الشيوعية أو الثورة الفاشستية فحسب بل كل أنواع الثورات.

إن هدفنا هنا هو الدعوة إلى ما يشبه دعوة توينبي. الولايات المتحدة دولة مستقرة وغنية ووارثة المركز غير الآمن أبداً في قمة تدرج السلطة الدولي الذي كانت تحتله بريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر. إن ما يمكننا فعله محدود في الأقل، إن لم "نقر" في أي معنى - ماركسياً، كالفينياً، وضعياً أو وضعياً جديداً - بذلك الموقف. إلا أننا يمكن أن نحاول تجنب أن نصبح مترنيخ جماعياً. نستطيع أن نحاول أن نفهم قدر الإمكان الثورة العالمية - أو الثورات العالمية في عصرنا.

كلا الثورة العالمية أو الثورات العالمية مقبولة هنا. يرى المؤرخ المستعد لتمييز حالات التماثل علاوة على الاختلافات أن القرون الأربعة أو الخمسة الماضية شهدت ثورة طويلة واحدة. وفي دراسة مثيرة للاهتمام للتكتيكات الشيوعية في الصراع الحالي من أجل القوة بعنوان الشيوعية والثورة: الاستخدامات الاستراتيجية للعنف السياسي يكتب البروفسور سيريل بلاك(**) عن ثورة رئيسية بدأت في العصور الوسطى في أوروبا الغربية والجنوبية وهي حالياً على نطاق واسع. وهو وزملاؤه مستعدون في هذه الدراسة للاتفاق على اسم

(*) روبرت بيرنز (1759- 1796) شاعر اسكتلندا الوطني ورائد الحركة الرومانسية نظم بلغة الاسكتلنديين (الغيلية) وبالإنكليزية وأصبح مصدر إلهام لمؤسسي الليبرالية والاشتراكية.

(**) سيريل بلاك (1916- 1989) أستاذ التاريخ الحديث في جامعة برنستن الأميركية طوال 50 عاماً.

ملتبس لهذه الثورة هو "التحديث" على الرغم من أنهم يشيرون إلى أن هذه التسمية "معروفة كذلك بأنها أوروبة، تغريب، تحول اجتماعي، ثورة التوقعات الصاعدة". وربما أضافوا تسميات أخرى من مثل "أمركة" (وهي تسمية يطلقها عادة، على سبيل المثال، المثقفون الفرنسيون، الذين يكرهون معظم التغييرات الواسعة التي تحدثها هذه الثورة) أو "الثورة العلمية والتكنولوجية" أو "البحث عن العدل الاجتماعي" أو حتى "ثورة الجماهير".

يضيف معظم هذه التعبيرات شيئاً إلى معرفتنا عن هذه الثورة المعقدة- وفي منظور التاريخ وما قبل التاريخ، السريعة والشاملة. إن من غير المفيد لنا محاولة تحقيق تعريف أكثر دقة. ومن حيث التحليل الفكري لا يمكن وضع تعريف بسيط. وكرمز شفهي قصير لم يكن هنالك أفضل من شعار "الحرية، المساواة، الإخاء" أو شعار أطول أفضل من ديباجة جيفرسن لإعلان الاستقلال الأميركي. طوال سنوات طويلة وخصوصاً حالياً عندما يحتكم كلا الجانبين إليه تكون "الديمقراطية" مصطلحاً جيداً للغاية.

يجب أن يذكرنا هذا المصطلح بأن هنالك ثورات مكونة مختلفة للغاية ضمن هذه الثورة الرئيسية. وعلى الرغم من أن الثورة الروسية احتكمت إلى "الديمقراطية"، وعلى الرغم من كونها على نحو أكثر وضوحاً "ثورة توقعات صاعدة"، فإنها مختلفة تماماً عن ثورة غاندي في الهند وعن الثورتين الأميركية والفرنسية. وعلى الرغم من أن الثورتين المكسيكية والكوبية استندتا إلى مبادئ جماعية أو اشتراكية، فإنهما مختلفتان للغاية. نادراً ما تقارن ثورتان إلا أن الثورتين الايرلندية والجزائرية متشابهتان كثيراً، غير أن من السخف الإنكار أن الكثير في كل منهما غير موجود في الأخرى. تتباين حقاً كل أنواع المتغيرات- الوقت، المكان، الشخصيات، حالة السياسات الدولية، وأمور كثيرة أخرى، حتى الجو. وما يزال القليل من اليعاقبة الفرنسيين الذين يعتقدون أنه لولا هطول أمطار غزيرة في ليلة 27 تموز/يوليو 1794 لأنقذ الباريسيون بدون السراويل روبسبير. ولما كانت حتى الثورة الكوبية قد أصبحت تاريخاً على نحو جزئي

هنالك في الثورات كافة المتغير الفظيع وهو الشك التاريخي. يرى بعض المؤرخين أنه لم تكن هنالك أمطار غزيرة في باريس في ليلة 27 تموز/يوليو 1794. أخيراً، هنالك دائماً، حتى نحصل على العلم الكلي، ما يجب أن نسميه مصادفة، وخصوصاً المصادفة التي تضع شخصاً في مكان شخص آخر في مركز رفيع. ولو أن بن بيلا كان قد توفي في سجن فرنسي بدلاً من تحسين ثقافته بقراءة الكتب الكلاسيكية التي تتناول الثورة لما اتخذت الثورة الجزائرية حتماً المسار نفسه الذي اتخذته.

على الرغم من كل هذه الاعتبارات يبقى لهذا المؤلف فيما يبدو بقية من حالات التماثل التي سعينا إلى تمييز بعضها مما نعرفه عن الثورات الأربع ومما ينطبق على عالم عقد الستينيات. تماثل معين يستحق تأكيداً خاصاً لأن تياراً قوياً للغاية في الرأي العام الأميركي يميل إلى رفضه أو، على أية حال، لا يوليه الأهمية التي يستحقها. ولأسباب يمكن للمؤرخ وعالم اجتماع المعرفة متعاونين المساعدة في التفسير ، يعتقد معظم الأميركيين أن المظلومين يشرعون بالثورات وينفذونها ضد أصحاب السلطة. وهذا بحد ذاته صحيح ولو أنه تافه. غير أنهم يعدون المظلومين معدمين، محرومين من الحصول على الحاجات المادية البسيطة نسبياً، مضطهدين، مستعبدين، بدون تعليم (الذي حرمهم سادتهم منه)، أقوياء في عددهم فحسب. ثمة مبالغة في ما ورد أعلاه طبعاً. وقد نطرح المسألة على نحو أكثر إنصافاً إذا قلنا إن الأميركي، وارث واقعية القرن الثامن عشر المتفائلة، يميل إلى تأكيد الدافع العقلاني والفردي وتقليل الدوافع من مثل الكبرياء، الحسد، "احترام الذات المجمع" للنزعة القومية، إذا لم نقل شيئاً عن المثالية الدينية والأخلاقية، الرغبات الشديدة الرومانسية، روح الفريق، وكل المخزون غير المحدود من قدرات الجنس البشري. والنتيجة هي المبالغة الخطيرة في التبسيط التي يدعوها كتاب الأعمدة الصحفية الاهتمام المتكرر، أي إذا تمكنا من منح مساعدات اقتصادية كافية إلى الدول التي تحتاج إليها يمكن جعلها قادرة على مقاومة الثورة، ممتنة، مسالمة - على الأقل نحونا - ومستقرة.

الأرجح في المدى البعيد أن مجموعات كبيرة من الناس الحاصلين على الطعام والملابس والسكن والتسلية على نحو مناسب لا يحتمل أن يشاركوا في الثورة. لنتأمل أنفسنا في اللحظة الراهنة. إلا أنه كما هو العالم حالياً، يجب أن نبحث في المدى القصير وفي المدى القصير ثمة مجموعات كبيرة من الناس الذين يشعرون أنهم ليسوا في بحبوحة من العيش كما يشعرون أنهم يجب أن يكونوا ويمكن أن يكونوا - فكر لو كنت عقلانياً جيداً. ربما من الممكن، على الرغم من الانفجار السكاني، توفير الطعام الكافي لبليون أو بليوني نسمة يقال لنا إنهم لا يحصلون على الطعام الكافي. وقد نأمل أن أصحاب النية الحسنة العاملين من أجل ذلك الهدف سيحققون تقدماً حقيقياً. إلا أننا بالرجوع إلى الحكاية من ألكساندر بيركمان التي اختتمنا بها أصلاً هذا الكتاب (الفقرة الأخيرة في نهاية الفصل التاسع)، على الرغم من أن تأمين الطعام تماماً يهدئ معظم الوحوش، لا ينطبق ذلك على الجنس البشري. يحتاج الإنسان إلى أكثر بكثير من ملء معدته إذا أريد منه التصرف كمواطن مسالم ومنتج وملتزم بالقانون. وفي الواقع - وهذا هو التماثل الذي يجب على الأميركيين إدراكه إذا أرادوا التكيف لعالم لا يمكننا إعادة صنعه تماماً - إذا كانت معدة المواطن ممتلئة تماماً أو نصف ممتلئة ولديه مظلمة، وشعور بمعاملته على نحو لا يستحقه وظالم، إذا ألهمه شيء ما في نفسه ذلك الشعور الذي لا يبدو أن أي حيوان آخر يستطيع تحمله، الشعور بالسخط المعنوي، فإنه سيتمرد أو بالأحرى سيصنع ثورة وليس مجرد تمرد.

السخط المعنوي، خلافاً للشهية الطبيعية المجردة، صعب التهدئة حقاً. يجب أن تسمع ماري انطوانيت حية وميتة وصمة مقولة "ليتناولوا الكعك"، ولو أنها ربما لم تنطق بتلك العبارة. وسيتقاسم الأميركيون طويلاً، على الرغم من أنه ربما لم يكن لأي أميركي دور في المسألة، وعلى الرغم من عدم وجود اللافتة حقاً، اللوم على تلك اللافتة في حديقة بشنغهاي "لا يسمح بدخول الكلاب والصينيين". نحن نشاطر اللوم باستحقاق أو بدون استحقاق في العالم

برمته - ومرة أخرى، على الرغم من نوايانا الحسنة المتكررة وحتى إنجازاتنا الجيدة - بسبب مشاعر السخط لدى الأوروبي، غالباً بدون قصد، المفروضة على من كان يمارس الهيمنة في زمن ما.

باختصار شديد: لا يمكننا وقف هذه السلسلة من "ثورات التوقعات الصاعدة". ولا يمكننا حتى عمل الكثير لتسريعها في فترات أزماتها وتخفيف العنف وتوجيه مسارها نحو الديمقراطية الحقيقية. إلا أننا - قادتنا بدعم الرأي العام الذي نشأ على قدر معين من الصبر - نستطيع القيام بشيء أفضل مما فعلنا مع الثورتين الصينية والكوبية مثلاً. لا يمكننا التدخل لسحق ثورة لا نميل إليها، كما فعل الروس في المجر، إلا أننا نتمكن من تجنب أخطاء من مثل عملية خليج الخنازير. ولا يمكننا، كما يرغب أمثال توينبي، وضع أنفسنا على رأس ثورات من هذا القبيل. إلا أننا نتمكن من تجنب سياستنا الحالية القائمة على الصراخ مع الكلاب التي ترافق الجماهير الواسعة التي استيقظت وخصوصاً المثقفين في آسيا وأفريقيا والجري مع أرانب المثقفين أو الأرستقراطيين أو الأثرياء أو الطبقات المالكة. المرجح، قبل كل شيء، الإمساك بهذه الأرانب بالذات - ثم نصبح في وضع سيء للغاية.

لما كان هذا الكتاب من تأليف مؤرخ ولما كنا قد استخدمنا مجاز توينبي على نحو كبير يمكننا كذلك الاختتام بالأسلوب نفسه. لا يوجد هنالك حقاً فرصة لأدائنا دور مترنيخ أو ماتزيني. ثمة فرصة لتورطنا في دور مثل دور نابليون الثالث، الذي حاول دائماً إرضاء الجميع - وفشل على نحو مؤسف. ربما نتمكن من القيام بدور مثل دور كاننغ(*) أو كاسلريغ(**) أو تاليران؟ هؤلاء

(*) جورج كاننغ (1770- 1827) رجل دولة وسياسي بريطاني تولى منصب وزير الخارجية ورئيس الوزراء.

(**) فايكونت كاسلريغ (1789- 1822) سياسي أنكلو ايرلندي مثل المملكة المتحدة في مؤتمر فيينا وساهم في إقرار قانون الاتحاد.

السادة، الذين واجهوا عواقب الثورة الفرنسية ونابليون، لم يفعلوا شيئاً نبيلاً أو سامياً إلا أنهم وضعوا الأسس لقرن من السلام النسبي - على أية حال، قرن أكثر سلاماً تقريباً مما كان عليه القرن العشرون حتى الآن. لم يكونوا متطرفين ولم يكن لكاننغ وتاليران أخلاق نبيلة أو مبادئ سامية. لقد تفاهموا حتى مع ثورات لم يميلوا إليها.

الملحق الببليوغرافي

الهدف من الببليوغرافيا التالية أن تكون دليلاً للأفراد أو المجموعات من أجل الدراسة الصعبة والمجزية للثورات. إنها موحية وكاملة على نحو كاف بحيث أن كل من يستخدمها سيجد نفسه مطلعاً تماماً على الموضوع.

1- المؤلفات التاريخية عن الثورات الأربع

يهدف القسم الأول من هذه الببليوغرافيا إلى أن تُعرّف القارئ ببعض أشهر المؤلفات التاريخية عن الثورات الأربع التي نُعنى بها هنا. كما تضم القائمة بعض المؤلفات اللاحقة التي لم تختبر بعد. إلا أننا لا ندعي الكمال هنا. إن القائمة الببليوغرافية الكاملة بالتاريخ الفرنسي وحده من 1750 حتى 1815 تضم كتباً تكفي لملء مكتبة. ونخمن أن هنالك أكثر من ثلاثمائة ألف عنوان بما فيها النشرات والمقالات المنشورة في المجلات. ويقرب عدد المؤلفات عن الثورة الروسية من هذا العدد وهي أكثر تنوعاً. غير أن القارئ سيجد في هذه الكتب فرصة لتدقيق الحقائق التي حاولنا فيها اكتشاف حالات التماثل في سير الثورات الأربع.

أ.إنكلترا

W.C. Abbott, *The Writings and Speeches of Oliver Cromwell.* 3 vols. Cambridge, Mass., 1937-45

أبوت، مؤلفات وخطب أوليفر كرومويل، كتاب علمي ممتاز.

J.A. Allen, *English Political Thought, 1603-1660*. London, 1938.

ألين، الفكر السياسي الإنكليزي.

كتاب مؤلف بالأسلوب التقليدي لكتب التاريخ عن الفكر السياسي النظامي - أي يعنى على نحو خاص بأسلوب توليد الأفكار أفكاراً أخرى غير أنه كامل. ولسوء الحظ لم ينشر سوى المجلد الأول حتى عام 1944.

M.P. Ashley, *England in the Seventeenth Century*. Hammondsworth, 1952.

أشلي، إنكلترا في القرن السابع عشر

جزء من مقدمة بيليكان الممتازة عن تاريخ إنكلترا.

Eduard Bernstein, *Crommwell and Communism*. London, 1930.

بيرنستاين، كرومويل والشيوعية.

ترجمة متأخرة لكنها مفيدة لكتاب *Sozialismus und Demokratie in der grossen englischen Revolution* (الاشتراكية والديمقراطية في الثورة الإنكليزية الكبرى) الذي نشر باللغة الألمانية قبل الحرب. إنه تصحيح للاهتمامات السياسية والتقليدية لغاردينر حتى فيرث.

Louise F. Brown, *The Political Activities of the Baptists and Fifth Monarchy Men in England during the Interregnum*. Washington, 1912.

لويز، النشاطات السياسية للمعمدانيين ورجال الملكية الخامسة في إنكلترا أثناء فترة خلو العرش.

Godfrey Davies, *The Early Stuarts,* 1603-1660. Oxford, 1937.

ديفيز، ملوك آل ستيوارت الأوائل.

كتاب يتبع التقاليد العلمية لتاريخ أوكسفورد لإنكلترا. كتاب ممتاز مع ببليوغرافيا مفيدة للغاية.

C. Firth, *Oliver Cromwell and the Rule of the Puritans in England.* 3rd edition. London, 1924.

فيرث، أوليفر كرومويل وحكم المتطهرين في إنكلترا.
كتاب ممتاز في جيلنا عن كرومويل.

S. R. Gardiner, *A History of England. 1603-1624; A History of Great Civil War, 1642-1649; A History of the Commonwealth and Protectorate, 1649-1656.*

غاردينر، تاريخ إنكلترا، 1603- 1624، تاريخ الحرب الأهلية، 1642- 1649، تاريخ الكومونويلث والحماية، 1649- 1656.

طبعات ومجلدات مختلفة. يتكون الكتاب عادة من 17 مجلداً. هذا هو التاريخ "الكلاسيكي" للفترة التي كتب فيها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. إنه تاريخ سياسي سليم ولو أنه ممل ولا يتناول إطلاقاً ما يثير اهتمامنا في ميادين التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري.

G. P. Gooch, *English Democratic Ideas in the Seventeenth Century.* 2nd edition with notes and appendixes by H. J. Laski. Cambridge, England, 1927. Also Torchbook paperback.

غوش، الأفكار الديمقراطية الإنكليزية في القرن السابع عشر.
كتاب أساسي.

H. J. C. Grierson, *Cross Currents in English Literature of the Seventeenth Century*. London, 1929.

غريرسن، التيارات المتعارضة في الأدب الإنكليزي في القرن السابع عشر.
تاريخ فكري ممتاز.

J. H. Hexter, *The Reign of King Pym*. Cambridge, Mass., 1941.

هيكستر، حكم الملك بيم.
دراسة ممتازة للسياسات الحزبية.

Margaret James. *Social Problems and Policy During the Puritan Revolution.* London, 1930

جيمس، المشاكل الاجتماعية والسياسة أثناء ثورة المتطهرين.

ترى المؤلفة أن النتائج الاجتماعية والاقتصادية لثورة المتطهرين كانت ثورية حقاً، خلافاً للنتائج السياسية.

David Mathew, *The Social Structure in Caroline England.* Oxford, 1948.

ماثيو، الهيكل الاجتماعي في إنكلترا تحت حكم شارل الأول وشارل الثاني.

محاضرات حافلة بالمعلومات.

J. E. Morpurgo, ed., *Life under the Stuarts.* London, 1950.

موربورغو (المحرر)، الحياة في ظل آل ستيوارت.

مسح تعاوني على المستوى الأولي يتضمن مواد كثيرة مثيرة للاهتمام وقائمة بسيطة جيدة بالمراجع للمزيد من الاطلاع.

Wallace Notestein, *The English People on the Eve of Colonization 1603-1630.* New York, 1954.

نوستاين، الشعب الإنكليزي عشية الكولونيالية 1603-1630.

مسح جيد بما في ذلك التاريخ الاجتماعي.

T. C. Pease, *The Leveller Movement.* Washington, 1916.

بيس، حركة المساواتيين.

دراسة علمية مفيدة للغاية، خصوصاً لتصحيح وجهة نظر بيرنستاين الاشتراكية نحو ليلبورن والمساواتيين.

Leopold von Ranke, *A History of England Principally in the Seventeenth Century.* English Translation. 6 vols. Oxford, 1875.

فون رانك، تاريخ إنكلترا لاسيما في القرن السابع عشر.

كتاب كلاسيكي آخر في التاريخ السردي.

G. M. Trevelyan, *England under the Stuarts.15th edition.* New York, 1930.

تريفليان، إنكلترا تحت حكم آل ستيوارت.

ربما أفضل الكتب الحديثة ولو أنه يتبع بوضوح تقاليد الليبرالية البريطانية التي تصعقها قليلاً حقائق الثورة. يضم الكتاب ببليوغرافيا مفيدة.

H. R. Trevor-Roper, "*The Gentry, 1540-1640.*" *Economic History Review,* Supplement, 1953.

تريفور- روبر، "الطبقة العليا، 1540-1640"، مجلة التاريخ الاقتصادي، الملحق، 1953.

دراسة مهمة للخطوط الطبقية. يجب قراءة هذا البحث مع

R. H. Tawney, "*Rise of the Gentry, 1558- 1640,*"

توني، "صعود الطبقة العليا 1558-1640"، مجلة التاريخ الاقتصادي، المجلد 9 (1941).

Basil Willey, *The Seventeenth Century Background.* London, 1934.

ويلي، خلفية القرن السابع عشر.

مصدر لا غنى عنه في التاريخ الفكري.

ب. أميركا

R. G. Adams, *Political Ideas of the American Revolution.* Durham, N. C. 1922.

آدمز، الأفكار السياسية للثورة الأميركية.

مسح مفيد

C. W. Alvord, *The Mississippi Valley in British Politics.* 2 vols. Cleveland, 1917.

ألفورد، وادي المسيسيبي في السياسات البريطانية.
مصدر مفيد في ميدان مهم مهمل في الدراسات السابقة له في الثورة الأميركية

C. M. Andrew, *The Colonial Background of the American Revolution*. New Haven, 1924.

أندرو، الخلفية الاستيطانية للثورة الأميركية.

Bernard Bailyn, *Pamphlets of the American Revolution, 1750-1776*. 4 volumes. Cambridge, Mass., 1965-

بيلين، نشرات الثورة الأميركية، ١٧٥٠-١٧٧٦.
يحتوي المجلد الأول من هذا المصدر المهم على مقدمة طويلة تتناول الحقل الكامل لهذه النشرات. أنظر كذلك

Oscar and Mary Handlin, *The Popular Sources of Political Authority*
(المصادر الشعبية للسلطة السياسية) تأليف أوسكار وميري هاندلين. وثائق من اجتماعات مدن مساشوستس تعالج الدستور المقترح للولاية الجديدة (1780). يمثل المصدران موقفاً تنقيحياً حديثاً نحو الثورة الأميركية التي يرى بيلين "أنها كانت قبل كل شيء صراعاً عقائدياً- دستورياً وليس خلافاً على نحو رئيسي بين المجموعات الاجتماعية لفرض تغييرات في تنظيم المجتمع".

C. A. Barker, *The Background of the Revolution in Maryland*. New Haven, 1940.

باركر، خلفية الثورة في ميريلاند.
دراسة إقليمية دقيقة.

C. L. Becker, *The Eve of the Revolution* (Vol. XI of he *Chronicles of America*. New Haven, 1918. *The Declaration of Independence*. New York, 1922.

بيكر، عشية الثورة، وإعلان الاستقلال.

يضيف كلا الكتابين إلى دراسة التغير السياسي معرفة نادرة وشاملة عن أسلوب تفكير وشعور الناس.

G. L. Beer, *British Colonial Policy, 1754-1765*. New York, 1907.

بير، السياسة الاستعمارية البريطانية، ١٧٥٤-١٧٦٥.

المجلد الأخير من معالجة شاملة للإمبراطورية البريطانية القديمة، خصوصاً ما يخص مسائل التجارة والضرائب.

Catherine D. Bowen, *John Adams and the American Revolution*. Boston, 1950.

كاثرين باون، جون آدمز والثورة الأميركية.

مصدر مفعم بالحيوية ودقيق. لا يحتاج الدارس إلى القلق بسبب شكله الذي يقترب من السيرة الرومانسية.

Carl and Jessica Bridenbaugh, *Rebels and Gentlemen*. New York, 1942.

برينبو، ثوار وسادة.

دراسة اجتماعية-فكرية لفيلادلفيا في "عصر فرانكلين" ومن هنا الخلفية الفكرية للثورة الأميركية، التي لا تختلف عن دراسة د. مورنيه عن فرنسا. ثمة حاجة إلى المزيد من مثل هذه المؤلفات.

W. A. Brown, *Empire or Independence*, University, La., 1941.

براون، الإمبراطورية أو الاستقلال.

دراسة دقيقة لجهود الاحتفاظ بالمستعمرات وبريطانيا معاً وتلقي الضوء على دور المعتدلين والمتطرفين.

E. C. Burnett, *The Continental Congress*. New York, 1941.

بورنيت، المؤتمر القاري.

Philip, Davidson, *Propaganda and the American Revolution, 1763-1783*. Chapel Hill, N. C., 1941.

فيليب، الدعاية والثورة الأميركية، ١٧٦٣-١٧٨٣.

Bernard, Fay, *The Third Revolutionary Spirit in France and America, 1763-1783*. Chapel Hill, N. C., 1941.

بيرنارد، الروح الثورية الثالثة في فرنسا وأميركا

L., H. Gipson, *The Coming of the Revolution 1763-1775*. New York, 1954, and J. R. Alden, *The American Revolution, 1775-1783*. New York, 1954.

غيبسن، قدوم الثورة وآلدين، الثورة الأميركية.

هذان الكتابان في السلسلة الجديدة حول الأمة الأميركية هما أحدث نتاج في البحث المعرفي الأميركي. يضمان قوائم ببليوغرافية نقدية.

L. R. Gottschalk, *The Place of the American Revolution in the Causal Pattern of the French Revolution*. Easton, Pa., 1948.

غوتشولك، موقع الثورة الأميركية في النمط السببي للثورة الفرنسية.

دراسة مثيرة للاهتمام للعلاقات المتبادلة.

E. B. Greene, *The Revolutionary Generation, 1763-1790* (Vol. IV of *A History of American Life*). New York, 1943.

غرين، الجيل الثوري.

المجلد المناسب في سلسلة قياسية في التاريخ الاجتماعي مع ببليوغرافيا مفيدة.

J. F. Jameson, *The American Revolution Considered as a Social Movement*. Princeton, 1926.

جيمسن، الثورة الأميركية كحركة اجتماعية.

هنالك كذلك طبعة بيكن. كتاب موحٍ وفي نواح كثيرة دراسة رائدة، غير أن دراسة طويلة وشاملة تحمل العنوان نفسه ستكون مفيدة.

Bernhard Knollenberg, *Washington and the Revolution.* New York, 1940.

نولينبيرغ، واشنطن والثورة.

معالجة متوازنة وعلمية للغاية.

M. Krause, *Intercolonial Aspects of American Culture on t he Eve of the Revolution*. New York, 1928.

كراوس، الجوانب الاستيطانية المتبادلة في الثقافة الأميركية عشية الثورة.

J. C. Miller, *Sam Adams: Pioneer in Propaganda. Boston, 1936. Origins of the American Revolution. Boston, 1943.* Triumph of Freedom, 1775-1783. Boston, 1948.

ميلر، سام آدمز: رائد في الدعاية، أصول الثورة الأميركية، وانتصار الحرية.

هذه الكتب الثلاثة مراجعة مهمة للغاية للتاريخ العلمي للموضوع.

C. L. Rossiter, *Seedtime of the Republic,* New York, 1953.

روسيتر، فترة نشوء الجمهورية.

من وجهة نظر محافظ مثقف.

Max Savelle, *Seeds of Liberty; The Genesis of the American Mind.* New York, 1948.

ماكس سافيل، بذور الحرية: تكوين العقل الأميركي.

خلفية التنوير في المستعمرات الأميركية. ويمكن للقراء كذلك الرجوع إلى مراجع التاريخ الفكري المشهورة في الولايات المتحدة تأليف بارينغتن، وغابريل، وكورتي.

A. M. Schlesinger, *The Colonial Merchants and the American Revolution.* New York, 1918.

شليزينغر، تجار المستعمرات والثورة الأميركية.

نقل هذا الكتاب الدراسة الواقعية للثورة الأميركية نقلة كبيرة نحو الأمام.

G. M. Trevelyan, *The American Revolution. George III and Charles James Fox,* the concluding part of The American Revolution. New York, 1920-22.

تريفليان، الثورة الأميركية. جورج الثالث وتشارلز جيمس فوكس (الجزء الختامي من الثورة الأميركية. مجلد مع الكتاب أعلاه في طبعة موحدة من 6 أجزاء).

هذا مرجع قيم ولو أنه قديم. ألفه مؤرخ بارز من حزب الأحرار وهو يحابي "الحقوق" الأميركية في حرب الاستقلال أكثر من معظم الكتب الأميركية السابقة. ويبدو لجيلنا أنه يستبعد مسائل اقتصادية واجتماعية مهمة.

M. C. Tyler, *The Literary History of the American Revolution.* 2 vols. New York, 1897.

تايلر، التاريخ الأدبي للثورة الأميركية.

مرجع قيم إلا أنه ليس عتيق الأسلوب.

C. H. Van Tyne, *The Causes of the War of Independence and The War of Independence,* being vols. I and II of *The Founding of the American Republic*. Boston, 1922, 1929. The Loyalists in the American Revolution. New York, 1929.

فان تاين، أسباب حرب الاستقلال وحرب الاستقلال (المجلدان 1 و2 من كتاب تأسيس الجمهورية الأميركية و الموالون للملكية في الثورة الأميركية)

الكتابان من المؤلفات القياسية التي تتسم بسعة المعرفة التاريخية المهنية.

W. M. Wallace, *Appeal to Arms: A Military History of the American Revolution*. New York, 1951.

والاس، الاحتكام إلى السلاح: تاريخ عسكري للثورة الأميركية.

الكتاب ليس وثيق الصلة بدراسة الثورات غير أنه يضم مادة مهمة عن

القادة العسكريين البريطانيين ومواقفهم من الثورات وهي مهمة في دراسة الطبقة الحاكمة البريطانية والثورة.

ت. فرنسا

Willy Andreas, *Das Zeitalter Napoleons und die Erhebung der Volker*. Heildelberg, 1955.

فيلي أندرياس، عصر نابليون وترقية الأمم

خلاصة مثيرة للإعجاب للدراسة الحديثة للعصر.

A. Aulard, *The French Revolution: A Political History*. English translation. 4 vols. New York, 1910.

أولارد، الثورة الفرنسية: تاريخ سياسي. (مترجم إلى الإنكليزية)

أفضل مثال لتاريخ جمهوري فرنسي للثورة الفرنسية ألفه في بعض النواحي وريث روحي للجيرونديين. تحيز يساري ومناهض لرجال الدين.

C. L. Becker, *The Heavenly City of the Eighteenth Century Philosophers*. New Haven, 1932.

بيكر، المدينة السماوية لفلاسفة القرن الثامن عشر.

أطروحة مثيرة للتفكير عن دور الأفكار في القرن الثامن عشر انتقدت بشدة في السنوات الأخيرة - أنظر بخاصة Peter Gay, *The Party of Humanity*, New York,

1964 (غي، حزب الإنسانية)

Crane Brinton, *The Jacobins. New York*, 1930. Reprint Edition, New York, 1961.

برينتن، اليعاقبة.

مع التأكيد الخاص على الشبكة الإقليمية للأندية.

W. F. Church, *The Influence of the Enlightenment on the French Revolution. Creative, Disastrous, or Non-existent?* Boston, 1964

تشيرتش، تأثير عصر التنوير في الثورة الفرنسية، خلاق، مدمر، أم غير موجود؟

هذا الكتاب الصغير الذي يقصد به الاستخدام في الصف يتضمن قائمة ببليوغرافية مفيدة للغاية لدراسة دور "الأفكار" في إعداد مجتمع ما للثورة.

Augustin Cochin, *Les société de pensée et la democratie*. Paris, 1921.

كوشان، جمعيات الفكر والديمقراطية.

مرجع ضروري لدراسة عمل مجموعات الضغط في الإعداد للثورة. تحيز محافظ.

Pierre Gaxton, *The French Revolution*. English translation. New York, 1932.

غاكستن، الثورة الفرنسية. (مترجم إلى الإنكليزية)

ربما أكثر المؤلفات الحديثة عقلانية. كتب صراحة من وجهة نظر يمينية للغاية - ملكية في الواقع. إلا أنه لما كان معظم الأميركيين يحصلون على معرفتهم عن الثورة الفرنسية من أساتذة جمهوريين تقليديين معادين لرجال الدين في عهد الجمهورية الثالثة فيوصى بكتاب غاكستن كترياق.

Leo Gershoy, *The French Revolution and Napoleon*. New York, 1964.

غيرشوي، الثورة الفرنسية ونابليون.

طبعة جديدة من كتاب نشر أصلاً عام 1933 ويحتوي على أفضل قائمة ببليوغرافية نقدية للثورة الفرنسية.

J. Godechot, *La Grande Nation: L'expansion révolutionnaire de la France dans le monde de 1789 à 1799*. 2 vols. Paris, 1956.

غودشوت، الأمة العظيمة: توسع فرنسا الثوري في العالم من 1789 حتى 1799.

كتاب ممتاز في الموضوع. قوائم ببليوغرافية جيدة.

Martin Gohring, *Geschichte der grossen Revolution*. 2 vols. Tubingen, 1950-51.

مارتين غورينغ، تاريخ الثورة الكبرى.

من أهم التجميعات التاريخية في عصرنا. وعد بإصدار مجلد ثالث مع قائمة ببليوغرافية جيدة.

A. Goodwin, *The French Revolution*. New York, 1962. A Torchbook paperback.

غوودوين، الثورة الفرنسية.

وصف موجز ممتاز.

Donald Greer, *The Incidence of the Terror during the French Revolution. Cambridge, Mass.*, 1935. *The Incidence of the Emigration during the French Revolution*. Cambridge, Mass., 1951.

غرير، حدوث الإرهاب أثناء الثورة الفرنسية وحدوث الهجرة أثناء الثورة الفرنسية.

دراستان إحصائيتان مهمتان مع إشارات كثيرة للمزيد من الدراسة في ثورات أخرى.

Daniel Guérin, *La lutte de classe, sous la première république: bourgeois et "bras nus."* Paris, 1946.

غواران، الصراع الطبقي في الجمهورية الأولى: البرجوازية وذوو الأذرع العارية.

تفسير ماركسي يتجاوز (المؤرخ الفرنسي البارز) ماثيز. ذوو الأذرع العارية هم أعضاء البروليتاريا الحقيقيون أخيراً.

N. Hampson, *A Social History of the French Revolution*. Toronto, 1963.

هامبسن، تاريخ اجتماعي للثورة الفرنسية.

تاريخ "اجتماعي" ممتاز في المعنى الأوسع.

Paul Hazard, *La crise de la conscience européenne.* 3 vols. Paris, 1935. *La pensée européenne au XVIII siècle.* 3 vols. Paris, 1946.

بول هازارد، أزمة الضمير الأوروبي. والفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر.

أكمل مسح للمشهد الفطري كله.

C. E. Labrousse, *Esquisse du movement des prix et des revenus en France au XVIII siècle.* 2 vols. Paris, 1933. La crise de l'économie française à la fin de l'ancien regime et au debut de la revolution. Paris, 1944.

لابروس، الشكل التحضيري لحركة الأسعار والإيرادات في فرنسا في القرن الثامن عشر، وأزمة الاقتصاد الفرنسي في نهاية العهد القديم وبداية الثورة.

يوضح هذان الكتابان النظرية الجمهورية الفرنسية المتطورة عن "أسباب" الثورة على نحو واضح للغاية. يؤمل إصدار مجلد آخر من كتاب أزمة الاقتصاد.

W. L. Langer, ed. *The Rise of Modern Europe.*

لانجر (المحرر)، صعود أوروبا الحديثة.

ثلاثة مجلدات في هذه السلسلة وثيقة الصلة بالموضوع:

Leo Gershoy, *From Despotism to Revolution, 1763-1789,* New York, 1944

غيرشو، من الاستبداد إلى الثورة، ١٧٦٣-١٧٨٩

Crane Brinton, *A Decade of Revolution, 1789-1799,* New York, 1934

برينتن، عقد من الثورة، 1789-1799

Geoffreu Bruun, *Europe and the French Imperium, 1799-1814,* New York, 1938.

برون، أوروبا والإمبراطورية الفرنسية.

G. Lefebvre, *La révolution française (Peuples et Civilisations, XIII)*. Paris, new edition 1957. *English translation, The French Revolution,* 2 vols. New York., 1962-64.

لوفبر، الثورة الفرنسية (الشعوب والحضارات، 13) مترجم إلى الإنكليزية، 1962-64

عمل متوازن يدعو إلى الإعجاب ويعد عموماً في المهنة التاريخية أفضل تاريخ قصير للثورة الفرنسية.

Gaston Martin, *Le france maçonnerie et la préparation de la révolution.* Paris, 1926

غاستن، الماسونية الفرنسية والإعداد للثورة.

مرجع قيم يوازن بإنصاف كتاب كوشان أعلاه.

Albert Mathiez, *The French Revolution. English translation,* New York, 1928, new edition (Universal Library paperback) 1964, *La vie chere et le movement social sous la Terreur*. Paris, 1927.

ماثيز، الثورة الفرنسية. مترجم إلى الإنكليزية.

كان ماثيز(*) وريث حزب الجبل مثلما كان أولارد وريث الحزب الجيروندي. إنه باحث عن الحقائق يعتمد عليه وقد اهتم بنوع الحقائق التي نهتم بها حالياً. تسود تعميماته نسخة بريئة للغاية من عقيدة التفسير الاقتصادي للتاريخ. وعلى الرغم من إنكاره بغضب أنه مشايع للجيرونديين من الواضح أنه ينتمي إلى اليسار.

(*) ألبير ماثيز (1874- 1932) مؤرخ وأكاديمي فرنسي اشتهر ببحوثه في الثورة الفرنسية. كان من طلبة الفونس أولارد وأصدر كتابه الثورة الفرنسية في 3 مجلدات (1922-24) وشغل كرسي السوربون لدراسات الثورة الفرنسية وأسس جمعية الدراسات الروبسبيرية التي أصدرت المجلة الرصينة الحوليات التاريخية للثورة الفرنسية.

Daniel Mornet, *Les origines intellectuelles de la révolution française*. Paris, 1933.

دانيال مورنيت، الأصول الفكرية للثورة الفرنسية.

يحتوي على معظم المادة الضرورية المتضمنة في العنوان وقد جمعت على نحو مناسب. كانت لمورنيت أفكار جمهورية فرنسية تقليدية عن دور الفلاسفة في الإعداد للثورة. ثمة قائمة ببليوغرافية ممتازة في الكتاب.

R. R. Palmer, *The Age of the Democratic Revolutions*. 2 vols. Princeton, 1959-64.

بالمر، عصر الثورات الديمقراطية.

مرجع مهم يتناول الثورات الأميركية والفرنسية وثورات القرن الثامن عشر الأخرى.

Felix Rocquain, *The Revolutionary Spirit Preceding the French Revolution*. English translation, abridged. London, 1894.

روكوين، الروح الثورية السابقة للثورة الفرنسية. مترجم إلى الإنكليزية.

محاولة لتقليل الاهتمام بمؤلفات الفلاسفة وتحويله إلى منازعات شديدة ومظالم في السنوات الأخيرة من النظام القديم.

G. Rude, *The Crowd in the French Revolution*. Oxford, 1959.

رود، الجماهير في الثورة الفرنسية.

تحليل اجتماعي ممتاز.

Preserved Smith. *A History of Modern Culture*. Vol.. II, *The Enlightenment*. New York, 1934.

سميث، تاريخ الثقافة الحديثة.

مرجع جوهري في التاريخ الفكري.

A. Soboul, *Précis d'histoire de la révolution française*. Paris, 1962.

سوبول، موجز تاريخ الثورة الفرنسية.

خلاصة ممتازة للموقف الماركسي الأحدث من الثورة الفرنسية.

H. A. Taine, *The Origins of Contemporary France*. English translation. 6 vols. New York, 1876-94.

تين، أصول فرنسا المعاصرة.

كتاب مهم يتضمن هجوماً على الثورة الفرنسية وكل أعمالها ألفه ليبرالي خائب الأمل ووطني فرنسي بعد حرب 1870. ما يزال هذا الكتاب منجماً للمعلومات على الرغم من أن الكثيرين في العالم الحديث لم يعودوا يشاطرون تحيزه.

J. M. Thompson, *The French Revolution*. New York, 1945.

تومسن، الثورة الفرنسية.

مسح مثير للإعجاب وجيد خصوصاً في السياسات الباريسية المحلية.

Gerard Walter, *Histoire des Jacobins*. Paris, 1946.

والتر، تاريخ اليعاقبة.

استرجاع تاريخ النادي الباريسي وحده.

ث. روسيا

صدر عدد هائل من الكتب عن روسيا منذ عام 1917 ولا تنطبق سوى على القليل منها المعايير الأكثر صرامة التي يود المؤرخون الأكاديميون فرضها. غير أننا نعتقد أن قارئاً ذكياً للمراجع التالية لن يحصل على معلومات خاطئة عن الحركة ويمكنه محاولة دمج معرفته عما يحدث في روسيا مع ما حدث في الثورات الحديثة الأخرى.

G. A. Almond, et al., *The Appeals of Communism*. Princeton, 1954.

آلموند، إغراءات الشيوعية.

دراسة جيدة عن نشر الأفكار الشيوعية.

F. Beck and W. Godin, *Russian Purge and the Extraction of Confession*. New York, 1951.

بيك وغودين، التطهير الروسي وانتزاع الاعترافات.

المؤلفان هما عالم ألماني ومؤرخ روسي فرا إلى الغرب واتخذا اسمين مستعارين للحماية. الفصل الثامن "النظريات" محاولة مهمة لتفسير عودة الإرهاب في 1936-39.

F. Borkeman, *World Communism*. New York, 1939 and *European Communism*. New York, 1953.

بوركمان، الشيوعية العالمية والشيوعية الأوروبية.

دراستان للمنظمات والطرق الحزبية.

E. H. Carr, *The Soviet Impact on the Western World*. London, 1946

كار، التأثير السوفياتي في العالم الغربي.

كتاب موجز إلا أنه حافل بالمعلومات. مثل معظم المثقفين الإنكليز يبالغ السيد كار في دور الأفكار في العلاقات البشرية. غير أن أسلوبه مثير للإعجاب ويطرح فرضية تناقض أساساً نظرية هذا الكتاب. يعتقد السيد كار أن روسيا قد تم تثويرها.

E. H. Carr, *A History of Soviet Russia*. 6 vols. London, 1950-60.

كار: تاريخ روسيا السوفياتية.

معالجة علمية شاملة تتخذ أساساً موقفاً ودياً من الثورة.

W. H. Chamberlain, *The Russian Revolution*. 2 vols. New York, 1935.

تشيمبرلين، الثورة الروسية.

دراسة دقيقة ألفها أميركي مطلع على المصادر الروسية. تشيمبرلين ليس شيوعياً غير أنه بالمقارنة مع الماركسيين الأكثر تشدداً تبدو دراسته غير متحيزة على نحو معقول. يتضمن الكتاب قائمة ببليوغرافية جيدة.

Issac Deutscher, *Trotsky*. 3 vols. New York, 1954-63; *The Prophet*

Armed, 1879-1921; The Prophet Unarmed, 1921-1929; The Prophet Outcast, 1929-1940.

إسحاق دويتشر، تروتسكي (ثلاثة مجلدات: النبي مسلحاً، النبي غير مسلح، النبي منبوذاً)

دراسة جديرة بالثقة - ودية.

M. H. Dobb, *Soviet Economic Development since 1917*. London, 1948.

دوب، التنمية الاقتصادية السوفياتية منذ ١٩١٦.

ألف هذا الكتاب أحد أفضل الباحثين الماركسيين البريطانيين.

M. Fainsod, *How Russia Is Ruled*. Revised and enlarged edition. Cambridge, Mass., 1963.

فينسود، كيف تحكم روسيا.

مرجع لا غنى عنه.

Harvard University. Russian Research Center.

جامعة هارفرد: مركز البحوث الروسية

يحاول هذا المركز تركيز معرفتنا بالعلوم الاجتماعية على نحو موضوعي في الاتحاد السوفياتي. يجب كل الراغبين في فهم روسيا المعاصرة متابعة مطبوعات المركز. هذه سلسلة مهمة بدأ صدورها عام 1950 وصدر منها 48 مجلداً حتى الآن (1964) وتوجد عناوينها في قوائم مطبعة جامعة هارفرد.

H. J. Berman, *Justice in Russia. An Interpretation of Soviet Law*. Cambridge, Mass., 1950.

بيرمان، العدل في روسيا. تفسير القانون السوفياتي.

Alex Inkeles. *Public Opinion in Soviet Russia*. Cambridge, 1950.

إنكلس، الرأي العام في روسيا السوفياتية.

Barrington Moore, Jr., Soviet Politics. *The Dilemma of Power*. Cambridge, 1950.

مور، السياسات السوفياتيّة. محنة القوة.

History of the Communist Party of the Soviet Union. Short Course. New York, 1939 (International Publishers).

تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. موجز.

هذه ترجمة "رسمية" لتاريخ "رسمي".

T. H. Von Laue, "*Die Revelotion von aussen als erste Phase der russischen Revolution 1917*," *Jahrbucher fur Geṣchichte Osteuropas, IV,* 2 (Munich, 1956)

لاو، "الثورة من الخارج بوصفها المرحلة الأولى في الثورة الروسية ١٩١٦"، تأكيد قيم على (1) حقيقة أن روسيا عام 1917، على النقيض من إنكلترا عام 1639 وفرنسا عام 1789، كانت بلداً متخلفاً (2) حقيقة أن الكثير مما صنع الثورة استورد من خارج روسيا.

Eugene Lyons, *Assignment in Utopia.* New York, 1937.

ليونز، مهمة في يوتوبيا.

ليونز راديكالي أميركي تحول بسبب إقامته الطويلة كمراسل صحفي في روسيا إلى معاداة حكم ستالين. وعندما يؤخذ هذا العامل بنظر الاعتبار يبقى الكتاب من أفضل الأوصاف باللغة الإنكليزية لثرميدور روسيا - أنظر Trotksy أدناه.

P. E. Mosley, ed., *The Soviet Union since World II.* American Academy of Political and Social; Sciences, *Annals,* CCXII (May, 1949).

موزلي، الاتحاد السوفياتي منذ الحرب العالمية الثانية.

مجلدات متفرقة مع إشارات جيدة كثيرة للمزيد من الدراسة.

Bernard Pares, *A History of Russia. 5th edition.* New York, 1947.

بارس، تاريخ روسيا.

مسح تمهيدي جيد للقارئ العام الذي يحتاج إلى معلومات أساسية عن روسيا.

R. E. Pipes, *The Formation of the Soviet Union: Communism and Nationalism, 1917-1923*. Cambridge, Mass., 1954.

بايبس، تكوين الاتحاد السوفياتي: الشيوعية والقومية.
دراسة تاريخية شاملة.

M. N. Pokrovsky, *Brief History of Russia*. Translated by D. S. Mirsky. New York, 1933.

بوكروفسكي، تاريخ روسيا الموجز.
يتناول المجلد الثاني الإعداد لثورة أكتوبر وخلفيتها بأسلوب ماركسي شامل.

Faith A. Popkin, "Advertising in Russia," *Nieman Reports*, December, 1963.

فيث، "الإعلان في روسيا" في تقارير نيمان
تقرير موجز مثير للاهتمام عن موضوع مهمل غالباً في دراسات روسيا السوفياتيّة.

O. H. Radkey, *The Election of the Russian Constituent Assembly of 1917*. Cambridge, Mass., 1950.

رادكي، انتخاب الجمعية التأسيسية الروسية عام ١٩١٦
دراسة شاملة مع التأكيد على التنافس بين المتطرفين والمعتدلين.

David Shub, *Lenin*. New York, 1948.

شب، لينين
كتاب يتصف بالعداء غير أنه دقيق وعلمي ومفصل.

N. N. Sukhanov, *The Russian Revolution, 1917*. 2 vols. New York, 1955.

سوخانوف، الثورة الروسية ١٩١٦.

في مجلدين في سلسلة كتب تولتشبوك. مختصر مذكرات شاهد عيان.

N. S. Timasheff, "The Russian Revolution: Twenty-Five Years After," *Review of Politics* V (1943), pp. 415-440

تيماشيف، "الثورة الروسية: بعد خمسة وعشرين عاماً"، في مجلة السياسات.

مسح مشترك مفيد عن روسيا الحالية أعيد نشره في:

W. Gurin, ed., *Soviet Union: Background, Ideology, Reality,* Notre Dame, Ind., 1951.

غورين، (المحرر) الاتحاد السوفياتي: الخلفية، الأيديولوجية، الواقع.

Leon Trotsky, *The History of the Russian Revolution.* English translation. 3 vols. New York, 1936 (also a single-volume)

تروتسكي، تاريخ الثورة الروسية.

الأرجح أن هذه رائعة تروتسكي، سرد مفعم بالحيوية يزداد بفضل رحلات في التفسير الماركسي المتحمس وغالباً المتحمس وحتى الحصيف. قراءة مؤلفات تشيمبرلين وتروتسكي معا تمثل أفضل مقدمة ممكنة إلى دراسة الثورة الروسية. يتضمن كتاب خيانة الثورة لتروتسكي الصادر في نيويورك عام 1937 هجوماً مريراً ولافتاً على النظام في روسيا إذاك الذي أطلق عليه هو نفسه صفة "الثرميدوري". أخيراً ثمة "ملحق" في الصفحات 384-410 عن رد الفعل الثرميدوري في كتاب تروتسكي ستالين الذي ترجمه تشارلز مالاموث الصادر في نيويورك عام 1941. طبيعي أن هذا المؤلف الأخير لتروتسكي مهم كله ولو أنه شديد التحيز.

D. W. Treadgold, *Twentieth Century Russia,* Chicago, 1959.

تريدغولد، روسيا القرن العشرين.

دليل ممتاز.

Robert C. Tucker and Stephen F. Cohen meds., *The Great Purge Trial.* New York, 1965.

تكر وكوهين (المحرران)، محاكمة التطهير الكبرى.

مواد مرجعية رائعة في تقرير حرفي.

O. Utis, "*Generalissimo Stalin and the Art of Government.*" Foreign Affairs, XXX (January, 1952)

أوتيس، "القائد العام ستالين وفن الحكم". في مجلة الشؤون الخارجية 30.

الأسماء المستعارة للمؤلفين شائعة في روسيا المعاصرة ويقدم المؤلف في هذا الكتاب بعض الأفكار المهمة عن مشكلة مدى مضي الثورة الروسية في مسارها.

B. Ulam, *The New Face of Soviet Communism: A New Totalitarianism.* Cambridge, Mass., 1963.

اولام، الوجه الجديد للشيوعية السوفياتّية: استبداد جديد.

Sidney and Beatrice Webb, *Soviet Communism: A New Civilization?* 2 vols. New York, 1936.

سيدني وبياتريس ويب، الشيوعية السوفياتّية.

يبقى هذا الكتاب لدى القراء الأميركيين أفضل وأكثر دفاع إقناعاً عن النظام الحالي في روسيا ويمكن التوصية به لكتابات الليبراليين المحررين من الوهم والتروتسكيين الغاضبين. إلا أنه كتاب متحيز للغاية وأكاديمي والمؤلفان حتماً مغاليان في التمسك بآرائهما شأنهما شأن آخرين ألفوا كتباً عن روسيا. كما أن الكتاب قد ألف قبل زمن طويل.

Alexander Weissberg, *The Accused.* New York, 1951.

وايسبيرغ، المتهم.

وصف مفصل مثير للإعجاب عن تجارب متهم بارتكاب جريمة سياسية أثناء فترة يزوف وملحق مفيد لكتاب بيك وكوهين المذكور أعلاه.

B. D. Wolfe, *Three Who Made a Revolution. A Biographical History*. New York, 1948.

ولف، ثلاثة صنعوا ثورة. تراجم حياة.

لينين، تروتسكي، ستالين. كان ولف أكثر تعاطفاً مما هو حالياً مع ستالين والاتحاد السوفياتي. إلا أنه منصف جداً وليس الراديكالي "المتحرر من الوهم".

2- حكمة العصور

الدراسة النظامية للثورات كجزء من علم الاجتماع حديثة جداً. غير أن الثورات ليست جديدة كما أن التفكير الجاد في الثورات ليس جديداً. ومنذ زمن أفلاطون وأرسطو وبعده يتمكن المرء من جمع مجموعة قيمة للغاية من الملاحظات عن المراحل المختلفة من الثورة، خصوصاً من كتب غير معنية على نحو رئيس بالثورات. لم نحاول في هذا الكتاب القيام بأكثر من تقديم عينة عشوائية مما يمكن القيام به مع هذا النوع من الأمور. معظم من اخترنا ذكرهم هنا لم يكونوا مجرد مثقفين في المعنى الحديث، ويبدو أنه على الرغم من عدم انتظام هذا القسم من الملحق البيليوغرافي فإنه يضم حكمة عن الثورات أكثر من القسم الرابع "علم اجتماع الثورات"، الذي نورد فيه بعض المؤلفات المعاصرة المعنية على نحو نظامي بعلم اجتماع الثورات. إن معظم المؤلفين المعاصرين في المسائل السوسيولوجية هم مثقفون طبعاً.

Plato, *The Republic*, especially Books 8 , 9.

أفلاطون، الجمهورية

Aristotle, *Politics*.

أرسطو، السياسة

الكتاب الخامس مناقشة مشهورة في السياسة إلا أن الكتاب برمته وخصوصاً الكتاب الثاني ذو علاقة وثيقة كذلك.

Polybius, *History.*

بوليبيوس، التاريخ.

يحتوي الكتاب السادس على الوصف المشهور لأسباب الاستقرار الروماني السياسي، الذي يلقي القدر الكبير من الضوء لدى المقارنة مع موضوعنا، عدم الاستقرار السياسي.

Thucydides, *History.*

ثوسيديدس، التاريخ.

يبدأ الكتاب الثالث، 82-2، أحد أفضل التقارير المكتوبة عما سميناه أزمة الثورات.

Machiavelli, *Discourses on the First Decade of Titius Livius*

ماكيافيلي، أحاديث في العقد الأول من تيتوس كيفيوس.

يحتوي كل فصل تقريباً على شيئ مفيد للباحث في الثورة. ويوصى بالاطلاع على الكتاب الأول، الفصلين الخامس عشر والسادس عشر لأنهما يلقيان الضوء على الفروق بين الثورات من مثل ثورة إنكلترا وفرنسا وبين ثورتي تركيا أو إيطاليا المعاصرتين.

Sainte-Beuve, "*Le Cadinal de Retz*"

سان- بوف، "كاردينال دو ريتز" في محاضرات يوم الاثنين، المجلد الخامس، خصوصاً المقطع الذي يبدأ بـ "هذه الصفحات من المذكرات التي يجب أن تحمل عنوان: كيف يجب أن تبدأ الثورات". وقد يرغب القارئ المهتم بمتابعة ذلك بقراءة مذكرات دو ريتز، المتوافرة في طبعات كثيرة باللغة الفرنسية. وثمة نسخة إنكليزية في ايفريمانز لايبرري.

Burke, *Reflections on the Revolution in France.*

بورك، تأملات في الثورة في فرنسا.

هذا ليس عملاً محايداً غير أنه يحتوي على قدر كبير لا يمكن لأي باحث في الثورات إهماله. والأفضل دراسة آرائه السياسية في الكتاب التالي:

R. J. S. Hoffman and Paul Levack, eds., *Burke's Politics; Selected Writings and Speeches on Reform, Revolution, and War,* New York, 1949

هوفمان وليفاك، سياسات بورك، كتابات وخطب مختارة في الإصلاح، الثورة، والحرب.

Bagehot, *Physics and Politics.*

باغيهوت، الفيزياء والسياسات.

يطرح هذا الكتاب مع كتاب مين: القانون القديم Maine's Ancient Law وجهة نظر عن التحول الاجتماعي الذي ينفي إمكانية تحقيق إصلاحات واسعة النطاق عن طريق الثورة. ومثل كتاب بورك، الذي يكمله ويوضحه المؤلفان، يجب فهمهما قبل المضي بعيداً في الدراسة الموضوعية للثورات.

Pareto, *The Mind and Society.*

باريتو، العقل والمجتمع.

هذه دراسة لعلم الاجتماع العام وكل أجزائه وثيقة الصلة بأغراضنا في هذا الكتاب. يتناول الفصلان التاسع والعاشر خصوصاً مشكلة الاستقرار وعدم الاستقرار الاجتماعي، إلا أنها صعبة الفهم بدون الرجوع إلى بقية الكتاب. وستساعد الدراسة الدقيقة التالية:

L. J. Henderson, *Pareto's General Sociology: A Physiologist's Interpretation,* Cambridge, Mass., 1935

في التغلب على هذه المشكلة. نورد باريتو هنا لأنه يلخص ويوضح ويرمز الآراء عن الثورة المتضمنة في هذا القسم من الملحق الببليوغرافي. إن كل هذه الآراء - لا يصفها "المضاد للمثقفين" ولا "المحافظون" على نحو مناسب - ملعونة لدى معظم الماركسيين و "الليبراليين" في أميركا حالياً. غير أن من

يؤمنون بها طويلاً وبقوة لم يكونوا حمقى وأوغاداً بحيث أن أقل ما يمكن أن يفعله الليبرالي هو تمحيص تلك الآراء.

Le Play, *L'organisation de la famille; also the volumes of Les ouvriers européens.*

لو بالاي، مؤسسة الأسرة. كذلك أجزاء العمال الأوربيين.

يستحق لو بلاي ومدرسته اهتماماً للسبب نفسه لاهتمامنا ببوليبيوس. درس لو بلاي الأسرة بعناية بالغة وتوصل إلى استنتاجات معينة عن استمرار مشاعر وأعمال معينة بين البشر التي لا يمكن لباحث في التغير الاجتماعي إهمالها.

William Graham Sumner, *Folkways.*

سومنر، العادات الاجتماعية التقليدية.

ثمة طبعة مع مقدمة وضعها دبليو. ل. فيلبس (بوسطن، 1940). أصبح سومنر، الذي صاغ المصطلح، "رجلاً منسياً" في بعض أوساط المثقفين،. وهذه الدراسة القيمة لأسلوب تصرف الناس فعلاً في مجموعات من المؤلفات الرائدة في مناهضة النزعة التعقلية الحديثة.

F. S. Oliver, *The Endless Adventure.*

أوليفر، المغامرة المتصلة.

كان أوليفر إنكليزياً محافظ التفكير كتب في هذا المجلد عن روبرت والبول، أحد أقل رجال الدول ثورية. مرة أخرى هو مفيد لنا لأننا إن لم نفهم الاستقرار الاجتماعي لا يمكننا أن نأمل فهم عدم الاستقرار الاجتماعي. إن والبول نفسه مثال كامل للإنسان المناسب للإبقاء على مجتمع قديم مثلما لينين لائق لتوجيه المجتمع الجديد.

E. H. Erikson, *Young Man Luther.* New York, 1958.

أريكسن، لوثر الشاب.

E. Fromm, *Escape from Freedom.* New York, 1941.

فروم، الهرب من الحرية.

D. Riesman, *The Lonely Crowd.* New Haven, 1050.

ريسمان، الحشد المنعزل.

يشك معظم المؤلفين أعلاه في القوة السحرية للكلمة وعقل الإنسان. إنهم في معنى ما مناهضون للمثقفين. المثقفون هم الذين يصنعون الثورات، في الأقل في البداية. ومن يريد أن يتابع هذا المفتاح أبعد من ذلك يمكنه ملاحظة تأثير هذا العداء للتعقلية (التي لا تنتهي بالضرورة بالاستبداد) في كتب حديثة من مثل الكتب التالية:

Bertrand de Jouvenel, *On Power,* New York, 1948;

دو جوفنيل، في القوة.

A. H. Leighton, *The Governing of Men,* Princeton, 1945;

ليتون، حكم البشر.

Richard Humphrey, *Georges Sorel,* Cambridge, Mass., 1951.

ريتشارد همفري، جورج سوريل.

أنظر كذلك:

Crane Brinton, *Ideas and Men, 2nd ed.,* New York, 1963, chapters 13 and 14, and bibliography, pp. 440-441.

برينتن، أفكار ورجال.

3- الماركسيون

لا يوجد هنالك شك أن ماركس وأتباعه قد قدموا مساهمات كبرى إلى فهمنا الثورات - مساهمات تكاد تكون كبرى من مثل المساهمات التي قدموها إلى صنع الثورات. إلا أننا لا يمكن أن نعد حتى أفضل الكتابات الماركسية نهجاً مرضياً تماماً نحو الدراسة العلمية للثورات. الفكر الماركسي مزيج من الملاحظات المفيدة والموضوعية حقاً والموضوعة في إطار على نحو مناسب بوصفها حالات تماثل، ومن تنبؤات وعظات أخلاقية وتأمل لاهوتي وفلسفي،

وعناصر أخرى يمكننا تسميتها عمَوماً بالدعاية. ينتمي مفهوم الصراع الطبقي، على سبيل المثال، إلى النوع الأول. إنه بحد ذاته فكرة مثمرة أثرت علم الاجتماع، على الرغم من المبالغات والتبسيطات التي طبقها ماركسيون كثيرون. وتنتمي فكرة دكتاتورية البروليتاريا في معنى ما إلى كلا النوعين. إنها، خصوصاً في الشكل الذي أعطاه لينين، مؤشر مفيد في دراسة الثورات الماضية والحالية، إلا أنها كذلك في أيدي الرأسماليين مثال أعلى، هدف، نبوءة. أخيراً، تكاد أفكار المجتمع الطبقي واضمحلال الدولة تكون لاهوتية تماماً أو، على نحو أدق، متصلة بعلم الآخرة.

إن فك التعقيد، في أي عمل ألفه ماركسي، بين ما يمكن أن ندعوه عناصر علمية وبين ما يمكن أن نسميها عناصر أخلاقية، برغبة مساوية لاستخدام كلمات طيبة وليست سيئة، عملية صعبة تقريباً شأنها شأن أية عملية مشابهة تطبق على عمل الاقتصاديين الكلاسيكيين. وفي كل حالة يجب أن يتم ذلك على نحو منفصل. لا نحتاج هنا إلى الحذر من بعض الأشكال الأكثر تحديداً التي يمكن فيها أن تشوه الحماسة الأخلاقية والنوايا الطيبة الماركسية عمل العلماء.

أولاً، ثمة حماسة صرف، تأليف يقصد به بوضوح الموالون، كتابات هي من شكلها نوع من الموسيقى المرتجلة. ثم هنالك الكتابة الهادفة إلى تحقيق هدف ثوري معين، الكتابة التي تهدف على نحو وثيق إلى العمل، الكتابة التي لا يقصد بها المؤلف أن تكون منفصلة وموضوعية. ثمة تطبيق مبسط أكثر من اللازم لمعادلات ورواسم (كليشيهات) في حالات معينة. يتسم الكثير من هذه الكتابات بالإخلاص والجد ويعتقد المؤلفون حقاً أنهم يطبقون طرقاً علمية على المشاكل السوسيولوجية. إن التطبيق الضيق للتفسير الاقتصادي للتاريخ مثال كثير التكرار لهذا النوع من الأمور. ويفسر الماركسيون الأكثر براءة كل العمل البشري بوصفه عقلانياً، إن لم يكن واعياً دائماً، وحتماً غير حر أبداً، تطبيق المصالح الاقتصادية على حالة محددة. ولا بد من القول إنصافاً لماركس وأنجلز وأتباعهما المهمين إنهم ليسوا أنفسهم مذنبين بوضع هذا التبسيط غير الواقعي.

أخيراً، يسبب الإرباك للتأليف الماركسي الحالي عدد من الطوائف التي نشأت ضمن الحركة، كل واحدة منها تدعي أنها صحيحة. ويمكن القول عن الطائفة التي يمكنها ادعاء الصحة على نحو فعلي والتي تتولى السلطة في روسيا اليوم .إنها تمثل نوعاً من تشدد في المذهب وتثبيتاً للنظرية في العقيدة يمكن أن يسمح في المدى البعيد بقدر من العقل الفعلي غير المتحيز والتجارب أكبر مما هو ممكن حالياً. وفي الوقت نفسه أصبحت الماركسية الرسمية في روسيا السوفياتيّة وحلفائها والمتعاطفين معها قوة محافظة وراسخة.

ثمة أدبيات كثيرة للغاية ولا ننوي أن نورد أدناه سوى عدد قليل من المناقشات الأولية للماركسية وبعض المؤلفات الأهم لرجال عظماء في هذا التقليد. وقد تعمدنا، قدر الإمكان، اختيار مؤلفات المناقشة المتماسكة للثورات الفعلية فيها أهم من النظرية الصرف.

I. Berlin, *Karl Marx: His Life and Environment*. 2nd ed. Oxford, 1948.

برلين، كارل ماركس: حياته وبيئته.

كتاب ممتاز في تناوله حياة ماركس وأفكاره.

M. M. Bober, *Karl Marx's Interpretation of History*. Revised edition. Cambridge, Mass., 1948.

بوبر، تفسير كارل ماركس للتاريخ.

M. H. Dobb, *Studies in the Development of Capitalism*. London, 1964

دوب، دراسات في تطور الرأسمالية.

تحليل ماركسي نموذجي متقدم ودقيق للتاريخ الاقتصادي الحديث المبكر.

Max Eastman, *Marx and Lenin: The Science of Revolution*. New York, 1927

إيستمان، ماركس ولينين: علم الثورة.

Karl Federn, The Materialist Conception of History. London, 1939.

فيدرن، التفسير المادي للتاريخ.

H. J. Laski, *Communism*. New York, 1927.

لاسكي، الشيوعية.

A. D. Lindsay, Karl Marx's Capital: An Introductory Essay. New edition. Oxford, 1937.

ليندسي، رأس المال لكارل ماركس: مقالة تمهيدية.

Vilfredo Pareto, *Les systèmes socialistes*. 2 vols. Paris, 1902-03.

باريتو، النظم الاشتراكية.

J. A. Schumpeter, *Capitalism, Socialism, and Democracy*. 3rd edition. New York, 1950.

شومبيتر، الرأسمالية، الاشتراكية، والديمقراطية

هذا الكتاب ينتمي حقاً إلى عنوان "حكمة العصور". كان شومبيتر من الاقتصاديين القليلين الذين نشأوا في التقليد "الكلاسيكي" وكان في وسعه دراسة الماركسية على نحو مستمر ومعقول.

P. M. Sweezy, *The Theory of Capitalist Development: Principles of Marxian Political Economy*. New York, 1942.

سويزي، نظرية التطور الرأسمالي: مبادئ الاقتصاد السياسي الماركسي.

تحليل متوازن على نحو مثير للإعجاب لماركسي أميركي قدير جداً.

E. Wilson, *To the Finland Station*. New York, 1953. An Anchor paperback.

ويلسن، إلى محطة فنلندا.

وصف متعاطف للاشتراكية الماركسية والاشتراكيات الأخرى منذ عام 1790.

(E. Burns), *A Handbook of Marxism*. New York, 1935.

بيرنز، دليل الماركسية.

هذا واحد من أكثر المؤلفات فائدة من المجموعات المختلفة من مؤلفات

الماركسيين الكبار. يضم بعض أهم كتابات ماركس، أنجلز، لينين، وستالين. ويمكن أن يضاف إليه الكتاب التالي:

L. S. Feuer, ed., *Marx and Engels,* Basic Writings and Politics and Philosophy. New York, 1959. An Anchor paperback

فوير، ماركس وأنجلز، المؤلفات الأساسية والسياسات والفلسفة.

Karl Marx and Friedrich Engels, *The Communist Manifesto*. Edited by D. Ryazanoff. London, 1930.

كارل ماركس وفريديرك أنجلز، البيان الشيوعي.

توسع الملاحظات الكثيرة في هذا المجلد الكبير البيان الأصلي القصير إلى تعليق نقدي على الماركسية.

نقترح الكتب التالية عن ماركس مع إهمال رأس المال تماماً:

The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte; Revolution and Counter-Revolution; or Germany in 1848; Civil War in France (sometimes called the Paris Commune); and the Poverty of Philosophy.

ونقترح الكتب التالية عن لينين:

Imperialism; The State and Revolution.

ويوجد كلا الكتابين في مجلد واحد أصدرته مطبعة فانغارد، نيويورك، 1926.

ونقترح الكتاب التالي عن ستالين: Joseph Stalin, *Leninism*. London, 1940

مجموعة من مؤلفات ستالين بما فيها الموجز المشهور ويضم عينات مناسبة.

The Foundations of Leninism.

4- علم اجتماع الثورات

يحتوي القسم التالي على قائمة مختارة من الكتب الحديثة عن الثورات عموماً. إن هذه المؤلفات متنوعة للغاية حقاً. وبعض الكتب الواردة أدناه دراسات دقيقة لعلماء اجتماع مدربين والبعض منها من تأليف أشخاص ذوي أطوار شاذة وبعضها وفقاً للتقليد الماركسي في هذا القسم وليس القسم السابق بسبب اهتمامها المباشر بعلم اجتماع الثورات. وقد اضطررنا للتحديد نوعاً ما في تفسيراتنا الموضوع. ويمكن تصنيف كل كتاب يصدر حالياً عن المشاكل الاجتماعية والسياسية بوصفه يتعامل مع سوسيولوجيا الثورات. وإذا قمنا باختيار مجموعة عشوائية من الشخصيات المشهورة تتناول معظم المؤلفات المهمة لكتاب من مثل سبنغلر وويلز وأورتيغا إي كاسيت وماكس ويبر وتوني ومانهايم وتوينبي وحنّة أرندت مسألة الثورات والتحول الاجتماعي. غير أنه لا طائل في قائمة بيليوغرافية شاملة من هذا القبيل. لذا فقد اخترنا كتباً عامة عن موضوع الدراسة المقارنة للثورة. وسيجد القارئ الذي يرغب في الحصول على دليل أولي في موضوع التحول الاجتماعي الواسع في التاريخ قائمة مختارة في المرجعين التاليين:

"Selective Reading List" by Ronald Thompson in *Bulletin 54* of the Social Science Research Council, *Theory and Practice in Historical Study,* New York 1946.

رونالد تومسن، "قائمة مراجع مختارة" في العدد 54 من مجلة مركز بحوث العلوم الاجتماعية

Part III of L. Gottschalk, ed., Generalization in the Writing of History. Chicago, 1963.

الجزء الثالث من كتاب غوتشوك (المحرر)، التعميم في كتابة التاريخ. وقد حدث مارتين كلاين هذه القائمة.

Brooks Adams, *The Theory of Social Revolutions*. New York, 1913.

بروكس، نظرية الثورات الاجتماعية.

من أقدم التنبؤات بتدهور الغرب ويجب أن يقرأ مع كتاب جورج سول أدناه.

H. Arendt, *On Revolution*. New York, 1963.

أرندت ، في الثورة

يتناول الكتاب الثورتين الأميركية والفرنسية. إنه مشحون بالعواطف وفكري وحافل باليأس الوجودي وبعيد للغاية عن النهج المطبق في كتاب تشريح الثورة.

Arthur Bauer, *Essai sur les révolutions*. Paris, 1908.

باور، مقالة في الثورات.

يتناول المشكلة من ناحية علم نفس الفرد ونشاطه في الجماهير. يتبع الكتاب مخطط مفاهيم للثورات المثيرة للاهتمام باعتبارها ظاهرة عامة.

C. E. Black and T. P. Thornton, ed., *Communism and Revolution: the Strategic Uses of Political Violence*. Princeton, 1964.

بلاك وتورنتن (المحرران) الشيوعية والثورة: الاستخدامات الاستراتيجية للعنف السياسي.

دراسات مقارنة مهمة للأساليب الشيوعية تسبقها مقالة تعريفية قصيرة عن ثورات "التحديث" الحالية أو "التوقعات الصاعدة".

Wulf Bley, ed., *Revolutionen der Weltgeschichte; Zwei Jahrtaunsende Revolutionen und Burgerkriege*. Munic, 1933.

بلي، ثورات تاريخ العالم، ألفا سنة من الثورات والحروب الأهلية.

مؤلف تعاوني يستهدف تجارة الكتب الألمانية القديمة الطراز إلا أنه يستحق اهتمام الطالب بالنظر لوجود نحو ألف رسم مستمدة من مصادر معاصرة. يؤكد الكتاب عموماً على فظائع الثورات.

Jean de Boissoudy, *Le phénomène révolution*. Paris, 1940.

جان دو بواسودي، ظاهرة الثورة.

Carl Brinkman, *Soziologische Theorie der Revolution*. Gottingen, 1948.

برينكمان، النظرية السوسيولوجية للثورة.

مقالة معتدلة قصيرة لعالم اجتماع ألماني مثقف خصوصاً في التقليد الغربي.

C. D. Burns, *The Principles of Revolution*. London, 1920.

بيرنز، مبادئ الثورة.

D. W. Brogan, *The Price of Revolution*. London, 1951.

بروغان، ثمن الثورة.

مقالة محفزة خصوصاً لمن يؤمنون بمباده جيفرسن.

E. H. Carr, *Studies in Revolution*. London, 1950.

كار، دراسات في الثورة.

يتضمن الكتاب كل فضائل كار في الغرض التقريري إلا أنه تعقلي intellectualist

R. Dahrendorf, *Class and Class Conflict in Industrial Societies*. Stanford, 1961.

داريندورف، الطبقة والصراع الطبقي في المجتمعات الصناعية.

ترجمه ووسعه المؤلف من الأصل الألماني. دراسة مهمة في "الصراع" وهو الحقيقة الأساسية في الثورات.

J. C. Davies, "Towards a Theory of Revolution," *American Sociological Review*. Vol. 27 (1962) pp. 5-19. Reprinted in H. L. Ross, *Perspectives on the Social Order*. New York, 1963, pp. 437-450.

ديفيز، "نحو نظرية للثورة"، في المجلة السوسيولوجية الأميركية.

مساهمة مهمة.

Lawrence Dennis, *The Dynamics of War and Revolution*. New York, 1940.

دنيس، ديناميكيات الحرب والثورة.

هذا الكتاب هجوم أميركي فاشستي على العالم متحيز للغاية. إلا أنه نتاج مثير للاهتمام لعقل أحد المتطرفين.

Harry Eckstein, "On the Etiology of Internal Wars," *History and Theory,* IV, 2 (1965), pp. 133-63.

ايكستاين، "في علم أسباب الحروب الداخلية"، في مجلة التاريخ والنظرية.

بحث محفز للتفكير ومهم.

Editors of Fortune, *USA: The Permanent Revolution.* New York, 1951.

محررو مجلة فورتشن، الولايات المتحدة الأميركية: الثورة الدائمة.

لا ينتمي هذا الكتاب تماماً إلى هذا القسم. إنه لا يتناول سوسيولوجيا الثورة، إلا أن استخدام المحررين الكلمة مثير للاهتمام ومهم إذا شئنا فهم المعاني الدقيقة لكلمة "ثورة" في أميركا حالياً.

L. P. Edwards, *The Natural History of Revolution.* Chicago, 1927.

أدواردز، تاريخ الثورة الطبيعي.

بسيط ، موح، وتجريبي. من أفضل الكتب المتوافرة في اللغة الإنكليزية. لا يتظاهر أدواردز أنه يفعل أكثر من تخطيط المشاكل الجوهرية والإشارة إلى المزيد من العمل الممكن. حر على نحو مثير للإعجاب من التبرير الخاص.

Elizabeth Eisenstein, *First Professional Revolutionist: Filippo Michele Buonarroti.* Cambrdige, Mass., 1959.

آيزنستاين، الثوري المحترف الأول: فيليبو ميشيل بوناروتي.

دراسة جيدة للغاية لثوري أوروبي محترف في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

Charles A. Ellwood, "A Psychological Theory of Revolutions," *American Journal of Sociology,* XI July, 1955).

ايلوود، "نظرية نفسيّة للثورات"، المجلة الأميركية لعلم الاجتماع.
أعيد التعبير عن هذا التفسير النفسي المثير للاهتمام في كتب عامة عديدة لايلوود في علم الاجتماع مثلاً:

The Psychology of Human Society (New York, 1925) and *Sociology: Principles and Problems* (New York and Cicinati, 1943).

علم نفس المجتمع البشري وعلم الاجتماع: المبادئ والمشاكل.

Guglielmo Ferrero, *The Principles of Power*. New York, 1942.

فيريرو، مبادئ السلطة.
المجلد الثالث في ثلاثية - الجزءان الآخران عن نابليون وتاليران يكملان دراسة في حقبة الثورة الفرنسية - يهدف إلى وضع تعميمات رئيسية عن البشر في المجتمع. يعاني المجلد من تردد فيريرو في الاعتراف أن الجميع تناولوا دراسة الثورة كما يفعل هو، إلا أنه كتاب ممتع.

Theodor, Geiger, *Die Masse und ihre Aktion: Ein Beitrag zur Soziologie der Revolutionen*. Stuttgart, 1926.

غايغر، الجماهير وعملها: مساهمة علم اجتماع الثورة.
دراسة نفسية مع أصداء ماركسية. غامض بعض الشيء لغير الألماني.

Karl Griewank, *Der neuzeitliche Revolutionsbegriff*. Weiman, 1955.

غريفانك، المفهوم الثوري الحديث.
دراسة موحية لتوسع مفهوم الثورة منذ القرن الخامس عشر.

Robert Hunter, Revolution: *Why, How, When? New York,* 1940.

هنتر، الثورة، لماذا، كيف، متى؟
بحث متواضع ولو أنه موح لكاتب اجتماعي متمرس.

Eric Hoffer, *The True Believer: Thoughts on the Nature of Mass Movements*. New York, 1951. A Mentor paperback.

هوفر، المؤتمن الحقيقي: أفكار في طبيعة الحركات الجماهيرية.

كتاب صغير بلغة غير طنانة وبرزانة أكثر من العديد من الدراسات السوسيولوجية. كما أنه يتسم أساساً بالتشكيك والواقعية وحتى الماكيافيلية.

H. M. Hyndman, *The Evolution of Revolution*. London, 1920.

هايندمان، تطور الثورة.

ألفه أحد رواد الاشتراكية الماركسية في إنكلترا. لا يتصف حالياً بإلقاء الأضواء على الموضوع.

Gustav Le Bon, *The Psychology of Revolution*. English translation. New York, 1913.

لو بون، سايكولوجية الثورة.

تراجعت كثيراً سمعة لو بون كعالم نفس اجتماعي. هذا كتاب وضعه مناهض خائف للتعقليين.

Arthur Liebert, *Vom Geist der Revolution*. Berlin, 1919.

ليبرت، في روح الثورة.

مناقشة موجزة في الأصول العقلية والعاطفية للثورة، وتحليل لفترة الأزمة.

J. J. Maguire, *The Philosophy of Modern Revolution*. Washington, 1943.

مغواير، فلسفة الثورة الحديثة.

عرض واضح من وجهة نظر باحث كاثوليكي مدرب.

Curzio Malaparte, *Coup d'état, the Technique of Revolution*. English translation. New York, 1932.

مالابارت، الانقلاب، أسلوب الثورة.

مثقف فاشستي إيطالي شاب ذكي على نحو مثير للإزعاج يكتب عن الطريقة الوحيدة للقيام بالثورة. محدود ومثالي، على نحو سلبي، مثل أي تأليف ماركسي.

E. D. Martin, *Farewell to Revolution*. New York, 1935.

مارتين، وداعاً للثورة.

كاتب قدير وعاقل في المشاكل السياسية والاجتماعية سمح هنا لمخاوفه بجعله يؤلف كتاباً سيئاً. كما يشير اختيار مارتين العنوان، الكتاب ضد الثورات من كل الأنواع. جمع مادة الكتاب على عجل من مصادر ناقصة. الكتاب سيء بالمقارنة مع كتاب أدوارد أعلاه.

Alfred Mensel, "Revolution and Counter-revolution" *Encyclopedia of the Social Sciences,* XIII, pp. 367-376. New York, 1934.

مينسل، "الثورة والثورة المضادة" موسوعة العلوم الاجتماعية.

بحث موجز مع قائمة بيليوغرافية مختارة جيدة.

Barrington Moore, Jr., *Agrarian Origins of Dictatorship and Democracy: Lord and Peasant in Reform and Revolution.*

مور، الأصول الزراعية للدكتاتورية والديمقراطية: الإقطاعي والفلاح في الإصلاح والثورة.

هذه الدراسة في التاريخ المقارن (أو علم الاجتماع) تصحيح مهم للمبالغة الحديثة التقليدية على دور النزعة الصناعية في التحول الاجتماعي الحديث.

Max Nomad, *Dreamers, Dynamiters, and Demagogues.* New York, 1964.

نوماد، الحالمون، مفجرو الديناميت، والدهماء.

أحدث كتاب في سلسلة كتب عن الثورات والثورة ألفه متمرد حكيم ومتمرس.

W. M. F. Petrie, *The Revolutions of Civilization.* 3rd edition. New York, 1922.

بيتري، ثورات الحضارة.

تأليف عالم المصريات البارز. لا ينتمي حقاً إلى هذه القائمة إلا أنه هنا لتذكير القارئ بالمدى الواسع لمعنى الثورة - حتى ضمن التاريخ.

G. S. Pettee, *The Process of Revolution*. New York, 1938.

بيتي، عملية الثورة.

دراسة دقيقة مقارنة للثورات الحديثة الرئيسية لا تدعو أبداً إلى التعميمات الفلسفية الكبرى.

Leon de Poncins, *Les Forces secréted de la révolution*. Paris, 1929.

ليون دو بونسان، القوى السرية للثورة.

مثال جيد من نوع المؤلفات التي تنسب الثورات الحديثة إلى متآمرين أشرار - في هذه الحالة اليهود والماسونيون. أنظر كذلك: Mrs. Nesta H. Webster و

R. W. Postgate, *How to Make a Revolution*. New York, 1934.

بوستغيت، كيف تصنع ثورة.

يكتب يساري إنكليزي وشيوعي سابق انضم مؤخراً إلى حزب العمال على نحو كئيب عن إمكانيات نشوب ثورة محترمة في الدول الغربية. ثمة قدر كبير من المناقشة المفيدة في أساليب الأحزاب الثورية الحديثة إلى اليسار مع لمسات من الفكاهة الإنكليزية.

R. W. Postgate, *Revolution from 1789 to 1906*. London, 1920.

بوستغيت، الثورة من ١٧٨٩ حتى 1906.

جمع بوستغيت في هذا الكتاب مجموعة ملائمة من الدساتير، لوائح الحقوق، البيانات، والوثائق المشابهة التي تتعلق بالحركات الثورية المهمة في الفترة المذكورة.

S. A. Reeve, *The Natural Laws of Social Convulsion*. New York, 1933.

ريف، القوانين الطبيعية للارتجاج الاجتماعي.

محاولة طموحة للغاية لتطبيق طرق العلوم الفيزيائية على الموضوع. ريف ليس متشككاً على نحو كاف ليكون عالماً. ويمزج خمسة وأربعين قانوناً "طبيعياً" أو "كونياً" وليس القانون الخامس والستون مثالاً غير منصف: "يفضل الإنسان الموت ولو في عذاب نفسي على التفكير". نتاج شخص

عقائدي على حافة الجنون ومتأثر جداً بموقف أشخاص من مثل هيربرت سبينسر ويتضمن قدراً كبيراً من المادة المفيدة.

Eugen Rosenstock-Hussy, *Out of Revolution: Autobiography of Western Man*. New York, 1938.

روزنستوك - هوسي، خارج الثورة: السيرة الذاتية لرجل غربي.

وضع المؤلف هذا الكتاب في ما يراه الأميركي عالم الأوهام من الأفكار الجميلة وغير الدقيقة واختار فيه حقائق ملائمة ورفض حقائق غير ملائمة مقلداً سبينغلر ولكن مع الآمال المؤاتية لشخص حسن النية. الكتاب مليء بالاقتراحات والآراء بأسلوب شعري إلى نثري.

S. D. Schmalhausen, ed., *Recovery Through Revolution*. New York, 1933.

شمالهاوسين (المحرر)، الإنقاذ من خلال الثورة.

يتضمن فصولاً ألفها لويس فيشر، هارولد لاسكي، كارلتن بيلز، روبرت بريفو، غيتانو سالفميني وآخرون. كما يتضمن أوصافاً سردية سريعة للميادين الرئيسية للنشاط الثوري منذ الحرب - ألمانيا، روسيا، الصين، أميركا الجنوبية، إيطاليا، وإسبانيا.

H. E. See, *Évolution et Révolutions*. Paris, 1929.

سي، التطور والثورات.

تمحيص عادي للثورات الإنكليزية والفرنسية والأميركية وثورات القرن التاسع عشر والثورة الروسية. قوائم ببليوغرافية موجزة وممتازة للثورات التي يناقشها الكتاب.

A. M. Sievers, *Revolution, Evolution and the Economic Order*. Englewood Cliffs, N. J. , 1962. A Spectrum paperback.

سيفرس، الثورة، التطور والنظام الاقتصادي.

يتناول المؤلف الثورة الاقتصادية الراهنة في الولايات المتحدة. قارن مع المرجع التالي في قسم سوسيولوجيا الثورات:

Editors of Fortune, *USA: The Permanent Revolution*

في منظور كتابات كين، شومبيتر، غالبريث، هانسن، وكلارك ويستنتج أن هذه الثورة لم تنته بعد.

P. A. Sorokin, *Social and Cultural Dynamics*. Vol. III, *Fluctuation of Social Relationships, War, and Revolution*. New York, 1937.

سوروكين، الديناميكية الاجتماعية والثقافية.

يمثل موقف سوروكين العام كراهية عاطفية للعالم المعاصر الذي يعتقد أنه على وشك الشروع بسلسلة من الحروب والثورات أسوأ مما اضطر الجنس البشري إلى تحمله حتى الآن. يتضمن المجلد الثالث مجموعة مهمة من الإحصاءات التي تبين أن الثورات كانت عموماً متوطنة في الحضارة الغربية. ربما كان في الإمكان التوصل إلى هذه الاستنتاجات بدون كل هذه الإحصاءات، التي لا يعتمد عليها تماماً. إنها تميل إلى المبالغة في حجم العنف وسفك الدماء منذ عام 1900. أنظر Tilly and Rule أدناه.

George Soule, *The Coming American Revolution*. New York, 1934.

سول، الثورة الأميركية القادمة.

Charles Tilly and James Rule, *Measuring Political Upheaval. Princeton, Center of International Studies.*

تيلي ورول، قياس الاضطراب السياسي.

دراسة مهمة مع ببليوغرافيا حديثة.

Charles Tilly, "Reflections on the Revolutions of Paris," *Social Problems*, XII (1964).

تيلي، "تأملات في ثورات باريس" في مجلة المشاكل الاجتماعية، 12.

مقالة عرض كتاب حديث.

Arnold J. Toynbee, *America and the World Revolution, and Other Lectures*. Oxford, 1962.

توينبي، أميركا والثورة العالمية ومحاضرات أخرى.
يحث الولايات المتحدة على تولي دور فعال في "الثورة من أجل العدل الاجتماعي" في أرجاء العالم.

Wallace, "Revitalization Movements," *American Anthropologist* Vol. 58, April, 1956.

والاس، "حركات التجديد"، في مجلة عالم الإنسان الأميركية.
بحث عميق ومعتدل ألفه أحد "الليبراليين" الأمريكيين الأكثر اعتدالاً. يتناول البحث المواضيع العامة للثورات على نحو أوسع كثيراً مما يشير العنوان.

Nesta, H. Webster, *Secret Societies and Subversive Movements*. London, 1924.

ويبستر، الجمعيات السرية والحركات التخريبية.
عينة من الضروري اقتناؤها. تؤمن السيدة وبستر بقوة بنظرية المؤامرة في الثورة.

Colin Wilson, *The Outsider*. Boston, 1958.

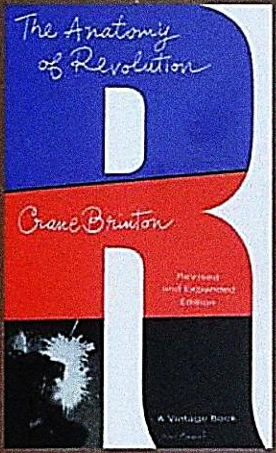
ولسن، اللامنتمي.
كتاب مهم في دراسة نفور المثقفين في العالم الغربي الحديث. يعد في معنى ما من أعراض هذا النفور.

Harry Eckstein, *Internal War*, New York, 1964.

ايكستاين، الحرب الداخلية.
كتاب واسع المدى.

D. H. Pinkney, "The Crowd in the French Revolution of 1830," *American Historical Review*, LXX, p. 1-17)1964).

بينكني، "الجماهير في الثورة الفرنسية عام 1830" في المجلة التاريخية الأميركية 70.
أدلة جديدة على ثورة مهملة.



كتب كرين برينتن *«تشريح الثورة»* عام 1938 وأعيد طبعه عام 1956، ووسعه برينتن عام 1964. يحلل مؤلف الكتاب ميول مجتمع يسبق ثورة كبرى، وهو يرى أنه يجمع بين التوترات الاجتماعية والسياسية بسبب التدهور التدريجي لقيم المجتمع. إن فكرته عن الثورة هي أنها عملية قلب السلطة مما يؤدي إلى تولي المتطرفين السلطة ثم تهدأ الأمور. وقد شبه الثورة بحمى ترتفع بسبب شكاوى أفراد شعب ما. ومن أعراض هذه الحمى انهيار هيكل السلطة. تستعر الحمى ثم يصبح واضحاً أن الناس لا يتحملون تلك الحمى وتحل سلطة أفضل محل هذا الاهتياج ويصبح الشعب أسعد. إن فكرة برينتن عن الثورة هي أنها في الحقيقة جدول معين للأحداث التي يفترض أنها تحدث. إنها تظهر التغيير والحمى وحسم الثورة. ويرى برينتن أن الثورة عبارة عن عملية وأنه لا يحدث تغيير جوهري من مرحلة ما قبل الثورة إلى مرحلة ما بعد الثورة. غير أن نظرية برينتن استندت إلى الثورة قبل عام 1945.

يُعدّ *«تشريح الثورة»* أفضل وأشهر كتب المؤرخ والأكاديمي الأميركي كرين برينتن، الذي حاول في هذا الكتاب تأسيس نمط تتبعه معظم الثورات. وقد جمع المعلومات من أربع ثورات كبرى: الثورة الأمريكية، الثورة الفرنسية، الثورة الروسية (أو الثورة البلشفية) والحرب الأهلية في إنكلترا.

ISBN 978-9933-407-05-6
9 789933 407056

الفارابي

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة